"مبنية على أحداث حقيقية من حياة المؤلفة في المنفى ثم عودتها إلى البرازيل"

فريق
متميزون
E-BOOK

عائدة إلى الشمس

آنا ماريا ماتشادو

ترجمة: يمنى خالد شيرازي

روايات مترجمة

العربي للنشر والتوزيع

مكتبة فريق (متميزون)
لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية
قام بالتحويل لهذا الكتاب:

كلمه مهمة: هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.

وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات: فريق (متميزون) انضم الى الجروب

انضم الى القناة

عائدة إلى الشمس

رواية مترجمة..
"مبنية على أحداث حقيقية من حياة المؤلفة في المنفى ثم عودتها إلى البرازيل"

آنا ماريا ماتشادو
ترجمة: يمنى خالد شيرازي

1

"علمتني الشمس أن الحياة صديقة للفن".

كايتانو فيلوسو

ꝏ ꝏ ꝏ ꝏ ꝏ

كان المنزل راسخًا وتغمره الشمس، ونوافذه مفتوحة للرياح. امتلأت شرفاته بالأرجوحات الشبكية مُرحِّبة وكأنها طير فرد جناحيه ليحمي فراخه الصغيرة من المطر. لطالما تذكرت تلك المرأة كل هذا عن منزلها، كما تذكرت أيضًا حفاوة أهل المنزل التي كانت دومًا مصدر إزعاج لها، إضافة إلى عدم احترامهم لخصوصية من كانوا يعيشون بالمنزل، ومع ذلك، فقد استمتعت وهي طفلة بكل ما أحدثه أولاد الخال أو العم والأصدقاء من ضجيج حين كانوا يجتمعون في الإجازات، وينامون في غرف مليئة بأسرة من طابقين، وأرجوحات شبكية، وسجاد كثير يغطي الأرض. على الرغم من أنها أحبت في مراهقتها أن تعود متأخرة إلى المنزل من الحفلات التي كانت تذهب إليها، وأن تستمع إلى الجميع يتهامسون في الظلام حتى الشروق كيلا يستيقظ الآباء أو الإخوة الصغار في الغرف الأخرى. أدركت في النهاية أن الثمن الذي دفعته مقابل ذلك كان شعورها دومًا بأنها بلا خصوصية. كان بالمنزل دومًا غرفه لأشخاص آخرين، ولكن لم توجد غرفة تخصها هي وحدها.

يا له من أمر غريب! أن تعود إلى المنزل بعد سنوات عديدة باحثة عن مكان تنتمي إليه. أو عن الهدوء. كانت على يقين دائم أنها ستجد مكانًا لها في المنزل ما دامت أمها تعيش فيه، وأنه سيتم عمل الترتيبات اللازمة لاستقبالها، ولكن الهدوء لم يكن جزءًا من هذه الترتيبات أبدًا.

مع كل ذلك، فقد عادت إليه دون تفكير. كان الأمر سهلًا، ولم يستغرق أكثر من مكالمة تليفونية، ورحلة طيران، ثم جولة بالسيارة مع أمها من المطار استغرقت خمس عشرة دقيقة. ها هي ابتعدت عن المدينة الكبيرة في أقل من ساعتين، وأصبحت البلدة الصغيرة مجرد نقطة على الخريطة. ستستطيع المرأة أخيرًا أن تستلقي تحت أشعة الشمس، وتريح قدميها كما تحب. لن يزاحمها أحد، ولن يتدخل أحد في عملية تعافي إصبعها المكسور. كان المنزل ثابتًا ومشمسًا كما تتذكره، ولكنه كان خاويًا في هذا الوقت من العام. لم تكن في إجازة، ولم يكن من المخطط أن تلهو أو تذهب إلى حفلات مثلما كانت تفعل في الماضي. كانت الآن مجرد امرأة مصابة تحتاج إلى أن تختبئ حتى تعالج جراحها بعيدًا عن أعين الآخرين.

كان بإمكانها التعافي في أي مكان في العالم. لم تمتلك أدنى فكرة عن السبب وراء اختيارها لهذا المنزل! ربما تحتاج إلى حضن أمها. ولكن من الغريب أنها لم تعرف كيف تطلب هذا منها، ولم تستطع أمها أيضًا أن تعطيها ما أرادته؛ ولكنها عادت عندما شعرت برغبة مفاجأة في أن تفعل ذلك. آمنت بأن لكل شيء سببًا، حتى إصبع قدمها المكسور، كان علامة لشيء ما. في اليوم الذي كُسِر فيه اتصلت بطبيبها النفسي بعد تضميده: - لن أستطيع أن آتي اليوم، لقد كُسر إصبع قدمي الكبير.

قال لها بنبرة سخرية خفيفة في صوته:

- لا مشكلة، يمكنك القدوم متى استطعتِ.

فردت عليه:

- لا تسخر مني، هذا ما حدث بالفعل، لقد كُسر بالفعل هذا الصباح.

سألها:

- هل يمكنني أن أخمن كيف حدث ذلك؟

كانت متأكدة من أنه سيذكر حادثة مشابهة للاثنتي عشرة حادثة التي أخبرها بها أصدقاؤها خلال الساعتين الأخيرتين، ولكنها وافقته قائلة: - بالطبع. حاول أن تخمن، ولكنني أشك في أنك ستعرف.

تذكرَت ما قاله لها طبيب العظام عندما رأى قدمها؛ كان الشرخ المعتاد الناتج عن اصطدام الإصبع بقدم السرير أو الأريكة. كانت الإصابة شائعة للغاية، ولا تشكل مصدر قلق على الإطلاق. كان كل ما عليها فعله هو أن تريح قدمها. لم يتطلب الأمر حتى أن تضع إصبعها في جبيرة. كانت الإصابة شائعة للغاية: انحناء إصبع القدم عند اصطدامه بالأثاث.

قال لها:

- اصطدمتِ بالحائط داخل منزلك.

أجابت مازحة:

- بالطبع، إنها مجرد شقة..

شعرت أنه فهم الأمر. تذكرت كيف حدث هذا؛ فقد رن جرس الهاتف فجأة، فنهضت مذهولة من على الأريكة، وركضت. ما زالت حتى الآن لا تعرف لماذا أو كيف أخطأت في تقدير عرض الباب المؤدي إلى الطرقة، مما أدى إلى ركلها الباب بكل ما أوتيت من قوة، فملأ صراخها المكان وتورم إصبعها وتحول لونه إلى الأرجواني.

لاحظت أن الصمت طال على الهاتف فسألت:

- كيف خمنت؟

فرد عليها:

- لم أخمن. أنا أعرفك.. تفعلين ذلك دائمًا. ولكن هذه المرة حدث الأمر بالضبط.

فردت عليه:

- كُفَّ عن مضايقتي. سأعاود الاتصال بك لاحقًا.

فقال لها:

- حسنًا. لا تقلقي. تعالي إلى الجلسة القادمة. أو أخبريني فقط إذا لم تستطيعي القدوم.

فكرت في الأمر كثيرًا، أكان الأمر واضحًا إلى هذا الحد؟ ربما كان تخمينه ضربة حظ، وربما كانت بالفعل شخصية متهورة تصطدم بحوائط منزلها، محاولة تخطي الحدود لتزيد من مساحة أرضية شقتها وتخرج عن المألوف، ولكن بطريقة متهورة وطائشة. ستفكر في هذا الأمر، ولكن لاحقًا.

حاولت الآن، وهي مستلقية على الأرض في ساحة المنزل، وقدمها مرفوعة على المقعد ذي الأرجل الطويلة، أن تفكر في ذلك الأمر، لكنها لم تستطع. ليس بالأمر الضروري الآن. لم تُرِد سوى أن تستمتع باللحظة الحالية التي تعيشها في ذلك المكان؛ أن تشعر بأشعة الشمس على بشرتها، تلك الأشعة الشافية لكل العلل. لم يكن عليها سوى أن تغلق عينيها وتشعر بالحرارة، هذا إذا ما سمحت لها الحشرات بذلك. لم يكن الناموس هو الحشرة المقصودة، بالعكس فلم تترك الرياح القوية الآتية من البحر مجالًا للناموس أن يقترب. ولكن كان النمل هو ما يعكر صفو اللحظة التي تعيشها. أزاحت بيديها النمل المتسلق على كتفيها، وعندما فتحت عينيها، رأت النمل الأحمر الصغير يحوم حول شعيراتها الذهبية على ذراعها. أزعجها الضوء، فغطت وجهها بقبعة من القش. الآن تحسَّن الوضع بالنسبة لها! رفعت رأسها قليلًا، فتسللت نقاط صغيرة من ضوء الشمس من بين فتحات القبعة، وداعبت أنسجة القش بشرة وجهها. تسربت إلى أنفها رائحة الطبيعة ممتزجة برائحة البحر التي سكنت كل شيء في المنزل. أدارت رأسها قليلًا لتراقب النمل.

كم كان غريبًا أن تجلس هنا في هذه المرحلة من حياتها لتتأمل الحشرات، أدركت مجددًا أنها كانت تفعل ذلك دومًا يومًا بعد يوم فيما مضى. تذكرت أن جدتها من ناحية أمها كانت تروي القصص في المساء وهي جالسة على هذا

الشاطئ نفسه قبل أن تصل إليهم الكهرباء. كانت جدتها تتأرجح حين تحكي ذهابًا وإيابًا على إحدى الأرجوحات الخشبية ذات الصرير. حكت لهم قصة "ميكي"، الصبي الذي كان يترك أي شيء يفعله ليراقب النمل. لم تتذكر أي شيء آخر عن القصة سوى أنها كانت قصتها المفضلة. كان يجب عليها أن تسأل أمها عمًّا إذا كانت تتذكر القصة، ولكن ليس الآن، ربما لاحقًا، عندما تقرر أن تدخل المنزل وتتحدث معها. لم ترد سوى أن تتأمل ما بالداخل أو ما بالخارج، أو ما تستطيع العين المجردة أن تراه فقط؛ مثل تلك الحشرات القادمة والذاهبة واحدة تلو الأخرى، تذهب إحداهما تقابل الأخرى، وتقفان. لطالما شعرَت أن للنمل لغته الخاصة، حتى قبل أن تقرأ كتاب الأطفال "مغامرات صاحبة الأنف الصغير" (reinações de narizinho) لـ"مونتيرو لوباتو" وأن تدخل عالم القصة الخيالي، وقبل أن تلتحق بالجامعة وتتعلم كيف درس العالِم "كارل فون فيتش" لغة النحل، وحتى قبل أن تسكن المنزل الجديد. تتذكر أنه في احتفال ما حين كانت في بيت جدتها القديم ارتدت زي النملة للسباحة بلبس تنكري في المحيط. كان زيها مغطى بأوراق الكستناء المثبَّتة في لباس السباحة الخاص بها. كان هذ اللباس الذي ارتدته بشغًا؛ فقد كان يصيبها بالحكة حين يجف، ويخدش فخذيها حين يكون مبلولًا. لم يكن نمل اليوم مسليًا كما كان النمل الآكل لأوراق الشجر أو النمل الناري. كان مجرد نمل عادي وممل يركض من العشب المروي مؤخرًا إلى الصخور، مارًّا في طريقه على رمال ساحة المنزل.

كيف للصخور أن تتغير هكذا؟! ظنت المرأة أنها تعرف كل شيء عن المنزل: شمسه، وصلابته، وتفرده، ولكنها تفاجأت بوجود حصى يطل من ثقوب الأسمنت المكسور بالسلالم المؤدية إلى إلى الشرفة. هذه الصخور هي ما جعل المنزل صامدًا هكذا. كانت تعلم بوجود هذه الصخور دائمًا حتى وإن لم تتذكرها. كانت أول ما رأت من المنزل حين كانت ساحة المنزل مجرد أرض قريبة من البحر ومزروعة بالذُّرَة. وقد تعجب الأطفال من وجودها؛ لكونها أشياء غريبة، ولكنها في الأصل كانت خطًّا من الشعاب المرجانية في حقل الذرة. فالحقيقة أن الصخور لم تكن صخورًا أو حتى أساسات، بل شعابًا مرجانية على أرض جافة جاء بها صيادٌ ما.

تُوفي جدها من ناحية الأب قبل هذه المدة بوقت قليل، ربما عامان سابقان. من الصعب تذكر ذلك، فدائمًا ما تختلط تلك الأمور في عقول الأطفال. ما تعرفه هو أنه مر وقت كافٍ للانتهاء من الجرد الخاص بالعقار، وأن البناء عليها قد بدأ. قرر أبوها وأمها أن يبدأا في البناء على الأرض التي تركها لهم الأجداد من ناحية الأم بالأموال القليلة التي تركها لهم الجد من ناحية الأب. كانت الأرض قريبة من منزلهم عند نهاية الشاطئ. كان المنزل الجديد مطلًا على البحر، وتجتاحه الرياح، وتحيط به مجموعة من أشجار الفلفل والكرز

البرازيلي. وتجمع الأشجار كان على وشك أن يغلق الطريق المؤدي إلى النبع الذي تلتقي فيه نساء القرية ليتبادلن الحديث الذي لا ينتهي وهن يغسلن الصحون، وينظفن الحلل، وينشرن الملابس على الصخور، أو يتمشين فقط ليملأن أباريقهن الفخارية بالماء العذب، ويحملنها في طريق العودة على رؤوسهن بقماش ملتف. لم يعجبها الأمر في البداية. شعرت بالقلق مما قد يحدث، فقالت: - سنقضي إجازاتنا هنا حين ينتهي بناء هذا المنزل؟

فرد عليها أبوها:

- نعم يا حبيبتي. نحن نبني بيتًا جيدًا ومريحًا. ويمكن أيضًا أن نعيش هنا عندما نكبر أنا وأمك.

ردَّت عليه:

- ولكن، ألن نقضي الإجازة في بيت جدتي؟ هل سنبقى وحيدين هنا في هذا المنزل، وبعيدين عن كل الناس؟

فردَّ أبوها:

- لسنا وحيدين، نحن كثيرون. وكل عَمٍّ سيحصل على بيته الخاص، وجزء من الأرض. كلنا بجانب بعضنا بعضًا. لم يعد بيت أجدادك يكفينا كلنا. أنت تكبرين، والعائلة تكبر، لا توجد مساحة كافية.

فقاطعته قائلة:

- ولكننا سنبتعد عن الجميع هكذا.

أدركت الفتاة أنها خسرت معركة الجدال مع الكبار، فبعد اتخاذهم ذلك القرار لم يعد بإمكانها فعل أي شيء. لم تعرف حتى لِمَ أصرت على الجدال معهم منذ البداية. توقعت ردهم كما لو أنها سمعته من قبل.

قال أبوها:

- لا تكوني سخيفة يا "لينا". لم نبتعد عن المنزل القديم كثيرًا، فهو هناك عند نهاية الشاطئ. يمكنك أن تذهبي إليه في أي وقت في غضون ثوانٍ، أو يمكنك أن تأخذي دراجتك وتذهبي إلى بيت جدك.

ولكنها ظلت تجادل بهوس:

- ولكن ماذا سأفعل إذا أردت الذهاب ليلًا؟ لن أستطيع الذهاب وحدي في الظلام.

فرد عليها:

- ولكنك لن تريدي الذهاب من الأساس. سيرغب الجميع في أن يأتوا إلى البيت الجديد، أتَدْرِين لماذا؟ لأننا سنضع موتورًا، ومولدًا كهربائيًّا، وستنير الكهرباء منزلنا. ستتمكنين من القراءة، والاستماع إلى الراديو، وستفعلين أشياء عديدة.

فسألت "لينا":

- متى سيكون المنزل جاهزًا؟

فرد عليها:

- يا إلهي! سيتطلب الأمر وقتًا طويلًا. يجب علينا تنظيف المكان، وأن نرسم خريطة المنزل، وعلينا أن نشتري مواد البناء، ونضع الأساسات، وسنفعل ونفعل..

هدَّأ ما قاله من روعها، فحتى عندما يقول الكبار إنهم سينتقلون سريعًا، يستغرق هذا وقتًا طويلًا. ويتطلب الأمر وقتًا أكثر وأكثر إذا قالوا إنه سيتطلب القليل من الوقت. لا يوجد ما يدعو إلى القلق. فقد صارت متأكدة من أنها ستقضي إجازاتها في بيت أجدادها، مع مزايا البيت المزدحم بالأشخاص، حيث كان كل شخص يساعد نفسه في تحضير طعامه، ويأخذ طبقه للأكل بالخارج تحت الشجرة، لعدم وجود مكان كافٍ على طاولة الطعام.

راود ذلك المنزل أحلام الأب والأم منذ وقت طويل. لم تفهم شيئًا مما كانا يرسمان طول الوقت؛ رسمة تلو الأخرى. كانا يتجادلان، ويأخذان آراء الآخرين في رسوماتهما. ذات يوم، ذهبت لتلقي نظرة أدق على رسمة المنزل. كان أبوها يمسك ببعض الأوراق، ويجلس على كرسي غريب ذي مسند في بيت الجد، كرسي يشبه البطَّة الجالسة. كان الكرسي خشبيًّا، وقريبًا من الأرض، وذراعه واسعة، ومستقيمًا. كان خادعًا؛ فإذا جلست على إحدى ذراعيه بشكل خاطئ سينقلب بك فجأة، ويقع الجالس والكرسي في كومة. لن يحدث هذا إذا جلس أحد في المنتصف ليحافظ على توازنه. كان الأب جالسًا في هذا اليوم على الكرسي، مستكينًا، حاضنًا أختها، وبجانبه أمها، وهي وأخوها على الناحية الأخرى من الكرسي.

قال الأب:

- انظروا كيف سيكون شكل منزلنا.

تفقدت الرسمة، ولكنها لم ترَ فيها أي منزل على الإطلاق، ولكن أسرع أخوها قبل أن تقول أي شيء وقال: - هل تريدني يا أبي أن أرسمه؟ أستطيع أن أجعله يبدو كمنزل أكثر من ذلك.

ضحك الأب وشرح لهم أنهم ينظرون إلى رسمة المنزل من الأعلى دون وجود سقف. كانت الخطوط المرسومة هي الحوائط، والثقوب هي الأبواب. وأشار قائلًا: - ستكون هذه غرفتنا، وفي هذا الجانب غرفة البنات الكبيرات، وفي هذا الجانب غرفة الأطفال الصغار، وهذه هي غرفة المعيشة. أمَّا عن غرفة الأولاد وغرفة الضيوف فستكونان في الجانب الآخر من المنزل.

سأل أخوها:

- وما هذا؟

فرد أبوها:

- تلك هي الشرفات.

اتضح كل شيء على الورق، واحتوت الرسمة المنزل بأكمله كما لو كان مسحورًا. كانت الأرض حوله خالية من النباتات، ولكن عندما يزورونه في الإجازات يجدون أرضه قد امتلأت بالذُّرة. اكتشف الإخوة، وأولاد العم والخال، روعة اللعب والتظاهر بأنهم رعاة بقر وقطَّاع طرق في حقل الذرة، ولكن كانت الصخور - التي تشبه الشعاب المرجانية - تقاطع لعبهم، حينها، لم يعرفوا ما هي.

في يوم من الأيام، ذهب الجميع؛ الآباء والأجداد لرؤية المنزل مع الأطفال. ومن خلال شرحهم، بدأت "لينا" تفهم أن تلك الصخور الشبيهة بالشعاب المرجانية والمرصوصة على الأرض هي نفسها الموجودة في رسمة أبيها للمنزل، مع اختلاف أن الرسمة الآن عليها المقاسات الحقيقية للمنزل. كانت تلك الصخور بمثابة العلامات التي استعملوها لتحديد أماكن الحوائط، وتقسيم غرف المنزل، واستعملوها كذلك أساسات للبيت. ولكن، كل هذا لم يكن سوى صخور في الوقت الراهن.

والآن، وبعد مرور سنوات عديدة، تستلقي المرأة تحت ضوء الشمس متأملة النمل الذي يسير بصعوبة بين تلك الصخور المدفونة كالكنز. وقد أدركت أنها أجهدت عينيها وهي تتأمله. لم يكن النمل مملًّا، فعلى الرغم من صغر حجمه، كانت الحياة تشع منه. ظل يتحرك باستمرار، متنقلًا بين العشب والصخور الساكنة تحت البيت، ومن الأرض الرطبة إلى رمال البحر الجافة. كانوا عالمًا بأكمله؛ عالم النمل!

ربما لهذا السبب كان البيت صلبًا؛ لأنه زُرع في الأرض ووسط الذُّرة، وراعته الشمس، واجتاحته الرياح على أنغام المحيط التي تحولت إلى أحجار تشهد على المحيط الأطلسي وتاريخه. ألوان الصخور متغيرة؛ فتارة أرجوانية، وتارة حمراء، وتارة تميل إلى السواد، وأحيانًا أخرى مليئة بالأصداف القديمة.

تستسلم تمامًا لضربات الأمواج المستمرة، وتزينها الثقوب الصغيرة التي كانت في السابق مخابئ للأسماك. واصلت الشعاب المرجانية مسارها أمام المنزل، ولم تنسَ أن تمر على أدوات بناء السيد "خواكيم" التي أحضرها لبناء المنزل. يستطيع أي شخص الآن أن يلعب بين الصخور في البحر مع الأطفال، وأن يحمل دلوًا ليصطاد الأسماك الصغيرة والأصداف ويضعها فيه، أو أن يرتدي قناع الغوص ويراقب الرقصة الصامتة العميقة لتغير الألوان في المياه المالحة. لم يعد أحد يجمع الإستاكوزا من المحيط الذي يطل عليه الفناء الأمامي للمنزل بدقة الصيادين القدامى الذين اعتادوا تتبع القمر، ومعرفة مواسم التزاوج، وكل مخبأ للإستاكوزا، والقادرين كذلك على الإمساك بتلك الحيوانات وهم في مأمن من مخالبها وأصدافها الحادة.

زادت حدة الشمس. سيكون من اللطيف أن تغوص في البحر. الخيار الوحيد المتاح أمامها هو أن تنعش نفسها بمياه الخرطوم الملتوي في الحديقة؛ لاضطرارها إلى عدم تحريك قدميها، فهي لا تستطيع السير إلى المياه أو الدخول فيها. لعلها تستطيع أن تفعل ذلك قريبًا. مسحت "لينا" عرقها بظهر يديها عن أكثر مكان يؤرقها؛ شفتها العليا.

تسببت حركتها في ميل القبعة، فأتاحت لها مجال رؤية أوسع، وتمكنت من رؤية شجرة "المظلة"، وأرجوحة الأطفال المعلقة في أحد أغصانها، والطاولة الخشبية الكبيرة المثبتة في الأرض تحت الشجرة. ابتسمت المرأة. لو كتبت يومًا ما أغنية عن المنفى، ستكتب أنه كان في أرضها أشجار المظلات. ولو كان لها في يوم من الأيام أن تختار شجرة لتكون رمز حياتها، ستختار شجرة المظلة الطوطم الخاص بها. تلك الشجرة ذات الأوراق الشعثاء، المعرضة للتغيرات الموسمية.

كان بإمكان شجرة "المظلة" أن تخلق خريفًا عنيفًا خاصًّا بها أكثر من مرة بالعام، وفي أوقات غير متوقعة تمامًا. كان بإمكانها أن تجعل أوراقها الجافة تتساقط كالدموع، وتعلن شتاءها الشخصي على الساحل، وعلى الجميع أن يخضع لها. كانت تنتعش في لوحة ناعمة من البراعم الزهرية في الربيع، وتظلل الجميع بظلالها الخضراء الزاهية حسب تقويم لحائها النابض بداخلها. من يدرى؟ أليس من الجائز أن يمر يوم ما على هذه المرأة وتتعلم من الشجرة متى تتخلص من أوراقها القديمة، وكيف تبحث داخل قلبها عن الرغبة في أن تولد من جديد وتبدأ حياة جديدة؟ من يدري؟ فلو كانت هي من تختار الشجرة التي تستوحي منها الأمل، فستختار هذه الشجرة بالطبع؛ صديقتها القديمة. اعتنوا بالشجرة جيدًا منذ أن كانت شتلة قادمة حديثًا مع ثلاث شتلات أخريات. لم تكن بعمر الصخور، فقد زُرعت بعد مدة. زرعت أمها الثلاث شجرات تقريبًا في اليوم نفسه، في الساحة نفسها، وبالحجم نفسه. ماتت

واحدة منها؛ فلسوء حظها صادف مكان زرعها مسار النمل البرازيلي الآكل للأشجار الذاهب إلى أوراق شجرة "البونسيانا".

افترسها النمل عدة مرات حتى ذبلت. أمَّا الثانية، فلم تكبر، هكذا دون سبب. نمَت الشجرة الساكنة وراء المنزل، وكبرت أوراقها وزاد جمالها وكثافتها. لكنها كانت تنمو ببطء. أمَّا هذه الشجرة الموجودة بجانب المنزل بين النخيل، التي تراها من شباك غرفتها، كانت شجرتها هي وحدها من بين جميع الأشجار. لم يعرفوا سبب ازدهارها هكذا؛ أكانت البذور مميزة بطريقة ما، أم كانت التربة بها مادة خاصة؟ لن يعرف أحد أبدًا. كانت دومًا تكبر سريعًا مع نهاية الإجازات. تحوَّلت الشجرة بعد أشهر قليلة إلى شجيرة حجمها مناسب يماثل حجم المرأة وهي فتاة صغيرة، كما هو واضح في الصور في ألبوم العائلة. استمرت الشجرة في النمو حتى أصبحت أطول من المرأة في سنين مراهقتها. والآن أصبح أمرًا مسليًا بالنسبة إليها أن تتذكر وهي مستلقية في الحديقة حين كانت تقارن حجمها بحجم شجرة مثل هذه في يوم من الأيام، شجرة عمرها قرون، ذات جذع قديم ومجعد. واقفة بصمود وشموخ بحيث يراها الصيادون عن بُعد، من المحيط وراء الخليج. كانت بمثابة الدليل لأي شخص عائد إلى القرية. ولهذا السبب كانت الشجرة المثالية؛ فهي بوصلة كل من أراد العودة إلى منزله، تقف راسخة ومتمسكة بجذورها ترحب بجميع العائدين. كانت مثل المنزل صلبة ومشمسة، وفي انسجام واتساق تام معه. كانت تحمي الجميع بظلالها.

ما تحتاجه "لينا" حاليًّا بشدة هو ظل الشجرة، فقد أصبحت حرارة الشمس لا تُحتمل. وأعلنت الشمس أن سحر اللحظة قد انتهى، وحان وقت القيام، والحركة، والكلام. أدركت أنه لن يمكنها القيام وحدها، وأنها بالطبع ستحتاج إلى مساعدة، فوجهت نداءها إلى المنزل وصاحت: - أمي!

تفاجأت برد أمها عليها بصوت ناعم وقريب:

- أنا هنا يا صغيرتي. أتريدين المساعدة في القيام؟

فردت عليها:

- أجل، إذا سمحتِ.

تسلل إلى "لينا" شعورٌ بالانزعاج قليلًا وأمها تقوم من الكرسي ببطء. منذ متى وهي تراقبها؟ منذ متى وهي بجانبها تحرسها في صمت؟ كانت تعلم بالطبع أن لقرب أمها منها معاني أخرى.

لماذا كان على «لينا» دائمًا أن تستجيب لهذه القسوة بداخلها، وأن تحافظ على خصوصيتها، وأن تشعر دائمًا باقتحام مساحتها الشخصية؟ كان يمكن

لكل الأمور أن تكون أبسط من ذلك. ولكن لماذا لم تقل أمها «أماليا» أي شيء، أو تعطي أي إشارة تدل على وجودها؟

سألت أمها قائلة:

- منذ متى وأنتِ هنا؟ لم أركِ.

فردت أمها:

- لم أُرِد مقاطعة خلوتك، فقد كنتِ مستغرقة تمامًا في أفكارك. كنت أجلس هناك، أنظر إليك، أنتِ نحيفة جدًّا يا حبيبتي، يجب أن تأكلي أكثر.

لم يغير مرور السنين من تكرار هذه الجملة أبدًا؛ "هذه الفتاة لا تأكل جيدًا، لا أعلم ما يجب عليَّ فعله لتشجيعها على الأكل. إن وقت تناول الطعام يوميًّا بالنسبة لها مثل الجحيم بالنسية لها".

أصرت المرأة أن تسأل:

- هل كنتِ هنا لوقت طويل؟

غمغمت الأم:

- على الأرجح.

فسألتها:

- لماذا لم تتكلمي معي إذن؟

فردَّت أمها:

- وجدت أن هذا من الأفضل لكِ.

بالطبع، هذا ما وُجدت الأمهات من أجله، فهن دائمًا على دراية بما هو أفضل لأولادهن. لم تعترض "لينا" هذه المرة، فقد شعرت بقوة وصدق حنان أمها.

كان شعورها بالانزعاج هذه المرة مختلفًا، فقد بات مملًّا بعض الشيء. لم تنزعج كما كانت تفعل في الماضي، أو مثل تلك المرة التي قرأت فيها أمها جواباتها إلى حبيبها الأول، والتي كانت تخفيها في درجها وهي في الخامسة عشرة من عمرها وأخذتها منها قائلة: "هذا لمصلحتك، هكذا أفضل".

لم يكن منطقيًّا أن تزعجها أحداث من الماضي الآن. لو كانت أمها تراقبها في الماضي مثلما راقبتها الآن لثارت وغضبت، وطالبت بمساحتها الشخصية. لقد تجاوزت عن أشياء عدة منذ وقت طويل، ولا سبب واحدًا سيجعلها تبوح بها

الآن. كان لديها مشاكل طارئة أكثر، وتحتاج إلى الهدوء والحنان لتزيل الغبار عما يشغل رأسها. عليها توجيه مشاعرها للأشياء الملموسة حولها.

قالت لأمها:

- إن الجو حار للغاية، أليس كذلك يا أمي؟ أريد أن أدخل المنزل قليلًا. يمكننا أن نعد عصير الليمون الذي تحبينه.

فردت أمها:

- أمرْتُهم بإحضار بعض الكاجو إليكِ، يمكنك أن تطحنيه سريعًا إذا أحببتِ.

ذهبت المرأتان إلى المطبخ مثلما فعل العديد من النساء على مر العصور. لن يطبخا الطعام على نار مشاعرهن المدفونة كما عهدت النساء من قبلهما، ولن تتبلا الأكل المعد لأطفالهن أو أزواجهن المحاربين. بل اختارهما الصمت وهو أفضل تقليد نسائي؛ تمامًا كما تختار النساء الشوائب وتنقيها من وسط الحبوب، ثم تخزن الحبوب جيدًا في غرفة المؤن أو تجمدها بعناية لتستعملها في المستقبل.

وعلى الرغم من كل شيء، كانتا كحيوانين جميلين؛ تحميان نفسيهما من ضوء الشمس، وترويان ظمأهما بعصير الفاكهة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

2

“تقرر الترجمة ما إذا كان عليَّ أن أبقى أو أرحل،

هل هذا هو الفن؟”.

“فيريرا جولار”

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

رأت خنزيرًا بريًّا يخطو فجأة على الطريق وسط الغابات ليشرب من النهر في الصباح الباكر حين بدأت سحب الضباب تتجمع. رأته حقًّا، كانت تلك الحقيقة هي ما أدهشها. في عالم كارتون “أستريكس”، لن يتفاجأ أحد برؤية الخنزير البري بالطبع. لكن إذا كانت المرأة بطلة قصة من العصور الوسطى – أو حتى في القرن الثامن عشر في أوروبا - فمن يعلم متى تسبب نمو المدن والتهديدات البيئية في ابتعاد الخنازير البرية عن البشر؟ كان من الممكن أن تتقبل رؤية هذا الخنزير البري كأنه أمر واقع.

لم تستطع أن تتخلص من شعور الدهشة بسهولة في تلك اللحظة، على الرغم من وجود تفسيرات منطقية ومقنعة للغاية. تفاجأت - دونًا عن الناس أجمعين – وهي التي جاءت من بلاد طائر “السُّمْنَةُ” المغرد، وطالما تجولت في الغابات حيث تشرب الخنازير البرية. اندهشت - من بين كل الناس - وهي التي أهاداها “ألونسو” في أحد أعياد الميلاد كتابًا عن الفن في القرن العشرين مع إهداء: “إلى أكثر شخص أعرفه يناسب أسلوب القرن العشرين”. نعم، هي، من بين كل البشر. ولكن يجب عليها ألا تندهش. فعلى أية حال، حتى لو لم تعش الحرب الموثقة بإتقان في صور الكتاب الكبير، فقد رأت أشياء أكثر غرابة من الخنازير البرية على مدار أعوام القرن العشرين القليلة التي عاشت فيها. ولكن في هذه اللحظة، كان الخنزير البري يقف أمامها. لا يمكن لأحد إنكار رؤيته، وقف راسخًا في مكانه، ضخمًا لاهثًا ومغطى بشعر داكن موحل. يا لها من لحظة ذهول بالنسبة لها!

تملكها إحساس مفاجئ بالدهشة بسبب هذا الحيوان غير المتوقع؛ هذا الحيوان الناجي والمحمي من قِبَل محمية الصيد. كان يقف على جانب الطريق الضيق الذي ينتهي بمنحدر، حيث تظهر القرية التي يسكنها ثمانمائة شخص في بيوت حجرية قديمة يحيط بها جدار شاهد على سبعة قرون مضت. في وسط هذا المكان، لم تدهشها الأطلال الرومانية وشواهد قبور “الحضارة الإتروسكانية” بقدر ما أدهشها ذلك الحيوان اللاهث. ولكن ما شكل عنصر المفاجأة لها هو دهشتها، وإحساسها أنها تقترب من أن تصبح كالجميع. خافت أن تصبح ممن يتعجبون حين يرون حيوانًا يشرب الماء وهو آمن،

ويمنعون أنفسهم من معرفة أن بشرًا مسالمين يموتون من الجوع. هكذا هو الحال في بلدها، فالقصائد والنشيد الوطني تهتف: “إن غاباتنا تنبض بالحياة”. إن تعريف الحياة التي يشير إليها النشيد متفاوت؛ فهو يعتمد على مفهومك للحياة. فهناك أسلوب للحياة لا يندهش أي شخص فيه من السلوك العدواني. ولكن أن تكون رؤية حيوان مسالم يشرب مياهًا نظيفة في الغابة بمنزلة منظر مدهش للغاية! يا لها من أوقات تعيسة في بلد حزين!

يا له من أمر بالغ الحزن ما حدث في الماضي، في وقت المنفى المُجرد من أي عاطفة، ذلك المنفى الذي لا يمت بصلة لما تغنى به “جونسالفيش دياز” في قصائده، وكلماتها المُدرجة في كلمات النشيد الوطني. فكرت المرأة: “أيعقل لبلد أقيم على يد المهجرين ويُخلد ذكرى ألم التهجير حتى في نشيده الوطني، واقتبس أغنية المنفى، أن يُرحِّل الناس في منتصف القرن العشرين ويشتت المنفيين حول العالم؟!”.

“يا إلهي لا تتوفني إلا بعد أن أعود”.

القصيدة نفسها، النشيد نفسه، والحنين نفسه.

كانت تشعر بالحنين إلى أرضها حتى وإن تبقى فقط على موعد عودتها بضعة أسابيع، وأصبح المنفى مجرد فكرة قد انتهت. على الرغم من تذكرة عودتها الموجودة في جيبها، وأنه تبقى أسبوعان فقط لتحتمي بشمس بلادها من الجديد بعيدًا عن رمادية سماء المنفى. كان هناك جزء مغطى بالتراب في أعماق روحها يئن من ألم الفراق.

كانت الحال دومًا هكذا؛ فمبجرد أن تبتعد، يتملكها الحنين الجارف. من الجائز أن حنينها هو عادة سيئة من الماضي، لكنها لم تستطع حقًّا أن تشتكي. لم ينطبق على منفى “لينا” الوصف التقليدي للمنفى؛ فلم يكن بعيدًا أو مليئًا بالحرمان مثل المنافي الأخرى. لم يستحق المكان لقب “منفى” إذا كنا سنتكلم بصدق. لكنه كان أشبه بالغياب الإرادي قبل أن يصبح الغياب أمرًا مفروضًا وغير محدد بمدة معينة. لذلك لم تعتبر “لينا” ذلك الوقت منفى حقيقيًّا، فهي لم تكن كالآخرين الذين نُفُوا دون اختيار. كان هذا الوقت مجرد موسم، كان موسمًا طويلًا بالطبع، واستمر لأربع سنوات، لكنه كان مجرد موسم. أتيحت لها الفرصة لتهتم وتعرف أشياء كثيرة عن البلاد التي استضافتها، واستمتعت بفكر اللغات الأخرى وحسها الفكاهي.

على سبيل المثال، كان منفى “أونريو” منفى حقيقيًّا. يا لها من صدفة عجيبة أن تفكر في “أونريو” في تلك اللحظة، وبعدها على الفور يذكر رفقاء سفرها اسمه أيضًا.

التفتت “ماريا” إلى الوراء قليلًا، وهي تجلس في كرسي الراكب الأمامي، وقالت:

- يا له من أمر جميل أن نأتي بكِ إلى هنا “لينا”، هذا المكان ليس وجهة سياحية على الإطلاق، فلا يوجد معلم سياحي واحد إيطالي. لم يحدث هنا شيء مهم ولا توجد حتى أي قطعة فنية. كما قلت لكِ بالأمس، نحن في طريقنا إلى بيت صغير ومريح قمنا بتأجيره. سيعجبك كثيرًا؛ فالقرية لطيفة وبسيطة وستحسن من مزاجك. أنا أحب تلك الزيارات من الأصدقاء مثلك، فكل مرة تأتين إلينا، لا نشعر أنه مر وقت علينا، حتى ولو لم نراسل بعضنا.

وأضاف “أنطونيو”:

- كل مرة تأتي إلينا، أشعر أن جزءًا صغيرًا من البرازيل قد جاء معكِ، الجزء الأكثر جمالًا من البرازيل بالطبع. هناك مكان آخر لا يشجعنا على الإطلاق أن نزوره، ولكن نزوره على أية حال، حيث نتسوق فيه من محلات “جوتشي”، ونذهب إلى مقهى في شارع “فيا فينيتو”.

سألت “لينا”، التي كانت تفكر في الحنين إلى الوطن، السؤال الذي كان يقلقها:

- كيف تستطيعون أن تبتعدوا مثل هذه المدة الطويلة؟ ألا تفكرون إطلاقًا في العودة؟ فمنفاكم هذا، سواء بإرادتكم أو دون إرادتكم، طالت مدته كثيرًا.

ردَّت “ماريا” بإجابة بها قليل من الحنين:

- لا أعلم، كنت أفكر في العودة حين كان أبواي على قيد الحياة. ولكن لِمَ أعود الآن؟ نحن في أفضل حال هنا؛ فالناس يتعاملون باحترام. أولادنا متزوجون هنا وأحفادنا حولنا، فأكثر الأشخاص الذين أحبهم هنا.

ولكن كانت إجابة “أنطونيو” حاسمة، وبها مزاح يخفي ما يحمله في قلبه، فقال:

- لا أستطيع العودة. لا أستطيع العيش دون الكرة والموسيقى البرازيلية، فأفضل اللاعبين البرازيليين يلعبون في إيطاليا. كل مرة أعود إلى بلدي، أجدهم يعزفون موسيقى الروك فقط على الراديو، ولكن هنا يذيعون كل أنواع الموسيقى يوميًّا. ماذا سأفعل هناك؟

ضحكت “لينا”، وأوضحت لهم ما يدور بخاطرها قائلة:

- أتفهم وجهة نظركما، ولكنني أسألكما لأنني أريدكما بالقرب مني، فنحن نرى بعضنا نادرًا، وأنا لست جيدة في كتابة الرسائل. أعرف ذلك، ولكن حبي لكما دائمًا موجود، أنتما تعلمان ذلك.

اعتقدت أنه أمر مضحك أن تحب "ماريا" و"أنطونيو" جدًّا لكونهما صديقين نادرين وحقيقيين، ولكن كان من الصعب جدًّا أن تعترف لهما بذلك الحب. يبدو أن هذه اللحظة هي لحظة الاعترافات، فقد أكمل "أنطونيو" قائلًا:

- لا أعلم. هل لاحظتِ ذلك؛ أنه مهما مر الوقت بيننا نقترب من بعضنا أكثر؟! فحتى لو قضينا وقتًا طويلًا دون رؤية بعضنا بعضًا ودون مراسلة أو تحدث، لا نضطر إلى القيام بأي شيء حين نجتمع معًا. نتفهم بعضنا بعضًا، حتى لو لم نتفق، وحتى لو تغيرنا في بعض الأشياء. فعلى سبيل المثال، انتابني الشعور نفسه حين رأيت "أونريو" صدفة بعد كل هذه السنوات.

لم يكن الأمر سوى خاطرة عابرة، أو بريق انفعال، ولم يكن هناك حاجة إلى قول المزيد. كان الأمر مجرد شعور طيب تخلل الضباب.

عم الهدوء السيارة، وقطعوا القليل من الكيلومترات، ومروا في طريقهم بحقول أزهار الأقحوان والخشخاش الصغيرة. تذكرت "أنطونيو" ومحادثتهما الأخيرة في صمت.

كانت تلك المحادثة بعد عودته إلى البرازيل بوقت قليل؛ بعد عشر سنوات من المنفى الحقيقي. استطاعا أن يتحدثا مرتين عبر الهاتف. ولكنهما لم يريا بعضهما. كانا دومًا في بلاد مختلفة، وحتى بعد أن عادت، حاولت أن تقابله في كل مرة تذهب فيها إلى أوروبا، ولكن دون جدوى. فكلما زارت مدينة، اكتشفت أنه غادرها للتو، أو لم يعد إليها بعد.

وعندما كانت لا تزال تعيش في باريس، استطاعا أن يتشاجرا عبر المسافات على الرغم من إعجابهما ببعضهما بعضًا. شعرت "لينا" باختراق خصوصيتها، وغضبت كثيرًا عندما أعطى عنوانها لشخص لم تعرفه من الأساس لمراسلتها. وصل الخطاب إليها ولكنها رأت على الفور بصمات "أونريو" عليه في كل مكان. كان دومًا يعتقد أنه يمكنه الاعتماد على الأشخاص دون الرجوع إليهم. تحدثَتْ إليه وهو في بلد آخر ووبخته:

- أنت تعلم أنني أريد العودة. لن أسمح لأي شخص أن يعقِّد حياتي ويتدخل بها. لا أريد أن أتسلم رسالة من خمس عشرة صفحة في وزن الطوبة، وفي ظرف ممزق قام الرجال بربطه بشريط، وعليه شفرة سخيفة مليئة بالكلمات البارزة، أي إنسان غبي يمكنه أن يفك تلك الشفرة من الوهلة الأولى. لا تمتلك أي حق لتورطني في هذا الأمر. لن أسمح لأي أحد بأن يستغلني.

لم يحتدم الشجار أكثر من ذلك؛ لأن رد فعله كان مهذبًا فقال:

- بالطبع يا صغيرتي، أنتِ محقة تمامًا، أعدك بأن هذا الأمر لن يحدث أبدًا، أريحي أعصابك.

لم تكن "لينا" لتتقبل الأمر لو كان "أنطونيو" استقبل توبيخها بأي استهتار أو مواجهة. كانت ستغضب منه كثيرًا، حتى وإن كانت معجبة به. كان لـ"أنطونيو" أسلوب ذكي في الحديث يكسب من خلاله مستمعيه، لم يكن ليحبطها هكذا. كان لقاءً جيدًا حين تقابلا بعد عشرة أعوام وبعد احتفالات العودة من المنفى والأحاديث الأولى التي كانت حول سعادة الجميع فقط. وعندما حان وقت الحديث الجاد كان لقاءً جيدًا؛ قضوا ساعات في مطعم على شاطئ البحر، مستمتعين بأكل السمك، ومتحدثين ببطء، وفجأة قال "أونريو":

- كل شيء جميل للغاية، ولكنني أعترف أنه أمر مفاجئ وغامض، ولا أستطيع فهمه.

فردت عليه "لينا":

- ما هو؟

فرد عليها "أونريو":

- تاريخك. مسارك في الحياة. لا أعلم. كونك هنا اليوم، وبهذه الطريقة.

كانت "لينا" الآن هي التي لا تفهم، فسألته:

- لماذا؟

أخذ رشفة من عصير البرتقال، ونظر إليها، ورأى مجددًا تلك الإنسانة التقليدية التي تركها لترعى زوجها ومنزلها منذ أعوام كثيرة مضت، وكانت تكتب مقالاتها الصغيرة الساحرة والمعقدة للقسم الثقافي في الجريدة، فحاول أن يشرح لها:

- إنه أمر غريب ومدهش؛ فنحن نعرف بعضنا بعضًا منذ ثلاثة أو أربعة أعوام، أليس كذلك؟ ولم نرَ بعضنا منذ فترة طويلة للغاية. هناك شيء بكِ لا أستطيع التعرف عليه. لقد تحولتِ إلى شخص لا يشبه الذكرى التي أحملها عنه.

فردَّت عليه:

- أتفهمك. ولكننا لم نعرف بعضنا جيدًا لهذه الدرجة، لم تكن هناك تلك الدرجة من الحميمية في علاقتنا، ألا توافقني؟ لقد تحركنا في الدوائر نفسها، وبيننا الكثير من الأصدقاء المشتركين، وأشياء من هذا القبيل. ولكن لم نكن أصدقاءً فعليًّا.

رد عليها مازحًا:

- هذا صحيح، على الرغم من الإعجاب الذي لم نعترف به.

صححت له قائلة:

- ربما كان هذا الإعجاب الذي لم نعترف به سبب عدم كوننا أصدقاء. ومن ناحيتي يمكن لرغبتي الجنسية الدفينة أن تكون السبب أيضًا. إنه لأمر لم أكن لأعترف به أبدًا، ولكنني كنت خائفة بشدة من الاعتراف بوجود تلك الرغبة. ولكننا كنا نساند بعضنا دومًا، وكان هذا أمر مهم للغاية. كنا نعلم أنه يمكننا الاعتماد على بعضنا عند الحاجة، ولكن دون أن تجمعنا أي علاقة حميمية، أليس كذلك؟

رد عليها قائلًا:

- هذا صحيح. لم نكن قريبين لهذه الدرجة. أنتِ محقة. ولكن كانت هناك ألفة بيننا عن بعد، ولم نحتج حتى أن نتحدث عنها. أتذكر جيدًا المرة الأخيرة التي رأيتك فيها قبل أن يحدث كل شيء واضطررت إلى أن أختفي، أتذكرين ذلك؟

ابتسمت، وتذكرت بدقة، وقالت:

- بالطبع أتذكر، كان ذلك في "كرنفال" عام 1969. اتفقنا على أن نتقابل مع مجموعة من الأصدقاء. جئت إلى المنزل وكان "مارسيلو" يختبئ به، أتذكر؟ وذهبنا جميعًا لمشاهدة استعراض مدارس رقص "السامبا"، الذي كانوا ما زالوا يؤدونه في شارع الرئيس "فارجاس". لن أنساك أبدًا وأنت ترقص وتغني على ألحان أغنية "أبطال الحرية". كان الإيقاع وراقصو مدرسة "إيمبريو سيرانو" رائعين.

تذكرت الأغنية، وأخذت تدندن:

- "تسطع الحرية مثل الشمس

مثل الشمس، تسطع الحرية

يحنو نسيمها على الشباب

ولا تخمد الكراهية شعاعها

في الكون

إنها الثورة

مع مبررها الشرعي".

ابتسم "أونريو" الآن وهو يتذكر، وقال:

- صحيح. كان النص الفعلي الذي وافقت عليه الرقابة هو "التطور"، ولكن الجميع في الشارع كانوا يقولون: "الثورة"، كان الأمر رائعًا.

فأضافت:

- نعم، كان جميلًا. غنيتَ كما لو أنك كنت تعرف أنك ستعيش حياة مزدوجة وشبه سرية في عملك. ولكنني لم أعرف شيئًا عن كل هذا. كنت أركز فقط على مدى جمال غنائك. غنيت وأعطيت الموسيقى كل حواسك، وكأنك ألقيت بجسدك في أحضان "السامبا". لن أنسى هذا أبدًا.

قاطعها وقال:

- أترين؟ إن الصورة التي ارتبطت بي في مخيلتك هي صورة رجل يغني ويرقص في منتصف الشارع. يا له من جنون! هذا ما أقصده. يتذكرني أي شخص آخر في صورة الرجل المناضل، السياسي، ورجل العصابات، أو الإرهابي، وكل ما يشبه ذلك. وعندما يرغبون في الابتعاد عن كل هذه الصفات، يتحدثون عن المهنية الموثوق بها، وأشياء من هذا القبيل.

رفعت "لينا" نظرها من طبق السمك، واعتذرت قائلة:

- انتظر لحظة، لم أقصد كل هذا. لديَّ هذه الصورة عنك أيضًا، ولكنك ذكرت الغناء والرقص لأنني تذكرتهما فحسب. لا تغضب.

رد عليها "أونريو":

- أنا لست غاضبًا، أنا مستمتع يا "لينا". هذا يؤكد ما كنت أحاول قوله سابقًا؛ كنت أحاول أن أخبركِ عما يحيرني ويدهشني فيكِ. سأخبركِ سرًّا.

تملكها الفضول الآن، وانحنت إلى الأمام قليلًا لتستمع إليه كما لو كان سيهمس. ولكنه تحدث بنبرة الصوت نفسها؛ الهادئة، والساكنة، والدافئة قائلًا:

- أحب أن أعود لرؤية الأماكن القديمة، وشم الروائح، وتذوق الأطعمة، وسماع اللغة، والموسيقى، وكل شيء. ولكن هناك شيء واحد يحبطني؛ أن الأشخاص الذين يمكنني التحدث إليهم هم فقط أطفال أصدقائي أو الشباب الصغير جدًّا. أعتقد أنه لم يعد هناك سوى ستة أشخاص من أصدقائي القدامى أو أبناء جيلي يمكنني التحدث إليهم. وهم لا يملكون شيئًا ليقولوه، أتعلمين ذلك؟ إنهم صارمون وجادُّون جدًّا. إنها وجهة نظر مختلفة. أنتِ واحدة من الأشخاص القليلين الذين استمتعت حقًّا بحديثي معهم منذ فترة، إنه شيء رائع. تعتقدين أن الطريقة التي أرى بها الأشياء، وملابسي، والأكل الذي آكله طبيعية تمامًا. وأثناء رحيلي، لم أكن أتخيل أبدًا أن تلك المرأة التقليدية وربة المنزل ستتغير وتصبح شخصًا نادرًا، وجديدًا، وممتعة للغاية. هذا هو الغموض

الذي أتحدث عنه، عن مسارك في الحياة. يجب عليكِ أن تكتبي هذا، بوصفه نوعًا من التوثيق لمذكراتك.

قررت أن تحول الموضوع إلى المزاح، حتى لا تشعره بأنه كان يسبب عدم ارتياح لها فقالت:

- أن تكتب مذكراتك وأشياء من هذا القبيل هو تخصص المسجون وراء القضبان.

فرد عليها:

- أنا جاد، اكتبي قصتك، كوني شاهدة عيان. ألم تفكري في هذا الأمر من قبل؟ إن الكتابة هي مهنتك في الأصل، ولطالما كانت كذلك لفترة طويلة.

أخبرته "لينا" بالحقيقة، وقالت:

- لا، لم أفكر في الأمر من قبل. إنني أمتهن الصحافة لا كتابة المذكرات الشخصية، ولا أؤمن بهذا. أعتقد أنه من الأفضل أن أصرِّح منذ البداية أن كتابة المذكرات الشخصية ما هي إلا خيال، جزء من الأدب الرومانسي، إذا كان هذا ما يسمونها في الأدب. ما تقوله ما هو إلا اختراع لسرد الأحداث، وجعل الناس يصدقون أنها حدثت كما تم سردها، لكنها في الحقيقة لم تحدث على هذا النحو، وأنت تعرف هذا أفضل من أي شخص.

عارضها بشدة، وقال:

- أنتِ حمقاء يا "لينا". بالطبع هناك بعض الأساسيات، ولكن حين تختارين من بينها تتركين بعض الأشياء. لا يمكنك أن تكتبي عن كل شيء.

فردت عليه قائلة:

- هذا ليس كل ما في الأمر. هناك أشخاص يدَّعون أنهم أبطال خارقون، ويحكون أشياء لم يفعلوها، ويخلقون ملاحم قام بها أشخاص آخرون. وهناك أشياء كثيرة أخرى كاذبة.

رد "أونريو" قائلًا:

- أنتِ قاسية للغاية. إن الشخص الذي يكتب يكون في مشكلة بالفعل، وإذا كان ينسب الأفعال لنفسه فهذا لأنه لا يجد فائدة من توريط أصحابه إذا ذكر الحقيقة بالكامل. الأمر مرتبط أيضًا بالأمان. أم تفضلين أن يَذكر الآخرين لمجرد أن يكون ملتزمًا بالأمانة في رواية الأحداث؟

سألته، وكان في سؤالها نبرة شك والقليل من الانزعاج:

- أتقول هذا بعد مرور أكثر من عشرة أعوام؟ مع العفو وكل شيء آخر؟ أتمازحني يا "أونريو"؟ لا تحاول أن تفعل ذلك. كلامك قد يخدع شخصًا لم يكن في قلب الحدث، ولكن أنا وأنت نعرف أن المشكلة أعمق من ذلك. لا تتحدث إذا لم تستطع قول الحقيقة. ولا تلبس الأكاذيب لباس الحق، وتجعل من الأدلة المزيفة غذاءً لدارسي التاريخ.

أكملت حديثها واقتربت نبرة صوتها من التهكم، لم تستطع إخفاء انزعاجها:

- إنه لمن الأمانة أن تعترف من البداية أنك لن تقول الحقيقة، ثم تكمل في روايتك الخيالية وتخلط الأشخاص وتمزج المواقف، وتخترع أشياء جديدة، وتحذف ما ليس به تشويق. هذا أمر مختلف كليًّا. إنه كما كانت تقول جدتي: "إنها كمية عشب كثيرة للغاية لحصاني". أي لا يناسب ذوقي. يجب عليَّ أن أكون فنانة، وأن أجعل اللغة تمتزج مع المذكرات التي أحكيها، وبهذا تتحول إلى شيء أكثر ثراءً من سرد حقائق فقط، وبهذا أيضًا تنتقل إلى نطاق مختلف تمامًا.

عبَّر "أونريو" عن إصراره بنبرة أكثر انفعالًا، وبها القليل من نبرة أبوية، ولكن على الأقل توقف عن المواجهة، وقال:

- اسمعي يا "لينا". ما أقوله هو أنه يجب على شخص ما أن يروي هذه الرحلة، ويمكنك فعل هذا جيدًا. وإذا كنتِ لا تريدين أن تكتبيها في شكل مذكرات، حسنًا، لا تفعلي. لكن لا تتراجعي عن القيام بهذا العمل تحت أي ظرف. سيظن الناس جميعًا أن أي تشابه بين أبطال الرواية والأشخاص الحقيقيين، سواء أحياء أو أموات، ليس محض الصدفة. ستقولين إنها قصة خيالية ولكن سيرغب الجميع في معرفة من هم الأشخاص الذين تتحدث عنهم القصة. ومن هو الشخص الذي استخدمتيه مثالًا في كتابك. في النهاية، سيتهمونكِ بأنك كتبتِ سيرة ذاتية واعترافًا، وسيحملونكِ مسؤولية كل هذه الأخطاء الأدبية. أعتقد في النهاية أنه من الأفضل لكِ أن تختاري بين كونك صحفية موضوعية وبين أن تروي ما رأيتيه وعشتيه.

ردَّت "لينا":

- هل أكتب عن قصة الحدود؟

- الحدود؟ لا. اكتبي قصتك أنتِ، عن فتاة الطبقة المتوسطة، فتاة الجامعة، القادمة من الجزء الجنوبي الجذاب لمدينة "ريو". لا تخبريني عن الطبقة العاملة في الحدود، والثقافة البديلة، وكل هذا الهراء، لا أتحمل هذه الكليشيهات.

ضحكت، وأدركت أنها استعملت كلمة من قاموسها الشخصي، وتذكرت أنها كلمة استعملها والدي "أدريانو" بالمعنى نفسه، ورأت أنه من الأفضل أن تشرح أكثر:

- لا، أنا لا أتحدث عن الحدود الجغرافية، أنا أتحدث عن الحدود التاريخية. هذا الأمر لا يخص حدود المدينة.

رد قائلًا:

- إنها طريقة عصرية لطرح الموضوع؛ فالجميع مشغولون بوضع خطط عبقرية للكتابة عن مجتمعات الطبقة العاملة على الحدود.

فردت عليه:

- أنت تعلم أنا هذا ليس ما أقصد التحدث عنه. تذكرت ذلك الوقت، قبيل مغادرتك وبعد مغادرتك بقليل، وقت انتهاء الستينيات وبداية السبعينيات، بالنسبة لي كان ذلك هو الوقت حين كنت منجذبة لك. شعرت أنني أقف عند حدود كل الأشياء الخطيرة التي تحدث. عشت مخاطر هؤلاء الذين كانوا في قلب الحدث، وربما أكثر. لأنني لم أجد هنا من يحميني، لم يقف بجانبي أحد، ولكن في الوقت نفسه..

قاطعها قائلًا:

- على النقيض، وقف بجانبك الأشخاص الذين كانوا في قلب الحدث.

وافقت قائلة:

- بالضبط، لطالما كان كل شيء خطيرًا، ولم يكن حتمًا رائعًا؛ لأنني لم أختره، وشيئًا فشيئًا، أيقنت أنه لم يكن لدي خيار، كان يجب عليَّ أن أكمل مسيرتي؛ لأنني أدركت أنه لا يمكنني أن أكون محايدة، تضامنت تمامًا معكم جميعًا، وكان هذا التضامن هو كل ما أملك؛ لأنني لم أرغب في اختيار طريقك نفسه، ولكن لم يكن هناك غيره لأسلكه، كان من المستحيل أيضًا أن أظل في مكاني في ظل تسارع الأحداث حولي، كنت سأتحطم.

كان الأمر كما لو أن تلك الحاجة القديمة لحل المشكلة قد عادت. قامت "لينا" بحركة ما تدل على أنها انتهت من وجبتها؛ وضعت أدوات الطعام الفضية التي كانت تأكل بها بطريقة عكسية، وأبعدت عنها الطبق، وأخذت منديل الطاولة من على رجليها ووضعته على الطاولة. لم تحتج إلى سوى أن تحرك الكرسي إلى الوراء وتنهض وتترك المكان. فبعد كل هذه السنوات، ما زالت تشعر بالتوتر نفسه، والرغبة في الاختفاء، والحاجة لحماية نفسها.

لاحظ "أونريو" - منتبهًا كما هو حاله دائمًا - أفعالها وعاد إلى حديثه:

- ثم رحلتِ.

فردت قائلة:

- بالطبع. لم أكن الوحيدة التي رحلت. ولكن العديد من الأشخاص لم يكن حتى لديهم ذلك الخيار. وفجأة وجدوا أنفسهم في قلب الحدث تاركين الحدود.

تحمس صديقها إلى النقطة التي وصلت إليها المحادثة، وأصر قائلًا:

- أترين؟ هذا ما أقصده، أنتِ على دراية بالأمر كله، فمن الواضح أنكِ كنتِ تفكرين بالأمر، اجلسي واكتبي على الآلة الكاتبة وابدئي في سرد قصتك، لدينا بالفعل العديد من القصص، وحكايات عن العصابة التي كانت تبحث عن الدوامة وقت حدوث العاصفة، احكي قصتك أنتِ يا "لينا"، احكي عما تسميه "المشهد من الحدود"، وكيف لفعل لم تختاريه أن يؤثر في حياتك.

ردَّت قائلة:

- ما حدث لي ليس بالأمر المهم على الإطلاق.

قال لها:

- بلى، إنه مهم، فقد حدث للعديد من الناس.

كان يجب عليها أن توافقه الرأي، فقالت:

- هذه حقيقة، إذا كان الأمر هكذا فمن المحتمل أن يكون شيقًا، سأرى إذا كان بإمكاني أن أكتب تقريرًا عمَّا أتذكره من هذا الوقت، سأحاول أن أكتب خريطة عن مسارات مختلفة للحياة، سأكتب تلك الحكايات في هيئة عمل صحفي حقيقي، أو ربما كتاب.

ردَّ قائلًا:

- هذا هراء يا "لينا"، لا تكوني ساذجة. هذا الموضوع غير مناسب لمقالة في جريدة أو مجلة أو حتى في كتاب في هيئة تقرير صحفي. الآن جاء دوري لأخبرك أنكِ تعلمين أفضل مني أن الجرائد هي أكبر مصادر القصص الخيالية في القرن العشرين.

هنا، بدؤوا الحديث عن الجرائد والقصص الطريفة، وتغير مجرى الحديث. لكن بعد مرور أشهر، ابتسمت "لينا" وهي تتجول في مدن إيطاليا القديمة عندما كانت سيارة "أنطونيو" تسير وسط المحمية الطبيعية حيث رأت لتوها الخنزير البري، وتذكرت أن في هذه المرة كان "أونريو" محقًّا حين قال:

- لن يتحدثوا عن آلامنا في الجرائد.

هناك العديد من الأشياء التي لم تُنشر، وهناك أشياء أخرى تم نشرها على الأقل في الجرائد المغمورة، وحده الشيطان يعلم لماذا يحدث هذا. ولكنها شعرت أنه يمكن للجريدة أن تكون مختلفة، وأن هناك العديد من زملائها يفعلون ما بوسعهم لتحقيق هذا. من يعلم؟ أليس من الممكن أن تتغير الأحوال إلى الأحسن في البلاد؟ أليس من الممكن أن يكون في البلاد صحافة جديدة؟

كانت تشعر أن الروايات لا يمكنها أن تحدث تغييرًا في هذا الأمر، سواء كانت رواية خيالية أو حدثت بالفعل، ليس هذا هو الفارق الجوهري على الرغم من وجود تشابه مع الكلمة اللاتينية “التظاهر”. أين هو الفارق إذن؟ ربما يكمن في الحاجة إلى إخراج الحكاية إلى النور، وترجمتها إلى كلمات تخرج مباشرة من قلب أفكار الكاتب العاصفة، وإعطاء اللغة أهمية أكبر من الحقائق والقصة، لا بد أن يكون هذا هو الفارق، أو شيء مثل هذا القبيل. كانت الكتابة كالمرض، كالهوس باللعب بالكلمات تحت جميع الأضواء الشفافة والضبابية، ومن خلال جميع العدسات والمرايا، وإعادة تشكيلها وتحويلها وتجميلها وتغيير معناها. إن الكتابة ما هي إلا شيء انطلق دون تحكم ودون قاعدة، مثل الجوع، والعطش، والجنس، مثلها مثل الحيوان الذي اصطدم بالأشجار، ومثل هذا الخنزير البري الذي ظهر فجأة وسط الغابات في الضباب، مثل حيوان من خارج هذا العالم، جاء من كون مختلف جدًّا عن تلك الكائنات الموجودة في غرفة الأخبار.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

3

"أتحدث فقط مع من أتحدث إليهم..

أولئك الذين يعانون من نوم الموتى،

ويحتاجون إلى إنذار:

مُرَّ كأشعة الشمس الحارقة والشديدة على العيون،

والصامدة بجانب الحبوب المزروعة،

والقوية على الجفون،

كقبضة يد تطرق الباب".

"جواو كابرال دي ميلو نيتو"

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

شملت تلك الكائنات الموجودة في الجريدة "باروس" على سبيل المثال. ولكن كانت "لينا" على علم تام - عندما تفكر في الكتابة - أنها لا يمكن أبدًا أن تذكر هذه الشخصية في كتابها أو تظهرها على خشبة المسرح. سيكون هذا أمرًا غير واقعي، ومبتذل، ومنحط، ونمطي. لن يصدق أحد أن مثل هذا النوع من الشخصيات موجود على أرض الواقع وليس فقط في عالم الكاريكاتير. في الحقيقة لم يهتم "باروس" بسوى رقص "السامبا" وكرة القدم والنساء، وغفل عن جميع الأمور الباقية. أدار مدرسة لرقص "السامبا"، ولم يَفُتْه حضور أي مباراة لفريقه المفضل في الجزء الخاص بكبار الشخصيات؛ خوفًا على نفسه، فلا يوجد شخص مصنوع من الحديد، كما أحب أن يتغزل بنظره في أي فتاة جميلة تمر بجانبه، وأن ينُمَّ مع أصدقائه عن أولئك الذين على علاقة ببعضهم. وعلى الرغم من كل ذلك، ما زال يُعد أحد المهنيين الأسطوريين القدامى، وربما كان في يوم ما - منذ زمن بعيد - مراسلًا جيدًا. عندما كان لا يزال حماس روحه ناريًّا وبداخله الرغبة ليصنع اسمًا لنفسه، وقبل أن يتقلد منصبًا إداريًّا ويرتدي قمصان رسمية كحال أي صاحب عمل. وعلى الرغم من ادعائه تبنيه وجهات النظر الليبرالية ومساندته أصدقاءه الذين وضعوا أنفسهم في مشكلات مع قمع الدولة فقد كان يساند السلطة، وكانت لديه القدرة على مصادقة شخص يعذِّب الناس ودعوته ليكون ضيفًا دائمًا في منزله.

لم تصدق "لينا" الأمر عندما علمت به، وظنت أنها مجرد نميمة قذرة، وأنه لا يمكنه أبدًا أن يفعل شيئًا كهذا. ورأت أنه من الأفضل أن تسأل الرجل مباشرة في أقرب فرصة، فسألته:

- "باروس"، هل تعلم أن هذا الرجل من القائمين على قمع وتعذيب الأشخاص؟ وهل تعلم أن هناك مصادر موثوقة تفيد أنه من عذب "سيلو" شخصيًّا؟

أكد "باروس" الأمر، وبرر الموقف قائلًا:

- لا يوجد خطأ في الأمر. اسمعي يا "لينا"، عندما يتعلق الأمر بالصداقة لا يمكن للمرء أن يكون راديكاليًّا متطرفًا. ما يهم هو الإنسان وليس السياسة.

فردت عليه قائلة:

- بالضبط. إنه من الإنسانية أن هذا الرجل..

فقاطعها قائلًا:

- إنه شخص جيد للغاية؛ يجب عليكِ أن تتعرفي عليه أكثر، فهو أب جيد جدًّا، ورب أسرة رائع، ولا يستطيع إيذاء ذبابة.

فردت قائلة:

- ولكن يمكنه إيذاء السجين الذي يقع تحت يديه ولا يستطيع أن يدافع عن نفسه.

كان "باروس" لا يزال يدافع عنه قائلًا:

- هذا ما يمليه عليه عمله، ولا يتعارض هذا مع علاقاته مع أي شخص. يجب عليكِ أن تَرَيْه يا "لينا" خارج إطار عمله، إنه شخص رائع، وطيب، ومثقف، ومهذب للغاية، ولبق، وعظيم. أنا مُصرٌّ على أن تقابليه، حتى تعيدي النظر في أحكامكِ المسبقة عنه.

لم تستطع أن تتمالك أعصابها، وردت قائلة:

- "باروس"، أعلم أن هذا أمر لا يخصُّني؛ فهذا هو منزلك، وهذه هي حياتك، ومن حقك أن تختار أصدقاءك. ولكن، اللعنة! ليس من حقك أن تفرض هذا الرجل على أصدقائك الآخرين الذين يأتون إلى منزلك أيضًا ولا يشكون في الأمر وتخاطر بهم إذا قابلوه، لا يمكنك أن تغفل "عمله"، لا يمكنك يا "باروس".

اعترض قائلًا:

- أنتِ دومًا الراديكالية.

فردت عليه قائلة:

- لا تغير الموضوع يا "باروس"، أنا حقًّا مصدومة! أنا مندهشة أنك صديق "أونريو" المقرب، وأنك تفعل هذا وهو في المنفى، أنت دون الآخرين. لقد تصرفت بشهامة عندما سُجن "أونريو"، واكتشفت أين هو، واخترقت التعتيم الإعلامي، بل قمت بحمايته من التعذيب وهو في غرفة العمليات حين كانوا يستخرجون الرصاصة من جسده، وكل ما يخص هذا الأمر. كيف لك أن تتشارك غداءك مع شخص مثل هذا؟ وأن تقيم له حفل شواء أيضًا؟ كيف لك أن تدخله منزلك وسط أطفالك؟ قال "كالادو" مرة إنه لا يمكن أن نستضيف على الغداء أولئك الذين يريدون أن يأكلوننا على العشاء.

كان تفسيره لهذا الأمر مفاجأة كبيرة وصدمة أكبر، فقال:

- لا يوجد اختلاف بينه وبين "أونريو"، ألا ترين ذلك؟

ردت عليه قائلة:

- كيف لا يوجد اختلاف بينهما؟ يا له من أمر سخيف. لقد فقدت عقلك يا "باروس"! هل تدرك ما تقول؟

لا بد أن "باروس" كان يحب "لينا"؛ كان صبورًا كما لو كان والدها، وفسَّر لها ما رآه واضحًا ولم يخفِ عنها أي شيء، وقال:

- إن الأمر واضح، لو توقفتِ لحظة لتفكري في الأمر دون أن تكوني راديكالية، ودون أن تقومي بدور الفتاة المانوية، ودون أن تري عالمك منقسمًا إلى رعاة بقر وقطاع طرق، سترين أنني على حق. هو و"أونريو" وطنيان، ولكنَّ كلًّا منهما له طريقته، يحب الاثنان البرازيل ويريدان التقدم لشعبنا، يعتقد الاثنان أنه لا يجب على الشخص أن يضيع وقته وهو ينتظر حل الأمور من تلقاء نفسها، ولا يصبر الاثنان حتى يجدا طريقة لتغيير ما هو خاطئ في بلادنا، اعتقد أحدهما أن الإرهاب يوفر طريقًا قصيرًا لحل الأمور، والآخر يعتقد أن التعذيب ما هو إلا طريقة لإنقاذ حياة البشر.

ردت عليه غاضبة، وقالت:

- ماذا تعني بإنقاذ الحياة؟ لا بد أنك تمزح. يا لها من مزحة سيئة! لا يمكن أن يكون ما تقوله صدقًا يا "باروس".

- بالطبع أصدق ما أقول يا "لينا"، إنه أمر منطقي، وستقتنعين أيتها الفتاة الذكية بأسبابي، إذا كان تعذيب رجل ما يتيح لكِ معرفة معلومات تساعدك على منع جرائم جديدة من الإرهاب؛ معلومات لن تستطيعي الحصول عليها بأي طريقة أخرى؛ إذن فالتعذيب هو طريقة لإنقاذ الحياة.

أدركت أن المدير لم يكن يضايقها أو يمازحها كما كانت تعتقد من قبل، بل كان يتحدث بجدية. شعرت بالاشمئزاز والغضب المتصاعد، ولكنها حاولت أن تهدأ وتجادله قائلة:

- لا يوجد ما يبرر التعذيب يا "باروس"، لا شيء على الإطلاق. ولا يوجد أي تفسير لتلك الأفعال، بما في ذلك الإرهاب. فبدايةً ما تسميه إرهابًا هو ليس إرهابًا؛ إنه صراع مسلح، أو حرب عصابات مدنية، أيًّا كان، إن الإرهاب هو أن تقوم بهجمات إرهابية في كل مكان، وتعتدي على الأبرياء، والأشخاص غير المسلحين، أي أن تتبنى العنف في الوقت الذي توجد فيه أشكال أخرى للاعتراض، أو الصحافة الحرة، أو هيئة تشريعية فعالة، أو حرية الرأي والتجمهر، أو الحق في الاعتصام، وكل الأشياء من هذا القبيل. إن الإرهاب هو ما كانت تفعله "جماعة الألوية الحمراء" في إيطاليا، أو تلك المجموعات الألمانية، أو جماعة "الباسك" الانفصالية، أو تلك الجماعات في الشرق الأوسط، أو ما حدث بالقرب من هنا؛ تلك القنابل التي انفجرت في رابطة الصحافة، وفي رابطة القانون البرازيلي، وفي أكشاك الجرائد، وفي مؤتمر الأساقفة الوطني. كل ما سبق لا يمت بصلة إلى أنشطة الرجال الذين تم تعذيبهم. انتظر لحظة، إن صديقك العزيز "ماتيوس" مثال على ذلك، الأب الروحي لطفلك، كما علمت، دخل هذا الشخص الرائع واللطيف السجن، وتم تعذيبه، وكسره دون سبب سوى أنه يومًا ما كان ضامنًا لشقة قضى فيها شخص تبحث الشرطة عنه ليلة واحدة.

- نعم، الأشياء السيئة تحدث! من المحتمل أن يرتكب الجانبان أخطاء، ولكن هذا لا يُبطل أيًّا مما قلته لكِ. إن المعذِّب مثله مثل الإرهابي.

كررت قائلة:

- هذا ليس إرهابًا؛ إن الإرهاب شيء آخر مختلف كلية، إنها مقاومة..

- ها أنتِ مجددًا تتلاعبين في الألفاظ، إنه الأمر نفسه.

رأت أنه من غير المجدي أن تستمر في معارضته، أو أن تخبر أحدًا أي شيء عن الأمر، فلن يصدقها أحد، فإن صورة "باروس" عند الجميع هي صورة المراسل القديم، الودود، الليبرالي، كانت سُمعته لا غبار عليها لدى من لا يعرفونه، لم يعرف حقيقته سوى القليل، أولئك الذين اقتربوا بما يكفي ليعرفوا ما كان عليه. يومًا ما، سيجد أحد المتدربين في قائمة مهماته اليومية: (مات "باروس"، كان يعمل صحفيًا هنا ضمن الفريق القديم، قم بتغطية أحداث الجنازة). سيسمع المتدرب في أغلب الظن العديد من الناس يمدحون صديقهم البوهيمي القديم، الرفيق المقرب القادم من «ريو»، والذي كان دومًا مرحًا عند التحدث إليه في الـ»ساونا» أو في البار، ولكن سيكون الأمر

في غاية الإحراج إذا ما أجرى مقابلة مع زوجته السابقة، أو صديقته، أو الأب الروحي لطفله، أو أولئك ممن عرفوا حقيقته؛ لأنهم سيعرفون أنه لم يُدفن في هذا اليوم، بل كان ميتًا ومدفونًا منذ زمن بعيد، وما تبقى منه فقط هو الاسم والشهرة. لطالما حزنوا عليه منذ فترة طويلة، حتى جفت دموعهم.

أما بالنسبة إلى "لينا" فقد اعتقدت أن "باروس" رمز، حسبما دار بينها وبين "أونريو" في المطعم، أثبت لها "أونريو" أن الكتابة عن حقيقة الأشخاص في القصص وإظهار الحقائق مثلما حدثت هو أمر مستحيل، فلن يصدقها أحد. فالروايات تحتاج إلى المنطق الذي نادرًا ما يوجد في الحياة، ويجب على الأشياء أن تبدو حقيقية في المسرحية أو الرواية حتى لو لم تكن كذلك، وأن تبدو مثل الحقائق التي يمكن أن يتم ذكرها في تقارير الصحف. كان "أونريو" على حق عندما قال: "إن الصحف هي أكبر عمل خيالي في القرن العشرين، حتى في طريقتها".

ولكنها كانت أيضًا على حق؛ لن تتمكن من اتباع نصيحة "أونريو" وتجعل القراء يصدقون أنها تكتب تقريرًا موضوعيًّا في حين أنها تكتب عن أشخاص حقيقيين، مما سيجعلها في الأغلب تعطي رأيها الشخصي عنهم وتصنع لنفسها عداوات، أو تكذب لتحافظ على لباقتها.

تذكرت "لينا" تلك المحادثات، وفكرت كثيرًا في تفاصيلها حين كانت في السيارة مع أصدقائها في الطريق القديم وهم يصعدون التل. زاد اقتناعها أكثر وأكثر أنها ستكتب في نهاية الأمر. كان الجو باردًا وسرت في أذنيها قشعريرة من البرد، وذلك عندما وصلوا إلى قمة التل بالقرب من الحائط الذي احتمى فيه سكان المدينة الصغيرة من أعدائهم منذ قرون طويلة. كانت الأرض أمامهم بالأسفل بها مقابر أثرية ومزارع عنب سقطت أوراق أشجارها. داعبت الرياح بالأعلى رأسًا لم تكف عن التفكير في الحاجة المتزايدة لتتبع المسار الذي تحدث عنه "أونريو".

كلما أطالت التفكير أكثر في هذا الأمر أدركت أنها لم تكن مرحبة بفكرة أن تكتب "شهادة" كما اقترح "أونريو"، كان فقط وقع الكلمة على أذنيها المذهل والحساس هو ما لفت انتباهها في بادئ الأمر، فلن يشكل فارقًا في الأمر إذا ما كتبت هذا أو ذلك. بدأت "لينا" ترى الأمر من زاوية أكثر وضوحًا؛ فمثلما حفر سكان القرية القدامى هؤلاء في الصخور ليكتبوا كتابًا متحضرًا في هيئة بيوت وحوائط يحكي تاريخهم ويعيدهم إلى الحياة بعد مئات السنين، يمكنها هي الأخرى أن تنحت في صخور اللغة اليومية والمتداولة بين حياة أصدقائها من أجل أن تبني مأوى يحمي الجميع من برودة وضباب الشتاء، واندفاع الخنازير البرية في الليل التي لا ترى أين تذهب ولا ما تمزقه في طريقها. أرادت أن تبني لنفسها هي الأخرى مأوى ليصبح لديها مساحتها الخاصة؛ آمنة من

الاحتلال، والتلوث، ومن المحرر الذي يحذف جمًلا ويضيف عناوين فرعية لها أكثر من معنى خفي كما فعلوا في الجريدة. كانت تريد مكانًا إذا وطئته قدماها تجددت طاقتها مثل «أنثيوس» في الأساطير الإغريقية، أو الجزء الخاص بالثور في حلبة المصارعة، حيث لا يمكن لأي مصارع ثيران أن يقتله. تأملت في الحيوان البري الذي يحدد منطقته بالتبول حولها، والويل لمن يتجاهل الرائحة ويتجرأ ليدخل منطقته.

أرادت أن تكون سدًّا ضد الفيضانات، وأن تضع حدودًا لمساحتها من الحرية الشخصية. وبالتالي، فلا عجب أنه بعد شهور كثيرة مضت، انتابتها رغبة قوية في بناء الحوائط حولها وهي في بيت أمها تستلقي تحت أشعة الشمس، وذكرتها تلك الرغبة بزيارتها إلى الـ"باسينو" مع "أنطونيو" و"ماريا".

ظلت مريضة في بيت أمها، تستمع إلى صوت دقات الساعة القديمة التي تعزف ألحانًا كل ربع ساعة تحمل في طياتها ذكريات طفولتها، كان في بيتها عند أمها مكان لجسدها ولكن ليس لروحها، لم تشعر روحها أنها في مكانها، خاصة الآن وقد تركت عملها في الجريدة لتعمل على كتاباتها، محطمة بذلك كل صخرة وكل حائط من بيتها ومأواها لترسم صورة ما تكتب. كان عليها أيضًا أن تواجه حقيقة مرضها؛ ذلك المرض الذي أخرج كل شيء من الأعماق.

لم تتحمل مجرد التفكير فيه، على الأقل ليس الآن، ربما بعد أيام قليلة أو ساعات قليلة، كانت تعلم أنها ستبحث في النهاية عن مثل هذا الهدوء الذي يتيح لها أن تقف بشجاعة أمام ما تمر به، فربما كانت هذه محاولة لتعيد اكتشاف أمان الطفولة الذي لم تشعر بقيمته من قبل. عرفت الإحساس بهذا الأمان بين جدران المنزل وبين أشجاره، وداعبها نسيمه الذي كان في بعض الأوقات يزعجها ثباته. تمنت لو أن نسيم البحر أخذ آلام الواقع ورحل بعيدًا، فقد تذكرت قول الطبيب إنها لن تستطيع إنجاب الأطفال أبدًا من ناحية، ومن ناحية أخرى أدركت أن الكلمات لم تعد تحت طوعها بعد الآن، ولم تعد تلبي استدعاءاتها إلا إذا رغبت الكلمات في أن تأتي.

لم يحمل المستقبل لها سوى العوائق؛ فلا مستقبل في الابتكار ولا حتى في الإنجاب. لم يعد يثير تعجبها كونها تصطدم في الحوائط ولا كونها تجد صعوبة في الوقوف مستقيمة في الحاضر، ولا كونها تحاول أن تلم شتات نفسها باحثة في ذلك عن نقطة في الماضي تمكنها من رسم اللحظة، حتى ولو كانت بقايا لحاف مصمم في المنزل.

قاطعها صوت أمها وهي تقول:

- أليس هذا موعد دوائك؟

أهناك وصفة طبية بها الحل لكل هذا؟ أهناك شيء خارجي يمكن أن يساعدها، ويقضى على الألم الذي تشعر به عندما تفتح عينيها؟

أصرت أمها قائلة:

- خذي الدواء يا طفلتي؛ لتتحسني.

كان فتحها لفمها لأخذ الدواء أقل ضررًا من أن تعارض أمها، لم تعلم ما إذا كانت تتحسن بالفعل أو ما معنى أن تتحسن من الأساس.

في الواقع؛ إنها لم تعد تسقط طوال الوقت كما هو الحال في السابق، لم يحدث هذا منذ أسابيع. لا تجد نفسها الآن فجأة لا تعرف أين هي وما يدور حولها. كانت تفقد توازنها ولا تعرف الاتجاه الرأسي من الأفقي، كانت تجد نفسها ملقاة على الأرض وعينيها مفتوحتين. في تلك اللحظة كانت ترى كل شيء وتسمع كل شيء حولها، لم تفقد وعيها بالكامل، ولم تشعر بالدوران، لكنها لم تملك أدنى فكرة عما حدث لها. كانت تشعر بتحسن بسبب الأدوية على الأرجح أو بسبب الوصفات الطبية العديدة، ولكنها بدأت في نسيان الأشياء أكثر وأكثر؛ لم تنسَ ما حدث في الماضي فقد بدت أحداثه متجددة في ذهنها وقوية، ولكنها كانت تنسى الأشياء اليومية. ففي بعض الأحيان، كانت تتواجد في المنزل وفجأة تجد نفسها بالخارج في الشارع، ولم تملك أدنى فكرة عن أين كانت ذاهبة، أو من أين جاءت، أو ماذا كانت على وشك أن تفعل. وفي أحيان أخرى، كانت تجد نفسها مذهولة في منتصف محادثة ما، ولا تملك فكرة عما يتحدثون عنه أو ماذا كان عليها أن تقول.

شرح لها الطبيب أن ما يحدث لها هو أن عقلها يمر بنقاط بيضاء يتوقف فيها الزمن. كان التعبير مفاجئًا لها، على الرغم من عنصرية اللغة في اختيار اللون الأبيض لما يحدث لها. ما شعرت به حقًّا هو أنها كانت تقع في نقاط سوداء من الزمن، أوقات من الظلام الدامس، درجة من الظلام لا تستطيع فيها أن ترى أي شيء. وفجأة، تجد نفسها محاطة بضوء أبيض يعميها ولا تعلم كيف وصلت إلى هنا.

ظلت هذه اللحظات تحدث بكثرة، وشعرت أن هذه "الحلقات" - كما كانوا يسمونها - تتكرر معها، لم تشعر بتحسن على الإطلاق، بل ازدادت حالتها سوءًا، وازدادت قدرتها على إيجاد الكلمات سوءًا أيضًا. لاحظت أنه حتى لو ركزت قبل أن تتحدث، كانت دومًا ما تقول الكلام الخاطئ دون أن تشعر، وفي لحظات أخرى لا تركز من الأساس، وتُفاجَأ بتعبير وجه من كانت تتحدث معه، فتدرك أنها قالت شيئًا لا معنى له.

كان هذا الأمر يؤلمها أكثر من إحساسها بالقيء أو الصداع أو أي ألم جسدي كانت تشعر به، كيف لها بحق الجحيم أن تظن أنها تتحسن؟ هل هذا هو الأفضل؟ هل يعني هذا أن تعيش منقسمة بين عالمين؟ هل يعني هذا أن تبدو جميلة ومطيعة للعالم الخارجي حيث يراها الجميع مثل الفتيات الصغيرات في قصص الأطفال القديمة، في حين أن عجلات الماضي تدور باستمرار في ذهنها وتشكل عالمًا آخر حيث تجد نفسها فيه تتذكر وتفكر بشكل أفضل، ولا تستطيع أن تتشارك أعراض دوارها مع أي شخص؟

تصادف كل هذا مع عقدها العزم على أنها ستقوم بهذا العمل، وتجمع المقابلات، وتحلل الرسائل والتصريحات، وتمزج قصاصات الجرائد مع ذكرياتها المؤلمة، وتحاول أن تنظم بقايا الأحداث لتكتبها في مسرحية، وتغزل خيوط الدراما، وتخبر الجميع على خشبة المسرح عن رحلة امرأة على حافة الأحداث.

هل كان مرضها هو مجرد طريقة ليعرف جسدها الخوف من جميع العقبات والصعاب التي توقعت حدوثها؟ هل يمكن لذلك أن يكون خوفًا، أو كسلًا، أو ذعرًا؟ أو هل كان بسبب ذلك الموقف مع "ألونسو"؟ ها هي مجددًا تحبس نفسها في دائرة مغلقة.

فحص الأخصائي الخاص بها أشعة مخها، وقال لها إن حالتها ليست مجرد حالة عاطفية أو نفسية. ولكن ماذا إذا كان هذا هو السبب؟ ماذا إن لم يكن على حق؟ ماذا إن كان شيء ما في عالمها الداخلي يحاول خداعها أو خداعه هو حتى؟

اجتاحتها رغبة عارمة في أن تهزم أيًّا كان ما تواجهه، أرادت أن تكسب هذه المعركة، لا أن تبقى ساكنة.

قاطع صوت أمها مرة أخرى الظلام كما لو كان أحد يزيح الستار فيكشف عن خيط من أشعة الشمس الفضية ويتيح له احتلال الغرفة، قائلة:

- من هذا الذي لا تريدين اتباعه؟

أعماها ذلك الضوء فجأة، دون حتى أن يكون نورًا حقيقيًّا، فقالت لأمها:

- لا أفهم يا أمي، ما الذي تتحدثين عنه؟

فردت عليها أمها:

- أنا من لا يفهم يا "لينا"، لقد قلتِ أن عليكِ اتباع...

فردت عليها "لينا" وقالت:

- أنا؟! لم أقل أي شيء، هذا غريب!

فقالت أمها:

- أنا آسفة، لقد ظننت أنكِ قلتِ شيئًا، ربما أخطأتُ السمع.

لقد قالت شيئًا بالطبع، وأمها كانت تحاول أن تمرر الأمر حتى لا تجرحها، ولكنها أيقنت أنها قالت شيئًا ولم تعلم ما هو، ولم تملك حتى أدنى فكرة ماذا قالت. تكرر هذا الأمر مؤخرًا معها؛ أن تقول أشياء غير منطقية، جملًا مفصولة عن بعضها تحرك أحبالها الصوتية لتخرج أصواتًا لا تعرفها، وفي بعض الأحيان، كانت تنسى ما كانت تفكر فيه لتوها، وتظل منتظرة إجابة عما لم تقله.

كان الأمر أكثر سوءًا الأسبوع الماضي، في البيان الصحفي لعرض "باولو"، على الرغم من أنها حذرته عندما طلب منها أن تساعده، قائلة:

- لا أستطيع يا "باولو"، لن أتمكن من الكتابة.

كانت معجبة بـ"باولو" جدًّا، وأحبت ما يفعله. كان له أسلوبه الخاص؛ فقد اخترع طريقة للقيام بالأشياء بعد عودته من المنفى. أرادت مساندته بشدة في عرضه الأول، فقد كان مهمًّا له للغاية. لم ترغب في أن يظن أنها لا تُقدِّر ما يفعله، ولهذا لم تعتذر له وتقول إنها مشغولة ولا تملك الوقت، كما كانت تفعل مؤخرًا مع أي ارتباطات محتملة قد تهدد بسلامتها النسبية. قالت لـ"باولو" الحقيقة، ولكن مخففة، فألقت باللوم على أدويتها:

- كل ما في الأمر أنني أتناول بعض الأدوية، وهي تجعلني غير منتبهة. أنا لا أستطيع الكتابة.

فرد عليها:

- هذا هراء يا "لينا"! كل ما أطلبه هو كتابة فقرة لتوزيعها على الصحفيين، أنت تعرفينني جيدًا، وتعرفين حياتي وعملي، يمكنك أن تفعلي هذا بيد واحدة حتى.

هل من الممكن تحويل الأمر إلى مزحة؟ أيمكن أن نقول إنه حتى تلك اليد مكسورة؟ كتبت الفقرة؛ كان عملًا صغيرًا، خمسة عشر سطرًا على الأكثر. كتبتها وقرأتها مرة أخرى وأعجبتها، لكن حين أتي "باولو" ليقولها في اليوم التالي أخذ الصفحة وقال لها:

- أعتقد أنكِ أعطيتني الصفحة الخاطئة يا "لينا"، هناك بعض الرموز والكلام غير المنطقي.

أخذت الورقة منه وحاولت أن تفهم المكتوب ولكن دون جدوى، قرأته مرة أخرى وبكت. كانت تعلم أن هذه هي الصفحة التي كتبتها أمس؛ كانت متأكدة

من ذلك. ولكن أين هي الكلمات التي فكرت فيها واختارتها بعناية؟ لماذا تحولت إلى شيء آخر عندما عرفت طريقها إلى الورق؟ كيف قرأته وفهمته عند كتابته؟ وكيف لا تفهم الآن شيئًا مما كتبت؟ شعرت وكأنها أمٌّ لا تتعرف على طفلها.

تشارك "باولو" معها العديد من اللحظات الصعبة سابقًا: في الجامعة، وفي المظاهرات. وجمعتهما الخطوط الرفيعة التي وصلت بين الحياة السرية والحياة تحت طائلة القانون، وحياتهما في المنفى من الداخل. لم يكن عليه أن يقول أي شيء ليظهر لها مدى اهتمامه. وضع يديه على كتفيها، وربت على رأسها للحظة، ثم نهض وذهب إلى الحمام وعاد إليها بصندوق من المناديل الورقية، قائلًا:

- حسنًا، ابكي كما تشائين، وعندما تهدئين ستشرحين لي كل شيء. ما رأيك أن تشربي فنجانًا من القهوة؟ إذا أخبرتِنِي أين تضعين الأشياء، سأعد لنا فنجانين.

ردَّت عليه:

- لا، شكرًا لك.

فقال لها:

- حسنًا، سأعد واحدًا لي.

ذهب "باولو" إلى المطبخ وتبعته "لينا". كان يفتح خزانات المطبخ، ويملأ الغلاية بالماء، ويفتش في الأدراج. تركته يفعل كل شيء في الوقت الذي حاولت فيه أن تحبس دموعها، لم ترِد أن تزعجه، ولكن كيف ستشرح الأمر؟ ماذا لديها لتشرحه؟ لم تعرف الإجابة عن أيٍّ من الأسئلة، كل ما استطاعت قوله هو:

- هذا ما كتبته يا "باولو"، أو ما قصدت أن أكتبه. لا أعلم ما حدث، أنا على هذه الحال منذ مدة، أفكر في شيء وأكتب شيئًا آخر.

جلس بجانبها وبيده فنجان من القهوة يتصاعد منه البخار، فتح الورقة المكتوبة وتفحصها، وقال:

- أرى اسمي هنا، يمكنكِ رؤيته أنتِ الأخرى. ولكن هذه الجملة معقدة بعض الشيء: "وهنا يتردد الكائن الفضائي الخاص بالمستسلم "باولو فيلجيرا" وهو يتحدث لغتين..."، هذا معقد للغاية، هل أنتِ متأكدة أن هذا الكلام عنِّي؟

تشكلت فكرة في رأس "لينا"، وأخذت شكلًا أكثر وضوحًا، وقالت:

- انتظر لحظة يا "باولو"! تذكرت لتوي شيئًا. إن "تردد" في البداية ما هي إلا فعل "يوجد". أنا متأكدة أن الجملة بدأت بـ"يوجد". لم أكن أريد أن أستخدم فعل "تكون" لذلك ستختلف في الفقرة الثانية فتصبح "يوجد" بدلًا من "يكون".

رد "باولو":

- إذن فـ"المستسلم" هنا تقصدين به "المصمم"، وهذا ما أكون.

قالت له:

- نعم، هذا ما كنت أقصده!

قرر كلاهما بناءً على حسهما الفكاهي وقدرتهما الاستنتاجية أن النص يبدأ بـ: "هناك خط من الأزياء للمصمم "باولو فيلجيرا" مميز..". وهكذا فكَّا رموز ما كتبَتْ باستعمال القليل من المجهود والكثير من الضحك حتى الاختناق.

قال لها "باولو":

- أترين يا فتاة؟! لم يكن الأمر صعبًا. كل ما عليكِ فعله هو أن تقرئي بصوت عالٍ، وأن تبحثي عن صوت الكلمات، إن الأمر سهل. ما يهم هو أنك تفكرين بشكل سليم، وأفكارك متصلة بشكل مثالي، إن منطقَكِ لم يتأثر، لا يجب على كتاباتك أن تكون جدية، تحتاجين فقط إلى شيء رسمي وسطحي، إن بنية أفكارك رائعة.

لم تقل شيئًا، كان هناك بصيص من الأمل، لاحظت للمرة الأولى ما يحدث من تشويه لأفكارها، على الأقل في الكتابة، ولكن كان الموضوع مختلفًا بالنسبة للكلام، كانت الكلمات تختفي تمامًا، أو كان من المستحيل استرجاعها، وفي بعض الأحيان تختلط عليها وتخرج على هيئة كلام فارغ لا يفهمه أحد.

استمر "باولو" في المزاح ليخفف عنها، وقال:

- أترين؟ يجب عليكِ أن تتبعي أسلوب شكسبير؛ فهناك مبدأ لجنونك بالكتابة.

لم تعجبها كلمة "جنون" في هذا التعليق، ولكنها كانت على دراية أن مساعدة "باولو" مهمة؛ ليس فقط بسبب حبها له ولكن بسبب ملاحظاتهما الحريصة ورحلتهما معًا في اكتشاف ما لديها. يجب عليها أن تفكر في الأمر كله.

كانت هذه هي اللحظة التي قررت فيها أن تعطي لنفسها بعض الوقت، وأن تترك كل شيء وتذهب إلى الشاطئ عند أمها، متحججة بإصبعها المكسور مؤخرًا. لم تكن لتجرؤ على أن تطلب المأوى لتتعافى من جروح روحها.

قدم "باولو" اقتراحًا آخر قبل أن يرحل فقال:

- انظري يا "لينا"، أمِن الممكن أن تكون كل هذه الأدوية التي وصفها الأطباء أكثر من اللازم؟ لماذا لا تجربين شيئًا مختلفًا؟ هل جربتِ المعالجة المثلية، أو الإبر الصينية، أو ما يشبه ذلك؟

فردت عليه:

- فكرة جيدة، سأفكر بها.

لم ترد أن تخبره بأنها قامت برحلة العلاج البديل من قبل. ربما كان يجب عليها أن تصبر أكثر مع المعالجة المثلية، ولكنها استسلمت بعد أن جاءتها نوبة التعب نفسها عدة مرات بعد أيام من الجلسة. أما بالنسبة للإبر الصينية، فكان لها نتائج جيدة في أكثر من مناسبة، وكانت تأمل في نجاحها كثيرًا، ولكن كانت هناك مرة معينة عنيفة للغاية؛ فقد قابلت الأستاذ "زانوتي" الذي جعلها تترك كل هذه الأنواع من العلاج للأبد.

بدأ الأمر بداية جيدة، فبمجرد ذهابها إلى منزل الأستاذ شعرت بأنها في حال أفضل. ذهبت إلى منزله ذات يوم مشمس، فبيته كان على تلة تصل إليها إذا أخذت الطريق الذي يمر عبر الغابة، وبجانبه نافورات المياه التي ترجع إلى عصر الإمبراطورية البرازيلية. ارتفعت الأشجار العظيمة في الأفق بجانب أشجار الـ"كاسيا فستيولا" الذهبية وسط أشجار البوق الفضية التي زينت الغابة.

لطالما حسَّن المرور من هذا الطريق مزاج "لينا"، وظنت أن السبب يرجع إلى المنظر الطبيعي وليس بسبب كونها وُلدت هنا أو كون حملها السري مدفون هنا، ولا بسبب لعبها هنا وهي صغيرة في الشوارع وركضها على التلة بين المروج وراء الماعز. كان جانب شخصيتها المحب للجبال هو ما وازن بين عشقها للشاطئ بجنون. كان الأمر أكثر من ذلك؛ فهذه هي أرض أجدادها الآخرين حيث ذكريات عائلة والدها.

صعدت في هدوء وهي تفكر في أن تلك الذكريات يجب أن تكون علامة جيدة على أن شيئًا إيجابيا سيحدث، لم تتفاجأ مطلقًا حين اكتشفت أن الأستاذ "زانوتي" يسكن في الشقة نفسها والبناية نفسها التي طالما زارتها وهي طفلة لترى أجدادها. تعرفت على المدخل ورخام الرواق الداكن، تردد صدى صرير باب المصعد المعدني في ذاكرتها.

ظنت أن ما يحدث هو بشرى خير؛ فلم يكن الأمر مجرد صدفة، فلا تفسير آخر، شعرت كما لو أن جدها معها ويعتني بها، تذكرته وهو يتحدث إليها بلهجته البرتغالية القوية وهو يعلمها كيف تمضغ خبز التوست وفمها مغلق، وأن تلاحظ الصوت العالي الذي تسببه قرمشة خبز التوست، أو وهو يعلمها كيف

تفك لفافة الحلوى القادمة من لشبونة وتأكلها معه في سرية تامة بين الوجبات في جو يسوده الدفء.

نظرت من النافذة وهي تنتظر أن ترى الأستاذ "زانوتي". بعث المنظر السلام في نفسها، فالغابة الخضراء ومنظر المدينة عن بُعد جعلها على وشك أن تصلي. لم تكن صلاتها مثل الصلوات الكاثوليكية من التعاليم المسيحية، ولا صلوات الجموع، ولا من حياتها قبل المنفى. كانت صلواتها مختلفة، كأنها محادثة مع أجدادها الذين عاشوا هنا.

ضاق صدرها ولاحظت فجأة أن شخصًا آخر في هذه المحادثة غير مرئي بين أوراق شجرة "الجاكا" في الغابة. بالطبع، كيف لها أن تنسى أن هذا الشخص هو من أتى بها إلى هنا؟ كادت تسمعه وهو يتحدث بلهجته المليئة بأصوات حرف الـ"راء" بسبب نشأته في باريس في طفولته، وسعاله الخفيف، وصوته النابض بالحياة. كان هذا الشخص هو "لويس سيزاريو" العزيز الذي عاش في بيت على بعد عدة شوارع لأعوام عدة حتى وفاته الأليمة منذ شهور قليلة.

سيخلَّد "لويس سيزاريو" في ذاكرتها دائمًا في صورة الساحر القديم صاحب القوى السحرية، مثله مثل "ماجوس" وحكمته الأثرية، مسيطر على قلبها مثل "مرلين"، ومعه القديس "فرنسيس" الذي لا ينتمي إلى الكنيسة واقفًا في شرفته ومعه عصاه البيضاء ملوحًا بها للرياح. ستتذكره دائمًا وهو تحت عطر شجرة الياسمين أو تحت أشجار "السرخس" الباكية، وهو يرسل بقبلاته إلى المساء حتى تأتي الطيور المغردة لتشرب من شفتيه.

ها هو الآن غير مرئي للعين المجردة يضحك ويمزح كعادته، كان دومًا رفيقها في المغامرات، ودليلها لمعرفة طريقها، كان لا يزال هادئًا مثل ليلة وفاته حين طلب منها وهو يأخذ الـ"مورفين" ليتحمل الألم أن يرتدي ألوانًا زاهية وثوبًا مفتوحًا في جنازته، قائلًا:

- أريد شعاعًا من الجمال!

أرسل لها رسالة حين كان على مشارف سكرات الموت بمنتهى الحكمة التي طالما عهدتها فيه، قال:

- أخبروا "لينا" أنني أفكر بها، وأن الجمال موجود، وأنه يستحق كل شيء.

كانت الأشجار تهمس مجددًا أثناء انتظارها دورها لتحاول أن تجد صحتها مرة أخرى. ابتسمت، فقد كان أمرًا مريحًا أن تشعر به قريبًا منها. كان "لويس سيزاريو" العجوز دائمًا بجانبها في الأوقات الصعبة؛ لا تعرف كيف أو متى، ولكنه دائمًا ما وصل إليها وساعدها. كانت صداقته من إحدى نعم حياتها، وتشعر بالسعادة العارمة لكونه بجانبها، فمن المؤكد أنه يوافق على العلاج

بالإبر الصينية. كان الأمر كما لو أنه قادها إلى هنا، وبينما هي تنتظر تحدثت مع صديقها "لويس سيزاريو" بينها وبين نفسها.

لم يمر وقت طويل حتى استدعوها.

سأل الأستاذ "زانوتي" بعض الأسئلة الروتينية، وملأ نموذجًا مثله مثل أي طبيب، سجل اسمها، وعمرها، ومهنتها، ثم قاس نبضها، وسألها:

- هل تعلمين أن لديكِ ارتجاع بسيط في الصمام الميترالي؟

كانت تعلم ذلك، ولكن عليها أن تقوم بعمل أشعة لقياس تخطيط كهربائية القلب لتتأكد، اختبار في غرفة صدى مغلقة، والعديد من الإجراءات الأخرى. لم تستطع أن تتخيل كيف يمكن لشخص أن يلاحظ هذا من لمسة إصبع لرسغها فقط. كانت منبهرة للغاية بالأستاذ، وعلى أتم استعداد إلى أن تثق به وأن تتبع تعليماته حتى تُشفى قريبًا.

سألها بعض الأسئلة. أخبرته كل ما كانت تشعر به: كيف بدأ سقوطها، وأخبرته عن غفواتها، وعن تلك النقاط البيضاء حين تغيب عن الوعي رغم كونها مستيقظة، كما أخبرته عن كل المصطلحات التي تعلمتها من الأطباء، كما أخبرته عما أكلت في كل وجباتها بالتفصيل حين أراد أن يعرف ماذا تأكل.

تخيلت أنه سيقترح بعض التغييرات أو يوصي بنظام غذائي مختلف، وظنت أن ما سيقوله يستحق العناء. سيطلب منها على الأرجح أن تتوقف عن أكل اللحوم الحمراء، والسكر، والأرز الأبيض، وأن تتبع كل هذه النصائح الغذائية المتعارف عليها، كانت على استعداد أن تجرب أي شيء لتتعافى.

قال لها:

- لا عجب أنك تمرضين، فأكلك غير صحي بالمرة.

عدلت من جلستها على الكرسي وانتظرت أن يقول كل ما لديه. فأكمل:

- امتنعي عن تناول اللحوم، وابتعدي عن السكر، ووازني هذا النظام الغذائي. هناك أكلات مثل "الين" و"اليانغ"؛ نصفها أسود والنصف الآخر أبيض، أي أنها صحية وغير صحية، كما هو الحال في كل شيء يتبع قواعد الكون.

استمعت له بإنصات، وحاولت أن تتذكر كل ما قاله، على الرغم من أنه أخبرها أنه سيعطيها كل ما قاله في صورة مكتوبة. فإذا كان هذا هو السِّعْر لتتوقف عن السقوط وتسترد كلماتها، ولتحقق حلم الأمومة مع "ألونسو"، فهي على أتم الاستعداد لتودع حفلات الشواء اللذيذة، والحلويات والفطائر التي تحبها، وأن تترك طبق الـ"فيجوادا" البرازيلية اللذيذة التي طالما أسالت

لعابها. لم تشعر في حياتها أنها مطيعة مثل هذا اليوم، ولا أنها تملك الإرادة لكي الاستسلام لأي شيء وتتعافى وتتحسن صحتها.

قال الأستاذ "زانوتي" فجأة:

- يجب عليكِ أيضًا أن تمتنعي عن الحليب وجميع منتجاته من الأجبان، والزبد، والكريمة.

سألته:

- أي نوع من الجبن؟ حتى الجبن الأبيض الطازج؟ حتى جبن الـ"ريكوتا"؟ والحليب الرائب الطازج؟

قاطعها قائلًا:

- أي نوع من الجبن. أي منتج من منتجات الألبان. قلتها بوضوح وسمعتِنِي، لا أحتاج إلى أن أكرر كلامي، إن الحليب سُمٌّ، لا يوجد حليب غير سام سوى حليب الأم، حتى الأبقار لا تشرب الحليب بل تأكل العشب.

شعرت "لينا" بالتوهان بعد ما قاله الأستاذ، وحاولت أن تعارضه قائلة:

- حسنًا، لن أشرب الحليب، ولكن هل مسموح لي أن آكل قطعة صغيرة من الجبن من حين لآخر؟

قال لها:

- قلت لكِ لا، وفهمتِنِي جيدًا. لا فائدة من مجيئك إلى هنا إذا كنتِ ستعاندينني.

كانت الثورة على ما قاله الأستاذ تجتاحها ببطء. تذكرت الجبن المنزلي الذي صنعته «كارلوتا» ذات مرة وأكلوه معًا في بيت «لويس سيزاريو» العجوز؛ كان أبيض، وحوله الكمية المناسبة من سائل الجبن، وبه ثقوب طويلة، ومملح بشكل ممتاز. سألت الأستاذ قائلة:

- لمَ لا؟

ابتسم "لويس سيزاريو" العجوز وغمز لها بعينه، ولكن لم يلحظه الأستاذ أبدًا، بل قال:

- حسنًا، إذا كنتِ ستعارضين إرشاداتي، فلا فائدة من مجيئك، أنا رجل مشغول وبهذه الطريقة سنضيع الكثير من وقتي ووقتك، من غير المسموح أن تأكلي أي نوع من الجبن لأنني أعرف أنه لا يجوز ذلك، أعرف ما أتحدث عنه، فلتثقي بي وتسلمي لي حالتك تمامًا وتفعلي ما أقول لك وتتخلصي من كل ما يؤرقك، أو اذهبي وكلي الجبن لكي تموتي بعدها بمدة قصيرة.

رفعت “لينا” الراية البيضاء مستسلمة، وقالت:

- حسنًا، سأفكر في الأمر وأقرر بعد ذلك. ولكن في الوقت الحالي، سأتبع المتبقي من النظام الغذائي، وسأبتعد عن الجبن، سأخضع إلى بعض الجلسات للعلاج بالإبر، وهذا هو سبب مجيئي من الأساس، أسيكون هذا مُجديًا؟

نظر الأستاذ “زانوتي” إليها بحدة، وقال:

- أنا لا أعتقد أنك فهمتِني. لا توجد فائدة من تضييع الوقت في الخضوع إلى علاج لن ينجح؛ لأن المريض غير متعاون. هناك العديد من الأشخاص في انتظار دورهم حتى دون ميعاد مسبق، إن وقتي ثمين، أمامك خياران: الأول أن تلتزمي ولا تأكلي أي نوع من الجبن أبدًا، أو أن تأكلي أي نوع من الجبن ونتوقف عن خداع أنفسنا. أنا شخص مسؤول وباحث ولست دجالًا، إذا لم تغيِّري من طريقة غذائك بشكل جذري - وهذا يشمل ألا تتناولي أيًّا من منتجات الألبان - لن يكون لديك فرصة أخرى لاستعادة صحتك، ولا مغزى من المعارضة، كل شيء متروك لكِ؛ الصحة أو المرض، الحياة أو الموت.

كانت “لينا” بالفعل قريبة من الباب حين أدركت ما كانت تنوي أن تفعله. قالت له بأسلوبها الوقح الذي كانت تستعمله عندما كانت بأتم صحتها:

- حسنًا، أختار الموت، أنا لست مستعدة للعيش دون جبن، أتمنى لك يومًا سعيدًا.

وجدت صعوبة في حبس دموعها في غرفة الانتظار حين كانت تدفع ثمن تلك المهزلة، مشت بهدوء.. محطمة، ولكنها من ناحية أخرى شعرت بالفخر، لم تشعر بالفخر لأنها تخلت عن السعادة التي تنتابها عندما تأكل قطعة من جبن “البري” الفرنسي، أو الجبنة الزرقاء، أو جبنة الـ”جروبير” السويسرية، ولكنها شعرت بالفخر لأنها لم تخضع لأسلوب الأستاذ المتسلط. كانت هذه هي المرة الأولى منذ أسابيع التي تقف فيها في وجه شخص ما، وعلى الرغم من كل ما كانت تشعر به، تركها ما حدث منهكة القوى. ماذا لو كان محقًّا؟ ماذا لو أنها أضاعت بالفعل فرصتها الأخيرة لتتحسن؟ لا. شيء بداخلها أخبرها أن المرض والموت هو أن تترك شخصًا ما ليجبرك على أن تصمت وأن يستولى على كلماتك ورغباتك كما أوشك الأستاذ أن يفعل. فقدانها للكلمة هو ما أمرضها وضايقها للغاية وجعلها تبحث عن علاج. شعرت أنها بخير. لم تكمن المشكلة في تناولها الجبن من عدمه، بل هي في افتقادها لقول كلمتها. لم ترغب في عيش حياة بلا كلمة لها، فقد كانت تعلم في قرارة نفسها أن للحياة رونقها دائمًا، ولكن للكلام أهمية لا تختفي. تذكرت فقرة قرأتها سابقًا في كتاب لـ”كلاريس ليسبكتور” تقول فيه إن الكلب الميت به حياة أكثر من كل الأدبِ.

كانت تعلم أنها تريد الحياة حتى ولو كانت شرارة صغيرة وضعيفة، هل حقًّا تريد أن تعيش؟ ماذا تفعل بحياة لا تستطيع فيها أن تقول ما تريد، أو تكتب بوضوح في الوقت الذي كانت تكتشف فيه المتعة المحسوسة لجمع الكلمات معًا؟

شعرت بنبضات قوية في رأسها كما لو كانت على وشك الانفجار، فخافت من أن تسقط مجددًا، واستطاعت بصعوبة أن توقف سيارة أجرة. عادت إلى المنزل وظنت أنه بإمكانها أن تعد وجبة من اللحم النادر والجبن للتحلية، لكنها لم تكن لتستطيع أن تبتلع الأكل وحلقها محتقن هكذا. أراحت جسدها على الأرض في غرفة المعيشة وحاولت أن تستجم، لكنها بكت حتى غلبها النعاس، وأُغلق موضوع الإبر الصينية إلى الأبد. كان من المستحيل أن تشرح كل هذا لـ"باولو"، من الأفضل أن توافق على اقتراحه دون الخوض في أي تفاصيل، وأن تلتزم بطرق العلاج التقليدية الآمنة مع طبيب مخ وأعصاب يكون صديقها وتثق به.

هذا ما لم يكن الأمر كله تخيلات في رأسها، فلهذا السبب عادت إلى طبيبها النفسي مرة أخرى بعد توقف دام سنوات. كان الحديث معه مفيدًا؛ فقد كان يعيد قدميها إلى الأرض، كان يستمع لها ويقدم اقتراحات بناءة، وبالتالي شعرت أنها أقل وِحدة وأقل ضياعًا في الظلام. أصرَّ الطبيب النفسي أن ما تعاني منه هو شيء جسدي، ونصحها أخيرًا بأن تذهب إلى ممارس عام. قال لها:

- "لينا"، تعانين من شيء ملموس وحقيقي للغاية، هناك عُقَيْدة تظهر بوضوح في أشعتك الدماغية، إضافة إلى ذلك، أظهر الفحص السريري الذي قام به طبيب المخ والأعصاب مجموعة من الأشياء؛ وهي أكثر أهمية من النتيجة البسيطة لأشعة الدماغ، فهي تظهر شيئًا من المحتمل أنه كان بداخلك طوال هذه السنوات، نريد أن نعرف لماذا قرر هذا الشيء أن يظهر نفسه الآن؟ من الجيد أن تخضعي للعلاج وتتناولي أدويتك. أظن أنك بدأتي الرحلة من الاتجاه المعاكس باستشاراتك لمحلل نفسي. أنتِ من قررتِ أن تذهبي إلى طبيب أعصاب وأخذتِ زمام الأمور وتحكمتِ في كل شيء وبحثتِ عن طبيب. ولكن كل قدرتك الهائلة هذه لا تغير من كونك لم تعرضي حالتك على ممارس عام، أظن أن شيئًا ما مفقودًا من الممكن أن يفيدنا.

حاولت أن تبرر نفسها قائلة:

- لم أستطع الانتظار، سقطتُ كثيرًا، كان الأمر طارئًا، ظننت أن لدي التهاب في أذني وبحثت عن متخصص.

ردَّ عليها قائلًا:

- لكن لم يكن الأمر كذلك، كان شيئًا آخر، ولكنه رأى ما يعرفه فقط في مجاله بداية من نظريتك والتشخيص الذي جئتِ به، والذي يجب علينا ألا ننساه أيضًا. أنتِ الآن تتبعين إرشاداته كونك مريضة مطيعة، ولكن يجب عليكِ أن تستشيري طبيبًا سريريًّا.

ردت عليه قائلة:

- تتحدث وكأنني أريد أن أتحكم في كل شيء.

سألها بابتسامة، وقال:

- ألا تريدين ذلك؟

انزعجت بعض الشيء، وقالت:

- لا، لا أريد ذلك. أتفهم وجود أشياء أخرى تخص تشخيصي، ولهذا السبب جئت إليك وأخبرتك عما يحدث، وعما يحدث مع "ألونسو"، ومشاعري تجاه كل هذا، وكل تجاربي الحديثة التي أثرت فيَّ. أعلم أنني أسقط على الأغلب لأنني لا أتحمل ما يحدث لي؛ فأنا مذلولة، ومُحطمة، ومحنيَّة. أتعلم! لا تشغل بالك، يمكنني أن أتحدث عن هذا الموضوع لأيام، هل تفهمني؟

رد عليها قائلًا:

- أعلم ذلك، أنا أستمع إليكِ وسنعمل معًا على حل كل المشكلات، ولكن كل هذا لا يغير من حقيقة أنكِ بدأتِ تشعرين بالتعب، وأن كل هذه الأزمات حدثت حين سافرتِ بعيدًا دون أن تعلمي أن "ألونسو" وقع في حب امرأة أخرى.

قالت:

- أنت على حق، أنا لم أكن أعلم، ولم أشك حتى بالأمر. كان يمكنني ملاحظة الأمر عن بعد، فأنا قريبة منه. كان يمكن أن تكون حالة من التواصل الحسي المفرط. لم أستطع التحمل، وفقدت توازني وسقطت على وجهي حرفيًّا.

لم يستسلم، وقال:

- يا لها من احتمالية مشوقة، لقد تحدثنا عنها ويمكننا أن نخوض في تفاصيلها أكثر، ولكن هذا لا يعني ألا تري طبيبًا سريريًا.

ردت عليه:

- لا أعرف طبيبًا جيدًا، لا أعرف من يمكنني أن أثق به.

- سأعطيكِ اسم أحد زملائي؛ إنه رجل عظيم.

-

أصرت قائلة:

- لن يجدي هذا نفعًا؛ يجب عليَّ أن أصلح ما بذهني، وأن أتعامل مع خسائري.

صمتت لفترة، ثم سمعته يقول لها:

- خسائر؟

- نعم، خسارة "ألونسو" تلك، يجب عليَّ أن أواجهها.

فسألها:

- وماذا أيضًا؟ استعملتي صيغة الجمع.

كانت تعرف أن عليها أن تتحدث عن ذلك الموضوع، لكنها لم تُرِد أن تطرحه الآن، فأخبرته بموضوع مختلف قائلة:

- أبي الذي عرفت عنه فقط في الرحلة. سنتحدث في يومٍ آخر، انتهى وقت اليوم.

- حسنًا، خذي عنوان الطبيب، إنه في البناية نفسها.

أخذت العنوان ورحلت. اتصلت بالطبيب السريري وحجزت موعدًا. تمشت حتى الشاطئ، وجلست على أريكة هناك في الممشى وتأملت المحيط. لن تستطيع أن تحصي عدد المرات التي جلسَتْ فيها على الشاطئ منذ أن كانت طفلة تتأمل المحيط والسماء والمياه الممتدة أمامها، حاولت أن تتتبع التغيرات التي تطرأ على سطح البحر وهي طفلة في بيت الشاطئ في قرية الصيد البعيدة جدًّا. كانت تفرق بين التموجات بسبب الصخور وبين الشائبة الخفيفة التي شكلتها كثبان رملية وبين التموجات الناتجة عن سباحة أسراب سمك الأنشوفة. لطالما انتهى بها الحال وهي تتخيل ماذا يوجد على الجانب الآخر من المياه؟ ماذا يوجد في الأفق؟ علمت فيما بعد من المدرسة أن أفريقيا هي التي تقع خلف كل هذا، ثم اضطرت إلى الذهاب إليها حين كبرت بصفتها مراسلة، وعرفت حينها كيف أن حياتها مرتبطة بهذا الجانب الآخر من المحيط.

كان هذا الشهر في أفريقيا مليئًا بالاكتشافات التي لا تُنسى، وبأوجه التشابه غير المتوقعة والمدهشة. شهدت تلك الرحلة لقاءها مرة أخرى مع شيء أثري لم تكن على دراية به. أذهلها جمال اللغات المحلية والذي كان من ضمن صفات اللهجة البرازيلية البرتغالية، كما أعجبها حنانهم على الأطفال في العموم، ومشيتهم الأنيقة؛ كانوا يمشون كما لو أن أقدامهم بالكاد تلمس الأرض. أثر فيها فخرهم بحربهم نحو استقلالهم وبدايتهم في بناء دولتهم. تلألأت جذوع أشجار الـ"باوباب" في غابات السافانا. كانت مياه البحر صافية،

ودافئة، وخالية من الشوائب لدرجة تجعلك ترى كل شيء من على متن السفينة مثل الأسماك العائمة في مختلف الأعماق، كما ترى أيضًا قناديل البحر التي تشبه “ميدوسا” عبر أرجلهم المفرودة مثل الشعر الطويل الراقص مع الرياح. مر على هذا المكان صعوبات الحرب الأهلية، وحظر التجول، وطلقات الرصاص العشوائية في الليل، ومقابلة حاملي السلاح اليومية، والعقبات لإيجاد الموارد، ومحاولات التخريب، وتهديد حياة الأشخاص. كما شاهدت صفًا طويلًا من السفن المحملة بالمؤن الغذائية التي فسدت، وهي تنتظر تفريغها في الميناء وسط إجراءات أمنية صارمة هدفها أن تحافظ على تشغيل اثنين من الموانئ التي ما زالت تعمل. رأت أشجار جوز الهند على إحدى الجزر وراء البحر مباشرة من المدينة. كما عاصرت استيلاء الميناء البرتغالي القديم على المدخل إلى الخليج، كما هو حال معالم التاريخ البرازيلية التي ما زالت مستعمرة، وقائمة، ومميتة حتى فترة قصيرة. رأت كذلك بائعي الأعشاب وقارئي الطالع بجانب الأسواق الفارغة من الطعام، وذلك بسبب قطع الأشجار وتدمير الحقول.

خبؤوا تمائمهم تحت الأقمشة التي تغطي منصاتهم حتى لا يشك أحد في أنهم يمارسون السحر ويتم انتقادهم باسم الثقافة الثورية الجديدة التي كانت تسفك الدماء لتحقيق حلم الاستقلال. من ينسى الأطفال الراكضين في الشوارع المتربة ويلعبون بالمسدسات الخشبية كأنهم في حرب. امتلأت الأجواء بالأغاني والقصائد؛ فالجميع كانوا مطربين وشعراء على مدار الأربع والعشرين ساعة، من بزوغ الفجر على الأرض وحتى غروب الشمس في البحر. تميزت روح المدينة بالموسيقى والصور اللفظية، والإيقاع والكلمات، وأشعلت روح الإرادة في نفوس من يحاربون من أجل حلمهم ضد السلطة، وأجمل ما في الأمر أن كل هذا كان محتفظًا بلكنته البرتغالية، ولكنها لكنة برتغالية ساحلية أكثر نعومة وأكثر إثارة، لا أحد يستطيع أن يجادل بأنها لكنة مدينة “لوسيتانيا” في شمال البرتغال، تذكرت تلك اللكنة في كلام جدها المصحوب بسعاله ورائحة التبغ القوية.

يرجع سبب إحياء عواطفها إلى الألفة والغرابة الموجودين جنبًا إلى جانب في اللغة نفسها ولكن بلكنة مختلفة. بدأت “لينا” تحلُم بجدها مرارًا وهي في أفريقيا، وفجأة تحولت صورة جدها إلى صورة والدها الذي كان يشبه جدها أكثر كلما تقدم في العمر. أدركت “لينا” ذات ليلة حين استيقظت مفزوعة من كابوس أنها خسرت والدها ولم تبكيه ولم تعرف حتى أنه كان يموت، كان ميتًا بالنسبة لها هي فقط، لكنه كان حيًّا بالنسبة لأولاده من الزوجة الثانية. ذهب بعيًدا جدًّا ووضع بينهم مسافة عن قصد وخذلها، حطم الثقة التي كانت بينهما بالتحديد، كانت واثقة تمامًا أنه من الآن فصاعدًا لن تتشارك معه أي سر. تسبب غلق مساحتهما الخاصة تلك بجرحها، وعلمت أن من يرى قصتها من

الخارج سيفسرها على أنها لحظة عابرة من الغيرة على والدها، لكن الأمر كان أكثر تعقيدًا من ذلك أو ربما كان أكثر بساطة؛ كان الأمر متعلقًا بالموت، فبالنسبة إليها، مات ذلك الذي كوَّن شخصيتها واستمدت منه حنانها، مات لأنه لم يعد يعنيه أمرها، ولم يبحث عنها، ولم يسمعها بعد الآن، ولم يعلم ماذا تفعل أو بماذا تحلم، ولم يتذكر حتى اسم الرجل الذي أحبته وكان شريكها لثلاثة أعوام. إذا أرادت أن تتحدث معه وتفتح له قلبها، كان يستمع لها دون تركيز ودون أن يعيرها أي اهتمام. كانت "لينا" متأكدة من أنه كان يخبر زوجته بما أخبرته ويتحدث عنه بمنتهى السطحية.

تجنبت "لينا" التحيز إلى جانب معين عندما أحب والدها تلك المرأة وترك المنزل، لم تصدر عليه أي أحكام. أرادت أن تأخذ جانب والدتها، لكنها أدركت أنه ربما هو سعيد بما يحدث معه الآن، وربما يساعده على أن يتجدد ويولد من جديد. عشقت شجاعته النادرة من بين أبناء جيله، وعدم كذبه، وعدم نفاقه، ومواجهته لجميع أنواع الضغط الاجتماعي ليعيش كما تملي عليه مشاعره.

لم تتحدث عنه بأي سوء في تك الفترة من الاضطرابات العائلية؛ لم تلُمه حتى عندما شعرت أن حيادها ذلك كان يجرح أمها ويجرحها هي أيضًا. مع مرور الوقت، أبعد أبوها نفسه عنها وأدركت شيئًا فشيئا أن حياته التي وُلد فيها من جديد ليس لها مكان فيها. لم تفهم "لينا" حقًّا هذه النقطة إلا عندما انطلقت في رحلتها إلى أفريقيا على الجانب الآخر من المحيط الكبير الذي جلست تتأمله الآن على الشاطئ. كانت تجلس بعيدًا في وسط إحدى ليالي أفريقيا الغريبة بعدما غربت الشمس في البحر. تناثرت النجوم في أماكن متفرقة من السماء، وتغيرت في ذلك الاتجاهات البرازيلية التي كانت دومًا مصدر ثقة.

فكرت في هذا الأمر الآن، وحاولت أن ترتب ما يدور في بالها. شعرت بقطرات من المطر على ذراعيها لكنها لم تنهض، نظرت إلى الأفق؛ إلى السماء الرمادية، وإلى البحر الساكن مثل المرآة، وعلمت أنها ستمطر بقوة، عليها أن تعود إلى المنزل لكنها لم تسرع في الذهاب. لم يكن عليها أن تركض، ستجد شيئًا لتركبه بسهولة في هذا المكان.

كان شعورًا جيدًا أن تكون قادرة على الذهاب إلى المنزل ومراقبة وسماع الأمطار دون خوف، على الأقل على الجانب الشخصي، فدائمًا ما انتهى بها الأمر إلى أن تكون قلقة عندما تتكشف السماء عن اقتراب أمطار شديدة؛ كانت تسكن في مدينة معروفة بعواصفها الساحلية وبكونها غير مستعدة دائمًا لتلك الأمطار، كانت مصارف الأمطار مسدودة، والقمامة مكدسة في أكوام في الشوارع، ومصارف المياه الجوفية مسدودة أيضًا. كانت مدينتها بالذات مليئة بالمشردين الذين لا مأوى لهم وبمن يسكنون العشوائيات المتنقلة على

التلال. من المستحيل ألا تتأثر بكل هذا وأن تتصرف بطبيعية مثل حيوان صحته جيدة في المطر، مستمتع بتفريغ شحنة التوتر وباستحمامه في المطر مثلما تغتسل الأرض بمياه السماء. تؤلم أي عاصفة أمطار مثل هذه العديد من الأشخاص، وتنتشر سلسلة أخبارهم التي طالما ينتهي بها الحال في التليفزيون أو في الجرائد؛ ستنهار المنازل، وستحمل الأمطار معها كل ما يقابلها. سيتشرد الناس وسيخسرون كل شيء حتى حياتهم. كانت تعيش في بلدة مشوهة؛ في مجتمع مريض، وإذا لم تنأى بنفسها عما يؤثر بها سينتهي بها الأمر وهي تشعر بالسوء لشيء بسيط مثل المطر، كانت ستشعر بالذنب من رد فعل صريح كهذا نحو العاصفة والاستمتاع بسقوط المياه وحجمها ووزنها وصوتها. هاجمها النظام الظالم نفسه للعديد من الأشخاص البائسين، وحرمها أحد حقوقها الأساسية؛ وهو التلاحم مع الطبيعة دون الشعور بالذنب. تذكرت كم كانت تحب أن تراقب المطر على الشاطئ أو في الغابة منذ أن كانت صغيرة مع إخوتها الذكور، وكيف كانوا يعدون الثواني الفارقة بين رؤية البرق وسماع الرعد ليحددوا ما إذا كان سهم البرق قريب أم بعيد. تحب حتى الآن أن تشاهد العاصفة وهي تستجمع قواها، وتطلق لنفسها العنان وهي في منزلها على الشاطئ، تشعر باقتراب المطر وتتبع مسار الرياح وتستمع إلى الرعد في السماء. كانت تشعر بغضب الأمواج على بشرتها كما لو كانت واحدة من إحدى مراكب الصيد الصغيرة الساكنة في الخليج الصغير الآمن.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون E-BOOK

4

"إن الحياة متاحة للجميع،

أنا فقط من يحتاج إلى معرفتها".

"باولينيو دا فيولا"

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تعلمك الحياة في مكان مثل هذا؛ في مزرعة تطل على البحر، أن تعيش الحياة بشكل مختلف بناءً على المناخ بالخارج. تعودت "أماليا" على اختلاف الجو بعد سنوات عديدة، ولكنها ظنت أن "لينا" ستجد الأمر صعبًا في هذه الأيام إذا منعها الجو من أن تخرج وتستلقى على البساط في الحديقة وقدماها مرفوعة قليلًا وهي مستمتعة بأشعة الشمس مثلما فعلت في اليومين السابقين. نظرت "أماليا" إلى ابنتها في صمت من الشرفة وهي نائمة على "سرير هاموك" المعلق بين شجرتين. كانت أمها تراها والأمطار تتساقط على حافة الزجاج، ولم تستطع أن تفكر في أي طريقة لمساعدتها. شعرت أن "لينا" لا ترغب في التحدث، ولكن لو تكلمت سيساعدها الأمر في أن تتحسن.

لم تكن الأيام الممطرة سهلة في منزل الشاطئ عندما كان الأطفال صغارًا في الماضي. لم يتحمل الأطفال أن يظلوا في مكان واحد، وبعد فترة دائمًا ما ضايق أحد الأطفال بعضهم بعضًا، لطالما انقلب الأمر إلى بعض المشاجرات، مما جعلها تنهرهم وتعاقبهم، لم يستغلوا الوقت في القراءة أو الرسم أو لعب "الداما"، أو لعب حرب السفن أو بنك الحظ إلا عندما كبروا بعض الشيء. كان من حسن الحظ أنهم أحبوا القراءة دائمًا. قرأ "فرناندو" و"لينا" كل شيء وقع تحت أيديهما منذ أن اكتشفوا الكاتب "مونتيرو لوباتو". أما "تيريزا" فكانت تفضل الكتب ذات الصفحات الضخمة والحوار الكثير. كان "مارسيلو" أيضًا قارئًا جيدًا، وأحب السير الذاتية، وبالطبع أحب القصص التي كانت ترويها "أماليا"، خاصة إذا كانت تحتوي على عمالقة وتنانين. كما عشق "مارسيلو" المغامرات التي قرأها في الكتب: تلك التي حدثت في الأدغال، أو في القلاع، أو في الصحراء، أو في أعالي البحار، ولكنه فضَّل القصص الواقعية. كان يمكنه أن يقضي ساعات طويلة يغالب النعاس ليستمع إلى جده وهو يحكي له وقائع من زمن بناء السكة الحديد. أحب قراءة السير الذاتية، خاصة عن أولئك الذين غيروا العالم بطريقة ما، وعرفوا غايتهم وأصروا بمنتهى العند أن يحققوا حلمهم على طريقتهم، وواجهوا كل شيء وكل شخص بالعند نفسه.

تذكرت "أماليا" قول أمها ذات مرة عن شخصٍ ما أنه: "عنيد مثل البغل".

ثار فضول "مارسيلو"؛ وسأل كل شخص آلاف الأسئلة عن البغال والعند، ثم صرَّح بأنه يجب عليك أن تتبع فقط الطريق الذي تريده، وإذا حاول أحد أن يجبرك على فعل أي شيء، فمن الأفضل لك أن ترفض ذلك. ظل باله مشغولاً بالعند، ولاحظت "أماليا" شيئًا فشيئًا أن الولد لم يفهم أن العند يمكن أن يكون شيئًا سلبيًّا. أخذ يقرأ أكثر كلما كبر، واكتشف أبعادًا جديدة للعند، وتحدث عنه بين الحين والآخر.

أدركت "أماليا" بالتدريج إلى أين سيؤول الحال بأفكار ابنها. فإذا لم تكن رأس "كولومبوس" مثل الحجر، ما كان ليكتشف أمريكا. وإذا لم يكن "جاليليو" متعنتًا، وإذا لم يكن "أوزوالدو كروز" مهووسًا، وإذا لم يكن "غاندي" صامدًا، وإذا لم يكن المسيح صاحب قضية راسخة، ما كانوا ليصلوا إلى أهدافهم. زادت الشخصيات كلما كبر وطالت معها قائمة المرادفات، لكن قبضته على الحلم ورغبته في إصلاح الأخطاء ظلت موجودة؛ من دون هذه الرغبة لن يغيِّر أحد من العالم ولن يجعل أحد من الحياة مكانًا أفضل. احتلت هذه النظرية حيزًا كبيرًا من تفكير "مارسيلو"، ولاحظت "أماليا" أن تفكيره هذا دائمًا ما يبدأ حين يرى ما يراه في تلك السير الذاتية التي حافظ على قراءتها. في البداية، ولمدة من حياته قرأ عن حياة القديسين، حيث امتلك كل مجموعة القصص المصورة من "السلسلة المقدسة" وحفظها عن ظهر قلب. كان القديس "دومينيك سافيوس" صغيرًا وعازمًا، وكان القديس "أوجستين" قادرًا على أن يغير من حياته، أما القديس "فرانسيس" فقد وهب كل ما امتلك للفقراء، كما واجه القديس "لورانس" الشهادة دون أن يستسلم. كان جميع هؤلاء لا يخافون الملوك أو أي قوة على سطح الأرض.

فكر "مارسيلو" في بعض الأحيان في أن يتبع خطاهم، وأن يكرِّس حياته للرب ولأخيه الإنسان، فكر أن يدرس كي يصبح كاهنًا، لكنه أدرك عندما كبر قليلًا أن حياة الكاهن لن تناسبه، كيف لأحد ألا يواعد الفتيات؟ وألا يتزوج؟ وأن يقرر ألا يكون له أطفال؟ لا، لم يناسبه الأمر.

تذكرت "أماليا" أن ابنها اكتشف المارشال "روندون" في مثل هذا الوقت. لم يصدق "مارسيلو" أن برازيليًّا يمكن أن يتصف بالقداسة، والعند، والإصرار، والتعنت، والصمود، والحزم، والهوس؛ كل هذه الأشياء اجتمعت في شخص واحد هو "روندون". ما أروعها الشجاعة التي اتصف بها! يا له من شيء يدعو للدهشة أن تصطحب فريقًا صغيرًا من الرجال وسط أدغال البرازيل لتثبيت بعض أعمدة التلجراف فقط وأن تساعد الأشخاص على أن يتحدثوا ويفهموا بعضهم بعضًا.

ظن "مارسيلو" أن "روندون" رائع بسبب عنده وإصراره على ألا يؤذي أي أحد من السكان الأصليين. فكان يقول لهم:

- فلتموتوا إذا تطلب الأمر، ولكن لا تقتلوا أبدًا.

ظن "مارسيلو" أن "روندون" قديس بعد أن عرف ما طلبه من رجاله، خاصة بعد سنوات من مشاهدة الأفلام الغربية وإبادتهم للسكان الأصليين الذي كانوا أصحاب الأرض، وكان أحفادهم هم الجياع الثائرون الذين لا يملكون أرضًا في الريف، ولا منزلًا في المدينة، ولا ملكية لأي شيء على هذه الأرض. كانوا بحاجة إلى شخص حازم مثل "روندون" يساعدهم ولا يخاف أن يواجه أصحاب القوة. كان على "روندون" أن ينضم إلى الجيش وقتها ليفعل ما عليه فعله، فقرر "مارسيلو" أن ينضم هو أيضًا إلى الجيش.

- ولدي؟ في الجيش؟ مستحيل!

لن تنسى "أماليا" أبدًا رد فعل زوجها وما قاله عندما علم بخطط ابنه المراهق الجديدة. عندما طرح ابنها رغبته أول مرة أمامه، انقلب المشهد إلى صراع بشع من الجدال والتهديدات والصراخ، ولكن لم يغير هذا من قرار ابنها. قرر الأب أن يناقشه بعد أن جاءته فكرة عبقرية، وقال له حجته القاطعة:

- فكر في الأمر يا بني. أنت لا تتقبل الأوامر من أحد. إذا اخترت أن تعمل في الجيش، فبالتالي ستكون حياتك سلسلة من طاعة الأوامر من أشخاص ليسوا على دراية بحيثيات الأوامر كلها، وحين يأتي الوقت الذي يمكنك فيه أن تتقلد المناصب وتبدأ في إعطاء الأوامر ستكون عجوزًا ومليئًا بالمرارة، ومتعبًا لأنك قضيت حياتك كلها مطيعًا للأوامر، أهذه هي الحياة التي ترغبها لنفسك؟

صمت "مارسيلو"، وأخذ يفكر، ثم أدرك أنه لو كان من السهل عليه أن يكون "بغلًا عنيدًا" فلن يكون سهلًا عليه أن يكون تابعًا لأحد، وبالتالي لم يذكر مجددًا فكرة ذهابه إلى الجيش. ذهب إلى المدرسة الثانوية العامة مثل إخوته، وتأقلم عليها في وقت قصير، وأصبح المدير الثقافي لاتحاد الطلبة، وعمل في جريدة المدرسة. الرب وحده يعلم ما كان سينتهي إليه الحال إذا لم يحدث الانقلاب العسكري عام 1964، الذي أنهى بهجته وبراءة أعوامه الخمسة عشر التي حلمت بقديس نقي على مذبح الكنيسة. وبعد ثلاثة سنوات، وضع "مارسيلو" على قبة هذا المذبح الشهيد المنكر لذاته مكانة البطل "تشي جيفارا"، وهو عنيد آخر.

ظنت "أماليا" في قرارة نفسها أن "مارسيلو" لا يزال متعطشًا لحب إله، ولكن بمرور السنوات، أخرج من داخله الإله الذي عرَّفته عليه أمه، فقد كان بحاجة إلى إله آخر في قلبه، إله شامل أكثر. كان "مارسيلو" من بين كل أولادها هو من يحتاج إلى أن يُروى بنقاء القداسة. رأت أمه في عينيه حتى وهو على قائمة المطلوبين للعدالة وصوره وملصقاته في كل مكان حبه للعدالة والخير.

تحدث المسيح في عظة الجبل عن أولئك الأشخاص مثل "مارسيلو"، وأنهم سيكونون أصحاب مملكة الرب.

تذكرت "أماليا" بصورة جلية حياة ابنها وهو يكبر. كانت ذكريات تدعو للفخر على الرغم من الألم التي سببته لها، أما بالنسبة لأولادها الآخرين، فمرت الأمور بسلاسة أكثر، كبروا، وتغيروا، وأصبحوا مختلفين. كان الأمر مختلفًا لـ"مارسيلو"، فكانت أعوامه مليئة بنوبات الغضب والبدايات القوية، والمناسبات السنوية الواضحة، ومفترق الطرق المحدد.

كانت "لينا" - على سبيل المثال - تجلس إلى جانبها الآن؛ مُطلَّقة، وقدمها مكسورة، ومريضة. لا بد أن أعصابها هي ما تتعبها، فقد كانت دومًا طفلة عاطفية تبكي على كل شيء. تُرى ماذا كان يدور برأس ابنتها؟ أعلنت ابنتها ذات يوم جميل أنها ستنفصل عن زوجها. لم تقل أبدًا أي شيء سيئ عنه، ولم تستطع أن تبرر قرارها، ولكن كان واضحًا أنها هي من أرادت الانفصال. لم تحاول أن تعيد ترتيب حياتها من جديد ولا أن تتزوج وتجد رجلًا مستقرًا ليساعدها على بناء عائلة، على العكس من ذلك، فقد بدأت علاقات غير واضحة وغامضة وليست قوية. أين ذهبت تلك الفتاة المفكرة والمتشبهة بالأولاد إلى حد ما؟ أين ذهبت تلك الفتاة الجادة والمجتهدة، تلك التي لم تسبب أي مشكلات؟ افتقدت "أماليا" تلك الأيام عندما كان أطفالها صغارًا، وزوجها لم يرحل بعد، وحين لم تعذبها الحياة بعد، شعرت بنوبات اشتياق أحيانًا ولكنها لم تستمر طويلًا، اليوم قررت أن تستغل هذا المزاج لتمضية الوقت في هذا الجو الممطر. سألت "لينا":

- طفلتي، كنت أفكر في ترتيب الصور، أتحبين أن تساعديني؟

ردَّت عليها:

- فكرة جيدة يا أمي، سأساعدك، أين الصور؟

فقالت لها أمها:

- لا، فلتبقي هنا ولا تزعجي نفسك، سأحضر صندوق الصور، ولكن من الأفضل أن تجلسي في مكان آخر؛ لأنه سيكون من الصعب أن نجلس بجانب بعضنا بعضًا نشاهد الصور وأنتِ جالسة على السرير المعلق بين شجرتين "سرير هاموك" وقدمكِ مكسورة، هيا، سأساعدك حتى تصلي إلى الأريكة، ثم أُحضِر الصندوق.

لم يستغرق الأمر طويلًا حتى جلستا معًا على الأريكة تطالعان الصور القديمة، حاولتا التعرف على الأشخاص في الصور، ثم تقسيم الصور حسب التاريخ،

وتحديد هوية الأشخاص في الصور والأماكن التي أخذت فيها أو حسب الموضوع كما اقترحت "لينا".

قالت "لينا":

- تملكين مجموعات مقسمة حسب المناسبات يا أمي، يمكنك أن تصنعي ملصقات من تلك الصور أو ألبومات صور مُقسمة حسب الموضوع، على سبيل المثال، هناك الكثير من صور أعياد ميلاد الأطفال الجميلة أو كل صور التعميد أو جميع صور تناول العشاء الرباني الأول، انظري هنا...

نظرت "أماليا" بحنان إلى مجموعة الصور التي أشارت إليها ابنتها، كانت "لينا" محقة؛ من المثير للاهتمام أن نجمع كل الصور المأخوذة في استديوهات المصورين المحترفين معًا؛ مع مقعد الصلاة والصليب والمسبحة. كان كل شيء مُعد جيدًا في تلك الصور، كم كان غريبًا أن ترى كل هذه الصور جنبًا إلى جنب! كان كل طفل من أطفالها في السابعة أو الثامنة، ويرتدون ملابس بيضاء. كانت البنات ترتدي الحجاب وتحمل الأكاليل، والأولاد يحملون شمعة وكانوا في غاية الجدية وخائفين بعض الشيء، ربما كانت الرهبة سببها "الكاميرا" وجو الاستوديو. ابتسمت "أماليا" وأظهرت صورة أخرى، مختلفة تمامًا عما سبق، وقالت:

- سنجد مثل هذه الصور إذا بحثنا لجمع مجموعة أخرى. إنَّ فِكْرَتَكِ لجمع الصور المتشابهة معًا رائعة، أعتقد أن جميعكم لديه مثل هذه الصورة في المدرسة، انظري.

نظرت "لينا" وابتسمت. كانت الصورة لـ"كلوديا"، أصغر إخوتها في زي مدرستها الصغير، وكان الصليب مُطرزًا على جيب قميصها. جلست إلى المكتب وأمسكت قلم رصاص في يدها وأمامها كراسة مفتوحة، معطية إيحاء بأنها تكتب شيئًا ما، كانت هناك خريطة للبرازيل كبيرة خلفها، وعلم صغير للبرازيل على المكتب، وكان شعرها مصففًا جيدًا وممسوكًا بمشبك شعر ليكمل شكلها النموذجي، لكن لم ينجح كل هذا في محو قوة نظرتها وضحكتها المحتالة.

سألت "لينا":

- كم كان عمرها في هذه الصورة؟

ردت أمها:

- لأكون دقيقة معك، كانت تبلغ ست سنوات، هذه الصورة مأخوذة في أغسطس عام ١٩٦٨، أتذكر أنني ذهبت إلى المدرسة خصيصًا لاستلام

الصورة، وكنا قد دفعنا ثمنها بعد كل ما حدث من التباس، كانت «كلوديا» لا تذهب إلى المدرسة، حدث هذا في سبتمبر.

تذكرت "لينا" ما حدث، ولكن اختلطت عليها التواريخ والحقائق قليلًا، ظنت أن هذه الأحداث كانت في وقت أبكر من هذا بقليل، وسألت أمها:

- ألم يحدث هذا في يونيو يا أمي؟ أم مايو؟ نعم، حدث في مايو عام 1968. كانت هناك مظاهرات طلابية في فرنسا وهنا أيضًا، كانت صدفة كبيرة وعمليتين مختلفتين تمامًا.

ردت أمها:

- لا يا طفلتي، حدث هذا في أغسطس، أتذكر ما حدث جيدًا بسبب "يوم الجندي" الموافق 25 أغسطس، بدأت المظاهرات في مايو ويونيو، أنا أتحدث عن الحادثة الأخرى عندما اضطرت إلى أن تترك المدرسة.

فقالت لها "لينا":

- كنت أظن أن هذا كان أثناء معسكرات "بوتافوجو"، عندما اقتُحِم المبنى الإداري.

عادت الذكريات بوضوح إلى كلتيهما، ووافقتها "أماليا" قائلة:

- نعم هذا صحيح، كان هذا في بداية يونيو، ولكن بدأت المظاهرات هنا قبل مايو بفترة كبيرة عندما أطلقت الشرطة الرصاص على هذا الصبي في كافتيريا الجامعة.

تذكرت "لينا" أن هذه الأحداث كانت في مارس. كانت بداية العام الدراسي، والطلاب يتظاهرون كالمعتاد ضد زيادة أسعار الوجبات، جاءت الشرطة وأطلقت الرصاص على أحد الأولاد، ثم حاولوا الابتعاد بالجثة وإخفاءها. لم يدعهم الطلبة يفعلون ذلك، وحاربوهم وربحوا المعركة باحتفاظهم بجثة الولد، وانتهى الحال بالشاب الفقير المتواضع الذي جاء من الريف ليدرس في العاصمة مقتولًا على أيدي الشرطة. نعاه الآلاف في القاعة الكبيرة في مبنى البلدية، وتوافدت الناس أكثر فأكثر كل دقيقة، ومكثوا طوال الليل خوفًا من الشائعات التي انتشرت بأن الشرطة ستأتي لتأخذ الجثة. كانت الصلوات مشحونة بالتوتر والقلق، وانتابهم شعور عام بأن هذه المرة كانت الأقسى على الإطلاق، وعلم الجميع أنها كانت مجرد البداية، مارس عام 1968؛ بداية العام الدراسي وبداية سلسلة من الأحداث المميتة.

ثم حان موعد الجنازة، وتوافد الناس من كل مكان، على الرغم من تهديدات الحكومة بأنهم لن يسمحوا لمسيرة الجنازة بأن تكتمل، خاصة المسيرة

الكبيرة للحشود التي جاءت على أقدامها قاطعة المدينة بأكملها، والمسافة الكبيرة إلى المقبرة. استغرقت المفاوضات يومًا كاملًا، في حين رفضت قيادة الطلبة منشورات الحكومة، ووساطة السياسيين، ورجال الدين، والمفكرين، والصحفيين، ومع حلول المساء وعندما كانت الحشود تتوافد أمام مبنى بلدية المدينة، اضطر أصحاب السلطة إلى أن يخضعوا إلى ضغط العامة، ويسمحوا لموكب الجنازة بالرحيل.

اتسم الموكب بالتوتر، وارتفعت الشعارات والأناشيد التي تعلمها الجميع في المدرسة، وتفتحت كالأزهار مع الموسيقى، وفجأة وصفت تلك الأناشيد أعمق المشاعر التي كانت بداخل كل شخص في هذه اللحظة:

"الحرية، الحرية

احمينا تحت أجنحتك([1])"

لم تعد تلك الكلمات التي ظنوها مبتذلة، وقرأتها الطلبة العديد من المرات على أغلفة الدفاتر، وغناها طلبة الابتدائية في حصص الموسيقى أو في ساحة المدرسة حيث وقفوا في طابور في يومهم الدراسي الأول، خالية من معناها بعد الآن. على العكس، استعملها الشعب ليتحدى الحكومة العسكرية والمغتصبين الذين سجنوا وقتلوا وعذبوا، سارت الحشود خلف الكفن في الشوارع، وهتفوا النشيد الوطني ليتمردوا على الحكومة:

"إذا رفعت صولجان العدالة عاليًا

سترى أن أبناءك لن يهربوا من ساحة القتال

ولن يخاف من يحبك من الموت

يا بلدنا الحبيب

من بين الآلاف

نعم أنتِ يا برازيل

البلد الذي أحب".

رمى الناس القصاصات الملونة من الشبابيك وصفقوا بحرارة، وخرج المزيد والمزيد من الأشخاص من بيوتهم وانضموا إلى المسيرة الضخمة، وتوقفت الحافلات على جانب شاطئ الـ"فلامنجو" وعلى الأرصفة، ونزل الركاب لينضموا إلى المظاهرة. تحركت المدينة بأكملها بسبب وفاة ولد واحد، وتحول لون السماء إلى اللون الداكن، وبدأ الليل يعلن عن قدومه، وقريبًا كانت الأنوار ستطفأ.

لم يتحرك أحد، وأكملوا مسيرتهم. غربت الشمس على مدينة ريو في مشهد بدا وكأنه مرسوم على بطاقة بريدية، وكانت المسيرة قد رحلت عن "فلامينجو" وامتدت بجانب شاطئ "بوتافاجو"، كان الخليج مضاءً بالأنوار وخلفه جبل "شوجر لوف". عم الظلام الأجواء لدرجة أن لو أحدًا حاول التفكير فيها ما كان ليظن أن المدينة في حداد، وأنها تتظاهر ضد العنف وترفض أن تزين نفسها بالأضواء. كان واضحًا أن الحكومة قد لجأت إلى حيل أخرى، أطفأت الأنوار في طريق المسيرة على أمل أن يساعد الظلام في تفريق الجموع. توقفت السيارات هنا وهناك وأنارت أضواءها، ووجد أحدهم جريدة وجعل منها شعلة تضاعفت في ثوانٍ ولكنها احترقت بسرعة. بدأ الناس في نوافذ البيوت من مختلف الأدوار في إضاءة الشموع، وبدأ ضوؤها الخافت في إنارة الظلام. رمى الكثير الشموع إلى المتظاهرين أو نزلوا بأنفسهم ليوفروا لهم المصابيح، وكان هناك بائع عند مدخل محل ما يوزع الشموع وأعواد الثقاب. احتقن حلق "لينا" وشعرت كما لو كانت ستبكي حين رأت كل هذه الأميال من الأنوار الخافتة مفرودة أمامها ولا تنتهي. غنى الجميع النشيد الوطني مما جعل قلبها يخفق بشدة لن تنسى أبدًا.. لم تفهم كيف نسى العديد من الأشخاص بهذه السرعة ما حدث. تذكرت كل تفصيلة، كانت بوابات المقبرة مغلقة عندما وصل الموكب، إذ كانت هناك أوامر عليا بذلك. خافت "لينا" في هذه اللحظة، وشعرت بأن هناك فخًّا وأن المجزرة ستبدأ. لم تستوعب مخيلتها أن هناك أي سلطة مسؤولة ستعتقد أنه من الممكن احتواء وكبت كل هذه الطاقة التي حركت الجموع والقوة التي دفعتهم للأمام، على الرغم من المسافات والأوامر، والحضور اللافت للنظر للشرطة التي أحاطت بهم طوال الوقت بجميع الطرق الاستفزازية. كانت البوابة المغلقة ما هي إلا استدراج لهم، ودعوة إلى العنف، وبداية الكارثة. كانت المفاوضات الجديدة ضرورية لجعل الدفن ممكنًا في هذا الوقت المتأخر من الليل. حاولت أن تستوعب ما حدث وهي عائدة إلى المنزل، وحاولت أن تدرك معنى الأربع والعشرين ساعة الماضية، وأن تتخيل ما يمكن أن يحدث فيما بعد.

كان من المستحيل التنبؤ بما سيحدث، فلم يرسم أحد في مخيلته أي شيء من حشود السبعة أيام، أو حشود الثلاثين يومًا، أو إطلاق سلاح الفرسان على الأشخاص الجالسين على سلالم الكنيسة، إذ كانت الجنود تخرج السيوف من غمدها وتطيح بالناس، وكان الكهنة ممسكين بأيدي بعضهم مكونين بذلك حلقة بشرية لحماية المؤمنين من وحشية الشرطة.

كان صعبًا نسيان التاريخ أو الخطأ فيه؛ ترك هذا اليوم جرحًا في قلوب كل الأمهات أكثر من أي يوم مضى، ولم تنسَ «أماليا» ما حدث.

مرت الأيام ومضت السنة، مضى شهر أبريل وجاء مايو، وشعر الجميع أنها ستكون سنة مضطربة بالنسبة للطلاب. قررت الحكومة في الوقت نفسه أنها ستتخذ موقفًا وتترك مسؤولية تخطيط التعليم في أيدي الأجانب، فوقعت اتفاقية مع قسم التعليم والوكالة الأمريكية للتنمية الدولية، اتفاقية لم يرغب بها أحد عدا الحكومة التي رغبت في تطبيقها على الفور. رفض الطلاب، وأعضاء هيئة التدريس، والعلماء، والتقنيون، والجميع تلك الاتفاقية، رفضها أولئك الذين أرادوا أن يسمعهم أحد، وأن يتناقشوا أكثر، وأن يعرفوا طبيعة التكنولوجيا التي ستُفرض عليهم. رغبوا بمعرفة التغييرات التي سيطبقها الأمريكيون على المنهج، وحال السيادة البرازيلية على التعليم، وهل سيفرضون عليهم شيئًا آخر؟ كان هذا هو محور حديث الجميع مثلما تذكرت «أماليا». كانت هناك اجتماعات لمناقشة الاتفاقية ولطلب المزيد من المناقشة والحوار، أتى شهر يونيو ونُظِّم اجتماع في المبنى الإداري للجامعة.

كان هذا اليوم محفورًا في ذاكرة «أماليا»، فمن ينسى أشياء مثل هذه؟ يتذكر المرء متى مرض ابنه بالسعال الديكي، ومتى كسر ذراعه، كما يتذكر تلك المرة التي أمضى فيها الليل كله بجانبه حين أصابته الحمى. كان الاجتماع لا يُنسى، وكانت صلوات المساء والشموع بانتظار الأطفال، أو بعضهم على الأقل. لم تكن «لينا» طالبة حينها؛ لذا فهي لم تذهب، وكان «فرناندو» صحفيًّا يعمل في مدينة أخرى، مما جعله آمنًا في الوقت الحاضر. تيقنت «أماليا» من أن «تيريزا» و»مارسيلو»، وربما «كريستينا» ذهبوا إلى الاجتماع في المبنى الإداري مثلما فعل غيرهم، وظنت أن الأمر مثل اجتماعات التحرير لجريدة المدرسة، أو التحضيرات لمسرحية نهاية العام، أو مثل هذه الاجتماعات التي لا حصر لها في الجامعة. كانت هذه المرة مختلفة، فقد صرح زوجها المحامي قائلًا:

- سأتأخر عن العشاء، ولا أعلم متى سأعود إلى المنزل، فأنا ذاهب إلى الاجتماع المحاصر بالجيش. يبدو أن هناك تهديد بالسيطرة على المكان والطلبة بالداخل، لذا سنحاول أن نناقش السماح لهم بالمغادرة وأن ندعم رئيس الجامعة.

انقبض قلبها، ولكنها استطاعت أن تخرج الكلمات وتقول:

- هل تعتقد أن الأمر جاد؟

فرد عليها وقال:

- لا شك في ذلك، إنهم متشوقون لإظهار أن القوة لا تزال في أيديهم، فهم لم ينسوا كل الأشخاص الذين تظاهروا في الشوارع عندما مات هذا الولد، أعتقد أن الأمر سيسوء للغاية.

حذرته "أماليا" قائلة:

- إن "مارسيلو" هناك.

- كنت متأكدًا من هذا.

قالت له:

- و"تيريزا" أيضًا.

- ليتها لم تذهب.

صمت قليلًا، ثم أضاف:

- هل تعرفين ما إذا كانت "كريستينا" هناك أم لا؟ يبدو أن هناك العديد من طلاب الثانوية أيضًا.

ها هي قبضة أخرى تعتصر قلبها. كانت "كريستينا" ثورية ومستقلة للغاية، على الرغم من أنها كانت في عامها الرابع عشر فقط. لم تكن تستمع إلى أحد.

قالت "أماليا":

- قالت إنها ستذاكر مع بعض الأصدقاء، وبعدها سيذهبون إلى اجتماع ما.

فقال لها:

- إذن لا بد أنها هناك، يجب عليَّ أن أذهب الآن، ولا أعلم متى سأعود فلا تنتظريني.

لم تفعل شيئًا تلك الليلة سوى الانتظار. انتظرتهم ليعودوا، أو ليرسلوا لها أخبارهم، أو جرس الهاتف أن يرن، أو أن تظهر أخبارهم على شاشة التليفزيون، أو أن ينفتح باب المنزل فجأة وتدخل العائلة كلها إليها مبتسمة، أو حتى أن يُفتح الباب ويأتي بالأخبار السيئة. وصل زوجها أخيرًا مع "كريستينا"، وحكوا لها قصة مثيرة ومتعبة للأعصاب، فقد كانت الجامعة محاطة والطلبة تحت الحصار، وخيَّم جو من الكآبة طوال المساء حتى استطاع الرئيس، والسياسيون، والمحامون، والأساتذة الجامعيون أن يتفاوضوا مع الحكومة ليسمحوا للطلبة بالمغادرة. غادرت القيادة في حماية لجنة المفاوضات أثناء الظهر عن طريق باب جانبي يطل على الشارع المزدحم بحركة المرور. تردد الآخرون في المغادرة، واشتد الحصار مجددًا. تُرك الجميع في حصار في الليل في جزء من المدينة المليء بالمدارس، ولكن دون حركة مرور، ولا أعمال، ولا حياة ليلية. كان الجو مثاليًا للقيام بمجزرة؛ فلم يكن هناك شهود.

وكان من حسن الحظ أن زوجها محامٍ مرموق ومعروف بين الناس، فقد استطاع أن يدخل إلى هناك ويقدم المساعدة.

استطرد زوجها قائلًا:

- رأتني "كريستينا" وسط تلك الجلبة حولنا، ونجحت في الوصول إليَّ، وجاءت معي في نهاية المفاوضات. لم يصبها سوى الخوف والدفع من أحد ما بين الحين والآخر.

ظلت "أماليا" قلقة فسألته:

- "ألبرتو"، أخبرني، هل رأيت "تيريزا" هناك؟

فرد عليها:

- رأيتها فقط في البداية، كانت مع "أدريانو" ثم لم أرها بعد ذلك.

فسألته:

- وماذا عن "مارسيلو"؟

فقال لها:

- إنه بخير. أعترف أنني كنت قلقًا جدًّا بشأنه، فهؤلاء متشوقون للنيل من قادة الحركة الطلابية. سيحرقونهم أحياءً إذا أمسكوا بهم، ولكن استطاع أغلبهم أن يخرج معنا في حماية السياسيين، والأساتذة الجامعيين، والصحفيين، فلديهم حراستهم الخاصة، أخذت ثلاثة من حراسهم معي إلى "كوباكابانا" وكان الازدحام المروري بشعًا، ولهذا تأخرت.

ماذا عن "تيريزا"؟ أين كانت "تيريزا" بحق السماء؟ بأي حق كان هؤلاء الهمج يدفعون ويهددون كل هؤلاء البنات والأولاد، متوعدينهم بالضرب والعقاب؟ تحمل الأم أطفالها لتسعة أشهر، وتأتي بهم إلى العالم، وترضعهم، وتطعمهم، وترعاهم، وتجهزهم للحياة ثم يأتي مسؤول يسيئ لهم ويأمر مجموعة من المجرمين بالبدء في ضرب الأولاد الذين أحببناهم ولم يؤذوا أحدًا أبدًا؟ أدركت "أماليا" أنها على أتم استعداد أن تقتل. كان عليها أن تفعل شيئًا ولكن لم تعلم ما هو، فلطالما كانت وديعة وهادئة. ابتلعت ريقها الذي جف فجأة، ودعت ربها أن يعطيها القوة والصبر، وقالت:

- يجب علينا أن نحصل على أي أخبار بشأن "تيريزا"، حتى لو اضطررنا إلى أن نعود إلى الداخل. اتصلت برقم بيتها مرات عدة ولكن دون جدوى.

اتصلوا بها مجددًا، ولكن لم يرد أحد رغم أنهم انتظروا طويلًا على الخط. قضوا طوال ليلتهم في قلق شديد. رأى "ألبرتو" أنه لا فائدة مِن الخروج

للبحث عنها بشكل عشوائي، فقد كان من الأفضل الانتظار قليلًا. أما عن "أماليا" فقد استسلمت. كان زوجها لديه خبرة أكثر في تلك الأمور، أما هي فقد كان الأمر محطمًا لأعصابها. "أين ابنتي، يا إلهي؟ تُرى ماذا فعلوا بها؟ يا إلهي لا تدعهم يفعلون شيئًا بها.. أتوسل إليك! خذني مكانها، أنقذ فتاتي ودع الأشياء السيئة تحدث لي أنا وأضمن لك ألا يعرف أحد. أرجوك يا إلهي، فلترعها".

رن جرس الهاتف خلال ساعات قليلة، كانت "تيريزا". قالت:

- أمي، اتصلتُ فقط لأخبركِ أنني بخير. كان الأمر بشعًا، ولكنني استطعت الهرب، هل لديكِ أخبار عن الآخرين؟ أضعتهم، كان من المستحيل أن أبحث عنهم أو انتظرهم، كان عليَّ الهرب، كنت محظوظة. لكن لم أرَ أي أحد، ولا أعلم ماذا حدث.

كان صوتها قلقًا وكلامها غير واضح كما لو كانت تبكي. هدَأَت "أماليا" والتقطت أنفاسها، وقالت:

- الجميع بخير يا طفلتي. خرجت "كريستينا" مع والدك من هناك وهما الآن في المنزل، وصلا منذ قليل وتركا "مارسيلو" في مكان آمن في "كوباكابانا".

ارتاحت "تيريزا" وبدأت تحكي:

- لا يمكن أن تتخيلي يا أمي بشاعة الأمر، فقد بدا المكان وكأنه معسكر اعتقال، وظننتُ أنني سأموت. أطلقوا الرصاص في كل مكان، وكنا على وشك أن نموت.

لم تتحمل سماع بكاء ابنتها وهي بعيدة عنها وفي حاجة إليها، قتلها شعور أنها لا تستطيع أن تحمي ابنتها بين ذراعيها، كل ما استطاعت قوله وتكراره كالغبية هو:

- لا تبكي يا عزيزتي، خذي الأمور بسلاسة، انتهى الأمر. ماذا عن "أدريانو"؟ هل هو بخير؟

فهمت "أماليا" كلام ابنتها الممزوج بالدموع شيئًا فشيئًا، وفسرت من خلاله ما حدث وما عاشته "تيريزا" في هذه الأحداث.

حاولت "تيريزا" أن ترحل مع المجموعة الأولى، مع زوجها بعد رحيل قادة الطلاب مباشرة، ولكن نتيجة للتدافع والشد والجذب فقد تأخروا قليلًا، ولم يستفيدوا من الحماية النسبية التي استفادت منها القيادة. وجدوا الشارع عندما خرجوا من المبنى عبارة عن ساحة معركة، وضُيِّق الحصار فتراجع الجميع، وكان عليهم العودة إلى مبنى الجامعة. أصبح من الواضح مع حلول

الليل أنهم قد وقعوا في فخ، كان الكمين مثاليًّا. سيغزون المكان وستصبح المجزرة المرتقبة مسألة وقت. قرروا أن يحاولوا الرحيل مجددًا، أو على الأقل أن يجدوا مكانًا مفتوحًا، فربما يتمكنون من الهرب عندما تبدأ المواجهة. كان التوتر بالداخل غير محتمل وبدأ الطلبة يتشاجرون فيما بينهم.

حاولوا التحرك بسلاسة نحو المخرج، وكانت "تيريزا" و"أدريانو" من أوائل من تحركوا، بدؤوا في المشي عبر المساحة الواسعة أمام البوابة وسط جموع الطلبة والشرطة العسكرية تقف على مسافة منهم. بدأ إطلاق الرصاص فجأة. لم تفهم ما يحدث في بداية الأمر، فلم تسمع صوت الرصاص الحقيقي سوى في الأفلام، وظنت أن هذا الصوت كان غريبًا. لم تكن أصوات الرصاص مزعجة مثل أصوات الألعاب النارية الخاصة بعشية ميلاد القديس "جون" أو أي احتفال بهدف في مباراة كرة قدم. أطلقوا الرصاص صوب الأرض على الأسفلت بغرض إخافتهم فقط، ولكن نجح ما فعلوه في نشر الذعر بينهم. ركض الجميع وملأت الصرخات الأجواء وركضت الشرطة بينهم واعتدوا عليهم بالضرب. كان صياح وتدافع الناس هو عنوان المشهد. التبس الأمر على الجميع. رأى أحدهم أن أبواب نادٍ قريب مفتوحة، وظن أنه سيكون آمنًا هناك. ركض الجميع نحوه، وكان هذا ما أرادته الشرطة بالضبط. كانوا قد اتفقوا بالفعل على أن بإمكانهم الرحيل بحرية، ولكن قوات الأمن لم تحترم الاتفاقية. أرادت الشرطة الانتقام من الجميع، خصوصًا أنهم لم يتمكنوا من الإيقاع بالقيادة الطلابية. دُفع بهم كالقطيع تحت طلقات الرصاص إلى الإستاد وتوجيههم إلى ملعب الكرة. كانت الأضواء منطفئة في النادي، وتعالت الصرخات، وزاد التدافع والضرب بالعِصِيِّ، واختلطت الأمور كلها على الجميع.

أنقذهم الظلام في نهاية الأمر، وأدرك "أدريانو" أن فخًّا قد نُصب لهم، وشد على يد "تيريزا" فجأة، ثم اختبئا خلف سوره غير الثابت، هربا من هناك إلى مساحة فارغة خلف السور، وانتظرا مدة ثم هربا أخيرًا إلى منتصف الشارع. توقفت سيارة فجأة بالضغط على مكابحها، وخرج السائق منها غاضبًا، وقال:

- هل فقدتما عقولكما؟ كيف تقفزون هكذا أمام سيارة مسرعة في هذا الوقت من الصباح؟

توسلت "تيريزا" إليه وهي في منتهى اليأس قائلة:

- أرجوك أن تخرجنا من هنا، نحن طلبة والشرطة تضرب الجميع.

حاول "أدريانو" أن يمسك بها، فعلى الرغم من كل شيء قد يكون هذا السائق تابعًا للشرطة، لكنه قال لهما:

- اركبا، سأوصلكما أينما أردتما الذهاب.

رأوا أنه من الأفضل ألا يذهبا إلى المنزل، والذي كان بعيدًا، وأن يمكثوا مع والدي "أدريانو" القريبين، فقد كانا على الناحية الأخرى من النفق في "كوباكابانا"، لكن لم يعلما ماذا حدث للآخرين حتى اليوم التالي. علمت المدينة كلها ما حدث في اليوم التالي، فعلى الرغم من حالة الرعب التي كانت عنوان المشهد فقد كان لا يزال بإمكانهم أن يعرفوا ما حدث في هذا الزمن، بإمكان الصحفيين أن يحكوا ما حدث، وتمكن المصورون من التقاط الصور، وكان لا بد لأصحاب الجرائد أن ينشروا ما حدث. قرأ الجميع التقارير، ورأوا الصور، وبث التليفزيون مشاهد مباشرة؛ كانت الصدمة عالمية. ماتت الروح الاحتفالية التي ملأت الملعب منذ مدة ليست ببعيدة حين سدد "جارينشيا" هدفًا أفرح البرازيل كلها على أرض الملعب نفسه. أظهرت الصور المئات من وجوه الشباب وهي في الأرض، ممددين وسط الجنود الذين لم يسمحوا لهم بأن ينهضوا، كان الجنود يركلونهم في رؤوسهم بأحذيتهم الثقيلة ويضربونهم بأعقاب بنادقهم، ويتبولون على وجوه الطلبة الضعفاء أمام الرشاشات. كانت بشاعة المشاهد، وفظاعة الروايات، وفرط الأحداث السادية والشنيعة، وإظهار القوة غير المتكافئة، وقسوة المشهد بأكمله مثل الضربة التي سقطت على رأس المدينة بأكملها. لم يتحدث الجميع سوى عما حدث في هذا اليوم. كانت المجزرة هي محور الحديث الوحيد في طابور الحافلات، وفي طابور الدفع عند الجزار، وعلى المقعد في الميدان الصغير حيث يلعب الأطفال، وفي كل مكان ذهبت إليه "أماليا". كان الأمر على تلك الحالة في كل الأماكن بحسب ما قال لها زوجها وأولادها. قلق المدرسون بشأن مصير التعليم، وناقشوا الأمر في الاجتماعات في المدارس المختلفة. كان الجميع يتحدث عما حدث في هذا اليوم، في المقابلات بين الممثلين والمخرجين في مختلف المسارح بعد منتصف الليل بعد انتهاء العروض، وفي النقابات، وعند بوابات المصانع، وفي تجمعات القساوسة والراهبات في الأديرة، وفي بيوت المفكرين الذين فتحوا أبواب منازلهم للأصدقاء وأصدقاء الأصدقاء ليناقشوا ما يمكن فعله إزاء كل هذا حتى لا يمر الأمر دون استنكار.

لم يشكل علم الطفل صاحب الست سنوات بما حدث مفاجأة بعد الآن. ما زالت "أماليا" تشعر بالصدمة حين تتذكر أول مرة تشاهد فيها ابنتها الصغيرة "كلوديا" وهي تلعب "ساحة بوتافوجو"، إذ صفت كل عرائسها وجعلت وجوهها مقابل الأرض، ثم أمسكت بإحدى العرائس، ومشت بينها تركلها جميعًا وتصرخ وتحدثهم بصوتٍ عالٍ. لم تتمالك "أماليا" نفسها وتركت الغرفة لتبكي. أرادت أن تخرج كل الدموع الحبيسة بداخلها طوال هذه الأيام الماضية، ولكنها لم تملك تلك الرفاهية، قلقت للغاية بشأن أولادها الكبار ولم تلحظ الضرر الذي وقع على أصغر أطفالها. عادت إلى الغرفة وأجلستها على ركبتيها وتحدثت لها. رأت أن الطفلة حزينة وخائفة للغاية، فلعبت معها، وغنت لها،

وحكت لها قصة، ثم وضعا اللعب بعيدًا. تفهمت الأم أن الطفلة بحاجة إلى التخلص من خوفها، وأن هذه اللعبة المروعة ما كانت إلا طريقتها في التعامل مع الرعب الذي عاشته؛ قررت ألا تذكر الأمر بشكل مباشر.

استُدعيت "أماليا" إلى مدرسة "كلوديا" في غضون أيام قليلة. قالت المعلمة إن كل ما أراد الأطفال لعبه هذه الأيام هو "ساحة بوتافوجو": كان بعضهم يستلقي على الأرض في ساحة المدرسة، والبعض الآخر يمشي حولهم ويهددهم ويشتمهم. أصدر مدير المدرسة أمرًا بمعرفة من اخترع هذه اللعبة، فقد كانت خائفة من انعكاسات الأمر عليها والأعمال الانتقامية ضدها. لم تكن المعلمة على يقين تام ولكنها شكت أن "كلوديا" صاحبة الفكرة. لم تنوِ أن تقول شيئًا، ولكنها طلبت مساعدة "أماليا" لحل الموقف حتى لا تتكرر اللعبة مرة أخرى. كانت "أماليا" مصدومة هي الأخرى، وأرادت أن تفعل شيئًا، ولكن لم تعلم ما هو. كانت ستجتمع مع بعض الزملاء من النقابة، فربما يذهبون في الأسبوع القادم لتسليم وثيقة إلى وزير التعليم. أراد الجميع أن يفعلوا شيئًا ليُظهروا أنهم لا يدعمون ما حدث، ولكن لم يعلم أحد ما هو هذا الشيء. تذكرت "أماليا" هذه الأيام جيدًا، فقد قالت لها واحدة من جيرانها يومًا ما، وهي سيدة هادئة وعجوز:

- سأخبرك بسر؛ لأنني أريد أن أخبر أحدًا، وأنا أثق بك. أنا أقف الآن في كل الطوابير في كل الأماكن وفي كل الأوقات.

لم تفهم "أماليا" ماذا تعني، ولكن جارتها أكملت حديثها قائلة:

- أنا أقف في أي طابور، سواء في البنك، أو عند الجزار، أو في محطة انتظار الحافلات، وعندما يأتي دوري أفتعل أي سبب وأرحل. أتحدث بسوء عن الحكومة في الطابور، وأشكو الشرطة في مظاهرة صغيرة أنظمها أنا. هذا هو الشيء الوحيد الذي بإمكاني أن أفعله. يظنني البعض مجنونة بعض الشيء، خاصة وأنا أجلس على هذا الكرسي المتحرك الأبيض، وأستغل الفرصة وأمثل أنني غبية، ما أفعله يساهم دومًا في بدء مناقشة ما، ينهرني البعض ويطلبون مني أن أسكت، ويدعمني البعض الآخر، وينتهي الأمر بمجادلة بين الجميع عند رحيلي. أعتقد أنني سأذهب غدًا إلى دير القديس "أنتوني"، هناك صلاة تساعية سيحضرها العديد من الأشخاص، وأنوي أن أحْدِث بعض الجلبة هناك.

تأكدت "أماليا" من ظنونها مرة أخرى بأنهم كانوا في شهر يونيو، وقت عيد القديس "أنتوني". كان عام 1968 على أية حال بالنسبة لها مليئًا بالمخاوف المحفورة في ذاكرتها. أراد الجميع أن يتظاهر ضد اقتحام المبنى الإداري للجامعة في يونيو. لم تحِن بعد تلك اللحظة التي تعقدت فيها كل أمور

"كلوديا" في المدرسة. كان الوقت هو أغسطس حين كانت ضحكة "كلوديا" الجميلة بفراغات أسنانها وغمازاتها وهي تكتب في دفترها تضيء الصور. ولكن في الوقت الحالي، حدث العديد من الأشياء.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

5

“أنصت بأذني إلى صوت الرياح، وأستمع إلى النسيم

وهو يلعب في شعرك ويداعبه

يا بلدي، يا عطور أرضي

كم أتمنى لو أغط في نوم عميق

على كهوف تلالك الحنونة يا بلدي

وفي نيتي أن أشبع الجوع الذي يسكن بداخلك

وأسمع دقات قلبك”.

“فينيسيوس دجي مورايز”

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كانت صور المدرسة كثيرة: فصول مختلفة، وأعوام دراسية مختلفة، وصفوف منظمة، ومعلمة تجلس وسطهم محاطة بثلاثين أو أربعين طالبًا، الوجوه نفسها مكررة من عام إلى آخر. نظمت “لينا” الصور، كان بعضها يحمل إمضاءات على ظهرها، والبعض الآخر يحمل أسماء المواد الدراسية عن طريق الأرقام والقوائم، وهناك صور أخرى تاه كل أصحابها في بحر النسيان وكان يحتاج الأمر إلى مجهود حتى نتذكرهم. وجدت كذلك صورًا لحفلات نهاية العام؛ صورًا لمسارح مليئة بالمراهقين الذين ارتدوا ملابس التمثيل ووضعوا مساحيق التجميل، القائمين بأدوارهم حسب المسرحية. وُلد شغفها بالمسرح على الأرجح في هذه اللحظة، تلك اللحظة التي أدركت فيها أنه يمكن للنص أن يصبح أبديًّا حين يمثِّله أشخاص من لحم ودم. تذكرت أنها لم تحب أن تظهر فعليًّا على المسرح؛ فقد فعلتها مرتين وتوترت كثيرًا حتى مرضت، خاصة أن الأضواء كانت مسلطة عليها. من ناحية أخرى، شعرت بسعادة غامرة حين تولت إدارة المسرح وكان على عاتقها مسؤولية تخيل الديكورات، وابتكار المشاهد، وإيجاد الحلول، وبث الحياة في الكلمات التي تلألأت على الصفحات المطبوعة. كانت التدريبات وتكرارها مرة تلو الأخرى، ورحلة تحويل النص المبهم إلى شيء مثالي يسعدها أيضًا. ربما لهذا السبب ولعشقها للمسرح قررت دون تردد أن تكتب قصة حياتها كما اقترح “أونريو” في هيئة مسرحية. ستكتب شيئًا عن تجربتها. لم تعرف كيف تكتب مسرحية، فهي لم تحاول ذلك من قبل، انبهرت بفكرة أن تتحدى نفسها، وأن تحاول قدر الإمكان أن تكتب أكبر عدد من الأحداث في وقت زمني محدد عن طريق الاقتصاد في أساليب الكتابة ووضوح الشخصيات، وكتابة الحبكة الدرامية، كان تحدي اختيار ذروة

أحداث النص هو الأقوى، فقد تخيلت موقف الذروة حيث يتجه كل شيء ناحية الختام الذي لا مفر منه، وقررت أن تكتب مسرحية، ليس تقريرًا أو شهادة، أو رواية، حتى لو اضطرت أن تطلب المساعدة من شخصٍ ليعمل على النص.

على الناحية الأخرى من الخليج، وافقت "سونيا" أن تتعاون وتعمل معها في فريق. تحدثتا مرات قليلة، وكانت "لينا" تأخذ الملاحظات، وتجمع الروايات، وتحاور الأشخاص، وتختار المادة التي ستطرحها. كتبت عددًا قليلًا من المشاهد، ثم جلستا معًا وناقشتاها أكثر، وبدأت "لينا" في الإلمام بخيوط المسرحية. كانت ستبدأ في الكتابة لولا أن منعها المرض، كيف لك أن تغزل كلمات ونسيج أفكارك لا يساعدك، بل تتشابك خيوطه وتنقطع؟ كان يجب عليها أن تشفى حتى تكمل ما بدأته، ولكن كيف؟ كانت على قناعة تامة أكثر من أي وقت مضى أن الأدوية التي تحميها من السقوط هي ما يجعلها في حالة عدم التركيز تلك، حالة من السُّبات العميق التي لا تفيق منها أبدًا، وربما كان المرض نفسه هو ما يخدرها. تنقصها الشجاعة لتجرب وترمي بنفسها وسط الظلام. كانت خائفة من أن تسقط مجددًا، وألا تستطيع أن تنهض مرة أخرى.

لاحظ الطبيب شيئًا مثيرًا للانتباه بعد أن استمع لها في صمت تام، وقال:

- لم أفهم جيدًا كيف سقطتِ في الطائرة؟ أيمكن أن تخبريني مرة أخرى؟

فحكت له:

- ركبت الطائرة لتوي، وكنت أحمل حقائب اليد التي كنت سأضعها في مكان أمتعة المقصورة العلوية، ولذلك كنت أقف بجانب الكرسي الخاص بي. عندما كنت على وشك أن أفتح مقصورة الأمتعة، اختلط الأمر عليَّ وأنا أحمل الليمونة، وعندما استعدت وعيي كنت قد سقطت.

فقال لها:

- أتفهم الأمر، ولكن ما لا أفهمه هو تلك الليمونة.

فردت عليه:

- لم تكن ليمونة كاملة، بل مجرد شريحة دائرية.

فسألها الطبيب:

- وماذا كنتِ تفعلين بشريحة ليمون وأنتِ تصعدين الطائرة؟

فردت عليه:

- لا أعلم أنا أيضًا؛ لم أكن منتبهة. أخذتها وأنا لست في وعيي حين كنت أمر بجانب المطبخ الصغير في الطائرة. شعرت كما لو أنني أردت أن أتذوقها.

فسألها الطبيب مرة أخرى:

- وهل من طبيعتك أن تتذوقي الليمون بهذه الطريقة؟

قالت له:

- لا أحب تذوق الأشياء اللاذعة، إنها ليست عادتي. لكنني أردت أن أفعل ذلك حينها. أتذكر أنني كنت أفكر في عصير الطماطم الذي سأشربه في الرحلة حين كانوا ينادون الركاب للصعود على متن الطائرة، أعتقد أنني كنت أشعر بالعطش الشديد، فالجو كان حارًا جدًّا. وبعد ذلك، مررت بجانب المطبخ الصغير في الطائرة ورأيت شرائح الليمون، أخذت واحدة دون تفكير. لماذا؟ وما علاقته بمرض خلل التوازن الذي أعاني منه؟

فقال لها:

- لا أعلم، ما زلت أحاول أن أفهم السبب. أخبريني شيئًا، ماذا أكلتِ هناك؟ هل تذكرين؟

بدأ صبر "لينا" في النفاد، فقالت له:

- أخبرتك بكل هذا من قبل. تناولت جميع وجباتي في الفندق؛ لأنه كان هناك حصص غذائية لكل فرد، ولن يستطيع أحد أن يدعوني إلى الغداء أو العشاء. ولا توجد مطاعم مفتوحة لأن البلد في حالة حرب، ولم يكن هناك شيء لأشتريه في الأسواق أو المحلات. لم أجد بسكوتة واحدة ولا حتى قطعة واحدة من الشوكولاتة، بحثت في كل مكان ولم أعثر على أي حبة فاكهة للبيع، كانت المياه المستخدمة في مطبخ الفندق نظيفة وذات جودة عالية مما يدعو الحكومة للفخر، فهذا الفندق بمثابة بطاقة اتصالهم بالعالم، حيث يقيم الضيوف الرسميون. لا تحتوي مياه الفندق على طفيليات "الأميبا" ولا "الجياردية"، ولا أي طفيليات أخرى. كما حصلت على نتائج تحاليلي؛ ولا يوجد شيء بها. ظن الجميع في بادئ الأمر أنني التقطت عدوى من طفيلية ما أو مرض استوائي خلال عودتي من أفريقيا، ولكن ثبت أن كل هذا لا علاقة له بمرضي.

قال لها الطبيب:

- هذا ليس ما أفكر فيه، ولكن أريد أن أعرف ماذا كنتِ تأكلين هناك؟ هل تذكرين؟

أجابته:

- الأمر بسيط، لم يكن هناك أي تنوع، باختصار كنت آكل الأرز والسمك مع الزيت البرتغالي الرائع، وكان السمك طازجًا، يصطادونه كل صباح من أمام الفندق، وكنت آكل الأرز كل يوم على الغداء والعشاء، وبين الحين والآخر آكل "النودلز".

واصل أسئلته:

- وماذا أيضًا؟

- هذا كل ما أكلته، فأزمة الموارد جادة للغاية. كانت الشوارع كلها مسدودة، ولم يكن هناك أي طريق لتوصيل الموارد من الأقاليم إلى العاصمة. لم تكن لتجد حبة خضار، أو بيضة، أو ثمرة فاكهة، أو حتى طعامًا معلبًا. كان البلد في حالة حرب وبلا مال. لم نشعر بالجوع، ولكن لم يكن هناك تنوع بالأكلات؛ أرز وسمك بالكمية التي تحبها.

فكر قليلًا، ثم قال:

- إذن قضيتِ شهرًا كاملًا دون أن تأكلي خضراوات أو فاكهة؟

فردت عليه:

- بالضبط.

فأكمل حديثه قائلًا:

- ثم بدأتِ في السقوط.. كنتِ تحلمين بعصير الطماطم حين دخلتِ الطائرة، وسرقتِ شريحة ليمون من مطبخ الطائرة. أعتقد أنكِ كنتِ تشتهين الفيتامينات والمعادن.

وافقته "لينا" الكلام، وقالت:

- هذا صحيح، ولكن إذا كان سبب سقوط البشر هو الحمية الغذائية التي يتبعونها، لن يظل أحد واقفًا على قدميه. هناك العديد من الأشخاص الذين يتبعون حمية غذائية لا تعتمد على الفيتامينات والمعادن لفترة طويلة ولم يسقطوا ولو لمرة.

- البشر يختلفون عن بعضهم، أنا أفكر الآن في أن هناك عاملًا في عملية الأيض الخاصة بك يستهلك الفيتامينات والمعادن بصورة سريعة للغاية، لا يقدر جسدك على تخزينها لوقت طويل، وبالتالي، فقد استهلكتِ مخزونك كله في آخر إقامة لكِ. وهو ما أدى بشكل أو بآخر إلى إظهار استعدادك إلى خلل التوازن، حتى ولو لم يظهر عليكِ أعراضه بعد.

فسألته:

- علامَ تستند في استنتاجاتك هذه؟

ابتسم، وقال:

- أنا لا أضمن أي شيء. هذه مجرد نظرية منطقية بالنسبة لي.

سألته:

- وماذا بعد؟

- سأقدم لك حلًّا، ولكن لا يوجد ضمان لنجاحه. ستبدئين في حمية غذائية مليئة بالخضراوات، والورقيات الخضراء، والفاكهة، وبالتدريج ستقللين من جرعة الدواء؛ نصف قرص يوميًّا.

اعترضت قائلة:

- لا، إذا توقفت عن الدواء سأسقط، سأفعل أي شيء حتى لا أسقط مجددًا.

- ما الأمر إلا تقليل تدريجي للجرعة؛ ربع قرص كل يوم أو يومين. سنراقب الحالة، وإذا شعرتي بأي دوار، أخبريني. فلتجربي الأمر.

توترت "لينا"، وقالت:

- لا أستطيع فعل هذا؛ لا أملك الشجاعة الكافية، إنها مجرد نظرية حسب قولك، وليس هناك أي ضمان على أنني لن أفقد الوعي ثانية. من ناحية أخرى، أكد لي طبيب الأعصاب أنه إذا انتظمت على هذا الدواء ولم أنسَه، لن أقع مجددًا أبدًا. كما قال لي إنني سأستطيع أن أخرج بمفردي إلى الشارع، وأتمشى وأذهب إلى الشاطئ، وبعد فترة سأستطيع حتى قيادة السيارة، وأدور وأدور وأنا أرقص، وأن أسبح. عفوًا، أفضل أخذ الأدوية.

سألها:

- لبقية حياتك؟

ردت عليه:

- نعم، لبقية حياتي. لن أقضي عمري وأنا أسقط دون جدوى، حتى ولو اضطررت إلى أن آخذ ثلاثة أقراص في الصباح وثلاثة في المساء يوميًّا.

فقال لها:

- "هيلينا ماريا"، أرى أنك ما زلتِ غير مستقرة، استمري في تناول الأقراص لفترة. قلت لكِ مسبقًا إنني لا أستطيع أن أعطيكِ أي ضمانات، ولكن فكري

في الأمر، ذكرتِ من قبل أنكِ ترغبين في إنجاب طفل، لن يمكنك الإنجاب وأنتِ تأخذين هذا الدواء، إن الأمر خطير للغاية.

- أعلم هذا، فقد أخبرني الطبيب أن الإنجاب لا يُنصح به في حالتي نهائيًّا.

أصر قائلًا:

- نعم، هذا صحيح، ولكن ليس بسبب حالتك، بل بسبب الأدوية.

حاصرها إصراره فشعرت بعدم الأمان والتوتر، واجتاحتها رغبة في البكاء، وطلبت منه قائلة: - أرجوك، لا تصر على ما تقول، إن فكرة أن أفقد توازني ترعبني، لا أستطيع أن أفعل ما تطلبه.

- أوافقكِ على أنكِ لا تستطيعين فعل ذلك الآن، ولكن تحتاجين هذه الخطوة، ونجاحها يتوقف عليكِ. يجب عليكِ أن تتحلي بالشجاعة، ستفشلين أكثر من مرة، ويمكن لنظريتي أن تكون خاطئة؛ لأنها مجرد تجربة، ولكن أؤمن أنه من السيئ أن تحكمي على نفسك بتناول أدوية طوال حياتك دون تجربة البدائل، فكري في الأمر، وحين يأتي الوقت المناسب ستتخذين القرار. سأكون موجودًا لمساعدتك.

قالت له:

- أنا على يقين من أنك ستكون موجودًا لمساعدتي ولكن أنا من ستسقط، أليس هذا صحيحًا؟ تشجيعك هو تشجيع على السقوط في الهاوية وحدي، لن تكون معي. ماذا لو سقطتُّ بالفعل؟

قال لها:

- هذه هي لغة الخوف التي تتحدثين بها، وماذا لو لم تسقطي؟

- أفضل ألا أخوض هذه التجربة.

- حسنًا، إن الأمر كله يعتمد على مدى رغبتك في الوصول إلى الناحية الأخرى.

ظلت "لينا" تفكر في الأمر برمته. لم تكن فكرة إنجاب الأطفال بطريقة أخرى تحدث عنها طبيبها، وهو ما أراده "ألونسو" وأرادته هي أيضًا، على الرغم من كل شيء وخيانته لها مع امرأة أخرى ورد فعله الانفعالي عندما علم بأمر استحالة إنجابها الأطفال وهو أسوأ شيء في هذه اللحظة، ولكن كان الأسوأ الذي ينتظرها على الناحية الثانية من الهاوية والجسر الضيق الخطر هي بناء أفكارها ومسرحيتها وكل نصوصها المستقبلية. لم تقدر على الكتابة الآن وهي في تلك الحالة. شعرت "لينا" بأنها سيتحتم عليها اتخاذ القرار عاجلًا أم آجلًا.

عليها أن تختار بين أن تترك الكتابة أو أن تترك نفسها لخطر الوقوع وفقدان الوعي، ولكنها لم تجرؤ بعد على اتخاذ أي قرار. في النهاية، كانت “لينا” فتاة صغيرة في انتظار معجزة ما، أو محلول سحري، أو عصا الجِنِّيَّة السحرية، أو الوصفة السحرية التي ستحول مخاطرة العبور إلى الناحية الثانية إلى مجرد نزهة هادئة على جسر متزن وثابت، كما تحب. لم تتنزه منذ أن مرضت، ومنذ ذلك الوقت قبل رحلتها مباشرة عندما قابلت “سونيا” للمرة الأخيرة لمناقشة المسرحية.

ظنت دائمًا أنه سيكون رائعًا لو كان هناك جسر واسع ومتين يربط بين ريو و”نيتيروي”؛ بحيث يمكنك أن تذهب من ناحية من الخليج إلى الناحية الأخرى دون أن تشغل بالك بالقيادة ولا بالعَبَّارات أو بالمراكب، ودون تحويلات غير ضرورية. يا لها من لحظة سحرية أثناء عبورك تلك المسافة وأنت حر، فلا بيوت أو حقول على جانبي الطريق ولا شيء يقيد نظرك. لا شيء سوى انعكاس المشهد على المياه الزرقاء والليل والضباب. كاد الوقت يتوقف في تلك اللحظات. أحبت أن تستمتع بهذه الرحلة وحدها، وأن تفتح الشبابيك ليتسلل الهواء إلى السيارة مصحوبًا برائحة البحر وصوت الأغاني المنبعثة من راديو السيارة. كان الراديو اليوم يبث موسيقى “شوبان”، كم كان كل شيء مثاليًّا، حينها لم تفكر في العمل الذي كان في انتظارها على الناحية الأخرى، ولا في اجتماعها مع “سونيا” لمناقشة أخرى بخصوص نص المسرحية، ولا في أجواء التدريبات التي بدأت تجتاح المجموعة. كانت تنسى أفكارها التي راودتها قبل وبعد الرحلة وتترك نفسها ليحملها الطريق الموازي للمياه الزرقاء إلى وجهتها وسط نغمات البيانو. كثيرًا ما راودت “لينا” أفكار مثل أحلام اليقظة: أفكار لم ترَ النور بعد، على الأقل بإمكانها الآن أن تأخذ راحة من سيل أفكارها قبل وبعد الرحلة مباشرة، أو من الأفكار القديمة مثل تلك التي راودتها مع صوت البيانو. شعرت “لينا” بالأسى حيال نفسها فجأة؛ لأنها لم تتعلم أبدًا العزف على البيانو، وأنها تخلت عن جميع محاولاتها في طفولتها لإعطاء فرصة للموسيقى أن تنسال من بين أطراف أصابعها. كم كانت حمقاء! فلو كانت أكثر إصرارًا، ولم تسمح للتمارين والعقاب ونوتات السلم الموسيقي أن تحبطها لكانت استمتعت بالسعادة التي طالما شعرت بها وهي تعزف وتطرب أذنيها. كانت يداها ترسم أصواتًا موسيقية خلابة وتستمتع بقوة الأوتار أو خفة حركة أصابعها على البيانو. أحبت أن تقضي هذا الوقت الساحر وهي تنصت إلى أصوات ضربات المطارق واهتزازات الخيوط داخل الكنز الساكن بداخل البيانو. لم تمتلك الإرادة؛ كانت صغيرة جدًّا لتتخيل إلى أين يمكن لتعلم البيانو أن يذهب بها، ولهذا فقد تخلت عنه. تخلى جميع إخوتها واحدًا تلو الآخر عن تعلم البيانو، واستسلموا بسبب طرق معلمتهم القمعية التي لم تكن تسمح لهم بأن يعزفوا الموسيقى إذا لم تكن النوتات مثالية.

كانت معلمتهم تبغض كل أصوات الموسيقى المنتشرة. هجروا البيانو وتركوه في ركن من غرفة المعيشة، ثم هبطت منزلته بانتقاله للشرفة في صورة صريحة من الانحدار، وقد أثار المشهد في نفوسهم رمزية لم يرغب أحد في التفكير بها.

كان البيانو عبارة عن نعش وجثة، كما لو كان تابوتًا لنفسه جاهزًا ليتدحرج على أرجله ليصل إلى قبره. كان البيانو جسدًا مليئًا بالنوتات الموسيقية العالية والمنخفضة، وكانت له مقابض معدنية تشبه الأذنين. لم تكن أرجله ثابتة، فقد تآكلت بسبب النمل الأبيض. كانت عيناه غامضة مثل شمعدانه غير المضيء الذي كان ينير الموسيقى القادمة منه. فقد البيانو مفاتيحه العاجية التي سكنت دواساته الكبيرة ومنفاخه التي انبعثت منها الموسيقى. ذبل منفاخه وتقطع، ولم يتبقَ منه سوى ذكرى ماضٍ بعيد كان يعزف موسيقى تتمايل عليها الأحباب. أما الآن، فكان البيانو مكسورًا ومتهالكًا، وأوتاره مقطوعة، ومطارقه متآكلة من النمل الأبيض. امتلأ جسده ببيض السحالي. كان مهجورًا كالهياكل العظمية التي عفا عليها الزمن. فلترقد في سلام أيها البيانو! مرت عليك أيام عزفت فيها الأصابع الماهرة على أوتارك، وغزلوا أنغامًا وإيقاعات، وتنهدت الفتيات على ألحانك، وحلم الأولاد، وانبهر الأطفال بك.

عزفت أصابع خالاتها نوتات السلم الموسيقي على مفاتيح البيانو في يوم ما من الماضي البعيد في عيد ميلاد جدتها. أظهرن مواهبهن في عزف موسيقى "هانون" و"تشيرني"، كما لعب أولاد العم أو الخال موسيقى الـ"بوليرو" والـ"السامبا". أما "لينا" فقد خاطرت وعزفت موسيقى "الجاز" عن طريق السمع فقط، ولكن أخذت موسيقى الـ"بوسا نوفا" منها الأضواء بنغماتها الغريبة غير المتناسقة. لم يتبقَ سوى عزف أبناء الأخ وبنات الأخت لموسيقى الـ"تشوب ستيكز" وأغنية "Ring Around the Rosie". أما الآن، فلا أحد يعزف.

أظهر "فرناندو" اهتمامه بالبيانو، وطلبه، وتحقق طلبه ولكن لم يأخذه معه، فلا مكان له. كان مصرًّا أنه يريده، ولم يسمح لأحد أن يتخلص منه، فقد رغب فيه بشدة، وكان يمزح قائلًا: - أريده، حتى لو انتهى بي الأمر إلى أن أرميه في المحيط.

كان يمكنه أن يتخلص منه ولكنه لم يفعلها، فقد تعلم في المدرسة أن المحيط هو المقبرة الوحيدة التي يستحق أن يُدفن فيه لواء بحري من "باتافيا"، ويمكنه استقبال بيانو ألماني بمنتهى الترحاب أيضًا. كان الأمر مجرد كلام. بقى الحال كما هو عليه، ولم يحرز أحد تقدمًا سوى النمل الأبيض في أجواء من الصمت الثقيل؛ حيث حفر الأنفاق، وصنع التجويفات، والفراغات.

كان بإمكانهم أن يبيعوا البيانو أو يتبرعوا به، أو يؤجروه، أو يعيروه لأحد بما أنه لا أحد يستعمل هذا الصندوق الموسيقي الكبير، كان بإمكانهم أيضًا ألا يفعلوا أي شيء ويتركوه في الشرفة في انتظار ظهور موسمي لأصابع موسيقية تستمتع بالعزف عليه، ولكن عليهم أن يعتنوا به على الأقل، ويضبطوا إيقاعه من حين إلى آخر، عليهم قبل كل شيء أن يتصلوا برجال مكافحة الحشرات، كيف أمكنهم تركه حتى يصل إلى هذه الحالة؟ لم لا يضعون عليه غاز «كيروسين»!

لم تتأمل "لينا" البيانو إلا مرة واحدة عندما كانت وحدها في بيت أمها، كان البيانو وحيدًا في ركن الغرفة: عيناه التي تحمل الشموع، ودواساته على شكل لسان. كان يشبه الوحش الذي ضاقت به الدنيا وحُرم من كل قوته السابقة. نظرت إليه عن قرب ولاحظت تدهور حالته، فتحته وواجهت جيوش النمل الأبيض. لا شيء يمكن فعله. أو ربما ما زالت هناك فرصة واحدة أخيرة، وهي أن عليها أن تتصل بشركة تشتري آلات البيانو القديمة. لا شيء ليفعلوه. لم يكن هذا ممكنًا، فلن يأخذوه حتى ولو بالمجان.

عليهم أن يتخلصوا من تلك الجثة الهامدة؛ عليهم أن يتصلوا بمتخصصي النفايات ليأخذوه إلى مستودع النفايات خلف المنزل في الممر الذي لم يرتقِ حاله ليكون شارعًا، ولكن هناك مساحة يحق لهم استخدامها. أعلنت أرجل البيانو عن استسلامها وتحولت إلى بودرة بسبب النمل الأبيض. من المستحيل الآن أن يعزف البيانو مقطوعة "من أجل إليزه" (Für Elise) الخالدة. لفظ أنفاسه الأخيرة في سلام، ولم يكن هناك مكان للتوسل بعد الآن. يا إله السلام، إن الوقت لا يملك سببًا لينقذ الإرث العائلي. شعرت "لينا" كما لو أنها تتخلص من حمل ثقيل حين شاهدت فك أجزاء البيانو ليضعوها في سيارة.

لم يكن البيانو مجرد شاهد على إحباطات طفولتها، ولكن رمزًا قاسيًا غير محتمل للتدهور الذي أصاب عائلتها ولحزن الإيقاعات المفقودة.

ذكَّرتها صور المدرسة الآن بكل ما حدث. ذكرتها بالتشوق إلى التدريبات وإلى مسرحية آخر العام، ووضعيات التصوير الجادة في يوم تجارب أداء البيانو، والأولاد مرتدين البذل، والبنات مرتديات الفساتين المصنوعة من قماش "الأورجانزا" والأوشحة المزينة بالورود الصناعية الوردية والزرقاء. تذكرت توهمهم بأنهم كانوا موهوبين، ومثقفين في الفنون كما ينبغي بحسب مستواهم الاجتماعي. انتعشت في ذاكرتها ترتيبات الزهور بجانب البيانو الكبير؛ فقد كانت تشبه أبا الهول بفكيه وجسمه الداخلي، المفتوحين على مصراعيهما خلف مجموعة الأطفال على المسرح الصغير وهم واقفون بانتظار التقاط الصورة في قاعة نقابة الصحافة البرازيلية. كانت النقابة نفسها التي شاهدت فيها وهي طالبة لم تتخرج بعد العديد من الأفلام

الكلاسيكية التي عرضها نادي السينما. كما كانت النقابة نفسها التي أسند إليها أن تعيش فيها وتغطي أحداثها في أيام الرعب للتاريخ البرازيلي. ستشهد هذه النقابة العديد من الاجتماعات الشجاعة، وحشود الابتهال المقاومة، والعديد من تجمعات التظاهر، مثل تلك التي حدثت بعد اقتحام المبنى الإداري للجامعة.

لم يَدْعُ أحدٌ الناسَ لهذا الاجتماع.

كانت هناك تظاهرات في اليوم التالي للاقتحام في الشوارع، والعديد من الاضطرابات، والحواجز، والتعديات على الشعب في وسط المدينة. ساد العنف الأجواء، وانتهى الأمر بأربعة قتلى وعشرة مصابين. تذكرت "لينا" الصفحة الأولى من جريدة الـ"كوريو دا مانيا"، وصورها الصارخة، ووصف الصحافة لسلاح الفرسان للشرطة العسكرية بـ"خيالة نهاية العالم"، وتسميتهم لذلك اليوم بـ"الجمعة الدموية".

كانت المدينة مصدومة للغاية؛ فلا يمكن لأحد ألا يتأثر بمثل هذا العنف. رأى الجميع أنه يجب أن يوضع حد لكل ما يحدث بطريقة ما، لم تكن ريو دي جانيرو مدينة من هذا النوع، ولا البرازيل بلدًا من هذا النوع. شعر الجميع بالسخط في داخلهم، ولكن لم يعلموا ماذا يجب عليهم فعله.

ذهب الصحفيون بطبيعة الحال إلى النقابة بعد تركهم غرف الأخبار، كما هو الحال في الكليات حين تنتهي المحاضرات ويناقش الطلاب والأساتذة ما يحدث، وكما هو الحال مع الفنانين والمفكرين وتجمعاتهم في الساعات القليلة في المسارح المتناثرة حول المدينة. كانت تجمعات مماثلة تحدث في المستشفيات، والمصانع، والمكاتب؛ فالغضب هو نفسه في كل بيت. انتشرت المقترحات والتعليقات نفسها في كل مكان مع اختلاف ضئيل في الطريقة والأسلوب، فجاءت على سبيل المثال كما يلي: - لا يمكن للأمر أن يستمر هكذا!

- لقد تمادوا كثيرًا هذه المرة.

- لا يمكنك أن تفعل هذا، فهذا مبالغ فيه.

- يجب علينا أن ندافع عن أولادنا.

- أعتقد أننا يجب علينا إرسال برقية اعتراض.

- لمن؟ للحكومة؟ للرئيس؟ للخنازير؟ لا تكن غبيًّا، فـ"برازيليا" لا تكترث لأيٍ من هذا.

- لنكتب عريضة، أو بيانًا، ونجمع الآلاف من التوقيعات وعلى رأسهم توقيعات أشخاص مهمة..

- فلنقدم عريضة إلى وزير التعليم، فهو في ريو الآن.

- لنؤدِّ الصلوات الليلية ونضئ الشموع أمام مجلس المدينة.

- فلنكتب رسالة إلى الشعب، وننشرها في جميع الجرائد، ونلصقها على الحوائط، والأسوار، ونوزعها في الشوارع.

- فلننظم مظاهرة سلمية، ونصمم الشعارات واللافتات، ونعلقها على عتبات مسرح البلدية، وبهذه الطريقة نحجب الرقابة.

- مظاهرة في قلب المدينة.

- مسيرة احتجاج.

بدأت الأحداث تجري بإيقاع سريع؛ فالطلاب سيتظاهرون، أما الفنانون فسيجلسون على عتبات المسرح. كان المعلمون سيقدمون عريضة لوزير التعليم. ستفعل كل مجموعة ما تمليه عليها طبيعتها، وستختار طريقتها المميزة للتظاهر. كان من الحكمة ألا تنفرد أي مجموعة بنفسها وتنعزل خوفًا من القمع والعنف مثل الأحداث الأخيرة. قرر الجميع أن يتظاهروا في المساء نفسه من الأربعاء التالي، في الوقت نفسه الذي سينظم فيه الطلاب مسيرة.

دخلت البرازيل التاريخ بأكبر مظاهرة سلمية شعبية لم ترَ مثلها مدينة ريو دي جانيرو؛ مسيرة من مئات الآلاف. لم يستطع أحد أن يحدد بالضبط عدد الأفراد المتظاهرين في الشوارع الذين كانوا على أتم استعداد لمحاربة النظام. كان مستحيلًا إحصاء عددهم، ولكنهم ملؤوا الميادين والشوارع على مرمى البصر. بالغ البعض وقال إنهم مئتا ألف، وقلل البعض من عددهم وقال إنهم سبعون ألفًا. وعلى الرغم من كل شيء، ظل اسم "مسيرة المئة ألف" خالدًا بأحرف من نور، مذكرًا الجميع بيوم الاحتفال المدني الذي كان على الجيش أن يتقبله على مضض وفي اندهاش. ارتسمت على شفتي "لينا" ابتسامة ساخرة كلما تذكرت هذا اليوم. تذكرت بوضوح أيضًا ردة فعل "باستوس" ولاحظت للمرة الأولى أنه تمكن من دور المدير للغاية، وارتاح فيه حين قال: - كيف عرفتم أنهم مئة ألف بحق الجحيم؟ هل قمتم بعدِّهم؟ هل قام أي أحد بعدهم؟ إن الصحفي الموضوعي هو من يكتب عن موضوعات تأكد منها شخصيًّا، ولا يسمح لنفسه بأن يُستَغل من أجل الحملات الدعائية للآخرين. لا يريد هؤلاء المشاغبون سوى أن يتلاعبوا بالرأي العام.

لم يكن العدد هو ما أزعجه في الحقيقة، بل اعتراض الطلاب على الصحف الكبيرة وتسميتها بـ"صحافة الطبقة البرجوازية"؛ لأنها تزوِّر الحقائق.

ضايق النقد مالكي الجريدة، وشعر "باروس" حسب خبرته في أمزجة المديرين أن رياح التغيير كانت على الأبواب مثل أسلحة المدفعية في وضع الاستعداد، وكان هو وسطها مشوشًا. حاول أن يغير من مسار تغطية الأحداث بأن يكتب فقط ما لا يمكن تركه من الأحداث، ولكن في الوقت نفسه بدأ بمهارة التقليل من حجم المظاهرة، وأن يتحدث عن الفرق بين "الأشخاص الطيبين"؛ أولئك الليبراليون الرافضون للعنف الذي ليس من شيم المشاعر المسالمة والمرحبة التي امتاز بها البرازيليون، وبين "الأشخاص السيئين" من الطلاب، والمشاغبين الذين على علاقة باليسار، والنقابات، والأحزاب الزائفة. وصفتهم جريدة "باروس" بأنهم لا يكترثون لسوى تشجيع الاضطرابات وأعمال الشغب في الشارع لأسباب غير معلومة، كانت تلك المسيرة نقطة فاصلة في الأيام، والأسابيع، والشهور التي تلتها، وحين كان لا بد من تحليل الوضع والتحدث عن مسيرة المئة ألف شخص، كان "باروس" يتدخل قائلًا: - ليست مئة ألف بحق الجحيم. إن الواجب الأول الذي يقع على عاتق الصحفي المحترم هو أن يكون موضوعيًّا. اكتبوها "مسيرة السادس والعشرين من يونيو".

شهد ذلك العام العديد من المسيرات، وحده شهر يونيو شهد العديد منها. لم تعترف تقارير "باروس" سوى بتواريخ المسيرات فقط، وكان مضحكًا أن تسأله اليوم ما إذا كان لا زال يتذكر ما حدث حينها، وتكتشف أين انتهت به تلك "الموضوعية الصحفية".

أظهرت المسيرة للنظام، سواء كانوا مئة ألف أم لا، أنه كانت هناك حالة عامة من عدم الرضا. فعلى الرغم من إعلان الحكومة أنها تمنع أي مظاهرة، وقمعها للمظاهرات، خرج مئة ألف شخص إلى الشوارع. اضطرت السلطات إلى التراجع والسماح بالمظاهرات لتجنب المجزرة. ملأت آلاف الأناشيد الغنائية والهتافات الصارخة السماء، وتناثرت الأوراق الصغيرة من أعلى مبانٍ في وسط المدينة. نظموا تجمعًا عامًّا في أحد الميادين، وصوَّت هذا الاجتماع على تنظيم وفد يتحدث باسمهم وينطلق إلى رئاسة جمهورية البرازيل. اشتملت اللجنة المكلفة بذلك على أستاذ فلسفة، ومحلل نفسي، وكاهن، واثنين من قادة الطلاب، وأمٍّ. ظنت "لينا" أن الاختيار كان ملائمًا للموقف، فالوضع كان قد وصل إلى حد الغليان وشعر به الأمهات والأطفال. لو رغب أحدهم يومًا ما، كما تمنى "أونريو"، أن يكتب تاريخ نساء البرازيل ونشاط وعيهم السياسي التدريجي، فيجب عليه أن يكتب عن حركة الطلاب عام 1968. وعلى من يكتب التاريخ أيضًا ألا ينسى "مسيرة المئة ألف" حين انتخبت الجموع أمًّا لكي تمثلهم، وتسبق الأمهات اللاتي لا تحصى من الأعوام القادمة واللاتي ارتفعت دعواتهن وابتهالاتهن للصليب في زنازين النظام وهن يبحثن عن أولادهن. لم يكن حالهن مثل أخواتهن في الأرجنتين اللاتي عُرفن فيما بعد

بـ"منظمة أمهات ميدان مايو"، ولكنهن عانين أيضًا، ولا أحد يمكن أن ينكر ذلك. لم يكن هناك مقياس حرارة للكوابيس، ولا مقياس ريختر لقياس قوة ألم فقدان ابن.

خرجت "لينا" من بحر أفكارها لتعود إلى العالم الخارجي، وقالت لأمها:

- أمي، كنت أتأمل في تلك الصور الخاصة بحفلات البيانو في نقابة المحامين، وكنت أفكر في الاجتماعات التي عقدناها هناك فيما بعد وفي المسيرة. أظن أن ما حدث كان الصدمة الكبرى في حياتي، وهي أن أراكِ هناك وسط المتظاهرين، لم أكن أتخيل أن ترواِدكِ فكرة الذهاب إلى هناك.

ابتسمت "أماليا"، وقالت لها:

- هناك هو مكاني. كنت أعلم أن على الأقل سيوجد هناك خمسة من أطفالي: "مارسيلو"، وحتى "فيرناندو" الذي عاد إلى ريو، وأنتِ، و"تيريزا"، و"كريستينا". هددت الحكومة بوقف كل شيء، كان هذا في اليوم التالي لإطلاقهم النار على الناس خارج مبنى الجامعة، لم أستطع المكوث في البيت والحياكة.

قالت لها "لينا":

- نعم، أتذكر ما قلتِ حين اصطدمنا ببعضنا وسط الحشود فجأة، ومنذ هذه اللحظة لم أترك جانبكِ.

يا إلهي، كيف يمكن لتجربة عنيفة ومخيفة مثل تلك أن تتحول إلى ذكرى ناعمة؟! ما أعجب ما يفعله العقل أو القلب في هذه الحالة.

قالت "أماليا":

- لم تتركيني، ولم يتركني الآخرون. كان أمرًا مستحيلًا أن يجدني كل أولادي وسط زحام مثل هذا، وجدت نفسي عندما انتهى الأمر محاطة بأربعة من أطفالي يحرسونني.

ضحكت "لينا"، وقالت:

- بالطبع، أردنا الحضور و"مارسيلو" يلقي خطبته، تقدمنا للأمام شيئًا فشيئًا حين بدأ، وفجأة ظهرتِ أنتِ والخالة "روزا". كنتِ تنظرين له بفخر، وكانت هي تتلفت يمينًا ويسارًا وهي خائفة للغاية.

فقالت "أماليا":

- تقدمت مع "روزا" حين بدأ "مارسيلو" في الكلام، ثم بدأتِ في محاصرتي، وظلت هي مع أصدقائي. مشينا بالضبط كما كان مكتوبًا في المنشورات، في

مجموعات من خمسة أفراد. كنا نحمل المناديل في محافظنا، وقرص فوار من فيتامين "سي"، لنستخدمه في حالة أطلقوا الغاز المسيل للدموع.

قالت "لينا":

- لم أعلم هذا أبدًا يا أمي.

- ألم أخبرك ألا تقلقي عليَّ؟ قمت بالعديد من الأشياء التي لم أخبر عنها أحدًا؛ كان بالك سينشغل بسببي، من الأفضل ألا تعرفي. قمنا بتجميع الأموال على سبيل المثال.

ما كل هذه المفاجأت واحدة تلو الأخرى في هذه الساعة المتأخرة التي بدأت "لينا" تعرفها وتفكر فيها. سألت أمها: - أموال؟ نحن؟

فردت عليها:

- نعم، قمت أنا وصديقاتي ببعض الأعمال لتجميع الأموال. صنعنا المعلبات، والمربات، وحكنا الجوارب الكروشيه، والكنزات الصوفية الصغيرة، وطرزنا قمصان المواليد، وأشياء من هذا القبيل. صممنا بعض الأعمال اليدوية مثل أغطية الشماعات، وأشياء مماثلة، ثم قمنا بتنظيم بازار وبعنا أشغالنا.

فسألتها "لينا":

- ولمن أعطيتم الأموال؟

فردت عليها:

- إلى كاهن الكنيسة الذي أخرجها للتبرعات.

- لم تعلم صديقاتك أي شيء عن هذا؟

- ماذا تقصدين بعدم علمهن؟ كنَّ على علم بمصير الأموال بالطبع. لم نخدع أحدًا. كنا على قناعة تامة بما نفعل، كان اختيارنا سياسيًّا، كيف لكِ أن تفكري هكذا؟ أردنا المساعدة ولم نعرف كيف، لم يكن لينجح الأمر لو طلينا الحوائط بالشعارات أو بتوزيع المنشورات. فعلنا ما فعلناه. أحدثنا الشغب في طوابير الانتظار كما قلت لكِ. ولكن لم تكن عائلاتنا على علم بذلك؛ فقد كان من المتوقع أن الثائرات لسن أمهات. كان من الجيد أن نتدرب على الشجاعة وسعة الحيلة.

ابتسمت "أماليا" وهي تغلق صندوق الصور كما لو كانت تغلق صندوقًا احتوى على تاج ملكي، وحكت: - كنت مرعوبة يوم المسيرة وخائفة حتى الموت، كنت في حالة توتر وقلق على أخوكِ، خفت أن يطلقوا الرصاص عليه فجأة، كان وسيمًا، وكان يتحدث بلباقة من أعلى الشرفة أو السلالم أيًّا كان ما

يتحدث منه، كنت خائفة عليه لدرجة تقتلني ولم أكن خائفة على نفسي، استغربت من شعوري أن هذا هو مكاني الذي أنتمي إليه، ظننت أن لو كل الأمهات أتت وبقيت مع أطفالها لن تقدر الشرطة على إطلاق النار حتى لا يصيبونا معهم، كنت أفضل أن أبقى معكم حتى لو قرروا أن يطلقوا النار علينا، فربما أستطيع المساعدة.

فهمت "لينا" الأمر؛ فقد كانت تعلم أنه هكذا تجري الأمور، تذكرت أنه بعد عدة شهور في بداية شهر أغسطس قُبض على رئيس النقابة "فالدير"، وكان على بقية قادة الطلاب أن يتقاسموا مهماته. كانت هناك مسيرة ممنوعة في "كوباكابانا" في وقت الغروب، وكان قائدها هو "مارسيلو"، وقد توقع الجميع أن هذه المسيرة ستكون عنيفة. ذهبت "لينا" في ذلك اليوم لتغطي الأحداث بصفتها صحفية وليست أخت "مارسيلو". بررت "أماليا" ذهاب "لينا" بأنها أرادت أن تكون قريبة من أخيها. ظلت "لينا" حوله وسط العزل الأمني. كان من ضمن الطلبة مجموعة من محاربي الجودو ذي العشرين عامًا. كان محاربو الجودو على أتم الاستعداد لمواجهة الأسلحة المعقدة لمجرمي الشرطة بمهاراتهم القتالية. ما زالت هذه الذكرى تجعل قلبها ينبض سريعًا وتملؤه بالعطف على كل واحد من هؤلاء الملائكة الحراس الصغار الذين فرقتهم الحياة وصراعات الديمقراطية الآن وأصبحوا حتى في أحزاب ومنصات معادية لبعضها بعضًا. ألقى "مارسيلو" بخطبته وهو فوق غطاء محرك سيارة "فولكس فاجن". لاحظت "لينا" فجأة أن الجميع كان يهرب ويركض بعيدًا. نظرت على بعد ثلاثة مبانٍ في الشارع الذي امتلأ بالعديد من الأشخاص وتوقفت فيه الحركة المرورية فجأة، ورأت موجة قادمة كأنها حديد أزرق. كانت الشرطة العسكرية تركض نحوهم محتمية بالدروع والخوذات؛ رافعين عِصيَّهم الخشبية عاليًا، وقد ركض أمامهم صفان أو ثلاثة من العساكر؛ ممسكين بالدروع والكلاب البوليسية التي كانت معهم. حدث كل شيء سريعًا جدًّا! صرخ أحدهم من المجموعة التي كانت تؤمِّن الطلبة: - اركضوا نحو الشرطة، حتى نكسب وقتًا ونسمح للقيادة بأن ترحل.

تبقى القليل من المتظاهرين هناك، ولكن لم يتردد أحد. على الرغم من أن كل شيء حدث سريعًا، كان يمكن أن تشعر بالتصوير البطيء مثل الأفلام، وأن ترى كل تفصيلة، وأن تنتبه لكل شيء. اقتربت الشرطة والكلاب، وارتفع صوت نباح الكلاب وزمجرتها، وصوت أحذية الجنود وهي تجري على الأسفلت في إيقاع واحد. تعالت الصرخات من كل اتجاه، وفجأة صرخ أحد الشباب الذين كانوا يؤمِّنونهم عاليًا قائلًا: - انتشروا سريعًا!

لم يكن من الضروري الركض ناحية الكلاب، فقد كانت تقترب بالفعل أكثر فأكثر. كانت أفواهها مفتوحة، وألسنتها متدلية، وأسنانها مكشوفة، وتجر

الجنود إلى الناحية الأخرى من الأربطة. اقتربوا للغاية. حينها رمت "لينا" نفسها على عتبة محل حلويات وجرت وسط الطاولات وخلف طاولة البيع، وهربت من باب خلفي إلى شارع جانبي، ركضت كما لم تركض من قبل، وتعالت في الخلفية أصوات النباح والصراخ، فكرت في أن تدخل كنيسة بعد ذلك ولكنها كانت مغلقة، كانت هناك مدرسة لكنها كانت مغلقة أيضًا، فركضت ناحية جراچ عمارة، فرآها الحارس وأمرها بالخروج، فتركت المبنى وركضت حتى وصلت إلى شارع به حافلات؛ حاولت أن توقف إحداها ولكن دون جدوى، فأكملت ركضها على الرصيف، وفي الشارع، وفي وسط الحركة المرورية. كانت أصوات الكلاب تبتعد أكثر فأكثر، وظلت تركض حتى ابتعد الصوت ولم تعد تسمع شيئًا، وأدركت أنها على الناحية الأخرى من النفق؛ قريبة من بيت أمها. لم تشعر بالخوف مثلما شعرت في هذا اليوم، ولم تشعر بأنها شجاعة مثلما شعرت حينها. كانت تعلم أن كل ما كان "مارسيلو" بحاجة إليه هو الوقت للهروب، وأرادت أن تعطيه هذا الوقت حتى لو اضطرت إلى أن تقوم بدور العظمة التي تستدرج الكلاب وهي تجري أمامها. انتابتها السعادة حين شعرت بأن بإمكانها المساعدة.

قالت أمها، وهي لا زالت تفكر في المسيرة:

- لا أعلم، ظننت أنني لو كنت قريبة يمكنني أن أساعد إذا احتاج مساعدتي. ولكنني كنت خائفة أن أكون عائقًا فذهبتُ مستعدة.

اندهشت "لينا"، وقالت:

- مستعدة؟ كيف؟

فردت عليها أمها:

- قلت لكِ إنني رأيت المنشورات التي تدعو إلى المسيرة في غرفة "مارسيلو". أخذت واحدة لنفسي واتبعت كل التعليمات المذكورة بها. فعلت كل شيء كما ينبغي. لم أذهب وحيدة، بل أخذت معي "روزا" وثلاث من الصديقات.

رأت "لينا" أن أمها كانت دومًا مليئة بالمفاجآت؛ فلم يقتصر الأمر على وقوفها صامدة أمام المجريات، ولكن كانت تقوم بمبادرات غير متوقعة وصغيرة بين الحين والآخر بشكل ثابت. فعلى سبيل المثال، كانت تكتب القصائد أو القصص القصيرة في كتاب وصفات الطبخ، أو مثلما فعلت إحدى صديقاتها السيدة "لوسيا" التي كانت أيضًا أمًّا لعدد من الشباب في الحركة الطلابية. كانت في أحد الأيام جالسة تحيك الثياب على ماكينة الخياطة حين رأت

الشرطة من شباك الطابق الثاني، وحذرت أولادها قائلة: - انزلوا إلى الأسفل بسرعة وامنحوني الوقت الكافي.

وقعت تلك الأحداث عام 1968 قبل أن يصبح القمع أكثر عنفًا. كانت أوامر الإحضار إلى المحكمة لا تزال سارية في البلاد، وعلى الرغم من التعديات والتعديلات على الدستور فإنه كان لا يزال يُعمل به. كانت العائلة من ضمن المعارضة، ولكن نظرًا إلى علاقاتها، وبيتها الجميل في جزء الطبقة الاجتماعية الوسطى من المدينة في منطقة الجنوب، لم يتوقع أحد المواجهة أو العنف الجسدي المباشر لهم. ولكن سيتغير كل شيء إذا وجدت الشرطة دليلًا يدينهم. علم الأولاد بذلك اليوم السابق، وأحضروا كومة كبيرة من المنشورات التي خرجت لتوها من المطبعة لتوزيعها على مدارس عدة، وأخفوها تحت أسِرَّتِهم. ظلت قلوبهم تدق خوفًا، وفعلوا ما أمرتهم به السيدة "لوسيا". تحدثوا إلى الشرطة وقدموا لهم القهوة، وحاولوا أن يطيلوا من البحث بالطابق السفلي ليكسبوا بعض الوقت. سمعوا من الأعلى صوت ماكينة الخياطة الذي تتوقف كل فترة لقص تصميم ما على الأغلب، أو حياكة شيء ما بإبرة الخياطة. صعد رجال الشرطة إلى الأعلى، ولم يتمكنوا من تعطيلهم أكثر من ذلك. قاطعت "لوسيا" خياطتها وذهبت معهم وهم يفتشون الأدراج والدواليب ويبحثون تحت الأسِرَّة. لم يعثروا على شيء ورحلوا، فنادت على ابنها الأكبر، وقالت: - لا تحضر هذه الأشياء إلى المنزل مرة أخرى، وإلا ستقتلني بالأزمة القلبية.

سألها قائلًا:

- ولكن أين هي المنشورات يا أمي؟ ماذا فعلتِ بها؟ كدتُ أموت خوفًا عندما بدؤوا بالبحث تحت الأسِرة، ظننت حينها أنني سأفقد الوعي، كانت معجزة أنهم لم يجدوها.

فأجابته:

- بالطبع معجزة من صنع أمك وماكينة خياطتها الـ"سنجر". اذهب لتجدها.

لم يكن الأمر سهلًا، وأخيرًا لاحظ أحد أولادها أن على جميع الأسِرَّة المُرتبة بعناية مخدتين، كما لاحظ أيضًا أن الخزانة الكتانية الكبيرة في الطرقة، حيث كانت العائلة تحتفظ بالوسائد التي يستعملونها ليلًا والتي لم توضع على الأسِرَّة، ممتلئة أيضًا. كان ثلثا الخزانة مملوءًا بأغطية الوسائد، والمنشورات محاكة بداخلها وملفوفة في الملاءات لتبدو مستديرة وناعمة. ما كان على من يبحث سوى أن يرفع إحدى هذه المخدات الزائفة ليعلم ما بها ويكتشف كل شيء.

- يا للروعة يا أمي! يا له من اختراع! يا لها من أعصاب حظيتِ بها لتحيكي كل هذا والشرطة بالأسفل. كيف جاءتكِ هذه الفكرة؟

- لكنني أفعل هذا طوال حياتي.

- ماذا؟!

- أَحِيك الملابس وأعتني بكم جميعًا.

كانت هذا القصة رائعة وسط العنف الذي اتصفت به الحوادث المماثلة، فعلى سبيل المثال، حين أتت الشرطة للبحث عن "مارسيلو" في بيت "أماليا" فتشوا كل شيء، حتى الملفوف لم ينجُ من طعنات حرباتهم كما لو كان من السهل تخبئة أسلحة بداخله. ولم تفلت أي وسادة أو أريكة أو كرسي ذي ذراعين من تخريبهم لها وقطعها وإخراج ما بها من حشو. قُطعت لوحات العديد من الناس الفنية المعلقة على حوائطهم، كما سُرقت الأعمال الفنية، والأشياء الثمينة. كانت الأمهات تشكر الرب إذا لم يؤذوا أحدًا منهم. كل ما كان يمكنك أن تفكر فيه هو ترحال أولئك العالقين في قلب العاصفة وذهابهم من الجيش إلى الشرطة ومحاولتهم أن يتحصلوا على أي أخبار تخص ذويهم ورجوعهم بخفي حنين. ما زالت "لينا" غير قادرة على أن تتذكر الأحداث دون الشعور بغصة في قلبها واختناق في حلقها، وغضب وألم لا يوصفان لكونها تنتمي إلى بلد يحدث فيه كل هذا العنف ولا أحد يُحاسب عليه حتى بعد قدوم الديمقراطية. لا تصدق أنها تنتمي إلى بلد لا يُحاسب فيه أحد في المحكمة على العنف ضد الشعب الأعزل، في بلد عُرف عن أناسه دائمًا المحبة، والترحاب، والطيبة.

قالت ذات مرة لـ"لويس سيزاريو" العجوز، حين كانا يتحدثان وهما جالسان على كراسي الخزيران تحت أوراق السرخس وتحاوطهما رائحة الياسمين الرائعة: - سنظل نذكر ما حدث بكل رعب حين ينتهي، كما لو كان كابوسًا، وسنشك في حدوثه من الأساس.

أخذ يديها وربت عليها، وتنهد قائلًا:

- أنا آسف لاختلافي معكِ في براءتك يا طفلتي، ولكن ثقي في رجل عجوز عاش في هذا القرن ورأى الكثير. سينسى الجميع ما حدث حين ينتهي، ما عدا أولئك الذين بذلوا دماءهم. من يتحدث عما حدث سيكون كاذبًا ومحل انتقاد وغير مُرحب به وموضع سخرية وذا طريقة قديمة في التفكير، لا يريد الناس سوى أن يتبعوا الموضة، ويكونوا جزءًا ممن يتصدرون السباق، وأشياء من هذا القبيل.

لم تصدقه "لينا"، وقالت له:

- أنت متشائم للغاية يا “لويس سيزاريو”، إن الأمر ليس كذلك.

قال لها:

- لقد عشت في عصر “فارجاس” الديكتاتوري، ورأيت كل الحزب اليساري يحيونه بعد سنوات وقد نسوا كل الأهوال التي ارتكبها.

- أتقصد “باريستس”؟ حسنًا، كان هناك القائد الأعلى لحزب البرازيل الشيوعي الذي دعم الديكتاتور على الفور حين خرج من السجن الذي سلم زوجته اليهودية شخصيًّا ليتم قتلها على يد “الجيستابو”. كان الأمر صادمًا للغاية، ولكن هذه حالة استثنائية.

ابتسم الرجل العجوز، ومرر يديه على شعره الأبيض الشعث، وقال:

- أنا لا أتحدث عن أي شخص بعينه يا طفلتي. أنا أتحدث عن كل الناس الذين يعتقدون أنهم جزء من صفوة الحزب اليساري وأصحاب نوايا طيبة وتقدمية، أولئك من وجدوا نسيان ديكتاتورية الديكتاتور ملائمًا، ومن قرروا رسم صورة تقدمية، ووطنية، وزائفة له. أنا حتى لا يشغل بالي “فارجاس” نفسه، ما يشغل بالي هو أفراد شعبنا: من يزرع أرض غيره، ومن يعاني من أربع ساعات في المواصلات حتى يصل إلى عمله في العاصمة كل يوم، ومن تسمع صراخ أطفالها من الجوع ولا تملك أي شيء لتعطيه لهم، لدينا واجب نحو هؤلاء.

فقالت “لينا”:

- العديد من الواجبات.

وافقها الرأي، وقال:

- بالطبع، ولكنني أقصد بكلامي الواجب الأول والأساسي، وهو ألا نكذب، وألا نغش، وألا ننافق.

فردت عليه قائلة:

- من الصعب وسط كل ما يحدث أن نقرر ما الواجب الذي يأتي على رأس القائمة يا عزيزي. أعتقد أنه الشعور بالظلم وكرهه.

عدل “لويس سيزاريو” من وجهة نظره قليلًا، واستفاض في الشرح قائلًا:

- أنا أتحدث عن الأخلاقيات في المقام الأول، وليس فقط عن السياسة، أو عن الاقتصاد، على المرء أن يتحلى بالوضوح، وأن تكون له بوصلة أخلاقية.

شعرت “لينا” فجأة عندما تكلم “لويس سيزاريو” بلكنته المليئة بحرف الراء الثقيل المميز، والدال على طفولته وشبابه اللذين قضاهما في فرنسا، أن

هناك جانبًا أوروبيًّا قويًّا لشخصيته. لطالما علمت عن نشأته تلك وتأثيرها عليه، فلا يمكن أن تغفل عنها أبدًا وهو يتحدث. ولكن من حيث الجوهر، فقد كان قلب وروح "لويس سيزاريو" الشغوفين لا يزالان يعيشان في البرازيل، فعلى الرغم من لكنته التي كانت تسيطر على حديثه من الحين إلى الآخر، فإنها كانت تنسى تجاربه في العالم القديم، خاصة موقفه الأخلاقي الذي لا يتأثر. شعرت أن أخلاقه مثل بقايا عصر ما قبل التاريخ، شيء بداخله أصر على النجاة على الرغم من أنه عفا عليه الزمن. كان "لويس سيزاريو" كالحفرية المتحركة؛ يعيش في وسط تعامل البشر في جو من التقلب الأخلاقي.

حكم "لويس سيزاريو" على أي شخص بناء على كرامته ومكانته الأخلاقية فقط، ولم يهتم لأي شيء آخر، فبقية الصفات تأتي في المركز الثاني. لم تستطع "لينا" الهرب من الرعشة التي داهمتها وهي تتحدث مع صديقها العجوز في هذا المساء تحت ضوء القمر الذي تسلل إلى الشرفة وسط عطر الياسمين. لم ترتعش بسبب الوقت المتأخر ولا بسبب النسمة الباردة، ولكن بسبب إدراكها أنه بحسب قوانين الطبيعة فإن صديقها قد يفارق الحياة في أي لحظة، وسيموت معه آخرون من جيله ويتركون فراغًا كبيرًا بيننا. لن يشعر بهذا الفراغ فقط من أحبوهم بعنف، ولكن سيشعر به البلد بأكمله وسيخسر طريقه وبوصلته. لن يتبقى سوى خفة الدم وذلاقة اللسان والسطحية، أما مفاهيم الخير والشر فستصبح مهجورة، يغطيها التراب وخيوط العنكبوت.

كان هذا هو ما يقوله صديقها الآن بالضبط:

- نحتاج إلى التفكير في الأخلاق في مجتمعنا الآن. أعلم أن هناك أشياء طارئة للغاية في هذه اللحظة يجب أن نتعامل معها، فالوقت يقف في صف رجال القوة وليس رجال الأخلاق، ولكن لا يقدر أحدهما أن يعيش دون الآخر، ألم تلحظي أن كلمة "أخلاقي" أصبحت موضع تهكم وسخرية الآن؟ نتعامل معها كأنها لعنة، ولكن نحن بحاجة إلى الأخلاق؛ نحتاج إلى تلك القيم التي تميز الحضارة عن البربرية.

انفعل أكثر، وقال:

- فكري في كاتب مثل «كاموس» على سبيل المثال، كان رجل أخلاق بامتياز، ولم يمنعه هذا من كونه رجل أفعال قوي، ولا أن يكون بطل مقاومة. لم يتخلَّ عن حس العدالة بداخله، ولا عن مفهومه عن الخير، ولا عن قيمه العليا عن الكرامة. لم يستطيعوا أن يجعلوه مؤيدًا للحركة «الستالينية»، على سبيل المثال، بسبب التحالف أو الملاءمة.

كانت زوجة "لويس سيزاريو" "كارلوتا" طوال هذه المحادثة تجلس في ركن صامتة ومستمعة إلى كلامهما، ولكنها تدخلت في هذه اللحظة لتؤيد رأي

زوجها وتقول بصوتها المنخفض والمفعم بالحيوية: - و"رومان رولان" أيضًا يا "لينا"، أتعتقدين أنه كان من السهل عليه أن يكون معارضًا للعنف وسط الحرب وأن يراسل عدوه من أجل السلام؟ تحتاجين إلى شجاعة أدبية من أجل أن تقْدِمي على شيء كهذا.

سألت "لينا" قائلة:

- ما هي هذه القصة؟

حكت "كارلوتا" القصة بمنتهى الحماس والشغف عن كيف أن "رومان رولان" اعتنق فكرة الطاقة دون عنف، وكيف أنه راسل كتَّاب آخرين أثناء الحرب العالمية الأولى بما فيهم الألمان لنبذ الحرب والمحاربة من أجل السلام. كان حديثها مفعمًا بالطاقة والحيوية، كما لو كانت هذه القصة تحدث الآن وتعاصر ديكتاتوريتنا الساحلية الحزينة. شعرت "لينا" أثناء حديث "كارلوتا" أن الحكاية كانت معاصرة لما هم فيه، فقوة كلمتها التي ظلت طوال الوقت الماضي حبيسة صمتها خرجت إلى الضوء الآن وسحرتها. أدهش "لينا" روح "كارلوتا" الآسرة التي شعت دفئًا. على الرغم من أنها كانت أكبر من زوجها وعانت من قسوة الحياة التي أخذت الكثير ممن تحب بما فيهم ابنتها الصغيرة، فقد رفضت أن تحتمي باليأس والكآبة وقررت أن تجدد من عذوبتها وحماسها، وأن تنسى نفسها وسط حاضر ومستقبل بلدها ومستقبل الأفراد من البلاد الأخرى. قاطعها "لويس سيزاريو" قائلًا: - لكن يا عزيزتي، لا يمكن أن نسمح للناس بأن يلقوا بالرمال في أعيننا. لم تدركي الأمر بعد، ولكنك فنانة مثلي، يجب أن نزعج الناس وأن نقدم لهم شيئًا جديدًا وجميلًا. لا شيء يضاهي جمال الحس الأخلاقي؛ فهو من يدلنا على الحقيقة.

قالت "لينا":

- إن هذه المناقشة مليئة بالأفكار المجردة في ظل هذه الظروف الراهنة. هناك العديد من الأشياء الطارئة غير ما تقوله. هناك مفاهيم، وتصنيفات، وأشياء من هذا القبيل، ولكن لا شيء ملموسًا.

فتح "لويس سيزاريو" صندوق التبغ الخاص به الذي أهدته "لينا" إياه وفركه بيده اليمنى على يده اليسرى، وأكمل حديثه: - إن الأمر ملموس حتى ولو لم يبدُ كذلك؛ لأنه أساس كل شيء، أساس صلب، إذا أردنا الإصلاح وتحسين الأحوال، فعلينا أن ننظر إلى الأمور بشكل مباشر دون كذب، فعلى سبيل المثال، نحاول دومًا أن نخفي حقيقتنا العنيفة والدموية ونحاول أن نصدق أن تاريخنا لم يُكتب بالدماء، كما لو أن قلة الدماء تدعو للفخر، وعلى الناحية الأخرى، فإن جيراننا الإسبان، والإسبان - الأمريكان كانوا غاية في العنف. إن

ما نعيشه هو كذبة؛ كنا قاسين مثلهم، ولكن منافقين أكثر منهم، وبالإضافة إلى القسوة، كنا لصوصًا عظماء أيضًا.

صُدمت "لينا" قليلًا من جرأة تشخيصه للمجتمع، وقالت:

- هل تقصد فساد المستعمرين واغتصاب الأرض على يد الطبقات الاجتماعية المسيطرة؟

وضع "لويس سيزاريو" التبغ في غليونه وضغطه، ورد على "لينا" بمنتهى الهدوء كما لو أنه فكر بالموضوع مرارًا وقال: - أنا عجوز يا "لينا"، ولا أملك المزيد من الوقت لأكذب، إلا إذا أردت أن أموت وأنا أعيش كذبة، وهذا ما لا أريده. أنا أتحدث عن السرقة بشكل عام؛ الجميع هنا في البرازيل يريدون سرقة بعضهم، وأن يحصلوا على أفضل ما فيهم ويستغلوه، كما ظهر في هذا الإعلان التليفزيوني. لا أحد يفكر سوى بنفسه، ولا يملك أحد أدنى فكرة عن حقوق الآخرين وعن احترامهم واحترام الحياة بصورة عامة، يعيش كل شخص كما لو أن الكوكب عَبْدُهُ يفعل به ما يحلو له من سرقة، واستخدام، وتخريب، ورمي القمامة على الأرض، وإسقاط الشجر، وصف السيارة على الرصيف، وصرف أموال الآخرين دون محاسبة. يواصلون حياتهم كما يقولون. يرجع هذا إلى المستعمرين الذين أعطوهم المثال والطبقات الاجتماعية المسيطرة التي علمتهم ذلك، ولكن تعلم الجميع الآن هذا الدرس.

قالت "كارلوتا":

- ولا يوجد أحد ليعلمهم عكس ذلك.

ابتسمت "لينا"، وقالت:

- ما عدا كاهنًا أو اثنين؛ أستاذًا مجنونًا، أو فنانًا مهمشًا.

قال الرجل العجوز:

- هم فقط من يعترضون، ولكن على المرء أن يضاعف هذا العدد.

أضافت "كارلوتا":

- حتى لو علَّموا الناس البسطاء فقط أن يميزوا الصواب من الخطأ، فليس لديهم فرصة أن يعيشوا بتلك المبادئ.

توقف الكلام للحظة لم يُسمع فيها سوى صوت احتراق التبغ في غليون "لويس سيزاريو". ملأت رائحة التبغ سماء الليل ورقصت مع الياسمين وضوء القمر. قال "لويس سيزاريو": - من الجائز أن يحدث ذلك، ولكنني لن أضع ثقتي التامة بهذا الأمل. أعتقد أن احتمال الأمل هذا قد يصبح أحد أساطيرنا،

النسخة الساحلية للقرن الحادي والعشرين من “روسو”. ستنص الأسطورة على أن كل شخص همجي هو شخص جيد ما لم يفسده المجتمع. لا يا صغيرتي، أنا أرفض أن أكتب قصة خيالية. لا أعلم، ولكن كل مرة أرى فيها مخزون العنف في كلٍّ منا وعدم قدرتنا على نبذ الدكتاتورية الوحشية، أتساءل ما إذا كان ما يحدث هو صيغة من الجبن والتعاون قد خيمت على الجميع.

مزحت “لينا” قائلة:

- يا إلهي، لن تقبل أعذارًا من أحد، أليس كذلك؟

- نعم، لن أقبل أعذارًا من أحد سوى الحالات الشاذة التي تؤكد القاعدة. أشعر بالخزي والعار من أولئك الذين نلقبهم بالشعب البرازيلي. كيف لأعداد قليلة من الحمقى أن تستولي على بلد كبير وأن يسمح لهم تسعون مليون برازيلي بالقيام بذلك؟ يعتقد كل شخص أن على الشخص الآخر أن يفعل شيئًا ما تجاه الأمر، يفكر كل شخص في كيفية الهروب من خط النار، وأن يأخذ أشياءه ويرحل وألا يتدخل ويبقى بعيدًا.

عارضته “لينا” قائلة:

- اهدأ قليلًا يا “لويس سيزاريو”، إن الأمر ليس كما تقول. هناك اختلال في توازن القوى؛ يملك الجيش البرازيلي أسلحة، وذخيرة، ودبابات، ودعمًا خارجيًّا. لديهم الأموال ليس الضمير، لا يفعلون شيئًا سوى الاعتقال، والتعذيب، والقتل.

غلبت الحماسة الرجل العجوز لدرجة أنه لم ينهض من كرسيه الهزاز، وأكمل حديثه قائلًا: - وماذا عن فيتنام؟ هل هناك اختلال أكثر من ذلك في توازن القوى؟ الجيش الأقوى في العالم في مواجهة الرجال الصغار الضعاف؟ يلقون بأنفسهم إلى التهلكة، ولكنهم على الأقل يحدثون جلبة. لم أكن لأشعر بالخزي إذا كنت فيتناميًّا، ولكن كيف لي أن أفتخر بكوني برازيليًّا؟ كيف أنتمي لأشخاص غاية في العنف، ومتعطشين للدماء، وغير قادرين على تحويل هذه الطاقة إلى أفعال بناءة. ماذا ينتظر الجميع؟ أن يدمر الجنرالات بعضهم بعضًا ثم يعودوا إلى بيوتهم وكأن شيئًا لم يكن؟ أو أن يصيبهم التعب فيسلموا القوة للرجال الطيبين، وحينها يستطيع الجميع أن يفعل ما يشاء، ويهاجموا أي شخص، وأن يسرقوا ويقتلوا بعضهم في الشوارع حتى يتخلصوا من غضبهم المكبوت طوال هذه السنوات؟ إذا حدث هذا سيدمر كل شيء، ولن يتبقى أي شيء.

تلفتت “كارلوتا” حولها، وارتسم على وجهها القلق. نهضت ومشت إلى الشرفة أمام المنزل ونظرت إلى الشارع، وعادت لتقول لزوجها: - فلتتوخَّ الحذر يا “لويس سيزاريو”، أنت تتحدث بصوت مرتفع، ويمكن لأي أحد من الجيران أن يسمعك أو أي شخص مار بالشارع.

استهجن الأمر وأشار بيديه كما لو أن الأمر لا يهمه، وقال:

- فليفعلوا ما يشاؤون.

ردت عليه “كارلوتا” قائلة:

- تصرفك ليس به أي شيء من الحكمة، أنت تعلم أنه علينا أن نتصف بالحكمة، يجب أن نعطي الأهمية الأكبر إلى توخي الحذر والمساعدة بطريقة أو بأخرى، دعنا ندخل المنزل ونتناول شيئًا، جهزت السفرة، كل ما علينا فعله هو غلي المياه للشاي.

وافقها قائلًا:

- حسنًا، فالشجاعة ليست من أولوياتي الآن، كا ما أكتفي بفعله هو الشعور بالسخط على ما يحدث.

دخلوا المنزل ليشربوا شاي “كارلوتا” الخاص الذي لا يضاهيه أي شاي بخلطته المميزة من الأعشاب، واستمتعوا بمربى العنب البرازيلي المنزلية. كان مفرش الطاولة مطرزًا بخيوط ناعمة وهادئة، وكانت المناديل مكويَّة. أكلوا كذلك كعكة فواكه مخبوزة على طريقة وصفة عائلية، وكان طقم الأواني الصيني جميلًا. احتفى كل ما أحاط بهم بعمل النساء على مدى القرون في هدوء الأيام العادية، وكيف له أن يدل على أنه يمكن للثقافات المختلفة أن تجمع على السفرة أبناء البشر في تشارك وجداني.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

6

“بلدي لم يعد كما هو،

بلدي كالأمنية العميقة والحنونة في البكاء،

بلدي كالطفل النائم،

ولهذا يا طفلي أبكي بلدي في المنفى

حين أراك نائمًا”.

“فينيسيوس دجي موررايز”

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كانت الشمس الحارقة قد بدأت في التسلل من بين الغيمات حين جاء صوت “أماليا” من بعيد يقول: - إن الأكل على الطاولة يا طفلتي، فلتأكلي شيئًا، ثم خذي قسطًا آخر من الراحة في السرير. إن جلوسك على الأريكة غير مناسب لصحتك.

ثم أكملت حديثها قائلة:

- أعلم أنكِ كنتِ تستمتعين بقيلولتك، ولكن يجب عليكِ أن تأكلي أيضًا، وأن تتناولي أدويتك في مواعيدها. تعالي، ستنامين بعمق أكثر بعد الأكل، سأساعدك على النهوض. أمسكي بذراعي، وانتبهي لقدميكِ.

قالت لها “لينا”:

- إن الأمور على ما يرام يا أمي، أنا الآن مستيقظة تمامًا، سأذهب لأغسل وجهي ويَدَيَّ استعدادًا لتناول الطعام من خضراوات الحديقة.

- خضراوات من الحديقة ومن المزرعة، هيا تعالي، لا تدعي الطعام يبرد.

امتلأت المائدة بالكرنب الأخضر، والبامية، والبطاطا الحلوة، والقلقاس، والـ”كاسافا”، والموز، وحلت فاكهة الخبز ودوار الشمس الدرنى ضيوفًا على طاولة العشاء. في اليوم التالي، هناك احتمالية كبيرة أن تكون الأصناف هي قرع العسل أو نوع آخر من البطاطا الحلوة. كانت فرصة لأكل كل الخضراوات والورقيات الخضراء التي لا يأكلها المرء عادة في المدينة. كانت جميع الخضراوات تأتي من فناء الجيران نتيجة لعمل شاق في تقليب التربة، ووضع الأسمدة، وبناء المشاتل، ونقل النباتات، والتقليم، والري كل يوم، والعزق حولها حتى لا تنمو الطحالب. إضافة إلى كل ذلك، كان عليهم مراقبة النباتات على مدار الساعة حتى لا يأكلها الدود، أو النمل، أو اليرقات. شعرت

"لينا" حين نظرت إلى طبقها أنها تأكل بقايا أكل الحشرات، كما هو حال الـ"سابوديلا" بقايا أكل الخفافيش، وكذلك الحال مع الجوافة والمنجة وهي بقايا أكل الطيور، وحال الدجاج حين تكون بقايا أكل الفئران الجربية وهلم جرا. كان الأمر مختلفًا جدًّا عن المنتجات التي تُباع في السوبر ماركت، حيث كانت السلع الغذائية ما هي إلا بقايا مبيدات الأعشاب، أو مبيدات الحشرات، أو الحيوانات التي كان مرعاها الحصص التموينية والهرمونات. لا بد من وجود فرق بين معركتهم اليومية في القضاء على الحشرات وبين رشها الجماعي بالمبيدات الحشرية، أو بين نظافة حظيرة الدجاج وبين انطلاقهم الطبيعي في الفناء الخلفي للمنزل. لم تشغل هذه الأمور بال المواطن العادي، فلم تكن أموالًا طارئة أو لها علاقة به. كان للبلاد أولويات أخرى جعلت من الاهتمام بالبيئة رفاهية؛ كأنها سلعة مستوردة من الخارج أو مجرد رغبة في الاختلاف والأصالة. هجر الجميع المزرعة وتركوها للماضي، ونساها المجتمع الذي جعل من الحداثة أسلوب حياته. كانت تلك الحداثة مبنية وفق نماذج مؤسسية لا يهتمون فيها بسوى زراعة محاصيل من نوع واحد بكميات كبيرة للتصدير، ويغفلون في الوقت نفسه عن الأُمَّة الجائعة والمريضة. وفي الوقت الذي كان من المفترض أن يزرعوا ما يسد جوع الناس، زرعوا الوقود لملء خزانات السيارات، وتبدلت حقول الغذاء إلى حقول قصب السكر لتصنيع الخمر. لم تنتج عن تلك الحداثة سوى تعزيز نموذج قديم من التنمية يعتمد فقط على صناعة السيارات التي لا تفيد سوى العاصمة، ولا يكترث إلى تطوير سكك الحديد والطرق القصيرة المستخدمة في الشحن. داوم المزارعون على الهجرة إلى المدينة في محاولة لإيجاد فرص وهمية بعد أن هُمِّشوا وحُرموا من المزيد من الموارد.

ظنت "لينا" أن على الحكومة أن تعطي حوافز ضريبية لمن ينتقل من مدينة كبيرة إلى مدينة أصغر، وأن تتبنى حركة مقاومة ضد الهجرة الداخلية، لكن قيامهم بهذا فيه من الاعتقاد الضمني أنهم يهتمون بمصلحة الشعب ويرون في السياسة فرصة لخدمة الناس وليس لخدمة مصالحهم الشخصية. أدركت "لينا" أن مجرد تفكيرها في هذا الاعتقاد هو أمر مثالي بحت لا يحدث إلا في المدينة الفاضلة. أيقنت تمامًا أن هذه المرحلة الانتقالية التي تمر بها البلاد من الديكتاتورية إلى شبه الديمقراطية ينقصها إدراك المعنى الحقيقي اللفظي لكلمة "جمهورية"؛ فما زال المسؤولون يعتقدون أن السلطة هي أن تحول الموارد العامة إلى موارد خاصة. ومن ناحية أخرى، كان الموقف في الريف أكثر إثارة للقلق وأكثر مأساوية على مستوى البرازيل كلها، ولكنها كانت على علم أن الوضع كان معقدًا للغاية ولا يمكن حله مباشرة. تضمن حل الأمر السؤال عن ملكية الأرض وعن تدهور التنمية بصورة عامة، والبؤس المصاحب لاقتصاد الدول غير المستقلة. لم يتضح سوى أمر واحد فقط

بصورة جلية، وهو أن كل شيء أحاط بهم كان فاسدًا، وغير عادل، وقاسيًا على الشعب، ومُدمرًا للطبيعة. وعلى ما يبدو، فسينتهي الحال بتحول كل آمالهم إلى صورة حياتية صامتة حرفيًّا.

قالت “لينا” وهي شاردة الذهن:

- طبيعة صامتة.

ظنت أمها أنها تتحدث عن ترتيب فواكه التحلية في وعاء السيراميك: البابايا، والمنجة، والموز. وعن إناء عصير البرتقال على المفرش ذي المربعات. بدا المنظر وكأنه لوحة طبيعية صامتة. ابتسمت الاثنتان، ونظرت “أماليا” إلى صورة على الحائط، وقالت: - لا يوجد بالنسبة لي حياة أو طبيعة صامتة أكثر جمالًا من تلك التي أعيشها. لا أعلم ما إذا كان يمكن تصنيف حياتي على أنها صامتة أم لا، ولكنها كذلك على الأقل من وجهة نظري. أنا أحب حياتي كثيرًا.

أمعنت “لينا” النظر في اللوحة التي ساعدت في اختيارها منذ سنوات ولا تزال تحبها حتى الآن. كانت من أعمال صديقها العزيز والعجوز “لويس سيزاريو”. كانت اللوحة ساحرة مثله تمامًا، مرسومة بألوان “الباستيل”، ومفعمة بالحيوية غير المتوقعة، ولها ملمس فريد من نوعه يدعوك إلى لمسه. كان للوحة أشكال غير منتظمة مرسومة بعناية فائقة، وتظهر مشهدًا مجنونًا ومرحًا. كانت اللوحة عبارة عن استوديو به لوحات منتشرة في كل مكان، وكلب نائم على وسادة، وكما ظهر في صدارة اللوحة طاولة عليها حياة صامتة تنعكس من زاوية أخرى لرسمة موجودة في الركن الأيمن من اللوحة. أدركت الآن وهي تتأمل اللوحة أنها لم تكن فقط تقديرًا لفن “ماتيس” والاستوديو الخاص به ونافذته الكبيرة، ولكنها كان بها استهزاء من لوحة “لاس مينيناس” أو “الوصيفات” لـ”فيلاثكيث” وأسلوبه في الانعكاس، ولكن دون المرايا. عكست اللوحة أيضًا أسلوب الإيطاليين البدائيين في رسم المشاهد المقدسة، وتجربتهم في الوقت نفسه لتقنية المنظور التي كانوا قد اكتشفوها لتوهم. في إمكان المرء أن يرى منظرًا طبيعيًّا من خلال نافذة مفتوحة في خلفية اللوحة الزيتية وتكاد تغطي نصف مساحتها. في الواقع، كان باستطاعة المرء أن يرى منظرين طبيعيين؛ فيظهر في صدارة اللوحة بيوت على التلال، وخلف التل الآخر أشجار النخيل وهي تغطي الزرع وتبين منظر البحر والخليج في الأفق. تطابقت اللوحة مع روح “لويس سيزاريو”؛ فقد كان يخفي وراء مظهره الهادئ والراغب في الاستمتاع بالهدوء المنزلي رغبة مهولة من الإبداع واكتشاف العالم الخارجي. يا له من أمر سار أن رغبته تلك تحولت إلى الجمال وعبَّر عنها في بُعد آخر.

تنهدت "لينا" ونظرت إلى "أماليا" وعيناها تملؤها الدموع، لاحظت أمها وقالت لها: - أحببتيه كثيرًا، أليس كذلك؟

لم ترد "لينا" على أمها، واكتفت بهز رأسها وبدأت في تقشير المانجة، ولكن في قرارة نفسها كانت تعلم أنها لا يمكنها أن تصف حُبَّه بكلمات. سألها "ألونسو" السؤال نفسه ذات يوم، ولكن بطريقة مباشرة أكثر وفي طياته غيرة واضحة: - تتحدثين عن الرجل كما لو كنتِ واقعة في غرامه، هل أنت متأكدة من أنه لم يكن بينكما أي علاقة عاطفية؟

شعرت "لينا" بالإهانة من السؤال، وأنكرت ما اتهمها به، وشرحت له أنها كنَّت لـ"كارلوتا" المشاعر الطيبة نفسها، واختتمت حديثها بإخبار "ألونسو" أن طريقة تفكيره غير لائقة، وأنه لا يفكر سوى في شيء واحد فقط.

قال لها "ألونسو":

- حسنًا، أصدقك بما أنكِ متأكدة للغاية. أعتقد أنه لم يكن هناك أي مشاعر ملموسة؛ وهذا لأنكِ لم تسمحي لتلك المشاعر بالظهور. لا يمكنكِ أن تنكري أنه سواء كانت بينكما علاقة غرامية أم لا، أنكما تبادلتما مشاعر الحب.

- لكنني أحببت "كارلوتا" أيضًا.

فقال لها:

- لا تستثني الأشياء بعضها يا "لينا" كما تعرفين. ولكن أتدرين، أيًّا كانت مشاعركم فقد كانت مفيدة لثلاثتكم دون الخوض في تحليل نفسي أكثر من ذلك.

اقتحمت "أماليا" أفكار "لينا" قائلة:

- أدعو لهما دائمًا، هو و"كارلوتا". كنت أدعو لهما بالسعادة، والآن أدعو لأرواحهما. أعلم أنهما يعيشان في سلام، وأن لأي شخص فعل ما فعلاه فبالطبع هو مع الرب. لن أستطيع أن أوفيهما حقهما، ولا أن أشكرهما كما ينبغي.

صنعت "أماليا" لهما مفرشًا كبيرًا من الكروشيه لسرير مزدوج عرفانًا منها بجميلهما مع ابنها؛ فقد أنقذا حياته. حملت كل غرزة من المفرش لهما أماني حنونة. كانا بالنسبة لـ"أماليا" ثنائيًّا من الملائكة أصحاب الشعر الأبيض، وقد أُرسِلا خصيصًا لمساعدتها في القيام بدورها كأم. لم تكن حتى تعرفهما في بادئ الأمر، وقابلتهما بعد فترة فقد كانا صديقي ابنتها. سألت "أماليا" ابنتها: - كيف تعرفتِ عليهما؟ انتابني الفضول دومًا، ولكن لم تتسنَّ لي الفرصة لأسألكِ.

جاوبتها “لينا” وقالت:

- يا لها من حكاية مسلية! تعرفت على “لويس سيزاريو” و”كارلوتا” بعد تخرجي مباشرة حين بدأت العمل في الجريدة. كانت أول مهمة صحفية لي هي مقابلة مع شاعر، وتصدرت الصفحة الأولى. كان الحوار ممتازًا وكان الشاعر مرتاحًا جدًّا وتحدث عن كتابة أعماله. كنت محظوظة لكتابة كل ما قاله، وخرج الحوار للنور بطريقة أو بأخرى في صورة مبهرة. كنت في المكتب في المساء حين تحدثا إليَّ عبر التليفون، كان المتصل هو “لويس سيزاريو” الذي عرفت اسمه فقط، وكان يهنئني على المقابلة. طلب مني أن يقابلني؛ لأنه رأى أنني فنانة مرهفة المشاعر، أتتخيلين ذلك! قلت له إنني لم أكن سوى شخص حاور الشاعر وهو من يستحق لقب الفنان، أما أنا فمجرد شخص محب للشعر. جاء رده أنه سيصبح صديقًا لي ليخبرني أسباب وصفه لي بأنني فنانة. ظننت أنه مجرد حديث به ضرب من الخيال. أراد أن يقابلني ذلك المساء، ولكنني أخبرته أنني لا أستطيع، فقد كان عليَّ أن أغطي افتتاح مسرحية، وأنهيت الحديث. أتى المساء عليَّ في المسرحية، وإذ بي أفاجأ بزوجين من كبار السن غطى الشيب شعرهما. كان يستند على ذراعها ويتجهان ناحيتي. انتابني شعور أنه هو من قبل حتى أن يعرِّف نفسه. جاءا إليَّ، ثم سألني: “هل أنتِ “هيلينا ماريا دي أندراديه”؟. وعندما أجبته بنعم، قدَّم نفسه لي هو و”كارلوتا”، جلسا بجانبي وتحدثنا لوقت طويل. وقعت في حبهما، وفي اليوم التالي زرتهما في منزلهما، ونحينا الألقاب جانبًا، وأصبحنا أصدقاء للأبد.

سألتها أمها:

- كيف عرف أنه أنتِ؟

فردَّت عليها:

- لا أملك أدنى فكرة يا أمي. كان يصل دائمًا إلى ما يريده. اعتدتُ المزاح معه وإخباره بأنه ساحر، ولكنني لم أعتبر الأمر مجرد مزحة. رأيته يقوم ببعض الأشياء التي أذهلتني. كان على دراية بكل ما يحدث حوله، ولديه حدس لا يخونه أبدًا. بدى لي في بعض الأحيان أنه قادم من عالم آخر.

أضافت “أماليا” وقالت بناءً على عرفانها له:

- كان مثل الملاك.

ظنت “لينا” أن أمها ربما تكون على الحق، ثم قامت لتساعد أمها في ترتيب المائدة وغسل الأطباق. أمسكت بزجاجة الدواء وترددت؛ تُرى ماذا سيحدث لو توقفت عن تناوله؟ ماذا سيحدث لو بدأت في تقليل الجرعة تدريجيًّا كما

اقترح عليها الطبيب حتى تتوقف عنه تمامًا؟ أغلقت غطاء الزجاجة التي كانت قد فتحتها، ولكن غيرت رأيها بعد أن كانت على وشك وضعها على رف بيت أجدادها القديم. ماذا لو فقدت وعيها مجددًا؟ ماذا لو بدأ كل شيء في الدوران من حولها ببطء؟ ماذا لو حاولت أن تستند إلى الحائط ثم وجدت نفسها مستلقية على الأرض؟ لن تترك لنفسها الفرصة لتشعر بذلك مجددًا. لن تتخلى عن الدواء؛ فقد كان لها بمثابة العمود الصلب الذي يربطها بالأرض وما يحافظ على توازنها. قررت أنها لا يمكنها ترك الدواء، وأخذت الأقراص وابتلعتها دون مياه. شعرت بعدها براحة جعلتها تمدد جسمها.

أغمضت عينيها وحاولت أن تترك نفسها للنوم، ولكن لم تسمح لها ذكريات الأحاديث الصباحية والصور التي احتلت أفكارها فجأة بذلك. جاء هذا الهجوم دون أن يتوقعه أحد، اتخذت الأفكار من مجرى دمها بيتًا وظلت تمشي فيه كأنها واحدة من خلاياه. يمكنها تحمل الأمر طالما لم يحدث نزيف لتلك الذكريات والأفكار ولم تنهمر بسرعة لا تقدر أن تجاريها. اختلطت دماء الذكريات بكل خلية في جسدها وبكل نسيج، وجمعت بين الذكريات القديمة والحديثة، ونسجت معها أي ذكرى مستقبلية. إذا ما حدث أي شيء يشتت حبل الذكريات تلك، مثل أحاديثها الصباحية مع أمها، تسارعت خلايا الذكريات السابقة لتضم الذكريات الجديدة لها. كان الحاضر يثبت نفسه، ولكن يوقظ جروح القلب من جديد.

أغمضت "لينا" عينيها وحاولت النوم. كان نادرًا ما تنام وسط النهار، حتى لو في غرفة مظلمة وفي مكان هادئ. سمعت بعض الأصوات التي فاقت ضوضاؤها صوت أمواج البحر وجذبتها إلى العالم الخارجي مرة أخرى. كان هناك نباح كلب، وأصوات حملتها الرياح إليها، وصوت شخص يكنس فناء منزله، وصوت وضع أمها للأواني في المطبخ. تُرى لماذا سمعت أصواتًا قادمة من المطبخ؟ لم يمضِ وقت كافٍ لتجف الأطباق. وصلت "لينا" إلى تفسير بأن أمها جففت الصحون بنفسها لتضعها مكانها بهذه السرعة، وربما لتوفر لنفسها مساحة فارغة على طاولة المطبخ. فكرت "لينا" في السبب لكل هذا، ثمَّ فهمت أخيرًا ما يحدث. وصل اللبن في الصباح الباكر في قِدر كبير، وكانت أمها ستصنع منه الجبن. نهضت "لينا" لترى ما تفعله أمها فقد مضى وقت المساعدة. كانت أمها قد صبت بالفعل الحليب في وعاء كبير، ووضعته على النار الهادئة حتى تصل إلى درجة الحرارة المناسبة، ثم أضافت له إنزيم الرينين وتركته ليرتاح. ستحتاج أمها إلى المزيد من المساعدة لاحقًا عندما يتخثر الحليب، فسيقطعونه ويدعونه يرتاح مرة أخرى، ثم يصفونه من السوائل ويتبادلون عجنه ويتركونه ليرتاح في القوالب. ولا يتبقى بعد ذلك سوى أن يستمتعوا بطعم الجبن الطازج المتبل ببراعة.

تركت "لينا" الطاولة لتوها وقد سال لعابها لمجرد تفكيرها في طعم الجبن. لم يكن الأمر مجرد جبن مصنوع من حليب طعمه لذيذ، ولكنها كانت عملية تستهلك الوقت والحليب والعمل؛ ثلاثة أشياء مرتبطة دومًا بحياة النساء. كانت حياة المرأة عبارة عن العمل والانتظار، وفي وقت الانتظار كانت تلد أطفالًا، وترضعهم، وترعاهم. وعلى الرغم من أنها ظنت أنها تبالغ؛ لأن حياة الرجل أيضًا بها عمل وانتظار، ولكنه لا ينشغل بالأمور الحياتية اليومية مثل المرأة. فعلى سبيل المثال، لن يفكر الرجل وسط أي كارثة وجودية فيما سيطبخ لعائلته، ولن يتأكد من وجود كل المكونات في المطبخ، ولن يترك المقاومة ضد أي تفجير أو يقطع حبل أفكاره لمجرد سماعه نداء عاجلًا من صغيره يقول: "أمي، تعالي نظفيني".

ساهمت هذه الظروف في بناء نساء تستمد قوتها من المواقف الصعبة مثل أمها. آمنت النساء أن الحياة قوية ومستمرة على الرغم من كل شيء. كانت هناك أشياء لا يمكنها الانتظار حتى مع اقتحام الشرطة منزل "أماليا"، ووضع ابنها في قائمة المطلوبين، والقبض على زوجها؛ مثل تحميم الأطفال، والذهاب إلى السوق، واختيار أصناف الأكل. على الرغم من شعور الجميع بالقلق، جلسوا إلى طاولة الطعام عندما شعروا بالجوع ولم يسألوا حتى عن مصدر الطعام. تعلمت النساء أن الحياة تتطلب المقاطعات؛ أن ننشغل بها قبل أن تنشغل بنا. تؤمن المرأة في داخلها بنظرية الهنود؛ لا يمكنك أن تسرع من مجرى النهر. لا يمكنك أن تسرع من خروج الطفل من الرحم، فلا فائدة تُرجى من ذلك، هناك وقت لكل شيء؛ وقت لصنع الجبن ووقت للحمل والولادة. إن الوقت شيء مقدس بالنسبة للأطفال والجبن، وإنزيم الرينين والتخثير، ولا يغير مجراه سوى أطباء عمليات الولادة القيصرية والكيميائيين؛ مجرد تدخل سطحي. مهما تختلف اللغات والكلمات والتواريخ فالفكرة لا تتغير. علمت "لينا" أنها لو استطاعت أن تتعامل مع هذا الكم الهائل من الذكريات التي اجتاحت تفكيرها، وأنها إذا اختارت الأفضل بينها وصفَّتها من الشوائب، وانتظرت للذكريات أن يكتمل تكوينها، ستكون النتيجة مذهلة مثل الجبن الجيد. هذا الجبن الذي حذرها منه الأستاذ "زانوتي" ووصفه بالسم، ولكن ذلك لم يوقفها عن تناوله.

تتطلب مواجهة الذكريات والاختيار بينها احتمال الألم مرة أخرى. ها هي الآن تمدد جسدها في الظلام، تتظاهر بأنها لا تستطيع النوم بسبب بعض الضوضاء الخارجية، ولكنها لم تستطع التظاهر بأنها لم تسمع الأصوات بداخلها. كانت تلك الأصوات ما هي إلا أصوات الأيام الأولى للدكتاتورية التي ذكرتها بها أحاديثها مع أمها. كانت تلك هي الذكريات التي اختارت أن تحييها وتنشرها في الأرجاء لتخبئ جراح أبواب الذكريات الأخرى التي لم ترد أن تفتحها على الرغم من علمها في قرارة نفسها أن نار الجرح لم تنطفئ بعد.

اشتاقت “لينا” إلى “ألونسو” واشتعلت بداخلها نيران رحيله. افتقدت رائحته، وصوته، ولمسته الدافئة، وهمساته المحبة التي كان يناديها بها “سمكتي الصغيرة”. افتقدت حضنه الذي دائمًا ما احتواها وسط الأمواج والرمال المبللة. كان البعد عن “ألونسو” يقتلها، خاصة أنه هو من اختار هذا البعد، والأسوأ من ذلك هو أنه كان مع امرأة أخرى الآن. كان يعيش قصة أخرى بأسلوب مختلف وكلمات حب مختلفة؛ فلكل حبيبين ما يميزهما ويجعلهما فريدين. اختار “ألونسو” أن يكون مع امرأة أخرى غيرها؛ لأن هذه المرأة جذبته وأعطته ما يحتاج ويريد في هذه اللحظة: أعطته ما لم تستطع “لينا” أن توفره له. كيف للمرء أن يعرف ما جذب “ألونسو” في تلك المرأة؛ فقد دق قلبه حين رآها وسمع صوتها ورأى مشيتها ونظرتها وحركات يديها.

سألها شيء ما بداخلها: “لماذا تفكرين في هذا الموضوع الآن؟”.

أحزنتها هذه الخاطرة وجعلتها بائسة؛ فقد شعرت أنها وحيدة ومهجورة ومحبوسة بين جدران مرضها، والأسوأ أن عليها أن تواجه وحدها أصعب اللحظات التي عاشتها في حياتها. كانت عاجزة وضعيفة، وداهمتها أفكار عدة لتترك نفسها إلى التيار وتستسلم في هدوء. ومن ناحية أخرى، داهمتها أفكار أخرى تطمئنها وتشجعها أن المرء لا يختار مثل هذه النهايات، وأنه علينا أن نتقبل الحاضر بكل ما فيه. شجعتها هذه الأفكار الجيدة على ألا تشعر بالشفقة تجاه نفسها، ففي نهاية الأمر لم تكن الشفقة هي ما تريده، بل أرادت الحب. لم تشك للحظة أن “ألونسو” قد أحبها، ولكن كانت المشكلة تكمن في كونه دائمًا يحب معها شخصًا آخر في الوقت نفسه. لم تملك أدنى فكرة إلى متى ستستمر علاقاته ولا كيف ستتطور، ولكنها كانت تعلم أن حبه لشخص آخر في وقت حبه لها هو شيء ممكن أن يحدث. خاضت من قبل تجربة مماثلة ولم تملك في وقتها سوى الانغماس في اللحظة وانتظار ما سيحدث. لم يوجد في هذه اللحظة ما يجعلها تتحمل ما يفعله سوى ثقتها في أنه يحبها على الرغم من الغياب. آمنت أن حبه قوي، ووفي، وصادق، ويجعله يخبرها بكل ما يريد وعن كل ما أرادت معرفته أيضًا. كانت هذه هي بطاقتها الرابحة الوحيدة. فعلى الرغم من أن “ألونسو” قد يكون مع صديقته الحميمة الأخرى الآن، ولكنه يشارك “لينا” كل شيء: معاناته وسعادته، ومشاعره، ومخاوفه. فضلت بالطبع لو أن قلبه وعقله لها فقط، وليس لأحد آخر، ولكن إذا كان عليها أن تشاركه مع إنسانة أخرى فلتأخذ تلك الإنسانة قلبه المفعم بالشهوة. كانت “لينا” تشعر بأنها على حق في أن تحب “ألونسو” في كل مرة يتصل بها أو يأتي إلى منزلها دون أن يخبر الأخرى، وفي كل مرة يخبرها عن أحلامه التي كانا فيها معًا، أو أشياء من هذا القبيل. أحبته وشعرت بحبه لها، ولن تسمح لأي شيء بأن يعرقل هذا الحب أو أن يقيد “ألونسو” بسلاسل حول رقبته أو قفص يمنعه من التحليق عاليًّا. قررت أنها لن تحتال عليه وأنها لن تستعمل ما يفعله

ضده أبدًا. لطالما احترم "ألونسو" حريتها وتحملها حتى حين أمضت شهرًا مع رجل آخر في مدينة أخرى، وانتظر حتى تنتهي هذه التجربة من حياتها. كان "ألونسو" استثنائيًّا؛ مثل الحصان الجامح الذي جعلها تحلم بأن تركض معه في كل الحقول دون حواجز، أو أن يكونا مثل طيور النورس التي تحلق فوق قوارب الصيد والصيادين في المحيط الواسع. كانت مقابلته هدية من القدر؛ هدية لا تنوي أن تستغني عنها أو أن تفتعل مشهدًا تقوم فيه بدور الضحية الضعيفة أو أن تُظهر قلة صبرها. قررت ألا تجبره على أن يقضي وقته مثلها أو أن تجبره على أن يعيش معها فترة مرضها بدلًا من أن يشاركها شغفها. ما زالت تفتقده على الرغم من كل شيء وهو من جرحها، حتى ولو كانا يتحدثا ويتكلمان تليفونيًّا طوال الوقت.

لا، لم يستطيعا التحدث تليفونيًّا بحرية وهي في منزل أمها. كان التليفون في مكان مفتوح ويتيح الفرصة للأشخاص الفضوليين بأن يسمعوا أي مكالمة؛ فلم يكن هناك أي نوع من أنواع الخصوصية. كانت أمها تجلس بجانبها خلال أي محادثة تليفونية بينها وبين "ألونسو"، وكانت دائمًا ما تتصرف في مثل هذه المواقف بكتمان وتطفل. اضطرت ابنتها "لينا" مرة أو مرتين إلى أن تستأذنها وتقول: - هل يمكن أن تتركيني أتحدث قليلًا بمفردي يا أمي؟

لم يَسِر الأمر على ما يرام، فبالفعل ابتعدت "أماليا"، ولكنها تركت الباب مفتوحًا، وعادت بعد قليل لتضع شيئًا في مكانه أو تبحث عن شيء في غرفة المعيشة. لم تستطع "لينا" أن تهمس لأنها مكالمات عبر مسافات طويلة. ظل "ألونسو" يطلب منها أن تكرر ما قالته طوال المكالمة. انتاب "لينا" شعور المضايقة القديم الذي طالما داهمها عندما كان يقتحم أحد خصوصيتها في الماضي. أصبحت مكالمتها مع "ألونسو" محبطة، على الرغم من أنها كانت تظهر اشتياقه وأنه كان يفكر فيها، ولكن على أية حال استحق الأمر العناء. كانت تلك المكالمات هي ما يمنحها لحظات السعادة القليلة في هذه الأيام. أحبت سماع صوت "ألونسو"؛ هذا الصوت الحنون المفعم بالأمل، الذي أيقظ بداخلها أحاسيس اختلطت مع أحاسيس أخرى. لمس صوت "ألونسو" اللطيف، والدافئ، والناعم روحها من الداخل كما هو الحال دائمًا، ولا يمكنها فعل شيء تجاهه. من الجيد أن تشغل تفكيرها به، ولكن من الجيد أيضًا أن تنساه قليلًا، وألا تفكر فيه طوال الوقت حتى لا تفتقده كثيرًا مما سيغضبها ويحزنها. كان أبوها يقول إن الرب أنعم على الإنسان بهديتين كبيرتين: القدرة على التذكر، والقدرة على النسيان. لطالما آمنت "لينا" بهذا الرأي. فكلما احتد الأمر، كما كانت تفعل ذاكرتها معها الآن، حان الوقت لأن تلجأ إلى الهدية الأخرى للحفاظ على توازنها.

قررت أن تنهض وتترك السرير؛ فقد كان مكانًا خطيرًا يجمع بين الندم والعزلة. لم ترغب في القراءة. كان أفضل ما تقوم به الآن هو أن تستفيد من مخزون ذكرياتها الذي أُثير بسبب محادثتها مع "أماليا"، وترى ما إذا كانت تستطيع أن تعود إلى العمل على مسرحيتها. لن يشمل العمل عليها أي كتابة فلم تكن مستعدة لمثل هذه المخاطرة بعد؛ كانت تجاربها السابقة في الكتابة كارثية. اكتفت بقراءة ما كتبت فقط، ورتبت الأجزاء التي كتبتها. لم تلمس مسرحيتها قبل الرحلة، عندما راجعت بعض الفقرات بعد محادثاتها مع "صوفيا" عن صعوبة دمج كل تلك المسودات والملاحظات المبعثرة في عمل درامي ناجح يمكن تقديمه على المسرح. أعادت كتابة بعض المشاهد، ثم ذهبت المسرحية.

ربما حان الوقت الآن إلى أن تنغمس في كتابتها مرة أخرى. كانت قد وضعت الملفات والأظرف في حقيبة سفرها لتأخذها معها في لحظة أمل اشتعلت بداخلها. يمكنها الآن أن تخاطر وتبدأ العمل مجددًا دون أن تقوم بشيء معقد. لا تحتاج أن تبدأ بالجوابات، أو التصريحات، أو قصاصات الجرائد، أو أي شيء يتطلب الكثير من التفريغ. أمكنها على سبيل المثال أن تراجع ما كتبته في هيئة العمل المسرحي بالفعل.

المشهد: شقة صغيرة في باريس، غرفة نوم ومعيشة في مكان واحد، الحوض والموقد قبالة الحائط الخلفي. هناك ستارة بلاستيكية تخبئ رشاش المياه الموجود بجانب حوض المطبخ. على الناحية الأخرى، بابان، يؤدي أحدهما إلى غرفة أخرى، والآخر الذي يبدو كالدولاب يؤدي إلى المرحاض. هناك امرأة ترتب السرير الذي يمكن أن يتحول إلى أريكة. هناك حقيبتا سفر تحت السرير، وحمالة ملابس، وحمالة معاطف والثياب متدلية منهما. تُستخدم الحقائب الكبيرة كطاولات أساسية وجانبية. يغسل "ريكاردو" وجهه في حوض المطبخ ويفتح رشاش المياه، وفي الوقت نفسه يراقب المياه التي تغلي من أجل صنع القهوة. ترتب "فيرا" السرير، وتضع بعض الملابس في حقائب السفر، وتخرج البعض الآخر. يترك "ريكاردو" الحوض فجأة، ويغلق رشاش المياه ويركض ناحية المرحاض.

إلى رحلتها ومرضت، ومضى وقت طويل على آخر مرة اطلعت فيها على "ريكاردو": - راقبي المياه يا "فيرا" لأنها على وشك الغليان. اللعنة، إن وجود الحوض ودُش الاستحمام في ركن مختلف عن المرحاض أمر يكاد يقتلني. كلما بدأت في تجهيز المياه للاستحمام، أرغب في التبول ولكن الركن الآخر بعيد جدًّا.

"فيرا":

- نحن محظوظان أننا وجدنا شقة بها حمام.

“ريكاردو” (من المرحاض):

- أتسمين هذا حمامًا؟ حوض المطبخ؟ أم هذا الدلو ورشاش الاستحمام الصغير الذي يشبه التليفون ويبلل الغرفة بأكملها؟

“فيرا”:

- أرجوك يا “ريكاردو” لا تبدأ في مناقشة هذا الأمر مجددًا. أنت تعلم جيدًا أن هناك العديد من الأشخاص الذين يمتلكون حمامًا في آخر الردهة، وفي بعض الأحيان في طابق آخر تمامًا. ألم تسمع “تانيا” وهي تقول في ذلك اليوم أنهم أخيرًا اشتروا مبولة في غرفة النوم حتى لا تضطر إلى أن تخرج في الليل والبرد طوال الوقت، خاصة وهي حامل؟!

“ريكاردو”:

- ألقي نظرة على المياه هناك.

“فيرا”:

- لقد غلت.

“ريكاردو”:

- ضعي لي “النسكافيه” في الكوب من فضلك، ضعي القليل من المياه أولًا حتى يذوب كما أحبه أن يكون.

“فيرا” (وهي تقلب النسكافيه):

- أحاول أن أصنعه كما تحب ولكن لا يمكنني أن أجعله غنيًّا بهذا الكم القليل من الرغوة التي تحبها. ألم تكن ستستحم قبل أن تشربه؟

“ريكاردو”:

- سأستحم لاحقًا، فقد غلت المياه بسرعة جدًّا. اللعنة، لن أتمكن من تنظيم وقتي أبدًا.

يجلسان، أحدهما على السرير، والآخر على وسادة كبيرة على الأرض بجانب الحقيبة المستخدمة كطاولة. يرن جرس الباب وهما يوشكان على قَطْع الخبز الفرنسي الـ”باجيت”.

“فيرا” (متفاجئة):

- تُرى من يرن الجرس في هذا الوقت الباكر؟

“ريكاردو” (وهو ينهض ليرى من يرن الجرس):

- تمهلي يا فتاتي، لا تخافي. إن الرجال بعيدون جدًّا، فقد بقوا في البرازيل. لا بد أنه الحارس، أو شخص يرن الجرس الخاطئ.

يفتح الباب فتحة صغيرة، تاركًا سلسلة القفل معلقة.

- أوه، أنتما إذن من ترنان الجرس، انتظراني سأحضر المفتاح.

التفت إلى “فيرا”، وقال:

- إنهما الزوجان اللذان التقيناهما في بيت “سيلفيا”: المحلل النفسي وزوجته، ماذا كان اسمها؟

فيرا:

- “ديانا”.

“ريكاردو”:

- نعم، هذا هو الاسم. (بصوت أعلى) أنا قادم.

“سيرجيو”:

- أرجوك أن تعذروننا على المجيء دون سابق إنذار في هذه الساعة، ولكن لم نكن نعرف ما إذا كنتما تملكان تليفونًا ونعلم أنكما تسكنان هنا. أخبرتنا «فيرا» في ذاك المساء أن منزلك فوق هذا المتجر.

“ديانا”:

- حسنًا، كنا نرغب فقط في اصطحاب “برونو” ليذهب مع “بدرينيو” في نزهة.

“فيرا”:

- إنه لا يزال نائمًا، فقد أتى إلى سريرنا في الصباح، ولكن حان الوقت لأن يستيقظ على أي حال.

“ريكاردو”:

- أين ستذهبون؟

“سيرجيو”:

- لديَّ مقابلة مع أستاذ في مكانٍ ما على مشارف المدينة بالقرب من الغابات. ولهذا فكرت في أن آخذ “ديانا” و”بدرينيو” معي. سنذهب بالقطار،

فظننت أنها ستكون فكرة جيدة أن أتحدث إليك لأصطحب ابنك معنا. ألم تقل في ذاك اليوم أنهما تقريبًا في العمر نفسه؟

“فيرا”:

- نعم، سيتم “برونو” عامه الرابع.

“ديانا”:

- هذا صحيح إذن، إنهما في العمر نفسه. من الجيد أن يلعبا معًا. إن الأطفال معزلون هنا، ولا يستيطعون أن يتحدثوا لغتهم، ولا أحد ليلعبوا معه.

“فيرا”:

- ولكن هناك احتمال أن يكون “برونو” خجولًا، فهو لا يعرفكم، وربما يزعجك خلال المقابلة.

“سيرجيو”:

- لا، لا، ستنتظرني “ديانا” و”بدرينيو” في مكانٍ ما: في ميدان، أو مقهى. سنذهب بعد ذلك إلى هذه النزهة. لم لا تأتين معنا أنتِ الأخرى يا “فيرا”؟

“ريكاردو”:

- يا لها من فكرة جيدة! ما حالة الطقس؟ لا نرى شيئًا من نافذتنا سوى هذا الحائط وهذه المحكمة القذرة التي ينبعث منها رائحة العفن، ولا يمكنك حتى رؤية شروق الشمس.

“سيرجيو”:

- إن الجو رمادي كالمعتاد، ولكن على الأقل لا تمطر.

“فيرا”:

- حسنًا، دعوني أوقظ “برونو” لألبسه ثيابه. سنكون جاهزين خلال لحظات.

“ريكاردو”:

- أتريدين فنجانًا من القهوة؟ إنها سريعة الذوبان لتكون عملية أكثر. اجلس هنا، لا توجد مساحة كبيرة، ولكننا سنجد طريقة.

«سيرجيو»:

- إن الأمر يشبه شقتنا كثيرًا، ولكن الفرق أننا ننام في غرفة المعيشة وينام “بدرينيو” في مدخل غرفة الاستقبال.

كان هذا كافيًّا ليعبر عن بداية الصداقة بصورة أو بأخرى. أعادت "لينا" كتابة المشهد بسبب وجود الطفل في النسخة الأولى؛ وقد رأت "سونيا" أنه من الصعب للغاية إحضار أطفال على المسرح. وجدت "لينا" الحل وهو عدم إدخال الولد في المشهد وإبقائه خارجه، ولكن ماذا ستفعل في الطفل الآخر "بدرينيو". من الجائز ألا يتضمن المشهد "ديانا"، وأن تكتب أنها كانت تنتظرهم بالأسفل. ولكن كانت "لينا" مهتمة بصفة خاصة بأن تظهرهما كزوجين. من المهم أن تبدأ في كتابتها ببناء علاقة قوية بين الزوجين وكيف تعرفا على بعضهما، وكيف أصبحا أصدقاءً بسبب الأطفال أولًا وبسبب أنهم كانوا الوحيدين في مجتمع المنفى الذين لم ينتموا إلى أي منظمة، أو حزب، أو حركة تدعمهم. كان عليها أن ترسم تدريجيًّا هشاشة "ديانا" النفسية، واهتمام "سيرجيو" الثابت والحنون بها. ستساهم هذه الأجزاء من حياتهما اليومية في بناء المراحل المختلفة من شخصيات هذه المسرحية، وستربط الأصدقاء معًا. ستبدأ الصداقة من خلال الأطفال، ولكن كان هذا صعبًا نظرًا لحظر إحضار الأطفال على خشبة المسرح الدائم. كانت "سونيا" على حق؛ فقد كان سيسبب الأطفال ذوي الأربع سنوات أو من يبدو في عمر الأربع سنوات تعقيدات غير ضرورية في المسرحية. كان يجب على "لينا" أن تحتال على الموقف؛ إما بأن تجد حلًّا مسرحيًّا غير واقعيّ، كأن تحضر دميتين قديمتين بدلًا من الأطفال، أو أن تتحدث الشخصيات الأخرى مثل الأطفال غير الموجودين من الأساس. كان عليهم أن يلتزموا بثبات نبرة الصوت. لا منطق في أن تكتب شيئًا واقعيًّا للغاية ثم تستخدم فجأة أدوات تخيلية. وجدت الحل للمشاهد القادمة؛ ستكتب أن "فيرا" قد وجدت حضانة للولدين، ولكن لا يمكنها تسجيلهما فيها إلا مع بداية السنة الدراسية القادمة التي ستبدأ بعد أربعة أشهر من الآن. وفي هذه الأثناء، توصل "سيرجيو" و"ديانا" لاكتشاف عظيم؛ كانا سيبدآن نشاط "حديقة في الهواء الطلق" كل أربعاء في حدائق "لوكسمبورج". كان الأمر مثل الحضانة المفتوحة الأسبوعية، وهي فرصة جيدة للمرحلة الانتقالية. سيلعب الأطفال مع أطفال آخرين، وسيتعلمون القليل من اللغة الفرنسية وهم يمارسون اللعب والأنشطة، ويركضون تحت إشراف أحدهم. ستكتب عن المرة الأولى التي سيستطيع أولياء الأمور أن يختبئوا خلف بعض النباتات ويراقبوا من بعيد هذه التجربة الجديدة لأطفالهم. يا لهم من مساكين هؤلاء الأطفال! وجدوا أنفسهم فجأة طلقاء في مدينة أجنبية؛ يسمعون لغة غريبة، ويرتدون معاطف، وأحذية ذات رقبة، والقبعات، وهو ما يختلف تمامًا عن دفء وعاطفة البرازيل. حمدًا للرب أنه لا يوجد هنا خطر أن تقتحم الشرطة بيتك وأن تعتقل كل شخص، فقد كانت حياتهم في المنفى دون تهديد السجن والتعذيب، ودون الخوف الدائم أن يؤذوا الأطفال بطريقة ما ليجبروا الكبار على الاعتراف.

تكمن الصعوبة في كتابة هذه المشاهد في كيفية إظهار عدم راحة «ديانا» تدريجيًّا، وكيف أنها لم تهدأ أو تنسى خوفها، ولكن دون إعطاء الانطباع أنها شبه مجنونة. يضغط المسرح الأحداث ويحولها إلى مشاهد قليلة، وهو عكس ما رغبت به «لينا» من تحول أحداث متقن وتدريجي. حاولت «ديانا» أن تنطلق وتشعر بحريتها، ولكن كانت الذكريات قوية جدًّا وما حدث لها من ألم لا يزال له تأثير. عُوملت «ديانا» في السجن بشكل سيئ للغاية وعُذِّبت. كانت تخاف من رئيس الشرطة «فلوري» لدرجة أنها على الرغم من احتياجها الشديد لوظيفة لم تذهب لتقدم فيها؛ لأنها تقع في شارع يحمل اسم «فلوريس». كان هذا الأمر كافيًّا لمضايقة «ديانا» لدرجة أنها افتعلت أغرب الأسباب حتى لا تذهب هناك. كانت تتجمد مكانها وتتوقف عما تفعله وتصمت تمامًا إذا سمعت صوت سيارة شرطة أو إسعاف، وفي بعض الأحيان انتابتها رعشة. على الرغم من كل هذا، كانت «ديانا» محبوبة، ولطيفة، وحنونة، وداعمة، ولها حس فكاهي تُحسد عليه. كيف لـ»لينا» أن تظهر كل هذه الفروق الطفيفة في مسرحية؟ كان يجب على الأمر أن يظهر تدريجيًّا، وواضحًا، وبصورة حاسمة، حتى يتطور الأمر ويصل إلى المشهد التالي: المشهد: شقة «فيرا» و»ريكاردو». تجلس «فيرا» على الأرض، تكتب على الحقيبة المستعملة كطاولة. ترفع رأسها فجأة وتستمع.

«فيرا»:

- من سيأتينا في هذه الساعة؟ أسيأتون إلينا، إلى منزلنا؟ (تنتظر، صمت) لا، إنه حتمًا صوت الجيران: أستطيع أن أسمع أحدهم يتنفس بصعوبة. (تفتح الباب). «ديانا»! (تجلس على الأرض، وتبكي بجانب الباب) يا إلهي، ماذا حدث؟ هيا، انهضي، سأساعدك. ادخلي. ماذا حدث؟ (تسمح «ديانا» لـ»فيرا» بأن تدخلها المنزل وهي تبكي في صمت، تجلس على السرير وأيديها متشابكة، ونظرة فزع على وجهها) أتريدين بعض القهوة؟ كوب من الشاي؟ براندي؟ ماء بسكر؟ عزيزتي «ديانا»، قولي شيئًا. ماذا حدث بحق السماء؟

“ديانا”:

- “بدرينيو”.

“فيرا”:

- أحدث مكروهٌ له؟ هل تعرض لأذى؟

“ديانا”:

- لا، أحضريه من المدرسة، أنا لا أستطيع..

“فيرا”:

- بالطبع، أنا لا أمانع، سأحضره مع “برونو”، يمكنه أن ينام هنا، سيحبان الأمر، ولكن أخبريني ماذا حدث؟

لا تقول “ديانا” شيئًا. تعطيها “فيرا” كأسًا من الماء، وتتحدث إليها دون أن تحصل على إجابة. تنظر “ديانا” إلى الأمام مباشرة، دون أن تبكي، وتلوي يداها.

“فيرا”:

- هيا، اشربي هذا. أنا أملك على الأغلب شيئًا مشابهًا للمهدئ، مثل الذي كانت تمتلكه أمي: “زهرة الآلام”، أو زهرة “الناردين المخزني”، أو أشياء من مثل هذا القبيل. لا أستطيع أن أعطيكِ شيئًا أقوى، لا أعلم ماذا أعطيكِ، لم يخبرنا “سيرجيو” سوى أنكِ تتناولين الأدوية، ولهذا لا أستطيع أن أمزج بين الأدوية. ما رقم هاتف عمل “سيرجيو”؟ أتسمعينني يا “ديانا”؟ أنا أتحدث إليكِ، ما هو رقم هاتف “سيرجيو”؟ أتحفظين رقمه في دفترك، أو في محفظتك؟ أيمكنني أن أبحث؟ حسنًا، إذا لم تجاوبيني سأبحث عن الرقم على أية حال، سيحين وقت الذهاب إلى الأولاد ولا أستطيع أن أتركِكِ هنا في هذه الحالة. أنتِ بحاجة إلى مساعدة، أنتِ بحاجة إلى طبيب. (تبحث “فيرا” ولا تجد شيئًا) من المؤكد أن “سيلفيا” بحوزتها الرقم. (تطلبها) أهلًا “سيلفيا”، أنا بحاجة إلى التحدث مع “سيرجيو”؛ إنه أمر طارئ. إن “ديانا” هنا ولا تشعر أنها بخير. ستتحدثين إليه؟ حسنًا، أخبريه أن يأتي على الفور أو أن يحدثنا هاتفيًّا..

تضع الهاتف، وتذهب “فيرا” إلى “ديانا” وتلف ذراعيها حولها، وتساعدها في أن تمدد جسمها، وتخلع حذاءها.

“فيرا”:

- حسنًا، لقد تحدثت إليهم. سيأتي “سيرجيو” إلى هنا في الحال، ارتاحي قليلًا واهدئي. انتهى الأمر، ستخبرينه بما حدث، ولا تقلقي بشأن “بدرينيو”، سندعه يمكث هنا طالما لزم الأمر.

تخفت الأضواء. تمسك «فيرا» بـ»ديانا» وتحتضنها وتغني.

«فيرا»:

- اهدأ يا صغيري. في أعلى الشجرة، حين تهب الرياح، سيهتز سريرك.

هناك طرق على الباب. تضاء الأنوار. تنهض «فيرا» وتذهب لتفتح الباب، ويدخل «سيرجيو».

«سيرجيو»:

- ماذا حدث؟ أخبرتني «سيلفيا» ما حدث وركضت إلى هنا. (يذهب ناحية «ديانا»، ويتحدث إليها) ماذا حدث؟ هيا أخبريني، أنا هنا.

"فيرا":

- "ديانا" على هذه الحال منذ أن أتت إلينا، لا، لأكون دقيقة في البداية كانت تبكي كثيرًا وجاءت لتخبرني بأن آخذ "بدرينيو" من المدرسة. على أية حال، عليَّ أن أذهب الآن فقد حان وقت انتهاء اليوم الدراسي. وبعد أن قالت هذا، مكثت هكذا صامتة. لم تتفاعل مع ما أقوله، كانت عيناها مفتوحتين، ونظرتها ثابتة، وفي بعض الأحيان نزلت بعض الدموع من عينيها، ولكنها لم تتكلم.

"سيرجيو":

- أستذهبين الآن؟

"فيرا":

- نعم، إنه وقت إحضار الأطفال من المدرسة.

"سيرجيو":

- إذن، فنلذهب معًا. سآخذها إلى المنزل؛ لا أريد أن يراها "بدرينيو" وهي في هذه الحال. أيمكنه أن يبيت معكِ الليلة؟

"فيرا":

- بالطبع يا "سيرجيو"، وسأقوم بأي شيء آخر قد تحتاجه.

"سيرجيو":

- شكرًا يا "فيرا"، إن ما تقدمينه هو مساعدة كبيرة بالفعل. سأحدثكِ لاحقًا لأخبرك بالجديد. (التفت إلى "ديانا"، وساعدتها "فيرا" على ارتداء حذائها). تعالي يا حبي، دعينا نذهب، سيمر الأمر. دعينا نذهب إلى المنزل، وتخبريني، تعالي..

يرحلان، ويغلق الباب، وتنطفئ الأنوار. عندما تُضاء الأنوار مرة أخرى، يكون "ريكاردو" ينتهي من محادثة تليفونية وهو وحده في الغرفة.

"ريكاردو":

- حسنًا، لا تقلق، سنجد طريقة ما. يمكنه أن يرتدي ملابس "برونو" وسيحبان الفوضى والمبيت معًا. يجب عليك أن تعتني بـ"ديانا". (وقفة) نعم، بالطبع، تحدث إليه متى شئت. (وقفة) أعلم، أعلم. سأتحدث إليك إذا شعر بالقلق. خذ وقتك كيفما شئت، نحن ندعمها. مع السلامة. (يغلق الخط).

“فيرا” (وهي قادمة من غرفة النوم):

- نام الاثنان أخيرًا. “سيرجيو” من كان يتحدث على التليفون؟

“ريكاردو”:

- نعم، كان هو من يتحدث. يتساءل ما إذا كان يمكن لـ”بدرينيو” أن يمكث هنا بضعة أيام، وما إذا كنتِ تستطيعين غدًا في الصباح بعد أن تأخذيهما إلى المدرسة أن تذهبي لتمكثي مع “ديانا” حتى يعود من الخارج.

“فيرا”:

- بالطبع، سأجد حلًّا. سألغي أيًّا ما كان عليَّ فعله.

“ريكاردو”:

- تحدث إلى اثنين من الزملاء الذين رأوها. يظن الجميع أنها بحاجة إلى أن تدخل مستشفى. سيذهب غدًا ليتفقد المستشفى أو العيادة أوأيًّا ما كانت. سيحاول أن يمكث معها على الأقل لفترة من اليوم.

“فيرا”:

- يا له من أمر محبط! ألم تقل شيئًا؟ هل يعلم أحد ماذا حدث؟

“ريكاردو”:

- بل تحدثت، وهذا ما يثير قلقه للغاية.

“فيرا”:

- ماذا قالت إذن؟

“ريكاردو”:

- تُقسم أنها رأت “فلوري” في محطة مترو الأنفاق.

“فيرا”:

- هذا منافٍ للعقل! يا لها من مسكينة.. إن الأمر أعمق مما نظن، أليس كذلك؟ لا تتخلص أبدًا من هذا الكابوس. إلى متى ستتخيل هذه الأشياء؟

“ريكاردو”:

- كان الأمر واضحًا للغاية لمجرد كونه تخيلات. تقول إنها كانت في القطار، وتوقفت في محطة، ورأته على رصيف الناحية الأخرى. تقول إنها أخفت وجهها بوشاح عدا عينيها ونظرت من النافذة. استمر الأمر لدقائق. كانت

متأكدة أنه هو. ولكنها لا تعلم ما إذا كان قد رآها أو تعَّرف عليها أم لا. انتابتها حالة فزع في هذه اللحظة، ولم تستطع التحدث.

“فيرا”:

- إنه أمر بشع! أن تتحول فجأة هكذا بين الدقيقة والأخرى وتبدأ في الهلوسة في الشارع.

“ريكاردو”:

- ولكنها احتوت الأمر جيدًا، تفقدت المكان حتى تأكدت، حسب قولها وأخبرها حدسها بأن تهرب ولكنها لم تفعل. ظنت أنه بما أنه كان على الناحية الأخرى من الرصيف فهذا يعني أنه ذاهب إلى الجهة الأخرى. تحكمت في نفسها واستمرت على الخط نفسه. لم تبدأ في البكاء إلا بعد أن تحرك القطار ورأت أنها تخلصت منه. اكتشفت أنها على بعد محطتين من منزلنا، وقررت أن تنزل من القطار وجاءت إلينا؛ لأنها شعرت بأنها تفقد السيطرة على نفسها، وقد قلقت بشأن “بدرينيو”.

“فيرا”:

- من الجيد أنها استطاعت أن تطلب المساعدة، لكن من المؤسف أن تبدأ في تخيل الأشياء بمثل هذا الوضوح.

“ريكاردو”:

- “سيرجيو” يقول إن أكثر ما يقلقه هو أن ما روته “ديانا” لا يبدو رواية خيالية. كانت في حالة صدمة وهي هنا واستطاعت أن تهدأ، ولكن عندما وصلت إلى منزلها حكت كل شيء بترتيب وعقلانية مثالية. قال أيضًا إنه لولا أنه متأكد من أن “فلوري” لا يزال في “ساو باولو”، لكان صدقها. قلت له في ذلك اليوم أن “تيكسيرا” ذكر أن الجريدة قد لمَّحت إلى أن هناك احتمالية مجيء “فلوري” إلى “باريس”، أو ربما يكون فيها بالفعل، لا أستطيع أن أتذكر بالضبط. يبدو أن المعلومات بحوزتهم ولكنهم غير متأكدين، وأرادوا لـ”تيكسيرا” و”ماريا أليس” أن يسألوا لهما في الأرجاء. ورد “تيكسيرا” أنه صحفي وليس جاسوسًا.

“فيرا”:

- ماذا لو كان الأمر صحيحًا؟ ماذا تريد الجريدة؟

“ريكاردو”:

- هذا ما قاله “سيرجيو”. كان يمكن لـ”تيكسيرا” أن يحاول معرفة بعض المعلومات ما إذا كان “فلوري” هنا بالفعل سرًّا ولا يريد لأحد أن يعرف من

أجل اتفاقية، أو تعاون، أو أي شيء، ولكن سيكون الأمر صعبًا.

“فيرا”:

- سيكون عليهم أن يعثروا على صحفيين فرنسيين ليتابعوا القضية؛ لأنه من الصعب جدًّا أن يتابع مراسل أجنبي قضية كهذه. وإذا وجد شيئًا فلن يكون أمرًا جيدًا. وإذا كان ما جاء إليه “فلوري” سرًّا؛ فلن يسمح للجريدة بنشره، وستمنعه الرقابة.

“ريكاردو”:

- يمكن لأحدهم أن ينشر الأمر هنا.

«فيرا»:

- ولكن هذه ليست أخبارًا مشوقة هنا. ألا يمكن لممثل أي بلد أن يأتي لفرنسا كسائح، أليس كذلك؟ ولكن سيكون من الجيد أن نتأكد أيًّا كان الأمر.

“ريكاردو”:

- ومن الأفضل للجريدة أن تعرف أيضًا.

“فيرا”:

- هل هذا يعني أن “ديانا” لم تكن تتخيل أي شيء؟ هذا سيقلب الأمور كلها رأسًا على عقب.

“ريكاردو”:

- ولكن هذا لا يغير من حقيقة أنها ليست على ما يرام وتحتاج إلى العلاج.

“فيرا”:

- ولكن هذا يغير شيئًا محوريًّا. ستكون “ديانا” في حالة صدمة بسبب تجربة مؤلمة، ولكنها لن تهلوس بأشياء غير حقيقية.

“ريكاردو”:

- الأمر خطير على أية حال، وقد قال “سيرجيو” شيئًا صدمني.

“فيرا”:

- ماذا قال؟ هل رأت شيئًا آخر؟

“ريكاردو”:

- لا، قال شيئًا عن التعذيب. قال إنه التعذيب يمكن أن ينشئ علاقة بين المعذِّب وضحيته بحيث تبدو كأنها مس شيطاني. يتحول الأمر وكأن المعذِّب قد اتخذ من الضحية بيتًا دائمًا ليقيم فيه، بحيث لا تستطيع الضحية أن تتخلص منه. هذا أكثر ما يخشاه "سيرجيو"، أن تعتقد الضحية أن لا حل ممكنًا لطرد الروح الشريرة.

"فيرا":

- لا أستطيع تخيل كم التوتر الذي يسببه هذا الأمر.

"ريكاردو":

- تحدث عن الأسى، والألم، والإحباط، وأشياء من هذا القبيل. كما قال أيضًا إنه خائف من أن تصل الضحية إلى نتيجة أنه لا حل سوى الموت.

"فيرا":

- يا له من أمر مروع! هل يعتقد أن "ديانا" تفكر في الانتحار؟

"ريكاردو":

- لا يا "فيرا"، لم يتكلم بهذه الصراحة. كان يتحدث بصورة عامة مستخدمًا مصطلحات مطلقة. تحدث بصورة إجمالية عن ضحايا التعذيب، وليس عن "ديانا" بالتحديد. ولكن من الواضح أن الموضوع يدور بذهنه أيضًا، وهذا مؤلم، إنه يعاني بشدة. ليست هي فقط من تعاني.

لم تعلم "لينا" ما إذا كان عليها أن تكمل هذه المناقشة في النص. ظنت أنه ممتلئ بالكلمات ولا توجد أحداث كافية، ومن الجائز ألا يصلح هذا لعمل المسرحي. علمت أن المسرح يجب أن يظهر الأفعال أكثر، وأن يظهر الكلام بصورة أقل. يجب على أي مشهد أن يظهر ويعرض شيئًا كما لو كان حدثًا محوريًّا لا أن يظهر مناقشة مبنية على أحداث حقيقية عاشتها "لينا" في المنفى. تكمن سعادة المُشاهِد في المسرح في الرحلة التي يعيشها مع الأحداث. من الممكن أن تستبدل هذا الحوار بأحداث تحمل المعنى نفسه. على سبيل المثال، يمكنها أن تكتب عن انتحار "فري تيتو" والذي كانت حادثته واقعية مثل الانهيار الذي أصاب "ديانا" وشهدت عليه "فيرا/ لينا". قتل "فري تيتو"، ذلك القديس الدومينيكي، نفسه بعد أن تم تعذيبه على يد "فلوري" نفسه. قتل نفسه بعد أن حُرِّر ونُفي على الرغم من المنع والتجريم المطلق للمنتحر من قِبَل الكنيسة. قتل نفسه لأنه كما شرح "سيرجيو" لـ"ريكاردو" وكما أظهرت "لينا" في المشهد السابق لم يتركه من عذبه وحده أبدًا. ولم يتركه حتى في الدير ولا وسط إخوانه هناك في جنوب فرنسا. كانت الطريقة الوحيدة للخروج التي رآها هذا الراهب هي الانتحار، حتى يهرب مِن التعذيب.

وعلى الرغم من تشابه حادث انتحار "فري تيتو" مع ما أرادت أن تكتب عنه "لينا" من معانٍ، لم تكن هذه هي القضية التي أرادت أن تركز عليها في المسرحية. علمت أنه عليها أن تختار، وأن تحدد المساحة التي أرادت أن تغطيها. كتب الكثيرون عن التعذيب، وهذا ما لم يكن تنتوي الكتابة عنه. فضلت أن تركز على المنفى كما رأته وعاشته، وأن تشارك التجربة مع من عاشوها، سواء الحلم أو الكابوس. إن حادثة "فري تيتو" الذي شنق نفسه في حقل فرنسي حقيقة صحفية، وتاريخية، وموثقة، ومذاعة. فضلت أن تتحدث عن النساء. في إمكانها أن تغير مشهد المحادثة الطويلة بواحدٍ آخر مبني على أحداث حقيقية أيضًا. كانت هناك فتاة منفية من ألمانيا رمت نفسها تحت القطار بسبب ظروف مشابهة تمامًا. هناك أيضًا أحداث مماثلة؛ ما كان على "لينا" سوى أن تختار. اتبعت الأحداث الآلية نفسها: ضحية سابقة للتعذيب لم تتمكن من التخلص من ذكرى المُعذِّب ومن قوته، وينتهي بها الأمر بأن ترغب في قتل الجلاد بداخلها عن طريق قتل نفسها، وأن تهرب من كل أبواب الجحيم من خلال هذه الطريقة المخيفة.

كان على "لينا" أن تفكر في الأمر، وأن تحل هذه المشاكل في المسرحية حتى ولو في داخل رأسها فقط دون أن تكتب أي شيء على الورق. عليها أن تقلِّب الأمور في رأسها؛ إعادة قراءة الأجزاء وبقايا القصة. حمدًا لله، كانت قادرة على ذلك على الرغم من المرض والأدوية. إن أي محاولة لإخراج الأفكار في هيئة كلمات، أو لمشاركة رحلتها الداخلية مع أي شخص كانت معقدة للغاية. وقفت عند هذه النقطة ولم تستطع أن تتقدم، حتى الكلام يصبح صعبًا في هذه الحالة. كانت تكتب في هذه اللحظة دون أن تفكر ولا تستطيع أن تفسر أيًّا مما كتبته وتتوتر وتُحبط. كانت تشعر أن الأمر ليس جيدًا بالنسبة لها. لم يحن الوقت المناسب للعودة إلى تجاربها بعد، لدرجة أنها لم تحضر حتى آلتها الكاتبة.

سكنت الرؤى، والهلاوس، والذكريات، والأحلام، والكوابيس بداخلها. كما سكنت بداخلها الكلمات التي ستبني جسرًا يحمل أفكارها ويشجعها على أن تقفز أعلى سماء الأمل. تأهب كل شيء داخلها لاكتمال الفكرة: بدايات الجمل مثل الأجنة في الأرحام، وعبارات تتطور مثل تطور الأطفال في بداية الحمل، ومثل النباتات في انتظار موسم الحصاد. كان كل هذا الأمر مجرد احتمالية قد لا ترى النور أبدًا إذا كان العقم وتحمل قسوة الكون بداخلها هما قدرها. كانت أفكارها تُهدر، وتُجهض وتفسد مثل البيضة العفنة، وتجف مثل الصحراء. أصبحت "لينا" مثل الأرض البور؛ تسممها الصور التي تحملها في خيالها. عاشت حالة من الجنون. كان التهديد الحقيقي لها يكمن في نهاية الأمر في مرضها واحتمالية عدم إنجابها هو رمز ذلك التهديد. راودتها الفكرة نفسها، لم تقصد الإبداع أو الإنجاب، بل كانت تفكر في الحكم الطبي عليها.

فكرت في الثمن الذي وجب عليها أن تدفعه حتى لا تفقد وعيها. كان عليها أن تقرر ما إذا كان الموضوع يستحق أن تدفع هذا الثمن لتبقى واقفة. هل كان الأمر يستحق أن تترك الكلمة؟ ما الجدوى إذن من كونها صاحبة قدمين؟ رأت أنها لو لم تستعمل اللغة لاختراع شيء ومشاركة ما اخترعته لكانت مجرد قرد يكرر ويقلد، ويعتزل حياته إلى الكهف. من الجائز أن المخرج من مشكلتها هو أن تجد لغة أخرى مثل الألوان، والأشكال، والخطوط، والأقمشة، التي تبني جسورًا لتخرج الأفكار من الداخل إلى الخارج. ظلت تعود بأفكارها إلى البحث في الرسم أو الموسيقى عن طريقة لخداع شياطينها مثل السحر أو العصا السحرية في القصص الخيالية.

يا له من أمر مؤسف أن "لويس سيزاريو" لم يعد هنا لتتحدث معه عن كل هذا. لطالما سمعته "لينا" وهو يتحدث عن أشياء من مثل هذا القبيل، ولكن على الرغم من اهتمامها في وقتها فهي لم تعلم أن تلك المخاوف والشكوك أخذت من نفسها بيتًا وبدت المحادثة نظرية ومُطلقة. لم تكتشف ساعتها أنه حُكم عليها أن تسبح في حلمها وأنها على وشك أن تغرق فيه لدرجة أنها ستحتاج إلى أن تفتح سدًّا، أو فتحة هروب، وأن تدع الحلم يخرج من صمام الهروب حتى لا تنهار. لم تعلم أيضًا في وقتها أن الحلم مغزول من الحقيقة، وأن تزيين الرغبات لا وجود له إلا إذا ثُبِّتت في نسيج الذكريات، وإلا ستهرب بعيدًا. لم تفهم "لينا" سوى مؤخرًا أن عليها أن تتحلى بالإيمان وأن تعبِّر عمَّا بداخلها وتخرجه في مجتمع من الأشباح. تكمن المشكلة في كونها لا تستطيع أن تشارك عالمها الداخلي مع أحد دون الكلمات، وقد خذلتها تلك الكلمات بسبب المرض أو الأدوية التي حمتها من الوقوع على الأرض. كانت مجبرة على الاختيار بين أن تخسر كلماتها أو أن تخسر توازنها. اقتربت لحظة الاختيار منها سريعًا على الرغم من خوفها الشديد، علمت أنها ليس أمامها أي خيار. هناك طريق واحد لتختاره؛ ولكنها ظلت تؤجله قدر استطاعتها.

كان من الأسهل أن تستمر في إعادة قراءة الفقرات، وأن ترتب أوراقها. يمكن لها أن تنظر مرة أخرى في الرسائل على سبيل المثال. استبعدت فكرة أن تستعمل الرسائل كوسيلة لإيصال فكرتها في المسرحية؛ لم ينجح أمر أن يقف شخص يقرأ قصاصة من الورق بصوت عالٍ. كان يلقب ممثل من أصدقائها هذه المناجاة النفسية بـ"قطعة لحمة مطبوخة على الطوب". إن الغرض من الرسائل هو أن تذكرها بحقائق الجو العام والمناخ. عليها أن تمزج العديد من الأحداث التي أعادتها الرسائل إلى ذهنها، وأن تلخصها في تجارب متباينة لشخصيات قليلة. لم تستطع حتى الآن أن تغصب على قلبها وأن تقرأ الرسائل، كل ما فعلته هو أن تخرج بعضها من بين أوراقها، خاصة تلك التي احتفظت بها أمها. أتى كل شيء من تلك الرسائل. على أية حال، كانت "لينا" هي من كتبت الرسائل و"أماليا" من جمعتها. لم تختر من أوراقها سوى بعض

الرزم الخفيفة ومن بينهم رسالة إلى "مارسيلو" لم ترسلها له؛ لأنها فقدت الاتصال بمن كان سيوصلها له ولم تعرف كيف ترسلها له. كانت الرسالة حديثة نسبيًّا وعلى الرغم من أنها لم تحمل تاريخًا، علمت أنها من فترة السبعينيات، ربما 1975 أو 1976. كتبتها عندما عادت، وكان أخوها لا يزال مفقودًا في مكان ما في العالم.

على أية حال، لم يكن هذا هو الوقت المناسب لتفقدها، فقد تحملت بما يكفي لليوم من استحضار الأشياء، وإعادة القراءة في المساء، والتذكر. قررت أن تترك الغرفة؛ كانت حقًّا سجينة بسبب قدمها التي تؤلمها.. غير قادرة على المشي، وغير قادرة على أن تدوس على الرمال بقدميها، أو أن تتنزه بالقرب من الشاطئ. استطاعت أن ترى البحر الهادئ بعد أن توقفت الأمطار من الشرفة، بدا وكأنه بحيرة. خفتت الألوان في الأفق البعيد على عكس اللون الرمادي الداكن للبحر. كان الهواء وما يحيطه صافيًا. لو غير هذا الهدوء اتجاه الرياح من الجنوبية الشرقية إلى الشمالية الشرقية، ستصبح الأجواء أكثر دفئًا وتماسكًا. ربما سيصبح اليوم التالي مشمسًا. سيكون ممتعًا أن تستلقي تحت الشمس مجددًا. يمكن للشمس أن تحسن من اكتئاب "لينا" ومن مشاعر قلبها، فلا أحد يعلم متى سينفض ضباب روحها الداخلي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

7

"لو سألوني عن بلادي، سأقول:

لا أعلم، إنني حقًّا لا أعلم

كيف، ولماذا، ومتى يا بلادي

ولكنني أعلم أن بلادي هي الشمس، والملح، والماء

الذين يخلقون ويذوبون أحزاني

إلى دموع كثيرة ومريرة".

"فينيسيوس دجي مورايز"

"تمنع بيتَ شعرِي

أكتب لك بيتًا غيره

تحبسني حيًّا

أهرب من تحولي إلى جثة

سريعًا، وها أنا مجددًا

أُربك السلام

وأطالب بالتغيير".

"موريسيو تاباجوس" - "باولو سيزار بينيرو"

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان الظلام لا يزال منتشرًا حين استيقظت "أماليا"؛ بدأت تتعود على الاستيقاظ مبكرًا كلما تقدم بها العمر. ظلت تتقلب وهي تقرأ في السرير. أحزنتها محادثاتها مع "لينا"، ولم تنعم بنوم هادئ. حلمت بـ"كلوديا" لكنها لم تتذكر تفاصيل الحلم، ومع ذلك أزعجها. بدأت في الدعاء لصغيرتها التي ربما تحتاج إلى نوع ما مميز من الحماية.

هناك احتمال أن سبب تفكيرها في "كلوديا" هو تذكرها لتلك الأشياء التي حدثت في مدرستها وفكرتها في لعبة "ساحة بوتافوجو". تذكرت ما حدث بعد ذلك، في أغسطس عندما اعتُقِل "فالدير" وعادت "لينا" إلى المنزل منقطعة الأنفاس من الركض هربًا من كلاب الشرطة. كانت الفتاة الصغيرة منبهرة بكل ذلك. أعجبت "كلوديا" بـ"فالدير" واعتادت اللعب معه حين كان يأتي وهو

شاب صغير ليرى "مارسيلو". تبادل الشاب الكبير والفتاة الصغيرة مشاعر حنان خاصة بهما. كان الجميع يتحدث الآن عن صديقها المعتقل، وهو ما لم تستطع أن تتفهمه.

استُدعيت "أماليا" إلى المدرسة مرة أخرى بسبب عدم تفهم "كلوديا" لذلك الأمر، وبدت المعلمة هذه المرة أكثر جدية وأدارت المقابلة والمديرة بجانبها، وقالت:

- سيدة "أماليا"، إن موضوع حديثنا هذا في غاية الحساسية والإحراج، لكننا نعلم أنكِ شخص له تجارب كثيرة وستتفهمين أنه لا خيار آخر لدينا.

هز المدير رأسه، وبدأت المعلمة في الحديث قائلة:

- كما تعلمين، الأسبوع المقبل يوافق ذكرى "يوم الجندي البرازيلي" ومن عاداتنا أن نحتفل به. تعلمين أننا لا نجري هذا التقليد فقط لهذا العام ولكننا دائمًا..

قاطعتها المديرة قائلة:

- إن الاحتفال جزء من المنهج.

فقالت "أماليا":

- نعم، أعلم.

لم تَردَّ سوى لأنها شعرت أنها يجب عليها أن تقول شيئًا، ولكنها لم تملك أدنى فكرة عما كانوا يلمحون إليه.

أكملت المعلمة حديثها، وقالت:

- لهذا السبب كنت أشرح للأطفال أن الجنود هم حماة البلاد. فسألتني "كلوديا" ماذا تعني كلمة "حماة"، فشرحت لها أنهم أشخاص يقومون بحمايتنا، ورعاية شئوننا حتى لا يؤذي أعداء البرازيل الأشخاص الذين يعيشون هنا.

ترددت المعلمة، وتنحنحت وأشاحت بنظرها إلى الأرض، ولم تستطع أن تكمل حديثها. تدخلت المديرة وقالت:

- نعتت ابنتك معلمتها بـ"الكاذبة".

صححت المعلمة ما قالته المديرة، وقالت:

- اعذريني، لم يكن الموقف كذلك. لم تقل إنني كاذبة، بل قالت إن ما قلته كذب. قالت إن الجنود لا يعتقلون الأعداء، ولكنهم يعتقلون الأصدقاء فقط.

ظننت أن ما تقوله غريبًا، وحين سألتها شرحت لي كيف أن الجنود اعتقلوا "فالدير" الصديق وليس العدو.

ابتلعت "أماليا" ريقها. كان يجب عليها أن تتوقع قصة مثل هذه. تذكرت أمها وهي تقول: "إن الرب يتحدث عن طريق أفواه الأطفال".

انتاب "أماليا" القلق على ابنتها، لكنها شعرت بالفخر في الوقت نفسه. من الجيد أن تتأكد من أنها ربَّت ابنة تستطيع أن تفكر لنفسها على الرغم من وجع القلق عليها. سببت طريقة تفكير ابنتها العديد من المشكلات بالطبع. أكملت المعلمة حديثها قائلة:

- حسنًا، ظننت أن لا أحد بالفصل يعرف من هو "فالدير" أو يعرف حيثيات الموقف، فقررت أن أكمل حديثي ولم أقل سوى أن ما حدث لم يكن خطأ الجندي، ولكنه ينفِّذ الأوامر فقط. سألني ولد عمَّن يعطي الأوامر للجنود، فأجبته بأنه العريف، ثم الرقيب الأول، وهكذا، شرحت له تسلسل الرتب العسكرية بالكامل، كما لو أنها لعبة حتى وصلت إلى رتبة اللواء. ثم صرخت "كلوديا" وقالت: "حسنًا يمكن للجندي أن يكون طيبًا، ولكن اللواء شخص سيئ؛ لأنه يعتقل الأصدقاء".

أكملت المعلمة حديثها قائلة:

- رأيت أنه من الأفضل أن أغير الموضوع، وانتقلنا إلى نشاط آخر.

قاطعتها المديرة وقالت:

- أخبرتكِ يا "جوريما" أن ما فعلتِه كان خاطئًا للغاية. كان عليكِ أن تتخذي إجراءً في لحظتها. سنتحدث بخصوص هذا.

قالت "أماليا":

- معذرة، إن "كلوديا" ليست سوى طفلة صغيرة، وبالتأكيد هي لم ترغب في نعت أي شخص بكونه كاذبًا أو أي شيء من هذا القبيل. صادف الموضوع كوننا نعرف "فالدير" على المستوى الشخصي، فهو شاب لطيف ومؤدب، ودائمًا ما يلعب معها، ولهذا فمن الصعب على طفل...

قاطعتها المديرة بحدة، وقالت:

- أنا من يطلب منك أن تعذرينا، ولكن على ما يبدو أنتِ لست مدركة لجدية الموقف وتبعاته، نحن غير مهتمين بسماعك تدافعين عن هذا الشاب.

ردت عليها "أماليا":

- أنا أدافع عن ابنتي، ولا أرى أي شيء خطير في هذا الشيء البسيط الذي قالته طفلة ذات ست سنوات في المدرسة.

قالت المديرة لها:

- لكن اللواء لا يعتقد هذا.

اندهشت "أماليا"، وقالت:

- لواء؟ أي لواء؟

فردت عليها المديرة:

- لواء بالجيش البرازيلي يا سيدتي، وله الحق في ألا يعرفه أحد.

سألتها "أماليا":

- وماذا يفعل لواء غير معروف في حصة قراءة؟

ابتلعت باقي سؤالها في الوقت المناسب بعد إدراكها أن السيدة المحترمة التي تناقشها بحاجة ماسة إلى أن تنمي من معلوماتها وتنتهي من تعليمها.

فسرت المعلمة الموقف وهي مُحرجة، وقالت:

- إن هذا اللواء هو جد لأحد الطلبة. عاد الحفيد إلى منزله وعلى ما يبدو فقد حكى ما تعلمه في المدرسة، وهو أن اللواءات أشخاص سيئون لأنهم اعتقلوا "فالدير". ولهذا السبب جاء اللواء إلى المدرسة ليطلب تفسيرًا لما حدث.

شعرت "أماليا" بالأسف تجاه المعلمة، ولم تعرف ما إذا كان يجب أن تضحك أم تبكي. كانت مرعوبة من الأهمية التي أُعطيت للموضوع. أكملت السيدة "جوريما" حديثها قائلة:

- اضطررت إلى أن أشرح له أن ما حدث ليس سوى سوء تفاهم، أو تحريف لشيء ما قاله طفل آخر، ولكنه طالب بأن يعرف من هو الطفل.

قالت "أماليا":

- ماذا؟!

ردت "جورميا":

- لا تقلقي، لن أُسلم طفلًا أبدًا.

فردت "أماليا":

- يا إلهي! إن هذا جنون.

استولت المديرة على مجرى الحديث، وقالت:

- لكِ كامل الحق بأن تفكري كما تشائين؛ فنحن في بلد ديمقراطي. ولكنني لن أتقبل أن يتم الاستهزاء بموطننا الأم في مدرستي دون أن أفعل شيئًا. لم أفصح عن هوية الطفل كما أصرت السيدة "جوريما" (ففي هذه اللحظة لم أكن أعرف هويته)، واتفقنا على تسوية الأمر. لن تتم معاقبة أحد. ومع ذلك، ستطلب المعلمة بأن تُنقَل إلى مدرسة أخرى. وقررت المدرسة، من خلال صفتي الشخصية، أن تدعو أولياء أمر الطفل أن ينقلوه منها، وذلك لأن تأثيره ضار على الأطفال الآخرين. سنسهل العمليات الورقية لتسريع النقل.

لم تصدق "أماليا" ما سمعته، وقالت:

- هذا غير معقول. إذا كان هذا الحال دون معاقبة أحد، فماذا سيحدث إذن لو فعلت؟

قالت المديرة ببرود:

- لست متأكدة مما إذا كنتِ تريدين حقًّا أن تعرفي الإجابة عن هذا السؤال. اعذريني الآن؛ لدي موعد آخر في انتظاري.

شعرت "أماليا" بالهزيمة بعد أن تركت المديرة الغرفة. كانت ممزقة بين شعورها بالاشمئزاز والدهشة، كل ما استطاعت قوله للمعلمة هو:

- لكن هذا غير معقول!

ردت عليها المعلمة، وقالت:

- أعتقد هذا أيضًا، ولكنني لا أستطيع الوقوف في وجوههم. لو رأيتي كم كان الجد غاضبًا؛ لظننتي أنه سيصاب بجلطة. تحدث عن رمز الموطن الأم والأمن القومي. لا يستطيع المرء أن يفعل شيئًا؛ فبيدهم كل مقاليد الأمور. كنت أنا من قدمت هذا الاقتراح: أن نرحل أنا و"كلوديا". لم أتقدم بهذا الاقتراح لمجرد الابتعاد عن السيناريو الأسوأ، ولكن أرى أنه من غير الممكن البقاء في مكان ما يعرضك لكل هذا. لو كنت مكانك، لوجدت لها مدرسة خاصة. إن المدرسة العامة الآن هي مكان لغسل المخ.

تعمقت "أماليا" في أفكارها وهي في طريقها إلى المنزل. ظلت تفكر في هذه الحادثة حتى بعد مرور خمسة عشر عامًا. كان هذا اليوم بالنسبة إليها بمثابة علامة فارقة؛ فهمت في لحظة واحدة كيف يمكن لآليات الفاشية أن تستولي على مجتمع. فجأة أصبحت هي وابنتها تعيشان ما كانت تراه في الأفلام، وتقرأ عنه في الكتب عن فترة الحرب العالمية الثانية. فليحمنا الرب، أيمكن للبرازيل أن تكون في طريقها إلى هذا النوع من الإرهاب، ولم تستوعب حتى

هذه اللحظة؟ وعلى الرغم من كل الشخصيات في كل الأفلام التي شاهدتها، من لم يتوقع المخاوف القادمة؟ أدركت “أماليا” درجة العنف التي وصلت لها بلادها في ذلك اليوم أكثر من أي مظاهرات طلابية، أو أي عنف شرطي. بكت من أجل البرازيل للمرة الأولى في حياتها.

بدأت الطيور في الغناء معًا في صوت واحد مهنئين الشمس المشرقة. بدا الجو جميلًا وهو ما أكده لها الضوء المتسلل من بين فتحات الستائر. فتحت “أماليا” النافذة. خرج العديد من المراكب الصغيرة إلى الصيد في الخليج، وهو ما يدل على أن الصيادين يرون أن الجو سيستقر. ما زال هناك القليل من المراكب تتجه بمؤخرتها إلى ناحية البحر وبمقدمتها إلى الجهة الشمالية الشرقية، ومربوطة بأحبال إلى الأسفل. علمت “أماليا” دون التأكد من اتجاه النسيم الضعيف الذي حرك أوراق الشجر أنه قادم من جهة جيدة. سيكون الجو حقًّا جميلًا.

كم كان لطيفًا أن تستيقظ في الصباح وترحب بيومك بهذه الطريقة؛ فاتحًا نافذتك ومتأملًا البحر، والنباتات، وشاعرًا بالرياح. كان طبيعيًّا جدًّا أن تعيش هناك. كانت محظوظة؛ لأن بإمكانها في نهاية حياتها أن تعيش في هذا المكان بعد سنوات عديدة قضتها مكبوتة في شقتها بالمدينة. كانت محظوظة أن تعيش في هذا المكان الذي قضت فيه طفولتها، وحيث كانت تحضر الأطفال إليه تقريبًا كل صيف من حياتها. لم تكن لتتحمل أن تكبر وهي محبوسة ومحاصرة بين حيطان الشقة. احتاجت الأفق، والسماء المفتوحة. انقبض قلبها كلما فكرت في بشاعة فكرة أن تكون مسجونًا. لم تُعتقل من قبل، لكنها توقفت عن عد المرات التي اعتقل زوجها فيها أثناء العصر الديكتاتوري لـ”فارغاس” وفي عصر الأخير هذا، وعدد المرات التي اعتقل فيها أولادها أيضًا بالدور: “مارسيلو”، و”هيلينا ماريا”، و”فيرناندو”. كانوا محظوظين؛ فالرب حماهم، فعلى الرغم من عدد الاعتقالات السياسية لم يُعذَّبوا. على الرغم من ذلك، كان اعتقالهم محطمًا للأعصاب؛ لأنها لم تعرف أي أخبار عنهم وعما يواجهونه. قضى اثنان من أولادها الكبار وقتًا قصيرًا في السجن، وقضى “مارسيلو” وقتًا أطول: استمر شهرين. من الجيد أنه لم يُعتقل سوى مرة واحدة قبل أن تزداد الأشياء قبحًا، وكونه لا يحمل سوى تهمة أنه محرض وقائد طلابي. لو أنه اعتُقِل مؤخرًا لعذبوه حتى الموت. لم تستطع التفكير في الأمر، فلسنوات عدة، طاردها الخوف من أن يحدث هذا.

لم تعلم “أماليا” حتى في وقت اعتقال “مارسيلو” أنهم لن يفعلوا له شيئًا. لم تملك أيضًا أدنى فكرة عن المدة التي سيقضيها في السجن، حيث إنها لا يمكن أن تمتد لأكثر من ستين يومًا دون تهمة، كما ينص القانون؛ لكن دائمًا ما تُنتهك القوانين، لذلك لا يمكن الاعتماد عليها. في اللحظة الأولى لاعتقاله مع

مئات من الأولاد والبنات الآخرين في الاجتماع السري لاتحاد الطلبة القومي وحبسهم بعيدًا في مزرعة ما، حاولت "أماليا" أن تُهدئ نفسها بتكرار ما كان يقوله زوجها:

- سيدوم هذا الاعتقال لوقت قصير. لن يعتقلوا كل هؤلاء دون سبب. ستصرخ العامة محتجة بقوة.

حدث ما قاله ولم يحدث في الوقت نفسه. كان الرأي العام يتعلم ألا يصرخ محتجًا بعد أن فُرِّقت التظاهرات الأخيرة بالرصاص والموت، واختفى البعض قسريًّا. كانت الصحافة، خاصة الجرائد الكبيرة تتقن التلميح إلى أن هدف الحركة الطلابية ليس الحرية، ولكنهم فقط مجموعة كبيرة من الشباب الأبرياء أصحاب النوايا الطيبة الذين تلاعبت بهم عصابة من مثيري الشغب والمحرضين المحترفين المدربين على اختلاق الصراعات والممولين بالذهب من روسيا. بدا منطقيًّا جدًّا أن ينتشر هذا الوصف بين السجناء الشباب من الاجتماع الطلابي الفاشل. فليحمنا الرب، ألا يرى الرجال أن فكرة إخفاء مئات الأشخاص في مدينة نائية صغيرة غير معقولة؟ ألا يدركون أن تصرفهم يظهر هذا الافتقار من تقدير الموقف، وأنه لا يمكن أن يكون تم اقتراح هذه الفكرة سوى من قبل مراهقين لا يملكون أي خبرة؟ ألا يعلموا أن أي محرض محترف كان سيضحك على هذه الخطة السخيفة؟

ولكن لا، رأت الحكومة ما أرادت أن تراه، وقامت بالفرز. أفرجت عن الجميع عدا تسعة شباب أبقوهم في السجن، ومن بينهم "مارسيلو". كان هؤلاء في نظرهم هم القادة الخطرون. ثم بدأت رحلات السفر المشابه للحج إلى المدينة الأخرى في محاولة لرؤية ابنهم. ذهبوا أولًا إلى قسم شرطة في ركن آخر من المدينة، ثم إلى السجن، حيث كان يرافق الشباب جندي موجه سلاحه إليهم حين يذهبوا إلى المرحاض. وحتى حين سمحوا لهم أخيرًا بالخروج ليلعبوا الكرة في الشمس لفترة، تركوا اللعب حين ارتطمت الكرة دون قصد بالحرابات الثابتة للحراس حول الفناء. وبمرور الأيام، ومع اقتراب انتهاء مدة الشهرين التي يجب أن توجه لهم تهمة خلالها، لم يقل السجانون أي شيء عن الإفراج عن الأولاد. رأى المحامون أنه من الأفضل تقديم طلب استئناف أمام المحكمة العليا لتطبيق القانون. قُدِّمت دعاوى المثول أمام القضاء الخاصة بالتسع قادة للمحكمة في يوم صيفي عظيم، في الثاني عشر من ديسمبر الأول.

غيَّر هذا اليوم حياة "أماليا"، وحياة "مارسيلو"، وحياة الأسرة بأكملها. وغير أيضًا البلاد بأكملها. تأملت "أماليا" في وقت ما بعد مرور السنوات في لحظة مثل الآن وهي تنظر إلى الملجأ الخاص بها على البحر، وإلى الصخور التي كانت تظهر على السطح عند الجزر، كيف ظهرت تلك المراحل من ذكرياتها،

وفكرت في كل ما عاشته وتعجبت، كيف تداخلت أحداث حياتها الخاصة وحياة عائلتها مع أحداث البلاد! رأت الصيادين يدفعون بمركبٍ إلى المياه، والمزارعين يسيرون إلى حقولهم. علمت أن لكل منهم حياته المليئة باللحظات السعيدة والحزينة، لكنها شعرت أنهم يعيشون على الأرض في حين أنها تعيش بين صفحات التاريخ. كان الوطن بالنسبة لهؤلاء هو الأرض التي وُلدوا فيها فقط. لكن بالنسبة لها، فالوطن هو اللحظات التي عاشتها. إن الأرض البرازيلية، والطبيعة، واللغة المشتركة، والإجازات، والعادات، والثقافة المشتركة، وذكريات طفولتها هي أجزاء من تكوينها. وعلى الرغم من كل ذلك، لم تستطع منع نفسها من الشعور بأن لعنة ما حكمت عليها بأن تعيش منغمسة لتلك الدرجة في الأحداث السياسية لذلك الوقت، حتى أنها لا تستطيع أن تفصل تلك الأحداث عن حياتها الخاصة. خرجت جميع الأحداث من داخلها كما يخرج الطفل من رحم أمه. كيف لها أن تعرف ما إذا كان كل هذا نعمة أم نقمة؟ كانت البرازيل بالنسبة لها مثل الأم أكثر من كونها أرض أجدادها؛ كلاهما ينجب ويلد من الأمعاء نفسها كما لو كانت البرازيل أمها وطفلتها في الوقت نفسه. كانت البرازيل مثل المرأة المولودة من رحم التاريخ، وحاملة لمستقبل البلاد بداخلها. إن البرازيل هي سلسلة من الآلام والدماء ولبن أنثى.

كان الثاني عشر من سبتمبر هو أحد تلك الأيام. علمت أنه يوم اتخاذ القرار بشأن دعاوى المثول أمام القضاء الخاصة بابنها، لم تملك أدنى شك في أن العدالة ستأخذ مجراها. ربما يتناول العشاء معهم الليلة، لكن هذا يعتمد على موعد إطلاق سراحه، وما إذا كانت هناك تذكرة طيران متاحة ليعود إلى “ريو”. ستطبخ طعامه المفضل، وستعد له الحلوى، وسترتب سريره وتفرشه بالملايات المعطرة، وتعلق منشفة نظيفة له في الحمام، وتجمع كل المجلات من الأسابيع الماضية ليقرأها. ستتحقق العدالة في قصر بعيدًا عنها وعنه، قصر يأوي محكمة العدالة العليا في البلاد. ستسعد تسع أمهات بعودة أبنائهم.

لم يكن الثاني عشر من سبتمبر يومًا عاديًّا؛ فلا يزال تاريخ البلاد يحاول أن يتحد مع دماء “أماليا” ومشاعرها. سيُتخذ القرار في العاصمة نفسها، وعلى أرض الميدان، وفي القصر المبني ليستضيف البرلمان الذي يمثل الشعب من خلال الأصوات الحرة لممثلي الشعب. سيحدد هؤلاء الممثلين في هذا اليوم ما إذا كان سيُسمح بالإعدام لأحد الشباب أم لا نظير الجرائم التي ارتكبها ضد الأمن الوطني بسبب ما قاله في خطبة ما منذ بضعة أشهر سابقة، وظنهم أنها أهانت الجيش البرازيلي. لم تتذكر “أماليا” حتى تلك الإهانة التي تحدثوا عنها. من الجائز أن تكون شيئًا عن كيف أن البنات أحبوا الرقص مع المجندين في السابق، لكن لا أحد يحب الزي العسكري الآن. إن جميع الحقائق التي ذكرها الممثل والتي سببت غضبًا كبيرًا بالنسبة إليه كانت في قمة التفاهة،

لدرجة أنه لم يتذكرها أحد. لكنها تذكرت جيدًا لماذا اختيرت هذه الدعوى بالذات. كتب هذا الممثل كتابًا يشجب ويثبت استعمال التعذيب. دائمًا ما تحدث مع النائبين الآخرين في مجلس الشعب ليكشف للبلاد حوادث الاعتداء وسوء المعاملة ضد السجناء. كما علمت "أماليا" مثلها مثل الجميع أن تهمة كهذه لا يمكن أن تبقى دون عقاب؛ يمكن لتهمة التعذيب أن تبقى، ولكن لا يمكن لشجبه أن يبقى. لذلك كان على صاحب السلطة أن يجد طريقة أخرى لإعدام الشاب. على الرغم من ذلك، لا يمكن إعدام الممثل بحسب الدستور إلا إذا سمح الآخرون بذلك. من الضروري الحصول على الإذن أو أن يتجاهلوا الدستور.

منحت السلطة القضائية في ذلك اليوم في الميدان المعروف باسم "القوى الثلاثة" في الثاني عشر من سبتمبر لقادة الطلاب حق المثول أمام القضاء، وأمر بإطلاق سراحهم على الفور. رفضت السلطة التشريعية السماح بإعدام المتهم بسبب رأي قاله في أن تنفذ الحرية، فقد نفدت كل السبل للقضاء على ما تبقى من الحرية في البلاد. ماتت جميع أفكار استقلال الفروع الأخرى للحكومة، وتمزق الدستور الذي أقرته السلطة التنفيذية العام الماضي، واستؤنفت تفويضات الممثلين وقضاة المحكمة العليا، وأُغلِق مجلس الشعب، ووُضعت الرقابة على الصحافة، واعتُقِلت المعارضة، وطُبقت الدكتاتورية الأشد سوادًا التي عرفتها البلاد للمرة الأولى والأخيرة. سمعت "أماليا" كل هذا على الراديو. لم يعد "مارسيلو" بعد إلى المنزل لينام على وسادته الناعمة وعلى ملاءته المعطرة، وليملأ بطنه بأكلات أمه المميزة وحلوياتها.

كبر «كلوديا» و»مارسيلو» الآن، ولكن جرت العادة لسنوات طويلة أن تفكر «أماليا» فيهما كل صباح حين تستيقظ، وفي إخوتهما أيضًا. يبقى الأولاد أطفالًا دائمًا في أعين أمهاتهم. ستعتني الآن بـ»لينا»، أقربهم منها الآن والتي يبدو عليها الحزن والقليل من الغرابة. كانت «لينا» صامتة لفترات طويلة ولا تتحدث إلا قليلًا، وتنام كثيرًا؛ بدا الأمر كما لو أنها تقضي وقتًا أكثر وعيناها مغلقة من الوقت الذي تقضيه وعيناها مفتوحة. حسنًا، كانت تعاني من قدمها المكسورة، لم تستطع أن تمشي كثيرًا أو أن تذهب إلى البحر، وكانت محبوسة قليلًا، خاصة بسبب أمور الأعصاب تلك. بالطبع، كان لديها مشكلة في الأعصاب؛ فقد عانت من الإرهاق المزمن، وكانت تفقد وعيها طوال الوقت. لا فائدة من مواجهتها ومطالبتها بتفسيرات لمشكلات الأعصاب تلك، والموجات الكهربائية، والتركيز، وأي شيء آخر. ظنت «أماليا» أن ما تشعر به «لينا» في أعماقها هو رغبة في الحصول على الاستقرار والأطفال وزوج ليعتني بها ويدعمها ويرعى عائلتها. كانت «لينا» - في نظرها - محملة بالأعباء الثقيلة ووحيدة، وأن العشاق الذين تقابلهم لم يكونوا من النوع الذي يتزوج ويستقر.

كانت “لينا” الأكثر ابتعادًا عنها من بين كل أطفالها. كانت الأكثر اختلافًا، والأصعب في فهم إصرارها على الاستقلال، وصمتها، ومواجهتها للأشياء، وأسرارها. دائمًا ما تخفي أشياء ولا تخبرها لأحد منذ أن كانت طفلة. اعتادت كتابة مذكرات سرية، ومراسلة أصدقاء يعيشون بعيدًا، وتغير من الموضوع كلما اقتربت أمها. مرت “لينا” بمرحلة في مراهقتها وصلت بها إلى درجة تغيبها عن حصص اللغة الإنجليزية لتذهب إلى زيارة صديقة “أماليا” وتمكث لتتحدث معها بالساعات؛ وكأنها ترغب في اختيار أم مختلفة لنفسها. كانت الفتاة تكتب أشياء وتخبئها وتريها لكل النساء عدا “أماليا”، كما لو أنها ليست جيدة لذلك بما يكفي. سبب هذا الأمر جرحًا لـ”أماليا”، جرحًا كبيرًا؛ فقد كان مؤلمًا أن ترى ابنتها تضيع منها بهذا الشكل. والآن لديها حبيب غامض، لكنها لم تعرِّفها عليه، ولم تحضره إلى المنزل ليقابل العائلة. ظل هذا الحبيب بعيدًا، يحادثها عبر المسافات الطويلة كل يوم دون توقف، ولا يقول أي شيء أبدًا عن قدومه ومقابلة أمها مهما دعته.

حاولت “أماليا” أن تفهم، وتعرف أكثر عن كل هذه الألغاز، وأن تعلم عن كل هذه الأسرار المتسببة في عصبية ابنتها، ولكن بدا الأمر كأن “لينا” بنت حولها حائطًا غير مرئي. تخطت “لينا” الحدود في اليوم السابق عندما طلبت من أمها أن تترك الغرفة لأنها تتحدث في الهاتف. هل من حق الطفل أن يحتفظ بأسرار ولا يخبر أمه عنها؟ أسوأ ما في الأمر أن هذا الطفل فتاة. تألمت “أماليا” كثيرًا ولطالما شعرت بهذا الألم. لم تتقبل تلك الحدود ولم تتعود على هذه الحواجز، فلطالما انزعجت من الطريقة التي تغلق بها ابنتها دفترها فجأة أو تخبئ الورقة التي كانت تكتبها، وهذه النظرة الخاطفة التي تجمِّد “أماليا” مكانها حين تسأل عن شيء تظن “لينا” أنه لا يجب أن تسأل عنه. إضافة إلى سرعتها في تغيير الموضوع وتحويل مسار أي محادثة، وإخفائها أي جواب، وإغلاق الأدراج، والتخبئة. لا تعلم من أين ورثت ابنتها هذه الطباع؛ فلم تتصف هي أو زوجها بالسرية مثل “لينا”. فعلى سبيل المثال، كانت الجوابات التي تُرسل إلى “أماليا” محور الحديث العام على طاولة العشاء. كانت تترك الجوابات مفتوحة وفي متناول الجميع، ويمكن لأي شخص في المنزل أن يقرأها. كانت “لينا” كتومة لدرجة أنه عندما رأت في يوم ما جوابات أمها وهي متروكة هكذا، طلبت منها أن تمزق كل الجوابات التي أرسلتها لها طوال حياتها أو تعيدها إليها. كان على “أماليا” أن تعدها بأن تجمعها كلها منفصلة في صندوق بعيدًا عن يد العائلة. لاحظت “أماليا” أن “لينا” توقفت عن كتابة الجوابات لها بعد هذه الحادثة. وبمرور الوقت، ظلت “هيلينا ماريا” تملك العديد من أماكن الإخفاء لكل ما يخصها. لا تقول “لينا” ما تفكر فيه، ويستغرق الأمر إلى الأبد لكي تتحدث، وإذا ما حدث وتحدثت كان الغرض من الحديث المضايقة أو الاستفزاز. فعلى سبيل المثال، رأيها في أن أباها كان في غاية

الوقار عندما ترك المنزل ليعيش مع امرأة أخرى، وحتى عند رؤية الناس له معها في أسلوب فاضح وبه عدم احترام. كانت "لينا" تقول لأمها: "أمي، يكفي أنه صادق، ويتحمل مسئولية فعلته ولا يكذب. لأبي الحق في السعادة".

ألم تملك هي هذا الحق؟ ماذا عن الإهانة العلنية لأنه تركها من أجل امرأة أخرى؟ ماذا عن كل هذه السنوات التي قضتها دون عمل ولا تفعل شيئًا سوى رعايته هو وأبنائه؟ ماذا عن تلك السنوات التي قضتها من أجل رجل تزوجته، من أجل من جاء ليأخذها من بيت أبيها، ثم تركها بهذه الطريقة من أجل فتاة صغيرة لا تملك نصف ما تملك هي من صفات؟ وما هي الأمانة التي رأتها "لينا" في أبيها، وقد كذب كثيرًا وخان "أماليا" كثيرًا ولم يتركها سوى لأنها لم تتحمل المزيد من حياة النفاق الازدواجية وكان عليها أن تضع حدًّا لهذه الحياة؟ كانت هي من تستحق أن تتصف بالوقار، كانت هي الصادقة. أما عن حقها في السعادة، فليحمنا الرب، كان من حقها أيضًا أن تحصل عليها والمزيد منها. ولكن كيف؟ كيف لها أن تبدأ من جديد في عمرها؟ لا فرصة لامرأة في الستينيات أن تحصل على حياة مهنية، أو أن تتزوج، وتكوِّن عائلة جديدة مثلما يمكن لرجل في عمرها نفسه أن يفعل. لم يكمن الأمر في كونها ترغب بهذه الأشياء. ما أرادته "أماليا" حقًّا هو أن تكبر بسلام بجانب رفيق العمر، وأن تجد السلام أخيرًا بعد معركة الحياة وحولها كل أطفالها وقد كبروا وأن تستمتع مع أحفادها. هذا ليس بالكثير، أليس كذلك؟ بالإضافة إلى كل ذلك، كان عليها أن تسمع أنه كان صادقًا، وأن لديه الحق في أن يكون سعيدًا. كانت تلك الكلمات مثل السكاكين، ولكن في هيئة كلمات، ومن فم ابنتها هي. لم تحتمل الأمر.

على الرغم من حديث "لينا"، لم تتواصل سوى مع "أماليا". لم تلجأ إلا لـ"أماليا"؛ كانت "لينا" تغمر أمها بطيبتها المربكة وهي تلك التي نادرًا ما ترى أباها. تعجبت "أماليا" من ألغاز قلب "لينا". شعرت "أماليا" بقرب "لينا" وحنانها النصف مختبئ، وحضورها. ولكن، لحظة، إذا أرادت ابنتها أن تبقى معها، لماذا إذن تقول لها تلك الأشياء الجارحة للغاية؟ من الصعب جدًّا فهم "لينا"، ولطالما كانت تلك الـ"هيلينا ماريا" كذلك. كان من الصعب فهم حالتها المزاجية الغريبة مثل منزل له عِلِّيَّة وقبو، وأركان وزوايا مظلمة، وأبواب سحرية وسراديب، وأكوام خشب وغرف صغيرة مليئة بالخفافيش وشبكات العكنبوت، وأسقف عالية، وأرضيات لها صرير، ونصف مختبئ خلف الأشجار. ظنت "أماليا" أن قلب "لينا" مثل بيت أبيها؛ البيت الذي كبرت فيه "أماليا" وشعرت بالسعادة. ذلك البيت الفريد الذي احتضنتها أحلامها فيه كل ليلة. أما الآن فتحولت الحيطان الصلبة وأصبحت مهدومة ومعكرة. كانت حلقة الوصل الباقية الوحيدة هي ساعة جدها القديمة التي أعلنت لتوها عن الساعة السابعة؛ مما يعني أن وقت الطعام ليوم جديد قد حان.

تركت “أماليا” غرفتها ووجدت ابنتها قد استيقظت بالفعل وفي المطبخ، فقالت لها:

- صباح الخير يا أمي. هل نمتِ جيدًا؟

كذبت “أماليا” وقالت:

- نعم، نمت جيدًا جدًّا، وأنتِ؟

ردت عليها “لينا” وقالت:

- وأنا أيضًا.

علمت “أماليا” أن “لينا” تكذب أيضًا. إنها تخفي شيئًا مجددًا. سمعت “لينا” تنهض أكثر من مرة أثناء الليل، ظل نور غرفتها مضاءً لوقت طويل لكنها لم تكن لتضغط عليها لتعرف السبب.

تناولتا الإفطار، وأكلتا الفاكهة، وتكلمتا في أحاديث خفيفة وكأن جمال اليوم المتسلل من النافذة قد طرد أشباح الليل بعيدًا. ملأت “لينا” كوبًا من الحليب وبدأت في تناول أقراص أدويتها واحدًا تلو الآخر. نظرت “أماليا” إليها في صمت، وظنت أنه من الأفضل ألا تذكر أي شيء بخصوص المرض. اقترحت “أماليا” قائلة:

- يمكنك أن تستلقي بالخارج اليوم أيضًا. إن الشمس مشرقة، واليوم رائع، وبما أن الوقت لا يزال مبكرًا فلن يكون الجو حارًّا. سيفيدك هذا.

ردت عليها “لينا” قائلة:

- فكرة جيدة يا أمي. سيكون الأمر رائعًا.

فرشتا الحصير على الحشائش الخضراء واستلقت “لينا” عليه. كان الأمر رائعًا بالفعل. كانت الشمس دائمًا مصدر حياة لها، كانت من ضمن الأشياء التي افتقدتها في المنفى. افتقدت “لينا” الدفء على بشرتها وإشراق الشمس على المناظر الطبيعية. اعتاد “لويس سيزاريو” أن يقول إن رسام الرب يرسمنا نحن أيضًا. تعلمت “لينا” من صديقها أن تقدر الألوان الذهبية للوقت المتأخر من السماء بالذات. تذكرت يوم أن أخذها لقمة التل لترى المدينة من علٍ، وقال لها:

- انظري يا عزيزتي، كل دقيقة هي عبارة عن خبطة من فرشاة الألوان للون مختلف. لن يُستخدم اللون الظاهر على سطح المياه أو الغابة مرة أخرى، إنه فريد. من الجائز أيضًا ألا يأتي لون مثله غدًا؛ فيمكن أن ترتفع الرطوبة، أو أن

تكون أشعة الشمس أكثر انحراقًا. كل لحظة تمر على هذا المنظر الطبيعي هي لحظة نادرة.

قالت "لينا" وهي مندهشة:

- إنه ضوء سحري.

صحح "لويس سيزاريو" ما قالته، وقال:

- ليس سحريًّا ولكنه طبيعي، ولهذا فهو معجزة.

ثم أضاف شيئًا لم تفكر به "لينا" أبدًا، وقال:

- يلعب الوقت مع الضوء في مثل هذا الوقت. ولهذا السبب لا يأتي الجمال فقط من الألوان المتزامنة كما اعتاد المرء أن يراها، بل يأتي من تسلسل الألوان التي يحفظها المرء في ذاكرته وتبدلها بألوان أخرى. إن الأمر مثل أصوات الموسيقى التي لا تبدو منطقية إلا إذا اتصلت بالأصوات التي بالفعل تم إصدارها وتعلن عن الأصوات التي لم تُعزف بعد. إن هذا هو سر السحر الحقيقي لهذه الساعة؛ والانبهار الذي شعرتِ به هو النقطة التي تمتزج عندها الموسيقى مع الألوان.

تذكرت "لينا"، وقالت:

- هناك قصيدة لـ"فينيسيوس" تتحدث عن لون لا يوجد إلا في الدقيقة الثالثة للفجر.

شعر "لويس سيزاريو" بسعادة بالغة، وقال:

- أترين؟ هذا هو ما أعنيه. يعلم الشاعر، والموسيقي، والرسام هذه الأشياء. يا طفلتي، يظن الجميع أن المرء فنان لأنه يبدع شيئًا جميلًا ومختلفًا، ولكن يعلم القليل من الناس أن الأمر ليس كذلك. لا يمكن للفنان أن يبدع إلا إذا تعلم أن يدرك، ويرى، ويسمع، ويلمس، ويشعر بالفضاء، ويسبح في بحر الوقت. كما على المرء أيضًا أن يمارس- لا تنسَيْ ذلك أبدًا.

- حسنًا، سأحاول.

- ستحاولين وستنجحين. يكمن السر الكامل في الإدراك، والباقي ما هو إلا تقنية يمكن لأي شخص أن يتعلمها بقليل من الإصرار، حتى الفنانون الأقل التزامًا. ولكن عليكِ أن تدركي اللون في بادئ الأمر ليصبح ذلك اللون الذي لا يوجد إلا في الدقيقة الثالثة من الفجر، الذي تحدث عنه شاعرك، جميلًا ومصدر سعادة للأبد كما وضح لكِ شاعر آخر عجوز.

قالت مازحة:

- لتدع الأمر يا "لويس سيزاريو"، لا يوجد شيء اسمه شاعر عجوز. إن أمثالك من الشعراء لا يكبرون.

- من الجائز ألا يكبر القلب، ولكن الجسد يفعل.

وقفا ساكنين حتى حلول الليل وعلى وجههما ابتسامة، ولم يهمسا بكلمة حتى لا يزعجا سكون الغروب.

كانت ألوان هذا الصباح لها جمال مختلف وعالٍ مثل أصوات آلات النفخ النحاسية في الأوركسترا. كان كل شيء واضحًا، ومستقرًا، ومحددًا في الهواء الذي غسلته أمطار الأمس. قدمت الشمس نفسها ليس للعين فقط، وإنما للبشرة، واستمتعت «لينا» بدفء عذب اجتاح جسدها كله.

تفهمت «لينا» جيدًا لماذا عبد من يسمونهم بالبدائيين قوى الطبيعة. شعرت بصلة قرابة تجمعها مع «الإنكا»، و»الأزتيك»، والأخرين من عبدة الشمس. شعرت أنها قريبة من كل ذلك في زاوية مخفية من روحها بطريقة لا تفهمها. كانت «لينا» امرأة تحب الشمس، ولا تحب الليل إطلاقًا، ولم تكن أيضًا من النوع البوهيمي. كان يداهمها النعاس مبكرًا في المساء، ولم تتمكن أبدًا من السهر في الحانات واحتساء الجعة حتى الساعات الأولى من الصباح مثل بقية العاملين في الصحافة. أصابها الخجل ليلًا بسبب ذلك الأمر. شعرت بثقل جفنيها، وارتخت عضلاتها كما لو أن كل نسيج وكل خلية في جسدها قد احتفظوا بذكرى الأسلاف للحضارة التي ازدهرت قبل الكهرباء واتبعت الإيقاع الطبيعي للأيام، والذي لم يختل في تاريخ البشرية سوى من وقت قريب.

شعرت "لينا" بقوة أن دورات القمر والأمواج تتناسق دوريًّا بداخلها؛ كانت تتواصل حيويًّا مع الشمس؛ تستيقظ بموسيقى في عقلها والسماء زرقاء، أو بأغنية تدندنها كما تفعل العصافير. أحبت ممارسة الحب في الصباح وهي في حالة من النعاس والكسل. كان التوتر يتسلل خارجها شيئًا فشيئًا مثل الشمس المشرقة من البحر. كتبت أفضل الأفكار في الصباح الباكر في بداية اليوم. وعلى الرغم من أنها لا تصنع مادة "الكلوروفيل"، كانت تحتاج إلى الشمس لتحويل سمومها إلى "أوكسجين" يمكنها تنفسه وأن تطرد كل ما هو سام من داخلها. لم تشعر إلا تحت أشعة الشمس أنها تكبر، وتتسع وسع الكون، وينغمر منها العصير. كانت مثل الرمان كامل النمو، وزاهية مثل ألوان كرز "السورينام"، ومرتفعة مثل الأشجار الطويلة. كانت تصفي مرارة الماضي وتحليه، وتنضج من ثمار المستقبل.

ابتسمت للذكرى الخاصة بالعصير. ذات يوم، كانت في السيارة مع "ألونسو" منطلقين على امتداد ساحل خالٍ. توقفا ليتحمما في شاطئ لطيف له رمال وردية وعلى حدوده أشجار جوز الهند التي ظلت تهتز في النسيم الشرقي

الشمالي. كانت أكواخ الصيادين في الأفق، وشكلت بعض الشُعب بركات من الماء الصافي والدافئ. قرر "ألونسو" بعد أن تمشيا قليلًا أن يركض على امتداد الشاطئ، أما هي فقررت أن تستلقي وتدير وجهها للشمس وأن تترك ساقيها مفتوحتين حتى تسمرهما الشمس كلية. اقتربت الشمس من الانتصاف في السماء، وكانوا تقريبًا على خط الاستواء. امتصت ملابس السباحة الداكنة أشعة الشمس أكثر وركزتها، وظنت «لينا» أنها لن تستطيع أن تتحمل الجلوس في هذا الوضع أكثر من ذلك؛ فقد بدأت تشعر بالحرق. أغلقت عينيها وتنفست ببطء، وركزت مع ضوضاء الأمواج الضاربة ومع صوت صياح طيور البحر المتقطع. شعرت «لينا» بدفء ينبعث من داخلها وسط كل هذه المؤثرات الحسية حولها كما لو كانت جمرة ملتهبة بين ضلوعها. اشتعلت النيران واحتضنت «لينا» واخترقتها وأدركت فجأة أن البلل الذي شعرت به لم يكن مجرد عرق. جاء ذلك البلل منها ومن رد فعلها نحو إله الشمس الذي أخذها على غفلة. كانت على استعداد أن تتفاعل في أي لحظة بنشوتها التي ستجعل منها الأخت المثالية بالطبع لكل البشر الوثنيين المسكونين من قبل «أبولو» أو أيًّا من الآلهة التابعين من النوع نفسه منذ بدء الخليقة. جاء «ألونسو» ليحول صورة الإله إلى حقيقة في عناق مارسا فيه الحب مثل الأطفال التي تلعب.

زارتها الشمس الأثرية بكل جلالتها وقوتها في مناسبات أخرى أيضًا؛ ومن ضمنها مناسبة لا تُنسى. كانت المناسبة في "مكسيكو" على أطلال "تيوتيهواكان": هذا الأثر الصخري الضخم الحارس للحياة. ذهبت إلى هناك صباحًا مع بعض الأصدقاء، وتجولوا في المدينة القديمة المقدسة. تحدثوا عن "الأزتيك"، و"التولتيك"، وأساطير حضارة "المايا"، وربطوها بالعمارة الباقية لمشاهد رأوها البارحة على اللوحات الجدارية لـ"ريفيرا" في القصر الوطني الفخورة بعظمة الحضارة التي ازدهرت هنا. شعر أصدقاء "لينا" الساكنون في "مكسيكو" والذين زاروا الموقع من قبل بالتعب، واقترحوا الرحيل. وأضافوا أنهم لن يبقوا إلا إذا كانت تريد أن تتسلق الأهرامات معهم. لم تكن تريد أي شيء به صيغة الجمع. فقالت لهم:

- تسلق الأهرامات؟ مستحيل! واحد يكفي، ولكنني أريد أن أرى. سأتسلق أعلاهم وأتأمل، ولكن ليس عليكم أن تأتوا معي.

- حسنًا، سننتظرك هنا بالأسفل في الظل. عليكِ ألا تسرعي، تسلقي ببطء لأنه يجب عليكِ أن تحذري في هذا الارتفاع وهذه الشمس الحارقة.

بدأت "لينا" في التسلق ببطء، وأدركت سريعًا أنه كان من الأسهل أن تصعد بشكل مائل. لم يكن هناك مكان لتضع قدمها كاملة لو تسلقت بشكل مستقيم؛ لأن السلالم كانت حادة وضيقة. بدأت ترى المنطقة حول الهضبة

شيئًا فشيئًا، واتسع مجال رؤيتها كلما صعدت أكثر. كانت واعية أكثر بالصخور التي خطت عليها ودقة تناسقها. رأت الحشائش والأعشاب التي نمت بين الشقوق، وزهور الأقحوان الصفراء الصغيرة. لم يتوقع أحد منهم في الأسفل إمكانية وجود مثل هذه الزهور بالأعلى.

لم يداهمها سوى الشعور بهيبة المكان عندما وصلت إلى القمة؛ هيمنت تلك الهيبة على المناظر الطبيعية المحيطة. ما أثار إعجابها أكثر هو التناغم المثالي بين شكل الأهرامات وشكل الجبال المخروطية التي ارتفعت عن الهضبة مثل صدى الصوت الإيقاعي. أدركت في ذهول أن الرياح كانت تأتي بالتربة عبر القرون وصنعت سريرًا على الأرض فوق قمة الجبل وعلى جانب المقعد الصخري الضخم. رأت كومة صغيرة من الأرض تتحرك فجأة ويخرج منها قارض صغير يتلفت حوله في فزع. لم تتمكن من التعرف على نوعه؛ ربما كان سنجابًا أو فأرًا. بدا المشهد وهو يخرج من منتصف زهور الأقحوان الصفراء الصغيرة مثل مشهد في كارتون؛ غير واقعي، ومثالي. خيم على المكان جو من السلام التام، والاندماج مع الطبيعة والأبدية.

علمت أنه ليس عليها الإسراع لتعود؛ فقد قطعت مسافة كبيرة وكانت تلك اللحظة التي تعيشها الآن هادئة للغاية. استحق أن تستمتع به بالكامل. جلست على المقعد الصخري الضخم، والواسع، والطويل الذي توَّج المعلم من أعلى. كانت متعبة من الصعود، ومتقطعة الأنفاس من المجهود في الهواء الطلق والعليل. قررت أن تستلقي وترتاح، وتنتظر حتى تعود ضربات قلبها إلى الإيقاع العادي.

ضربتها أشعة الشمس بقوتها بمجرد أن استلقت. كانت الشمس حامية، وشرسة، وساخنة، ومتلألئة مباشرة في عينيها. واضطرتها إلى غلق عينيها بشكل انعكاسي. رفعت ذراعيها لتظلل عينيها وتسمح لنفسها بالرؤية. رأت شموسًا من مختلف الألوان في ظلام عينيها المغلقة، وتضاعفوا وانزلقوا ببطء. تركت الانطباع وتأثيره يختفي شيئًا فشيئًا وبدأت ترى مجددًا من خلال فتحة ضيقة في جفنيها. سمحت للضوء بأن يتسلل تدريجيًّا حتى تستطيع الرؤية مرة أخرى، ورأت بوضوح للغاية. أشارت عقارب الساعة أمام عينيها مباشرة وفي مدار رؤيتها إلى انتصاف النهار.

أدركت "لينا" في ثانية وفهمت الأمر كله. يحدث الأمر مرة واحدة فقط. ربطت جميع الأحداث الخارجية والموضوعية والبيانات الملموسة التي حصلت عليها ولم تلحظها من قبل. كانت "لينا" امرأة مستلقية على صخرة التضحية لهرم الشمس في انقلاب الصيف وذروة الشمس. قفزت بعد أن شعرت بدمائها وسَمِعتها في وسط خوفها. أحست بنبض دمائها في رقبتها وفي صدغها. أقنعت نفسها أن هذا كله يعود إلى المجهود، والارتفاع. نظرت مرة

أخرى إلى المذبح الصخري حيث كانت مستلقية. سالت الكثير والكثير من الدماء على هذا المذبح: دماء المساجين الذين قُدمت قلوبهم إلى الحرارة والضوء المحددين للحياة والموت. انتابتها القشعريرة وأدارت ظهرها إلى الصخرة، وبدأت النزول في صمت وعجلة وخوف. ادعت الإرهاق ورفضت أن تخرج لباقي اليوم، وانغلقت على نفسها. لم تخبر أحدًا عن تلك المغامرة، ولكن كلما فكرت فيما حدث كانت تضحك على نفسها لخوفها غير المنطقي في منتصف القرن العشرين، لم يسعها سوى احترام المرأة البدائية التي تفجرت فجأة من بين أعماق روحها.

كان كل شيء الآن متحضرًا؛ فالحديقة معتنى بها جيدًا، والعشب الأخضر مقصوص بعناية وينمو بطول الحائط، والبوابة مفتوحة على رمال الشاطئ، والعديد من الظلال. كل ما كان عليها فعله لتبتعد عن الشمس هو أن تتحرك قليلًا إلى جانب واحد؛ فقد كانت الآن تستطيع أن تحجِّم وتحتوي الشمس بالأشجار، والأسطح، ومظلات الشاطئ. يا لها من فكرة رائعة على أية حال! كانت مستلقية هناك وفي إمكانها الآن أن تجلس إلى الطاولة في الشرفة وفي الظل لتقرأ الجريدة. ألزمت نفسها بقراءة الجريدة كل يوم، وإن لم تفعل ذلك تشعر بأنها ينقصها شيء: فقد كانت تشعر بأن للوقت ثقوبًا أو أنها غير ثابتة. كانت تشعر أنها لو لم تقرأ الجريدة ستصبح مهمشة وستتخلف عن ركب الحياة وتُترك وحيدة، وكأنها لا تعلم ما يحدث بالعالم.

نهضت بصعوبة بسبب قدمها، التي لم تستطع بعدُ أن تحمِّل عليها وزنها. ذهبت إلى الشرفة، وأخذت الجريدة وجلست على كرسي من الخوص ذي ذراعين.

قرأت بتركيز، ولاحظت أنهم لم يعودوا يتحدثون عن فضيحة ما مالية كبيرة، والتي تصدرت العناوين من قبل. كان أمرًا غريبًا ألا توجد متابعة لمثل هذا الخبر، أو "فقرة" ما كما يسمونها في حجرة الأخبار. لا تملك الإدارة على الأغلب الرغبة في الكتابة عن هذا الموضوع أكثر. لطالما شعرت "لينا" بالإحباط والحزن عندما تحدث مثل هذه الأشياء. اقترب ذلك الشعور من حد الألم الجسدي كلما لاحظت أن الصحافة تمنع المعلومات عن العامة لأي سبب كان: عنف خارجي، أو عدم التكافؤ المهني، أو عدم الاكتراث، أو أغراض شخصية. كان من الصعب للغاية أن تعيش لأعوام عديدة مع ملاحظات الرقابة التي صدرت عن الشرطة تقريبًا كل يوم لإخماد نار كلماتهم وتدمير السبب الرئيس لاختيار المرء أن يكون صحفيًّا. شعرت "لينا" بغصة في قلبها عندما تذكرت هذه السنوات. كان جرس الهاتف يرن ويرد صوت مجهول ويعرف نفسه بأنه العميل هذا أو ذاك؛ ولا توجد هناك أي احتمالية في معرفة هويته، ويقول: "ممنوع بشكل قاطع - بموجب أوامر عليا - على وسائل الاتصال

الاجتماعي نشر أية أخبار، أو مراجع، أو مقابلة، أو تعليق على الموضوع (س)".

كان الأمر أسوأ بالنسبة للعاملين بالراديو والتليفزيون؛ حيث إن عدد الفقرات الإخبارية وإجراءات الحظر يفوق عدد تلك الخاصة بالجرائد اليومية. أصبحت الساعة عنصرًا آخر للتهديد والابتزاز. كان يمكن دائمًا اتهام صحفي الراديو أو التليفزيون بعصيان أوامر الرقابة، وأنه أذاع خبرًا في وقت ما، بالرغم من أنه في الحقيقة تم منع هذا الخبر في وقتٍ لاحق. يمكن اتهام الصحفي بلا دليل بجريمة ضد قانون الصحافة أو الأمن القومي، ويمكن للأمر أن يتطور ويُعاقب الصحفي بسبب أمر لم يصله من الأساس أو تم توصيله هاتفيًّا عبر الوصلة الخاطئة، أو ربما استلمه فرَّاش المكتب، أو تقني ما، أو ميكانيكي كما كان يحدث دائمًا. من الممكن تنظيم تلقي أوامر الرقابة في الجريدة خاصة، وأنه لا تصدر سوى نسخة واحدة في اليوم. كان يُصرح لشخص أو شخصين فقط باستلام ملاحظات الرقابة، وكان يطالب المحررون الأكثر جرأة بأن تكون تلك الملاحظات كتابية وموقعة من شخص. يمكن التفاوض على هذا الأمر في الحالات الجادة أو الطارئة؛ بحيث لا يكون ضروريًّا أن تصدر الملاحظات من الشرطة، ولكن تكفي مكالمة من جهة مسئولة لمالك الجريدة ويكون لها التأثير نفسه.

من ناحية أخرى، كان واضحًا من هو العدو، ولذلك كان من الممكن الالتفاف حول المحظورات ومحاولة التلميح إلى الخبر بطريقة ما، أو على الأقل بناء علاقة تواطؤ مع القارئ، بحيث يفهم الفكرة التي مُنعت. نشرت بعض الجرائد بدلًا من الأخبار التي تم منعها وصفات أكل، أو فقرات من قصيدة «لوسياد»، أو كاريكاتير، أو رسومات. كانت هذه الطريقة على الأقل تخبر القارئ أن هناك تحكمًا في الأخبار، ومن أجل الحفاظ على الوضوح، وحتى لا يخونوا الكرامة المهنية والثقة بين الجريدة والقارئ. من الممكن دائمًا كملجأ أخير، إن لم يستطع المرء فعل ما سبق، أن نأمل في أن هذا الوضع لن يستمر للأبد، وأنه يومًا ما سينتهي. ظن العديد من الصحفيين أن الرقابة صارت أصعب حين تغير التحكم الخارجي من قبل الشرطة إلى التوصيات الداخلية من قبل المحررين. أراد أغلب هؤلاء المحررين أن يصبحوا أكثر تدينًا من البابا، وأن يضعوا قيودًا أكثر على أي أخبار قد يظنون أنها ضد مصالح المعلنين أو ملاك الجريدة في حماس مبالغ فيه وأحمق. ظلت تجد أشياء حتى الآن بين الجرائد التي أحضرتها لتختار منها المادة التي ستكتب عنها. احتفظت بنسخ من كل الملاحظات التي تسلمتها من مكتب الرقابة حين كانت تعمل في الجريدة، ونسخ من الملاحظات العديدة التي أرسلها «باروس» إلى غرفة الأخبار كل يوم بعد أن يقرأ الجريدة بعناية. كانت تلك الأوراق هي مجموعة من الملاحظِات الانتقادية، والتوبيخات، والملاحظات، والمحظورات التي

رسمت شكلًا واضحًا لتلك الرقابة غير الرسمية. كانت كل تلك القصاصات الورقية ما هي إلا الجزء المرئي من الجبل الجليدي؛ وذلك لأن أغلب أوامر التعديل تصل في المساء السابق قبل أن تصدر الموافقة على موضوع الأخبار في هيئة اندفاع لفظي عاطفي لم يُسجل للتاريخ. من المضحك حتى النظر في هذه الأوراق. كثرت ملاحظات «باروس» عن ملاحظات مكتب الرقابة في الأعوام اللاحقة. أصبحت المحظورات الرسمية غير ضرورية وحل مكانها أفعال مثل هؤلاء الصحفيين. أعادت «لينا» قراءة بعض هذه الملاحظات من ذلك الوقت الذي كان «باروس» لا يزال يعمل في الجريدة. يا له من أمر مضحك أن تشاهده الآن وهو يلعب دور الليبرالي؛ فقد كان حتى مشاركًا في حملة حزب العمال لرئاسة البلاد.

- يكفي كلام عن العفو. ما تفعلينه هو تحرير وليس كتابة أخبار.

- وصف العصيان المدني بأنه مظاهرة لهو أمر مبالغ فيه. فلنكن موضوعيين.

- أيمكننا التوقف عن إعطاء مساحة كبيرة لـ"تيوتونيو فيلا""5"؟ لا جدوى من إعطاء هذا العجوز المجنون منبرًا.

- ليس ضروريًّا أن نغطي اجتماع النقابة. لن نكتب عنه إلا إذا تسبب في شلل المدينة.

"5": "تيوتونيو فيلا": سياسي من ولاية "ألاجواس" الشمالية الشرقية البرازيلية. أصبح عضوًا في حزب الحكومة، ولكن في أواخر السبعينيات. بدأ في الحديث لصالح إعادة الديمقراطية، وتحول في الأخير إلى حزب المعارضة الرسمي، وبعد التحرير ظل في الحزب الذي تفوق على الحزب القديم.

- لماذا تُسمين إضراب سائقي عربات النقل بالإغلاق التعجيزي للمؤسسة؟

- توقفي عن الحديث عن إضراب السجناء عن الأكل بما أنه لا توجد تطورات جديدة، يجب على الموضوع أن يختفي. لو مات أحدهم، فهذا موضوع آخر.

- لماذا نطبع أخبارًا عن الحريق في موقع بناء مركز التسوق؟ لم يمت أحد والمبنى ملك لأحد أكبر المعلنين في الجريدة.

- الجميع يعلم أن هذا الممثل يساري، ولذلك لا يجب على أحد أن يذكره.

- منذ متى تنشر الجريدة آراء أولئك الذين أُلغيت طلباتهم؟

كانت المجموعة ضخمة ومتنوعة بين ملاحظات ومذكرات، ومقالة حديثة كتبها زميل على المكتب السياسي في قمة محاولات إعادة الديمقراطية. ومن الجائز أن يعود هذا إلى السبب البسيط في رغبة الإدارة في حماية الكاتب

من التقلبات المستقبلية التي من الممكن أن تأتي بتهديدات انتقامية. ففي نهاية الحال، كان هناك تفهم عام أن الطريق إلى الديمقراطية يرغمنا على احترام بعض الظروف غير المصرح بها. ولهذا، لم يُحاكم أي شخص قام بالتعذيب، أو التحقيق في أي انقلاب للجناح الأيمن. لم يُسجن أيٌّ من مؤلفي الخطة الإرهابية المجنونة المكتوبة في إحدى زنازين الديكتاتورية. ولم يُحاكم صاحب المحاولة الفاشلة لتفجير المسرح حيث يعرض بعض الفنانين عرض "يوم مايو" في قاعة كبرى وله آلاف المتفرجين، أو الخطة غير العقلانية لتفجير أعمال الغاز في المدينة والإلقاء باللوم على الشيوعيين. ظل المسئولون عن كل تلك الأفعال غير معاقبين حتى الآن، وللأبد.

لهذا السبب فضل محررو الجريدة ألا ينشروا هذه المقالة لزميلها من أجل الابتعاد عن أية مخاطر محتملة في حال عودة التقلبات السياسية. أعادت "لينا" قراءة هذه المقالة من نسخة كانت تمتلكها:

"شيء ما يحاوطنا يعرف بالمجال، والذي يجب الحفاظ عليه".

نُشرت هذه الجملة الاستعلائية في الجريدة منذ أسبوع. لم تخرج هذه الجملة من فم عالم رياضيات أو عالم هندسة قلق من التهديدات المحتملة للمواد الصلبة. ولم ينطقها أيضًا مذيع رياضي صاحب خيال واسع قلق من اختراق افتراضي لملاعب رياضة «الرجبي» من خلال كرة على شكل بيضة. لا شيء من هذا القبيل. استُخدم هذا التعبير في مقابلة مع مسؤول من الشرطة اختير خصيصًا في «برازيليا» ليحقق في اتهامات التعذيب ضد السجناء في «ريو دي جانيرو» في المعتقلات المدارة من قِبَل الشرطة الفيدرالية. كان يقصد بحديثه القاضي التابع للدائرة ٣٣ الذي صادر في اليوم السابق في هذا المكان مجموعة من الأغراض الغريبة التي تُستعمل في المكاتب المسئولة عن حماية القانون. كانت تلك المكاتب المقصودة هي غرف عازلة للصوت.

لم يوجد مجال من بين هذه الأغراض، ولكن وُجِد مهماز. كان هذا المهماز ذو الخطاف المعدني يُستعمل - بحسب قول المحامي الذي رفع القضية وأعطى العنوان المحدد، حيث سيجد القاضي هذه الأشياء - في إعطاء صدمات كهربائية للسجناء، ولرفع الثعابين أمام وجوههم. كان هناك أيضًا بعض القطرات على الأرض والتي فحصها القاضي فيما بعد لأنها كانت تشبه قطرات الدماء. كان هناك أيضًا عجلتان، وجوارب لربط الأيدي والأرجل وعصا حديدية طولها متران ملفوفة في جريدة تشيلية بحسب ما جاء في تقارير الأخبار. سيشكل ما ذُكِر الأجزاء الضرورية للقيام بما عُرِف فيما بعد بوضعية "سمكة الببغاء" في التعذيب بحسب التهمة الموجهة من قِبَل المحامي وشكوك القاضي. إن هذه الوضعية في التعذيب تشمل عصا معلقة فوق أذرع المسجون وتحت ركبتيه مع ربط معصميه وكاحليه، ويتدلى الجسد من

منصتين حديديتين. حاول مسؤول الشرطة الموجود عند وصول القاضي منعه من الدخول. ولكنه وجد، بما أنه دخل على أية حال، كل شيء تم نفي وجوده فيما سبق موجودًا. وهنا يأتي مفهوم المجال؛ لأن أول ما نطق به الشرطي هو التعبير العبقري المذكور في أول المقال، والذي قام بتوضيحه بنفسه. ظن الشرطي أن القاضي لم يكن عليه أن يدخل الغرفة؛ لأنه بهذا يكون متدخلًا في عملية التحقيق، حيث إنه جزء من الولاية القضائية، ولم يملك أي سلطة ليخترق الأماكن الفيدرالية. لم يكن ما يفعله من اختصاصه، أو في مجاله، وإذا لم يعثر على شيء فالخطأ إذن يقع على عاتق القاضي.

تتطور الحقائق، ويرى القاضي نفسه أنه يجب عليه أن يردَّ على هذه التصريحات. ما يصعب فهمه هو أنه كيف بعد يومين من اكتشاف الغرفة وأغراضها، لا يزال الرجل موضع الاتهام يقول إنه لا يعرف غرض هذه الأشياء بكل صراحة، مع أنه يعلم جيدًا مدى أهمية الحفاظ على المحيط العام.

من الجائز أن يساعد التمعن الجيد في الأخبار محقق الشرطة على التحقيق في التهم. فسَّرت الشرطة الأمر بنفسها أن العصا الحديدية مجرد جزء من آلة موسيقية تعرف بـ"الباريمباو".

قال محقق آخر اسمه «أوسفالدو ليما رودريجيز» الصغير في تضامن مع شجاعة زميله القاضي «إدواردو ماير» أنه حاول منذ عام أن يحقق في قضية مشابهة وظروف مماثلة. كان التحقيق موجهًا إلى المبنى المشغول من قِبل الشرطة العسكرية في شارع «باراو دي ميسكيتا»، ويعرف أيضًا بـ«غرفة سيسيليا ميرليس» وهو كما يعرف الجميع أحد أسامي الأماكن القليلة التي يمكن للمرء فيها أن يستمع إلى موسيقى كلاسيكية جيدة. جاء تصريح رسمي من الشرطة العسكرية في ولايات «بارانا» ردًّا على التنديدات بالعنف في هذه المنطقة: «قريبًا سنضع تكييفًا وستُذاع الموسيقى في مباني الشرطة الفيدرالية من أجل راحة أفضل لكل الرواد المحتملين». وبالتالي، كان واضحًا أن كل هذا ما هو إلا برنامج لتعليم الموسيقى للعامة، وأن اللبس بسبب أن العزف القياسي للـ«كابويرا» الذي لا يجوز دون آلة «الباريمباو» والتي يأتي لحنها: «زومزومزومزوم.. زومزومزوم.. تقتلني «الكابويرا» مرة واحدة..».

أيُعقل أن المراسلين المعروفين بطيشهم أساءوا الفهم؟ أيمكن أن تكون الجملة هي: "لدينا ما يعرف بالمجال السابق، والذي يجب علينا الحفاظ عليه".

ألن ترغب البلاد في مثل هذه الحالة بمعرفة معلومات أكثر عن "السابق"؟ ومنذ متى وهو هنا؟

أدركت "لينا" مرة أخرى وهي تقرأ المقالة أن الرقابة ما زالت مفعلة بطريقة ما على الرغم من انتهاء الديكتاتورية. كانت الرقابة لا تزال موجودة في

الجرائد وفي قطاعات أخرى. مثل ذلك الفيلم الذي منعته الحكومة من العرض بسبب ضغط الكنيسة أو المحافظين الآخرين، أو تلك المسرحية التي واجهت مشكلات في السماح لها بالعرض على خشبة المسرح. من الواضح أن الطريق طويل للوصول إلى الحرية على الرغم من التشريع الكامل لأحزاب الجناح اليساري، وعلى الرغم من المساحة الأوسع للتعبير عن الرأي والتنديدات.

ربما كان هذا الوضع لا مفر منه. إن الإيقاع البرازيلي لكتابة التاريخ بطيء ومصحوب بالعديد من المحاولات والتراجعات. ولكنها كانت تفاجأ نفسها بعدم صبرها على هذه التأخيرات والمعوقات. كانت رحلة التحول إلى الديمقراطية تستغرق وقتًا طويلًا ولا يزال أمامها الكثير لتكتمل؛ لدرجة أنها كانت تستغرق وقتًا أطول من وقت الديكتاتورية نفسها. وعلى الرغم من أن "لينا" تفهمت أن وقت التاريخ مختلف، ولكن كانت هذه الأعوام كثيرة بالنسبة لعمرها. إن هذا الوقت مسروق من حياتها ولا علاج له. كان الوقت الماضي يسلبها من المستقبل.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

8

“يا عسل الربيع، يا وحشًا حزينًا، يا منجم البلاد

يا محبوب، يا معبود، سلام عليك، كل السلام عليك!

إنه أمل حلو ومُقيد،

لا أستطيع أن أبوح لك به: انتظر..

لن أتأخر كثيرًا!”

“فينيسيوس دي مورايز”

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

اتكأت “لينا” على المقعد إلى الوراء. نظرت إلى الحديقة، ورأت أمها من مسافة تتفحص عشبة ضارة انتشرت في أحد أحواض الزهور. كان البحر في خلفية المشهد.

على الرغم من كل الصعاب التي تواجهها هي وأمها في إظهار مشاعرهما، وعلى الرغم من انزعاجها من تدخلات أمها، وعلى الرغم من ضبط النفس الذي مارسته كلتاهما، فإن منظر أمها من بعيد لمس جزءًا من روحها. تودُّ أن تتعلم من أمها كيف تكبر دون أن يظهر عمرها الحقيقي. كانت أمها وقورة، ونشيطة، ومُطَّلعة على ما يجري حولها دائمًا، ومتصلة بالعالم، ومُنغمسة في التقاط أعشاب “عنق الثيل” من الحديقة على الرغم من علمها أن الأعشاب الضارة ستعود بقوة وبسرعة. كان ما تفعله أمها من تنقية العشب ما هو إلا تشبيه لما تفعله من أشياء راسخة في الحياة اليومية. كانت أمها امرأة قوية مثل ربة أسرة من أسفار العهد القديم.

راقبت “لينا” أمها من مسافة كما لو أنها تتجسس عليها، وسمحت لعقلها بأن يسرح. ذهبت بخيالها إلى أنها لو استطاعت أن تتعافى، ولو أنها انتهت أخيرًا من كتابة مسرحيتها تلك عن المنفى، وإذا نجح الأمر وكان “لويس سيزاريو” على حق في أنها بالفعل فنانة، ولو استمرت وأصبحت كاتبة مسرحيات.. لو حدث كل هذا؛ فمن الجائز أنها ستكتب شخصية مثل أمها يومًا ما.

انتابتها رعشة بمجرد مرور تلك الخاطرة بتفكيرها، وتراجع جسدها عن مثل هذا الأمر على الفور. حاولت أن تفهم السبب وراء رد فعلها ذاك، فعلى الأغلب لم يكن الأمر ببساطة مجرد “شيء” تسبب في ذلك، ولكنه كان مزيجًا من المشاعر المعقدة. من الواضح أن ما شعرت به هو خزي وأقرب ما يكون إلى النفور تجاه هذه الاحتمالية من كشف عواطفها. ومن ناحية أخرى،

تفهمت أيضًا أنها لديها عذرها؛ لم تستطع أن تظهر سوى الحقيقة، خاصة في مثل هذه اللحظة التي واجهت فيها نفسها بخصوص الكتابة عن أمها. شعرت أنها لن يمكنها ذلك؛ لأن أمها لن تتفهمها، وستشعر بالجرح والإهانة إذا أظهرتها للعامة، حتى ولو كان الأمر في تنكر وبأسلوب لا يتسق مع فكرة أمها عن نفسها. كانت "لينا" تحوم مثل الحشرة مرة أخرى حول اللوح الزجاجي الذي يفصل بين الذكريات، والخيال، والواقع. عادت إلى النقطة التي تجادلت فيها مع "أونريو" كثيرًا، وتأكدت أن تجنب المرء لأي إقرار، أو شهادة، أو اعتراف لا يتضمن غيابه عن المشهد. بالعكس، يتطلب الأمر حضورًا طاغيًّا أكثر من المرء، وأكثر تركيزًا نظرًا للحاجة إلى تحويل خيوط الأفكار المتفاوتة إلى أفكار مترابطة رمزية مثل تلك التي تأتي في الأحلام ولا تشمل تلك التي تأتي في حالة الوعي، والتي كانت هي أساس المشكلة كلها، أو على الأقل التي تأتي في حالة الوعي الجزئي.

تحدثت عن هذا الأمر مع "لويس سيزاريو" العجوز، ولكن فقط فيما يخص الابتكار الفني دون أي شيء مربوط بصورة مباشرة، وليس الابتكار الأدبي. كان الأمر أسهل إذا لم يتعامل المرء مع الكلمات خاصة. كانت عملية ابتكار الكلمات مسألة غير بسيطة على الإطلاق، تكمن في تحقيق انغماس في العالم بكامل وعيك، ثم تحلل الأمر داخليًّا وتخرجه مرة أخرى في هيئة جمال. يتطلب الأمر الكثير من الجهد سواء كنت تتحكم في الصوت، أو الألوان، أو ارتفاع الأصوات، أو الخيوط، أو مفاتيح الآلة، أو حركات الوجه والجسد التي تعتمد على طريقة تعبيرك. ظنت "لينا" أن الأمر يصبح معقدًا أكثر حين يتعلق بالكلمات؛ لأنها تظهر المفاهيم التي يستعملها كل شخص كل يوم، والتي هي جزء من التفاعل الاجتماعي، وتلمس الأحباب مباشرة. يبدأ الجميع في البحث عن نماذج في الحقيقة. تخلق الكلمات لعبة من الإخفاء والإظهار مثل أي لغة، ولكن بما أن الجميع يستخدمونها فهي تصبح في متناول كل شخص. ولهذا هناك مخاطرة في خلط الاستخدام الجمالي للغة والاستخدام العملي.

كانت «لينا» تفكر في مثل هذه المواضيع لمدة. فكلما مالت لفكرة أن تستخدم الكلمات في سياق غير صحفي أكثر، كلما انتابها القلق أكثر بشأن هذه المشكلة. لن تخدم اللغة أغراض التواصل، والإعلام، ونشر الأخبار بعد الآن بطريقة غير شخصية. بدأ الأمر بالتعبير وإظهار العوالم التي تعيش ضغطًا داخليًّا مثل الشخص الراوي لحقيقة ما أو قصة ما. أصبحت «لينا» حساسة جدًّا تجاه الأشياء التي تُقال وتُسمع في الحياة اليومية. كانت تجد معاني في كل شيء كما لو أنها تعاني من مرض مزمن، وترى معاني خفية في الوقت الذي يرى فيه الآخرون مجرد شفافية. اختارت كلماتها بعناية أكثر لهذا السبب. ولاحظت أنها تميل أكثر إلى عدم الحديث، وكانت تترك مسافات شخصية أكبر، أوِ كانت تختار أن تضرب على الوتر الحساس في المواقف

المشحونة عاطفيًّا وتستخدم السخرية أو التهكم أو النكتة على سبيل المثال. بدأت «لينا» قبل أن تمرض في أن تستعمل صنعتها في الكتابة حتى وهي شاردة الذهن، وتفاجأت بذلك. كانت مثل الموسيقي الذي يدندن ألحانه أو يُصفِّر، أو الرسام الذي يرسم بعض الخرابيش وهو يتكلم، أو مثل الخزاف الذي يقطع من العيش الطري أشكالًا على طاولة مطعم. لفت «ألونسو» انتباهها لما تفعله في بعض الأحيان بعد موقف ما كانت فيه ساخرة، أو متهكمة، أو تكاد تصل إلى أن تُلقب بالعدوانية تجاه شخص ما وتبارز بكلماتها ضد شيء غير موجود أو خصم غير مدرك. كانت «لينا» تائهة بين العدوانية والجبن. من الصعب عليها أن تشرح سبب تصرفها؛ فبالنسبة لها لا مبرر لما تفعله مهما ندمت عليه. حدثت هذه الأشياء بسبب وعي خفي بالعدوانية أو الخلاف، أو شيء جرحها، وبناءً عليه كشفت على الفور عن مخزونها الدفاعي. يمكن للأمر أن يكون بسبب أنها مذعورة قليلًا، ولكن كان الأمر عبارة عن حساسية مفرطة، وإدراك حاد للكلمات.

أدركت من ناحية أخرى أن عليها أن تبحث في أعماق أفكارها عن معنى عملها. اكتشفت قانونًا عديم الرحمة: أن الرقابة أيضًا هي واحدة من أدوات الكاتب. كانت لعنة؛ فإما أن تراقب نفسك أو تعزل نفسك. كان هناك فنانون آخرون يستطيعون ممارسة فنهم بحرية أكبر، ولكن لا يستطيع الكاتب فعل ذلك. إن معاني الكلمات مرتبطة على الفور بالمفاهيم، وعلى صلة بالمراجع الخارجية. لو كان الكاتب مع مجموعة من الأصدقاء وقرر أن يلعب بالكلمات؛ ستكون النتيجة الفكاهة والنجاح. أما لو تعامل الكاتب مع الكلمات وهو يتألم أو مجروح ستكون النتيجة السخرية، وهي كارثة اجتماعية إلا إذا راقب نفسه. على الكاتب أن يراقب نفسه ليس فقط في هذه اللحظة، ولكن حتى وهو يدون أفكاره على الورق. لو بدأت "لينا" في رواية عما جرحها و هي طفلة، ستجرح والديها. ولو بدأت في رواية عما جرحها وهي صديقة، ستجرح أشخاصًا آخرين أحبتهم. كان عليها أن تكتب عن الألم في الأساس. ولذلك كان عليها أن تراقب نفسها وتتعلم طرقًا جديدة لتخطي تلك الرقابة، كما فعلت لسنوات عدة مع قيود الشرطة على الجريدة في فترة الديكتاتورية. هل كان من الممكن فعل ذلك؟ أم هل عليها أن تؤذي نفسها وتكمم فمها حتى لا تؤذي من تحب؟ ويجوز أن سبب مخاوفها تلك هو أنها جزء من مرضها الذي حرمها من الكلمات بطريقة مؤلمة. ومن الجائز أنها كانت تخترع هذا السبب لعدم الكتابة في عقلها الباطن حتى لا تشعر بالذنب أو إلى أن تتعلم كيف تغزل النص مثل الحلم، وأن تضع شيئًا مكان شيء آخر، أو شخصية تلم بمجموع الشخصيات الأخرى، وشخصية أخرى تكشف عن عدة شخصيات. يمكن بعد كل ذلك للرواية أن ترى النور على الرغم من الرقابة، وتتجاوز طغيان المشاعر. يجب على العمل - على عكس الحلم - أن يحتوي تناسقًا داخليًّا

طبيعيًّا يأتي من القواعد الموضوعة وحدها، والتي تشكل تناغمًا، وانسجامًا، وتشكل باختصار جمالًا لا يترك جانبًا لا يلمسه. ستفتح كتابتها الباب للآخرين، وستكون بمثابة الدعوة لمشاركة التجربة وتقديمها في صورة مشاركة أخوية إلى زملائها.

كان الأمر معقدًا للغاية؛ فمن الأفضل زراعة حديقة المرء.

ابتسمت "لينا" عندما تذكرت كتابة "فولتير" هذه الجملة، أو شيئًا من هذا القبيل. فهمت الجملة بوضوح الآن، والتي كانت تفهمها في السابق على أنها تعبير مبتذل. لا يوجد حل: كانت الكلمات دائمًا ما تحمل في طياتها معاني حتى ولو لم تُقال، وتواجدت فقط بين الأفكار، ولم تتكون أو تُصاغ بعد.

علمت "لينا" أنها لن تستطيع أن تزرع حديقتها الآن على أية حال؛ فكان أكثر ما يمكنها أن تقوم به هو أن تمشي حول حديقة أمها. وهذا ما كانت ستفعله بالتحديد الآن، حتى ولو كانت تعرج قليلًا. سألت لأمها:

- أتلتقطين الأعشاب الضارة يا أمي؟

أجابتها:

- نعم، فمهما اهتم من يرعى النباتات، لا بد أن تنمو مرة أخرى.

فقالت لها "لينا":

- لكن الحديقة رائعة، ومُعتنى بها للغاية.

تنهدت "أماليا" وقالت:

- نعم إنها رائعة، ولكن المشكله تكمن في النمل. انظري إلى الياسمين وكيف ازدهر برعمه، كم هو جميل! يبدو أن الأمطار أعطته ما كان يحتاج إليه أخيرًا لينمو، وهنا في كل نقطة صغيرة على الساق القليل من الأخضر وعلى وشك أن يزهر. انظري فقط. تحزنني فكرة أن النمل يمكنه أن يدمره في لحظة.

- حسنًا، أمي، لا جدوى من القلق تجاه شيء لم يحدث بعد، ويمكن ألا يحدث على الإطلاق.

ابتسمت "أماليا" في حزن وقالت:

- أعتقد أن هجوم النمل حدث هذه السنة ست مرات مع شجيرات الياسمين تلك فقط.

سألتها "لينا" والفضول يملؤها:

- ألا يمكنك فعل أي شيء تجاه هذا الأمر؟

قالت لها «أماليا»:

- لا أظن أن بإمكان أحد فعل أي شيء. يعالج المرء المشكلة باستخدام مبيدات النمل، يخرج ليلًا حاملًا كشاف نور، ويبحث عن آثارهم، وحين يجد تلة النمل يضع بها قنبلة ترابية تضمن أن تقضي على كل أنفاق النمل تحت الأرض. إنه عمل شاق، ويظن المرء بعدها أنه احتوى الأمر. يأتي صباح ما جميل ويتفاجأ المرء بعد قليل بشجرة قد تعرت تمامًا من أوراقها، ويعود الفضل لعودة النمل. أشتعل من الغضب. سمعت الناس يقولون وأنا طفلة أنه إذا لم تتخلص البرازيل من النمل، سيتخلص النمل من البرازيل. أكاد أؤمن أن النمل سيفوز بهذه المعركة.

فكرت «لينا» في المزيد من الأدب الذي يمكن أن تستشهد به من فيلم «ماكونعيمة»: «العديد من النمل الناري والقليل من الصحة هما علة البرازيل»، ولكنها لم تفعل. بل سألت أمها:

- أيمكن أن تكون مبيدات النمل ضعيفة للغاية؟

ردت أمها وقالت:

- لا، على الإطلاق يا طفلتي. إنها قوية جدًّا لدرجة أن المرء لا يجدها بعد الآن؛ لأن الحكومة منعت بيعها. يبدو أنها أذت الحيوانات المنزلية أيضًا، وهناك العديد من الأشخاص حولنا ينتحرون باستخدام سم النمل. أعتقد أنهم قرروا تقنين المادة قليلًا.

- نعم، يبدو أن هذه المبيدات الحشرية سامة للغاية، ولها العديد من الآثار الجانبية الخطرة؛ فهي تهاجم الحيوانات، والنباتات، وحتى الأشخاص، والبيئة.

ظهر على نبرة صوت “أماليا” عدم الصبر وهي تجاوب وتقول:

- كل هذا الكلام يبدو جميلًا على الورق، في الجرائد، وفي المدينة، أقرأ هذا الكلام دائمًا، وأفكر هل قام هؤلاء الرجال بزراعة أي شيء أو اعتنوا بالأرض؟ أحب أن أرى ما إذا كانوا على استعداد أن يقفوا مكتوفي الأيدي ويدعون النمل يأكل كل شيء، واليرقات تأكل الخضراوات، والرخويات تدمر زرعهم. لا يستطيع المرء أن يتعامل دون مبيدات حشرية في كل لحظة تظهر فيها حشرة جديدة: الخنافس، أو قمل النبات، وغيرها. يجوز أن ما تقولينه جميل، ولكنه لا ينفع.

وضحت “لينا” أنه يمكن أن يكون هناك مصادر أخرى أقل ضررًا. قالت إنه كان هناك فرق في الجامعات ومراكز البحث تطور من طرق طبيعية للقضاء على هذه الأوبئة.

وافقت “أماليا” ابنتها الرأي، وقالت:

- لا أريد أن أستعمل السم حيث أعيش؛ فكل ما أريده للنباتات هو أن تجد فرصة لتكبر. متى سيبيعون تلك المبيدات الحشرية الطبيعية في المتاجر؟

فأجابت “لينا”:

- حسنًا، سيستغرق الأمر وقتًا، فأنتِ تحتاجين إلى الأبحاث، والتعليم، والزراعة.

كم كان الأمر مرهقًا بحق الرب. كانت هناك تلك الحاجة للحديث مجددًا. يا له من هراء أن تعيش في مكان حيث أصغر المشكلات بسبب وضع عام من نقص التنمية، والفساد، والحصانة، والحكومة السيئة، والاستغلال. نعيش في مكان حيث تؤدي أي أفكار صادقة إلى إحساس بالعجز والإحباط، وإلى سؤال المرء نفسه عمَّا بإمكانه فعله في الوقت الذي لا يفعل أحدهم شيئًا، أو ما إذا كان عدد من يفعلون شيئًا قليلًا ولا يفكر أحد سوى في نفسه. كان الوضع مثل ذلك الوقت في فترة مقاومة الديكتاتورية، وكأن المرء محكوم عليه أن يظل متأرجحًا دائمًا بين البطولة وفقدان الأمل، وبين الغرور والهذيان.

كانت أمها لا تزال تتحدث، وحاولت “لينا” أن تنتبه لما كانت تقوله:

- كان يوجد كل نوع من العصافير، وربما كان ذلك هو ما حدث. لكنهم دمروا كل شيء، وحرقوه، وقطعوا الأخشاب، وقتلوا. بالطبع لا يوجد سوى يرقات الدود في كل مكان، ولا يوجد هنا ما يأكلها. أفكر في بعض الأحيان كما تعرفين أنه كان هناك دائمًا هذا العدد الهائل من النمل في البرازيل حتى قبل التاريخ منذ الديناصورات. هذه كانت حتمًا أرضهم، ولهذا وضع الرب آكلي النمل هنا ليأكلوا النمل، وإلا كيف تفسرين أن هذا هو المكان الوحيد في العالم الذي يوجد فيه آكلو نمل؟ هل سمعتِ وأنتِ قارئة جيدة بهذا في أي مكان آخر؟

ابتسمت “لينا”، وقالت:

- لم أسمع به من قبل يا أمي، ولكنني أقسم أنها فكرة جيدة ومنطقية جدًّا. لا بد أن الأمر بدأ هكذا، ولهذا يوجد آكلو نمل؛ لأنه يوجد الكثير من النمل. اعتاد «لويس سيزاريو» أن يقول إن البرازيل هي البلد الوحيد في العالم المسمى على اسم شجرة، وهي البلد الذي يقطع أكبر عدد من الأشجار.

سألتها أمها:

- على اسم شجرة؟

فردت “لينا”:

- نعم، خشب البرازيل هل نسيتي؟

ضحكت “أماليا” باستمتاع، وقالت:

- ذكرتني بـ”لويس سيزاريو”، ولكنني لست أنا من سيجاوبه. إن أباكي من سيفعل هذا؛ لأنه يقول دومًا إن البرازيل لديها نار مثل المجمرة كالبلد الحارق. إن البرازيل تشعل النيران في الأشياء دائمًا، ولا أرى أن هناك أي شيء ينجح دون إحراقه.

قالت “لينا”:

- ربما، هذا هو حالنا. يحلم المرء ويتخيل أن هذه البلاد هي بلاد الأشجار الجميلة، ولكن في النهاية هي بلاد الأشجار التي تُقتلع لصبغ الأقمشة. هذه فكرة مضحكة: البرازيل بلد النيران.

- هذه ليست فكرتي ولكن فكرة “ألبرتو”؛ فقد كان يتحدث عنها من حين إلى آخر. وأشار إلى أن الهنود مارسوا فكرة التحطيم والحرق قبل أن يحضر البرتغاليون. وجُهزت الأرض عن طريق الحرق، وحتى الآن تظل طريقة البرازيلين في تنظيف الحقول هي الحرق، وليس الجرار كما هو الحال في أماكن أخرى.

فكرت “لينا” فيما تحدثا عنه وهما تتمشيان نحو المنزل. استمرت مع نفسها في التفكير في المجمرة البرازيلية. كان صحيحًا أنها دائمًا ما وفرت لهم الدفء، وكم كان الأمر مريحًا وجيدًا! ما هو الشيء الحنون والمحب الذي يربطنا كلنا بهذه الأرض بهذا الشكل؟ ما هو هذا الشيء الذي يجعلك تشعر بغصة في قلبك حين تكون بعيدًا وتشتاق لها كما لو أن هناك فراغًا كبيرًا في روحك.

عادت بذاكرتها إلى أحاديثها مع “ماريا” و”أنطونيو” في إيطاليا، والحنين الذي شعرت به وهي في المنفى، والانتزاع من الجذور الذي رأته، وقرأت عنه، وسمعت عنه في الروايات التي جمعتها في هذه الرحلة والتي تعرفت عليها من وقتها وهي بعيدة. بعدك عن البلد ليس فقط عبارة عن نزعك من الجذور وشعورك بالضيق، إن الأمر مثل حمل نيران مشتعلة في صدرك؛ مثل الجمرة المغطاة التي تصر على الاحتراق وأنت تزيد من احتراقها بنفخك فيها في لحظات الهدوء وعند حلول الليل وحين يكون الناس على وشك الخلود إلى النوم، لتبقيها حية ومحترقة بداخلك؛ لأنك ستموت دونها.

لم تستطع بعض ملاحظاتها من الروايات التي جمعتها أن تخفي كل هذا مهما حاولت. كل ما كان عليها فعله هو أن تفتح مدونتها وتقرأ أي نص عشوائيًّا:

- تحدثت إلى "خوان" من أوروجواي، وهو رجل عسكري عجوز أوشك على عامه الستين، ويعيش الآن في السويد ويسكن بفندقنا. دُعي إلى المشاركة في مناظرة هنا في روما وأمسك بالفرصة بكلتا يديه حتى يقضي بعض الأيام القليلة في بلد لاتيني، ويستمتع بأي تشابه قد يوجد بين إيطاليا وأوروجواي. أمضى حوالي عشرة أعوام في المنفى. كان يتذمر دون توقف عن السويد، وكان مستاءً وعدوانيًّا جدًّا. شكا من رأسماليتها المفرطة والتي لم تستوعب فكرة العمل التطوعي من أجل المصلحة العامة. كانت السويد تدفع المال مقابل كل شيء: المعلومات، والمساعدة في الترجمة، وساعات العمل الإضافية، ومقابلة بالراديو، وأي محاضرة لأستاذ. جادلت معه أن هذا لا يدل على شيء إلا العدل والاحترام، ففي نهاية الأمر هذا ما كنا نحارب من أجله. ولكن من الواضح أن استياءه العميق كان ضد المجتمع الذي آواه، وضد الضغط المعنوي عليه ليشعر بالعرفان، وضد الإدراك أن اليوتوبيا التي حلم بها موجودة من الأساس، ولكن حُرم شعبه من العيش في جنتها. روى قصة صديقته، امرأة من "تشيلي"، وزميلة في المنفى في ستوكهولم. وجدت تلك المرأة بعد إنجابها طفلها أنها تملك الكثير من اللبن الطبيعي الفائض، وقررت أن تتبرع به إلى بنك لبن. استلمت بعد عدة أيام شيكًا في البريد من الحكومة مقابل اللبن الذي تبرعت به. عانت المرأة من أزمة، وشعرت أنه بدلًا من أن تكون أمًّا تشارك الحياة مع غيرها، فقد تحولت إلى بقرة تبيع لبنها. كان "خوان" متحمسًا جدًّا وهو يروي هذه القصة، ومحترقًا ومرتعشًا. كان هناك مجموعة من السويديين على طاولة الإفطار، واستمعوا جميعًا في صمت وباحترام كبير، مما جعله أكثر غضبًا واستياءً. زعم أن هذا هو برودهم متنكرًا في صورة أدب، وأنهم في غاية الجمود، ودون مشاعر، وأنهم حتى لم يتعاركوا حين سمعوا أحدهم ينتقد بلادهم. كان من المحرج رؤيته وكأن بداخله محركًا بخاريًّا يجعله يصفِّر هكذا. ازداد الأمر سوءًا. ذكرته أن أوروجواي كانت في مرحلة إعادة الديمقراطية وأن وقته سيحين للعودة إلى بلاده مثل البرازيلين والأرجنتينيين. قلت له إن الوقت حان للتحضير إلى العودة، وأن الأمر لن يستغرق الكثير من الوقت، وبهذا فجرت صمامه العاطفي للأبد. هدأ وهو يحاول أن يجادل ويرد على ما قلته، وامتلأت عيناه بالدموع وبكى، وقال إنه لا يقدر على التخطيط للعودة، ولا يقدر على تخيل نفسه بعد الآن مقيمًا في أوروجواي. عمل لسنوات عدة في أوروبا، ولديه كل حقوق المواطنين، وتأمين اجتماعي، ومعاش، وسن كبيرة مؤمَّنة. يعلم أنه لن يستجمع الشجاعة للعودة، وأنه سيبقى يزمجر ويهاجم. كان الرجل الذي انتزعت جذوره غير قادر أن يكون سويديًّا، ولا يستطيع أن يصبح من أوروجواي بشكل كامل مرة أخرى.

كانت هناك ملاحظة أخرى من شخص آخر من أوروجواي:

- أعطيت رقمي الخاص بمدينة ريو إلى «هيلينا» من أوروجواي، والتي كانت عائدة أو تستعد للعودة. كانت قلقة بشأن تأقلم أولادها، وكيف سيتحدثون لغة مختلفة عن لغة الأطفال الآخرين وهم معتادون على جميع مصادر المجتمع المتطور. تخاف من أنهم سينفرون من الروائح القوية، والتراب، والضوضاء، ونقص الدقة، وعدم النظام، وكل ما يميز أمريكا اللاتينية الخاصة بنا، وأنهم لن يشعروا بالسعادة. لم تكن سوى أمٍّ لا تريد أن تعرض أبناءها للألم والمعاناة. ولكنها أيضًا تثق في الحب وقوة السعادة. كان الأمر مؤثرًا حين تتحدث عن الموسيقى في شوارع بلادها، والألعاب التي سيلعبها أولادها مع أبناء العمومة وأبناء أصدقائها. ثم سألت عما إذا كان سيقبلها أولئك من بقوا ولم يرحلوا، وهل من الوارد أن تجدهم عدائيين، وما إذا كانت المنافسة في مكان العمل قوية للغاية. يمكنك أن ترى أنها خائفة من أن تُجرح من الاستياء المحتمل تجاهها من قِبل الذين بقوا وعانوا في فترة الديكتاتورية ولم يرحلوا. حاولت أن أشجعها فحكت لي عن كاتب مسرحيات برازيلي عمل لسنوات في المنفى وحظي باحترام كبير ونجاح وتقدير عالمي، ولكنه بمجرد عودته إلى موطنه الأم دُمرت أعماله في عمل عدائي وانتقامي لا مبرر له، وشخصي بذيء تمامًا. إن «هيلينا» فنانة، وحساسة للغاية، وخائفة من أنها لن تقدر أن تتحمل مجزرة مماثلة، وتسأل نفسها دائمًا لماذا تصر على العودة إذا كانت تظن أنها لن تفيد أولادها في شيء، وتخاف ألا يهتم أحد بأعمالها، وأن يرونها دخيلة ومصدر تهديد؟ حكت عن قصة أخرى عن كاتب من أوروجواي حقق نجاحًا بالخارج لتنديده بالديكتاتورية والقمع والاستغلال التاريخي الملطخ بالدماء الذي هو سبب كل البؤس على وجه القارة. كلما نجح أكثر - بحسب ما قالته «هيلينا» - تُرجمت كتبه أكثر، وازداد استياء الكُتَّاب تجاهه واتهموه بأنه رشَّح نفسه متحدثًا دوليًّا باسم الثقافة الأوروجويَّة وبأنه يدَّعي النجومية ويحتكر الأضواء، ويخصي زملاءه الذين يريدون أن يعرفهم الناس. تفاجأت في البداية بكل هذه الإشارات إلى العداءات المغمورة بين مفكري المعارضة وتقسيمهم إلى فصائل: أولئك من بقوا ضد أولئك مَن رحلوا ضد أولئك الذين اعتُقلوا. أقول لها إنني ليس لدي خبرة بخصوص هذه الظاهرة. ثم سكتُّ وتذكرت أن ما روته حدث في البرازيل أيضًا، ولكن بطريقة أكثر انتشارًا مثل ضرب رَجلِ كنيسةٍ هنا، وسياسي هناك، أو صانع أفلام سينما، أو أي شخص قادر على توصيل صوته بالخارج. جاءت الرقابة، والتسلط، وتعصب الديكتاتورية بالمزيد من الألم، وتم إدراجها من قبل المسلحين نفسهم الذين حاربوا ضدها واتخذوا هذا التصرف نموذجًا يُحتذى به تجاه زملائهم، سواء الذين نُفوا أم لا. لاحظت في نهاية الأمر أنني لا أستطيع أن أهدئ من «هيلينا» كثيرًا. انتهى بي الأمر وأنا أعطيها رقمي بما أنها طلبته لتتصل بي وتطلب الدعم حين تمر بمدينة ريو وهي في طريقها إلى «مونتفيدو».

لم تتصل "هيلينا" بها. لم تعلم "لينا" ما إذا كانت المرأة قد قررت ألا تعود، ولهذا لم تحتج إلى دعمها، أم أنها لم تمر بريو وهي في طريقها. أكملت "لينا" القراءة:

- إن "جيلدا" من تشيلي. ينتمي شعب تشيلي إلى موجة مختلفة. فقد وصلوا بعد كل الآخرين؛ كانوا آخر من ذهب إلى المنفى وتحطمت آمالهم العالية. رأوا حلمهم يقترب من أن يتحقق واستطاعوا حتى أن يعيشوا لفترة قصيرة في المدينة الفاضلة "يوتوبيا". عانوا من كل المشكلات بالطبع، ولكن آمنوا في النهاية أنه من الممكن في أمريكا اللاتينية انتخاب حكومة شعبية لتصل إلى السلطة، وأنه من الممكن بناء مجتمع عادل وديمقراطي في آن واحد. يرجع الفضل إليهم في إيماننا نحن أيضًا بقضيتنا. ولكنهم عانوا أكثر حين تحطمت أحلامهم؛ لأنهم اقتربوا أكثر. كانت "جيلدا" معلمة في وطنها، والآن تملك مكتبة لبيع الكتب أسسها إسباني منفي. ترك العمل لأولادهم حين مات. عاد أولاد الرجل إلى إسبانيا بعد انتهاء نظام "فرانكو" وتركوا المحل في يد منفية أخرى من أوروجواي هذه المرة والتي كانت تاجرة في "مونتفيدو" ولم تكترث كثيرًا بشأن الكتب، ولكنها حافظت على هذه التجارة بقدر ما تستطيع. كانت تعتني بها حتى حان موعد انتهاء منفاها وعودتها إلى أوروجواي. سلمت العمل إلى "جيلدا"، والتي لم تستطع أن تغفل عن تاريخ المنفى الذي يميز محلها ونشاطها. تدير ملء غرفة من الكتب الإيبيرية ومن أمريكا اللاتينية والدراسات في شارع جانبي صغير في حي الجامعة بباريس. كانت المكتبة متخصصة جدًّا ولا تخدم سوى السكان الأصليين أو الدارسين لمثل هذه الثقافات، وكانت تمر بأزمة مالية ولا تعمل كما ينبغي. كانت المكتبة مركزًا مهمًّا ومشغولًا جدًّا للمقاومة الثقافية، فاستضاف في بادئ الأمر المنفيين من نظام "فرانكو" و"سالازار"، ثم تحول إلى بيت للأشخاص من جنوب أمريكا عامة. زار المكتبة أشخاص من بيرو، وبوليفيا، والأرجنتين، والبرازيل، وأوروجواي، وكولومبيا، وباراجواي، وتشيلي ليلقوا نظرة جميعًا على آخر ما أصدرته الثقافة في كشك الصحف، ويتصفحون المجلات، ويبحثون عن الكتب، ويتركون المنشورات، أو يذهبون فقط ليجدوا من يشاركهم أفكارهم. بدؤوا في العودة إلى بلادهم شيئًا فشيئًا، ولم يتبقَّ سوى التشيليين، وبعض الكولومبيين والباراجويين. تقول "جيلدا": إن هذه علامة جيدة على أن المنفى يمكن أن ينتهي، وأن الجميع سيعودون يومًا ما. من ناحية أخرى، شعرت "جيلدا" بالحزن لأنها تلاحظ غياب الناس بصفة مستمرة؛ فكلهم عائدون إلا هي وحدها الباقية. إن هذا الانخفاض في نسبة عامة القراء يضر بتجارتها. توجد "جيلدا" أينما وجدت تجمعات للمنفيين، وتصر على أن يشتروا كتبًا وأن يدعموا الجهود المبذولة لإبقاء الكلمة المكتوبة حية في لغاتهم. كانت تشجعهم على أن يبقوا جزيرتهم الصغيرة حية في محيط الثقافة الأوروبية. تثير إعجابهم وتطلب منهم أن

يشتروا الكتب، والجرائد، والمجلات، وأن يبدوا اهتمامًا ويقرؤوا أكثر، وإلا ستضطر إلى أن تغلق المكتبة. لن تقدر على استمرارها ماديًّا. ولكن "جيلدا" ترى أنه سيكون من الصعب أن تصمد، ليس فقط بسبب أن مواطني أمريكا اللاتينية لم يكتسبوا عادة القراءة عامة، ولكن بسبب - كما تشرح - أنها لاحظت أنهم يرونها على أنها شخص يستفيد من معاناتهم. اعتقدت أنهم يرونها شخصًا يحاول أن يجني المال من كارثة قومية، ويستغل الحنين والتعطش إلى المعرفة بأبناء وطنها من أجل بيع الكتب فقط. هذا أكثر شيء جرحها من بين كل الأشياء، وكانت على وشك البكاء حين كانت تتحدث إليَّ. تحدثت كثيرًا عن كيف أننا نتعامل مع المال بصورة سيئة، وأننا الورثة المباشرين للاستعمارية الإيبرية ونظامها الأبوي الداعم للعبودية، حيث تتصل الثقافة بشرف البلاد الرسمي والرؤى. نظن دائمًا أن التدريس رسالة ما، وأن النشر عمل خيري، وأنه لشرف أن تدعو أحدهم لإعطاء نص أو لإعطاء كلمة، وأن أي تفكير لدفع المال نظير العمل الفكري يُعد إهانة للشخص القائم به. تصر "جيلدا" بعنف أن هذه الطريقة في التفكير تدعم القوى الاستعمارية؛ أولئك من يقمعون التفكير المستقل. تحدثت عن النفوذ وعن الاستعمارية، والكليشيهات، والانفجارات العاطفية القادمة من أعماق روحها. نظرت بعينيها إلى الأسفل في النهاية، وانهمرت دموعها. اعترفت بأنها اعتادت على حياة المكتبة تلك، وأنها لو اضطرت أن تغلقها ستشعر أنها تعيش في منفى آخر؛ فبعد أن نُفيت من تشيلي ستُنفى هذه المرة من تشيلي الصغيرة التي بنتها شيئًا فشيئًا على ضفاف نهر "السين"، حيث عاش أحباؤها من "أروكانيا" على الورق، وحيث اجتمعت كل اللهجات الإسبانية الأمريكية.

عرفت "لينا" عن طريق صديق ذهب إلى "باريس" بعد عدة أشهر أن المكتبة قد أُغلِقت، وفُتِح متجر محلها يبيع معاطف المطر والسترات الصوفية المصنوعة من صوف الألبكة والفيكونيا والقبعات وحِرَف أمريكا الجنوبية والمفروشات. تمنت "لينا" النجاح لـ"هيلدا" من بعيد ودون أن تعرف أخبارها، كما تمنت ألا تكون قد خاضت تجربة المنفى مرة أخرى، وأن تجد طريقة لتحويل هذا الاقتلاع من جذورها إلى نشاط آخر تستطيع من خلاله أن تتواصل مع وطنها الأم ويساعدها أن تمضي وقتها في الانتظار حتى ولو يعتمد هذا النشاط على الكلمة المكتوبة أو ثقافة الكتب.

- تأتي "ألدا" من بوليفيا، وتشبه السكان الأصليين لكنها رفيعة للغاية وتقريبًا هزيلة بسبب أجيال من سوء التغذية. لا توجد طريقة لتحديد عمرها، فهي تبدو أبدية وغير متأثرة بالزمن. غلبتها عواطفها وهي تتحدث إليَّ لدرجة أن وجهها احمرَّ وانتابتها رعشة خارجة عن السيطرة. لا أفهم هذا الخجل، فقد تصرفت بطريقة مذهلة سابقًا. كادت أن تحدث ثورة في الصباح حول الطاولة الدائرية بسبب وقوفها فجأة بين الجمهور العام وصعودها خشبة المسرح وطلبها

بمقاطعة الفعاليات بطريقة غير مخططة. بدأت في إلقاء خطبة عصماء تقول فيها إنها لا يمكنها مشاهدة الأفلام، وبرامج التليفزيون الوثائقية، وتقارير الأخبار، والخطب، والكتب، بعد الآن، أو أيًّا مما ينتجه الأمريكان اللاتينيون التي تظهر أن أمريكا اللاتينية ليست سوى حرب، وجوع، وشقاء. ترجت المنفيين ألا ينسوا بهجة الحياة التي عرفوها قبل أن يرحلوا. وأصرت على أن أعمالهم يجب ألا تطلب التضامن، ولكن أن تطلب الإعجاب والسعادة الجمالية حتى ولو لم يفهمها المشاهد أو القارئ. لا يهم ذلك؛ فنحن نمتلك منطقًا مختلفًا، ولكن إذا كنا قد تعلمنا الأشياء الأوروبية، إذن فيمكنهم أيضًا أن يُسحَروا بأشيائنا ويغتنوا بها عن طريق القراءة، والاستماع. ربما لم تشرح رأيها باستخدام مثل هذه المصطلحات؛ فقد كانت لغتها أكثر مباشرة وحقيقية، ولكن كانت القوة التي تكلمت بها والعنف الذي دافعت به عن فكرتها لا يقاوم. كانت تتحدث بطلاقة وبطريقة مؤثرة وواثقة من نفسها. حاولت الوصول إليها في نهاية الجلسة لنتحدث ووجدتها خجولة بشكل آلمني. قالت إن تلك كانت المرة الوحيدة في حياتها التي تحدثت فيها للعامة، ولكنها لم تستطع أن تكتم مشاعرها بداخلها. تشعر بالخزي من نفسها الآن ولكنها أخبرتني ببعض الأشياء في نهاية الأمر. كانت مُعلمة للمرحلة الابتدائية في بلدها ولكنها تعمل عاملة نظافة في المنفى. وعلى الرغم من ذلك، فهي تحافظ على صلتها القوية مع الأطفال في هذا الشتات. قالت أشياء شيقة قليلة؛ فعلى سبيل المثال، لاحظت أنه عندما يرسم صغار الأمريكان اللاتينيين منظرًا طبيعيًّا أو بيتًا، دائمًا ما يضعون شمسًا ملونة وضاحكة، فهم لا يرون العالم دون شمس حتى ولو ولدوا في المنفى. من الجائز أن تشمل رسمة طفل أوروبي الشمس وقد لا تشمل. تضمن "ألدا" أن كل رسومات أطفالنا بها شمس.

كان هناك شخص آخر تحدث عن الأطفال في ملاحظاتها، ولكن في دفتر آخر، ذلك الدفتر الذي يحتوي على روايات عن البرازيلين، وبحثت عنه «لينا» ووجدته. علمت من قال ذلك. لن تنسى أبدًا المشاعر العميقة المرتبطة بمقابلتها مع «سيسيليا»، والتي تمت بعد إحالات من أصدقاء مشتركين، ورسائل متبادلة، وأشياء عديدة للغاية.

تمكنت من مقابلة "سيسيليا" أخيرًا، ولكننا صرنا أصدقاء بالفعل. إنه شيء قديم وحنون. تحدثنا كثيرًا وحاولت أن أجعلها تعطيني تفاصيل عن عملها في الـ"كوروميم"([2])، وكيف بدأ وما هو. لم تنجب أطفالًا على أية حال، ولم تفكر من قبل في العمل معهم.

تفجر داخلها فجأة في المنفى هذا الشيء الجميل. أوضحت أنها بدأت العمل في لحظة عفوية. كانت قد وصلت لتوها إلى باريس بعد طريق خيبة الأمل

الموصل إلى سانتياجو وستكولوهم. ذهبت إلى بيت صديق برازيلي أيضًا، وكان لديه أطفال صغار. سأل أحدهم الأطفال عما يريدون أن يصيروا حين يكبروا، فردَّ أحد الصغار سريعًا وقال: "أريد أن أكون فرنسيًّا". وشرح السبب على الفور: "ينام الفرنسيون على الأسِرَّة، ويجلسون على المقاعد، ويضعوا ملابسهم في خزانة الملابس، ويسافرون بأطفالهم في الإجازات، ويمتلك بعضهم السيارات.. يعقد الآباء الحفلات ويعرفون الأغاني التي يغنيها الأطفال في المدرسة". إن وجهة نظر الطفل جعلتهم كلهم يفكرون. رأوا أنه من الحقيقة فعلًا أن البرازيليين الذين يعرفونهم ينامون على مراتب على الأرض، ويجلسون على الوسائد، ويستعملون حقائب السفر والصناديق كل يوم، ولم يملكوا أي وسيلة للسفر في إجازة أو شراء سيارة. أما بالنسبة للحفلات، فلم يحتفل أيٌّ منهم بالصوم الكبير، أو بـ"يوم الباستيل"، ولم يكن عيد الفصح الخاص بهم شيئًا مثل عيد الفصح الخاص بأصدقائهم. لم تتحمل "سيسيليا" ذلك، وقررت أن تنظم حفلًا في الريف للأطفال، على الرغم من أنهم كانوا في شهر أغسطس بالفعل. انتهى بها الأمر بدعوة مجموعة كبيرة من الآباء والأمهات.

طوروا من حلوى الفول السوداني وحلوى جوز الهند حتى، والذرة المغلية، وأي طعام يمكنهم التفكير به ويكون مناسبًا لما هو تقليدي بالنسبة لعيد عشية القديس "جون". تدربوا على رقصة رباعية مصحوبة بعزف الجيتار وآلة نفخ. زينوا الغرفة بالورق الملون والأعلام المثلثة، ولعبوا ألعاب قراءة الطالع. كانت حلقة النار والصواريخ هي الأشياء الوحيدة التي لم يحظوا بها، ولكنها قررت أن تكون تلك الأشياء موجودة العام القادم. "ولكنني أدركت يا "لينا" أن هذه هي المرة الأولى التي أخطط فيها لشيء للعام القادم في المنفى، بعيدًا عن البرازيل. بكيت طوال الليل بسبب هذا، ولكنني اكتشفت أنني تعلمت شيئًا من الأطفال؛ أو أشياء كثيرة. فعلى سبيل المثال، يمكن للعام القادم أن يكون مبهجًا، وقررت أن أنظم نادي "الكوروميم" لجميع الأطفال ليتقابلوا كل سبت ويلعبوا معًا بسعادة ويحتفلوا بهويتهم البرازيلية". حكوا القصص، وغنوا، ورقصوا، ولبسوا الملابس التنكرية، وقرأوا الكتب، وأقاموا الحفلات، وجمعوا بطاقات المعايدة البرازيلية، ولعبوا لعبة "الحلقة حول روزي"، وطبخ بعضنا طعامًا برازيليًّا". لن أنسى أبدًا عيني "سيليا" وهي تخبرني عن كل هذه الأشياء وتقول: "ظننت أنه مفيد للأطفال، وظننت أيضًا أنه مفيد للآباء والأمهات. أما بالنسبة لي، فكان الأمر رائعًا".

كان من الرائع مشاهدة أحدهم وقد استطاع أن يخرج من هذا الفراغ بهذه الطريقة. تابعت "لينا" عن بُعد عمل "سيليا" بعد أن عادت وافتتحت مدرسة رسم صغيرة، وكانت تدرس التربية الفنية، واتجهت نحو المستقبل. فلديها الآن العديد من الخطط للأعوام القادمة دون ألم.

وجدت “لينا” رواية أخرى كانت قد كتبتها في دفترها الذي لا يزال في يدها، من امرأة برازيلية أيضًا. تذكرت المرأة الهادئة والصامدة التي تحدثت معها في المقهى. كانت أنيقة، وملابسها مهندمة، ولديها اسم عائلة ألماني:

- «حسنًا، اسمي الحقيقي ليس «آن فيشر» ولكن «سيباستيانا»، «سيباستيانا كونسيتشاو دي أراوخو». تحولت إلى «آنا» على الفور؛ فلن يستطيع أحد أن ينطق اسمًا مثل اسمي الطويل، المختلف، والمليئ بالحروف الغريبة. أصبحت «السيدة فيشر» بمجرد أن تزوجت، وحملت اسم زوجي حتى أنني نسيت اسمي الكامل في هذه الأيام. أظن أن هذه كانت امرأة مختلفة وبقيت مكانها. كانت فتاة صغيرة خجولة وصلت إلى هنا خائفة من الشرطة ومن الجميع، وكان عليها أن تهرب عبر الحدود دون وثائق. عانت من الجوع والبرد في بوينس أيريس إلى أن وجدها بعض الأصدقاء الذين أحضروا إليها جواز سفر مزور وتذكرة إلى أوروبا. لم تفهم ما يحدث حولها. كنت في المدرسة الثانوية وصديقي الحميم في كلية الحقوق؛ اعتُقِلنا معًا. حاول الهرب ولكنه قُتِل، أما أنا فاعتُقِلت. ضُربت كثيرًا وعُذِّبت. بحث أبي عن الرائد المسؤول، وعندما استطاعت عائلتي أن تعرف مكاني طلب أبي من الرائد أن يضربني أكثر حتى أتعلم الدرس. قالها أمامي مباشرة. وهنا ساءت الأمور للغاية. كدت أموت. أطلقوا سراحي ذات يوم. لا أملك فكرة عن السبب. لم أفهم أبدًا ما يحدث؛ كنت غبية جدًّا، ولم أورط نفسي إلا بسبب صديقي الحميم. لم أكن مقيمة حتى في المنطقة الجنوبية. كانت عائلتي من «نيلوبوليس» ووُلدت وتربيت في أراضي المنخفضات. عانيت كثيرًا هنا في البداية؛ فقد فعلت كل شيء ولا أحب حتى أن أفكر في الأمر. ثم قابلت «كلاوس» الذي كان لطيفًا، وأبًا حقيقيًّا بالنسبة لي، وزوجًا حنونًا. أعطاني «كلاوس» حياة جديدة ولا يمكنني أن أطلب أي شيء أفضل من ذلك. أصبحت ألمانية حقيقية، ويتحدث أولادي الألمانية فقط. أريد أن أترك هذا الكابوس ورائي. أحضر الأطفال ذات يوم منذ عدة أشهر كتابًا من المكتبة عن قصص حدثت في فنزويلا. كان مليئًا بصور الأطفال وهي تجري حافية القدمين أو مرتدية نعلًا خفيفًا بين أشجار الموز. لم أفكر أبدًا في إمكانية حدوث ما يلي: شعرت بغصة تعتصر حلقي وقلبي عندما رأيت هذه الأقدام دون جوارب، وهذه التلال المغطاة بأشجار الموز. امتلأت عيناي بالدموع وافتقدت «نيلوبوليس»، وأردت بشدة أن أركض حافية القدمين في كل مكان في البرازيل. كان إحساسًا قويًّا لدرجة أنني وجدت نفسي أنتحب وأبكي بصوت عالٍ مثل عِجْلٍ فُطم لتوه، كما كانت تقول أمي. أعلم جيدًا أن البرازيل انتهت بالنسبة لي للأبد مثلما انتهت طفولتي. لن أعيش هكذا مرة أخرى أبدًا. أذهب إلى هناك بين الحين والآخر، ولكنني أعلم في أعماقي أنني مجرد سائحة. أنا أجنبية في المدينة؛ لا أعرف أي مكان خطر ولا أستطيع التعرف على الأصوات التي من المفترض أن تنبهني،

أتفهمينني؟ لو كنت حيوانًا عائدًا إلى الغابة لمِتُّ قبل أن أصل إلى الحقل الواسع الأول. كنت أذهب إلى المدرسة في أراضي المنخفضات في الماضي، وأذهب إلى الحفلات في أيام السبت، وأعود متأخرة ولا أخاف أبدًا. أما الآن فالأمر ليس كذلك؛ أنا خائفة من البرازيليين، ومفزوعة من عدوانيتهم. لا أستطيع أن أتعرف على أبناء وطني، وأشعر بالتوتر في جزء المدينة الذي ولدت وتربيت فيه، وحيث يعيش أهلي حتى الآن. أنا خائفة من أن يُعتدى عليَّ، أو أُسرق، أو أُقتل. أشعر وكأنني في خطر طوال الوقت، ولكن لا أعلم مصدر هذا الخوف، يا له من أمر غريب. أعتقد أنني برازيلية فقط الآن بسبب لغتي، ولأنني أقرأ كثيرًا باللغة البرتغالية؛ فأنا أعمل سكرتيرة تنفيذية لشركة شحن برازيلية، وأمضي اليوم بأكمله أتحدث البرتغالية. سأدخل مدار ألمانيا على الفور إذا غيرت وظيفتي، وسأنهي قتل البرازيل بداخلي. سيكون من العدل فعل ذلك؛ لأن البرازيل لا تحتاجني في شيء، وقتلتني بنفسها. لم أتِم حتى عامي العشرين ولم يفتقدني أحد».

كانت ردة الفعل هذه غير متكررة، وعلمت "لينا" أن مثل هذا النوع من القصص لا يحدث كثيرًا. رغب الجميع بالعودة في أغلب الوقت. يمكن لواحد أو اثنين أن يشكلوا روابط بالخارج، ولكنها كانت نادرًا ما تكون قوية بما يكفي لدرجة ألا يكسروها. ما حدث عامة هو أن الناس عاشوا في حالة دائمة من العجز؛ فلم ينتموا إلى العالم حولهم، وقل ارتباطهم بموطنهم الأم شيئًا فشيئًا (أو على الأقل كانوا خائفين من أن يكون هذا هو السبب). اختلفت قصة كل فرد بحسب ظروفه وتجاربه الشخصية، وروابطه العاطفية، وفرصه في التقدم المهني. كان الحب والعمل في غاية الأهمية. فكرت "لينا" في اثنين من الصحفيين البرازيليين الذين قابلتهما ولديهما المهنة نفسها، والجنسية نفسها، ولكن قصصهما مختلفة للغاية.

كان "رايموندو" من المنطقة الشمالية الشرقية ومن عائلة متواضعة. كان شابًا ومراسلًا عبقريًّا وعدوانيًّا ولم يكن قد تخرج بعد حين أُلقي القبض عليه مع الجميع في اجتماع الطلاب السري. كان قائدًا في كليته، وجزءًا من مجلس إدارة التنظيم الطلابي، وقضى وقتًا طويلًا حتى أطلقوا سراحه بعد الفرز. وعندما حدث ذلك أخيرًا، وجد أنه قد ضاعت عليه المحاضرات والامتحانات ولن يمكنه حضورها مرة أخرى وخسر العام الدراسي. جاءت الشرطة لتبحث عنه في المنزل الداخلي حيث كان يقيم. لم يكن هناك ولكن فهم الأمر على أنه إنذار. قرر مدير ودود في الجريدة أن يرسله ليعمل في بيرو للوقت الحالي. حدث أمران وهو هناك: طردوه من العمل، وضرب زلزال المدينة وفقد بسببه كل شيء عدا ملابسه التي كان يرتديها والكاميرا الخاصة به. أخذ صورًا رائعة بما أنه اعتاد على أن يكون دائمًا مراسلًا، ونجح في أن يرسلها مصحوبة بكتابة مذهلة. انتهى به الأمر بتذكرة إلى باريس بسبب ما فعله

ومساعدات الأصدقاء، وبأمر بألا يعود أبدًا؛ لأنه مطلوب القبض عليه. وصل إلى "فرنسا" تائهًا تمامًا ولا يتحدث كلمة واحدة فرنسية، ولا يملك ملابس دافئة، أو طموحات، أو وظيفة. أقام لفترة مع منفيٍّ أو اثنين، وشعر بالإهانة، وانتهى به الأمر بالانتقال إلى ملجأ مشردين خيري أو ملجأ تضامني، وهو بالنسبة له يؤدي إلى الشيء نفسه. وجد عملًا في سيرك في "ليون"، وأمضى ستة أشهر ينظف فضلات الفيل الكبيرة. ثم نجح في أن يعود إلى باريس لوظيفة أخرى. قضى عددًا من الأشهر يغسل الجثث في مشرحة المدينة، وبدأ يستعمل اللفظ الفرنسي لكلمة "لحم خنزير" بدلًا من اللفظ المستخدم في لغته، وكانت شرطة ريو تستعمل هذا اللفظ لتشير إلى الجثث في أدراج ثلاجة المشرحة. كانت هذه علامة على أنه بدأ في تعلم بعض الفرنسية. ولكن كل ما كان يشغل باله ليلًا ونهارًا هو أن يعود، وأخيرًا لم يتمكن من تحمل الأمر أكثر من ذلك. لا يعلم أحد كيف فعل ذلك، ولكنه استطاع أن يشتري تذكرة إلى أمريكا الجنوبية، حيث حاول الدخول إلى "البرازيل" في الخفاء، ونجح بالفعل في ذلك. قُتل على يد القوى القمعية بعد شهرين في المزرعة، حيث كان يعمل في الأراضي الخلفية لولاية "برنامبوكو"؛ فقد أبلغ عنه شخص ظنًا منه أنه شخص آخر.

كان "أنطونيو" من المنطقة الشمالية الشرقية أيضًا؛ من عائلة فقيرة. كان عبقريًّا ومراسلًا عدوانيًّا. لم يعد شابًا الآن، ومع ذلك لم يعد إلى بلده بعد. ظنت "لينا" أنه لن يعود أبدًا وأن أقصى ما سيفعله هو أن يزور البرازيل من وقتٍ إلى آخر ليرى الأصدقاء القدامى، ويروي حنينه، وأن يتواصل مجددًا مع ثقافته، ويقضي مدة لا تتعدى الشهر أو الستة أسابيع على حد أقصى. ترك "أنطونيو" البرازيل مباشرة بعد صدور القانون الدستوري رقم 5 عندما أدرك أنه لن يستطيع تحمل عبء الديكتاتورية ونجح في أن يجعل جريدته ترشحه ليكون مراسلًا في عاصمة أوروبية.

كان صحفيًّا صاحب مستوى استثنائي واستفاد من مركزه إلى أقصى حد، وأعطى معنى جديدًا لعمله في هيكلة الجريدة. أصبحت له معارف قيِّمة، وجعل من نفسه شخصًا لا يمكن الاستغناء عنه، وحافظ على مركزه. ذهب أولاده إلى المدرسة، وكبروا، وتزوجوا، وأنجبوا له أحفادًا أوروبيين. إذا ما قرر أن يعود بعد فترة الاستراحة (المعروفة بالانفتاح) من الديكتاتورية وبداية إعادة الديمقراطية، كان أقصى ما يمكن للجريدة أن توفر له هو أن يعيش كما كان في السابق قبل أن يرحل، وأن يعطوه وظيفة بيروقراطية مثل المحرر الإداري. كان الأمر بالنسبة لـ"أنطونيو" الذي اعتاد على أن يختار ساعات عمله والقصص التي يريدها، بمثابة الموت المهني. كان مراسلًا طوال حياته، وقد أحب مهنته. إذا كان ثمن عودته هو جلوسه على كرسي، ويعلق يديه وهو يتحدث على التليفون، ويذهب إلى الاجتماعات مع المديرين

الآخرين، وأن يدير مراسلين آخرين؛ فهو يفضل ألا يعود، وأن يستمتع بأولاده وأحفاده في مكان يحترم مهنته. من الجائز أن حبله السري مدفون في الأراضي الخلفية الجافة في بلاده، ولكنه شعر أن قلبه سيرتاح يومًا ما في الأرض التي بناها الرومان والأتروريون. لم يؤلمه هذا الأمر بعد الآن، بل العكس صحيح. شعرت "لينا" في كل مرة سافرت ورأت فيها صديقها أنها واقفة أمام شخص هادئ ومتصالح مع نفسه. كان هدوء "أنطونيو" غير متوقع بالنسبة للأفكار المأخوذة عن المنفيين، والذي نادرًا ما يوجد بين أغلب الناس على أية حال، حتى بين هؤلاء الذين لم يطارَدُوا ليتركوا بلادهم، وغصبهم بسبب قوة حياتية على البحث عن فرصة للسعادة خارج بلادهم. تعلم أيضًا أنه على الرغم من كل ذلك أن شعلة حب البرازيل لم تمت بداخله. يمكن لنسمة مفاجئة يومًا ما دون أي إنذار أن تحيي تلك الشعلة بداخله وتستيقظ. من الممكن أن تحرقك وتشعل نيرانك في أي وقت، ثم تؤلمك البرازيل في كل خلية من خلايا أعصابك.

هناك آخرون مهنيون حاولوا العودة. تذكرت "لينا" "أدالبيرتو" على سبيل المثال. كان طبيبًا ذا شأن عالٍ وأستاذًا جامعيًّا في البرازيل، وباحثًا وعالمًا منتجًا ورائدًا في مجاله، لكنه عانى من بعض العراقيل بسبب سوء النوايا في عمله. تم الاستيلاء على حقوقه، وإجباره على المعاش واضطهاده. رحل إلى فرنسا ومعه مواهبه ومعرفته. وفروا له هناك فريقًا به علماء منفيين آخرين، وظروف عمل محفزة أكثر. حصد ثمار عمله بعد عشرين عامًا من التفاني، وحصل على الجوائز والتقدير الدولي، واحترام الجميع. لم تتوقف نار الاشتياق إلى الوطن عن احتراق وابتلاع "أدالبيرتو". أراد أن يهب نتائج جهوده لشعبه ولبلده، وأراد أن يتشارك معهم ثمار عمله الذي كلفه الكثير من التعب. تحولت جمرات الشوق إلى أجيج من النيران بمجرد أن وجد فرصة وأقل علامة من الاهتمام بعودته. تعامل مع أمر العودة بعقلانية وتفاوض من أجل الحصول على ظروف العمل الضرورية ليطور من عمله. وافق على الحد الأدنى من الضروريات، وهجر أي طموحات للأبحاث الأكثر تعقيدًا، ولم يطلب سوى الدعم الأساسي فقط. هدم حياته التي بناها بالخارج وعاد إلى بلده بعد التأكد من وجود كل الضمانات. وجد أن النوايا السيئة لا تزال موجودة وأضيف إليها البيروقراطية، والكراهية تجاه شهرته، والعدائية بصورة عامة. حضر حقائبه وعاد إلى باريس، وأشار بمزاح في محادثة سريعة مع "لينا" في مقهى أنه لم يحظَ بوقت كافٍ لإشباع حنينه، وقال:

- كان الأمر يستحق العناء. حظيت بفرصة لأتخلى عن كل الكلمات التي تبدأ بـ"عدم" مرة واحدة وللأبد. وجدت أن كل تلك الكلمات متشابهة في طريقة بداية كتابتها: عدم كفاءة، وعدم اختصاص، وعدم معرفة. ولكن فوق كل هذا، عدم حساسية، وعدم فهم.

حاولت "لينا" أن تكسر الإحباط وتمزح، قائلة:

- من الجائز أن عودتك كانت مبكرة يا "أدالبيرتو"، من يعرف؟ فربما مع الوقت يطورون كلمة جديدة مثل المعلومات وسيتحسن الوضع.

- هذا مستحيل يا فتاتي. كنت أحتاج فقط إلى أن أضيف كلمة أخرى، وهي عدم المسئولية. سأكون غير مسئول إذا استمررت في الذهاب من هنا إلى هناك، وأشتت الفرق، وأقاطع الأبحاث التي تتضمن عملًا ثابتًا لأشخاص كثيرين لأسباب عاطفية، لمجرد أن هناك هو بلدي وأفتقده وأفتقد شعبه. لا أستطيع فعل ذلك؛ أنا لا أملك الحق في فعل ذلك.

أكمل حديثه وقد بدا عليه الحزن:

- هناك شيء آخر أيضًا. ليس من الممكن العودة إلى القيام بالأبحاث العلمية كأنها نشاط معزول، حتى لو قررت أن أكون عنيدًا وأن أجد ممولًا لهذا البحث بالذات. فإما أن تقدر الأمة بأكملها البحث عن المعرفة وينعكس هذا في سياسة ثابتة من دعم العلوم والتكنولوجيا، أو لا جدوى من المحاولة. وإذا لم يحدث ذلك، سينتهي بك الأمر وأنت تعمل وحدك بفريق هنا وفريق هناك، ومشاريع غير متصلة ببعضها. لن يوجد تبادل، أو مناظرة، أو تداول معلومات، أو نوع من التجارة اليومية من التعليم المشترك والمعلومات عبر المناقشات. أنا قادم من زمن تعلم المرء فيه تعليمًا كلاسيكيًّا. يمكنني أن أؤكد لكِ أن القدماء شخصوا هذا الشر، وأنه نظرًا للظروف المحيطة الآن سيكون الأمر مفارقة ساخرة بالنسبة لي. إن البقاء في البرازيل سيعرضني لما يسميه القدماء بـ"جنون المنفى"، والذي ببقائي هنا في باريس لن أعاني منه أبدًا؛ لأن هنا لن أمرَّ بـ"جنون العزل".

لم تجد "لينا" ما تقوله، فأكمل هو قائلًا:

- هناك تعبير لاتيني ملائم يعلمنا أنه "لا يوجد علم مخفي". إذا عشت حياة سرية وبعيدة عن المعرفة فلن تحقق كل شيء. عليَّ أن أعيش بالمنفى طوال حياتي. ولكن أتعلمين، في نهاية الأمر إن العلم شيء عالمي، وما يكتشفه المرء يفيد البشرية بأكملها.

كانت "لينا" على وشك أن تقول له إن التكنولوجيا ليست عالمية، وأنه يجب عليه أن يفكر مرة أخرى في قراره هذا؛ لأن البرازيل تحتاج إليه، ولكنها لم تقل شيئًا، لم تستطع، كل ما كان عليها فعله هو أن تنظر إلى وجهه حتى تفهم أنه يجب عليها أن تظل صامتة. رأت ألمًا، وحزنًا، وإرهاقًا على وجهه، وتلخيصًا لكل هذا فقد رأت وجعًا، رأت وجعًا لا شفاء منه على وجه رجل يضحي بحياته ليساعد في إيجاد علاج لألم كل شخص، بدأت الدموع تتساقط من عينيها في

هذه اللحظة متماشية مع أصداء المحيط التي فرقت الرجل عن بلده، قال الرجل:

- لا أستطيع العودة. سيكون فعًلا غير مسئول. لكن حين أترك المعمل وأعود إلى المنزل وأجلس لأرتاح، هناك بعض الأوقات التي أشعر بها بشيء يحترق داخلي ويستهلكني. أظن أنني سأموت بسببه.

علمت جيدًا ما كان يتحدث عنه: هذا الحوض من الجمرات المشتعلة. كان هذا الشعور موجودًا طوال الوقت، ولكنه يختلف من شخص لآخر على الرغم من وجوده الدائم. ألقت نظرة سريعة على دفترها باحثة عن إشارات إلى "باولو" العزيز على قلبها. حمل "باولو" شعلته للجميع مثل أطفال الشوارع الأشقياء الصغار الذين يبيعون الفول السوداني المحمص في أركان الشوارع ويحملون الجرادل المملوءة بالفحم المحترق، وذلك حتى لا تبرد أكياس الفول السوداني. لم تستطع "لينا" أن تكتم ابتسامتها وهي تقلب الصفحات؛ فقد تحركت مشاعرها بسبب الذكريات التي استرجعتها هذه السطور. كانت قصة "باولو" الصديق المتحمس، والواثق من نفسه، والمخلص قصة ألم أيضًا ومليئة بلحظات القلق. لم تتذكره "لينا" إلا بأفكار حنونة وهي تنظر إلى صورته، هذا الشخص الذي يشبه كرة النار المتحركة والمحمولة من قبل طفل شارد في منتصف الليل:

- نتحدث يا "لينا" تحت أسقف المنازل في منتصف باريس الرمادية تلك، ولكن يمكننا أن نحظى بمحادثة مثل تلك على مقعد مطل على البحر في ريو. لن يطول الأمر. أشعر في داخلي أن موعد العودة قد اقترب. يستهزأ الناس بي لأنني لا أتوقف عن الحديث عن هذا طوال الوقت، ولكنني لا أستطيع أن أستسلم. إن الأمر صعب في بعض الأحيان. قابلت رجلًا إسبانيًّا عجوزًا ذات يوم، وكان الأمر محبطًا ومثيرًا للاكتئاب خاصة عندما تحدث عن كيف أنه منفي لأربعين عامًا تقريبًا، وأنه أمضى الثلاثين عامًا الأولى في حياته يقول إنه سيعود إلى بلده في اليوم التالي. تبًّا، إن البرازيل مختلفة. سيمر هذا قريبًا؛ فنحن لسنا متعطشين للدماء مثل غيرنا. يجب عليَّ أن أؤمن بهذا، ولهذا أنا دائمًا مستعد وجاهز. سأكون أول من يعود، أعد بذلك. أقول كل عام لنفسي إن هذه هي المرة الأخيرة، وأنني لن أقضي عيد الميلاد المجيد بعيدًا عن المنزل أبدًا. أرغب في أن أتخلى عن معطفي الشتوي وملابسي الشتوية الثقيلة كل ربيع، ظنًا مني أنني لن أحتاجها مرة أخرى؛ لأنني سأكون عدت قبل أن يأتي شتاء آخر. لا أفعل ذلك سوى لسبب واحد، وهو أنني عندما فعلت ذلك ذات مرة اضطررت إلى أن أتسول حتى أشتري ملابس أخرى. أقول مجددًا كل عشية رأس السنة إن هذا العام سيكون جديدًا، وأنني سأعود، ولكنني لم أعد بعد. أنا واثق أنني سأعود، سأعود بمجرد أن تُتاح أصغر فرصة.

سأكون أول من يهبط في مطار "غاليون"، يمكنك أن تكتبي ذلك وسأقسم عليه، فأنا لا أفكر سوى بالعودة ولا أستطيع تحمل المزيد، ولا أشتري أي شيء بالدَّيْن حتى لا أضطر إلى أن أتعامل مع الأقساط الباقية، ولا أقبل أية وظائف تتطلب التزامًا طويلًا، وأجدد إيجاري بالشهر، كما لو كنت باقيًّا هنا لمدة قصيرة. أعلم أن هذا ليس جيدًا بالنسبة لي وأنه سينتهي بي الأمر وأنا أدفع أموالًا أكثر، ولكني أصر على فكرة أن أرحل في أي وقت، كنت حريصًا ألا أرتبط بأحد عاطفيًّا هنا، فعلى أقصى حد لا ألتزم سوى بعلاقة قصيرة عابرة. أفعل ذلك حتى لا أضطر إلى أن أترك شخصًا أحببته ورائي عندما يحين وقت العودة حتى لو صرت وحيدًا في النهاية. قد يبدو ما أفعله غريبًا، ولكن تعلمين أن الشوق إلى البرازيل بالنسبة لي هو أقوى من الوحدة. إن رغبتي في العودة أكبر من أي شيء، وإن البرازيل أكبر، ولا أفكر في شيء آخر. كنت محظوظًا أنني قابلت "روبيرتا" في تشيلي، وأننا قابلنا بعضنا، وبقينا معًا، وأنجبنا هذين الطفلين الرائعين اللذين يبقياني على قيد الحياة. وذلك لأنني لن أقدر أبدًا على الدخول في علاقة حقيقية مع امرأة فرنسية، إنني متأكد من ذلك؛ لأنها ستحاول أن تبقيني بعيدًا عن الوطن. أدخر الأموال شيئًا فشيئًا، وقد ساعدني أبي. إن كل شيء جاهز، والأموال محفوظة في حساب ادخاري، ويمكنني أن أسحبها في أي وقت، وأشتري التذكرة وأجهز حقائبي وأصعد على متن الطائرة وأعود إلى ريو. سأعود بمجرد أن تتصل بي أمي ويعطيني المحامي الضوء الأخضر. أعتقد في كل مرة تتصل بي في وقت متأخر أن هذه هي المرة التي سيخبروني فيها بأنه قد حان وقت العودة. تتصل دومًا متأخرة بسبب فرق التوقيت. شاهديني فقط وأنا أذهب، فعندما يتصلون بي سيكون كل شيء جاهز للعودة. كل ما عليهم فعله هو أن يخبروني لأعود، وأنه يمكنني العودة دون أن أعتقل أو أنهم سيحققون معي فقط ثم يطلقون سراحي.

"باولو" محامٍ جيد وذكي، وعلى دراية بالموقف، وذلك لأنه كان أول من حاول العودة بطريقة قانونية إلى مدينة ريو. كان هذا إشارة غير معقولة إلى أنه بالفعل رياح تغيير، وأن "الانفتاح" الذي يتحدث الجميع عنه حقيقي.

تذكرت "لينا" اليوم جيدًا، وتذكرت الصباح الباكر والوصول، وتذكرت حتى ما حدث قبلها.

كانت في الجريدة في منتصف مساء عمل عندما رن الهاتف:

- لا أعلم ما إذا كنتِ تتذكرينني يا "لينا"، ولكنني "سيلينا".

فكرت "لينا" بينها وبين نفسها: "لو بدأت المكالمة بهذه الطريقة، هذا لأن المرء لن يتذكر فعلًا. إنه حتمًا أحد الأشخاص المزعجين الذين يقابلهم المرء مرة واحدة ويعتقدون أنهم لا يُنسون، أو أنه أحدهم يطلب شيئًا ما".

سألتها "لينا":

- "سيلينا" من؟

- "سيلينا".. لنرَ إذا كنتِ ستتذكرين، تقابلنا منذ أربعة أعوام في عشاء في منزل أحد الأصدقاء المشتركين على الشاطئ.

لم يظهر الشباب على نبرة صوت المتصلة، ولكن كانت النبرة حازمة. لم تكن تحذف التفاصيل؛ لأنها مزعجة، أو لأنها كانت تستمتع بالقصص الغامضة، ولكن كانت تحذفها من أجل السرية. على الشاطئ؟ من يكون صاحب المنزل؟ نعم، بالطبع، الطبيب "أوجستو". كيف لها أن تنسى؟ إنها والدة "باولو"، ردت عليها بحذر مثل شخص يعرف الشفرة ويخاف من الشرائط المسجلة، وقالت:

- أتذكر، نعم. أنتِ جدة "كاميلو".

فقالت:

- نعم، إنها أنا. سيصلون يوم السبت، وطلبوا مني أن أعلمك.

فردت "لينا":

- متى؟ أي شركة طيران؟ وأي رحلة طيران؟ انتظري لحظة، دعيني أحضر قلمًا لأكتب كل شيء.

قالت هذا لتعطي نفسها وقتًا، وأن تستجمع قواها. يا لها من فرحة! كان قلبها يرقص من السعادة، والقلق، والخوف. دار بخاطرها كل هذه الأفكار. هل كانت خطوة آمنة بعد؟ كتبت كل المعلومات مثل الماكينة وفي الوقت نفسه كانت تقول أي شيء لتتجنب الصمت على التليفون.

- واو سيدة "سيلينا"، كم هو رائع! من المؤكد أنكِ تنتظرينهم على أحرِّ من الجمر.

- ليس بالضبط يا طفلتي، فأنا بالطبع أكثر من سعيدة، ولكن هادئة. سيكون كل شيء على ما يرام. نحن نحضر لهذا اليوم منذ وقت بعيد.

مضى وقت طويل بالفعل، فالكل كان يحضِّر لهذا اليوم. لم يستعد أحد للرحيل، ولكن كانوا في تمرين يومي ودائم للعودة.

من الواضح أن أخبار العودة لم تشكل مفاجأة؛ ففي آخر مرة تقابلوا فيها منذ عدة أشهر كانت المرة التي أغلقت حسابه لسبب ما في المستقبل، لم تكن تعلمه هي. كما أعطاها مجموعة من مذكراته، وملاحظاته كمراسل وتاريخه في هذه الشقة الصغيرة في منطقة "ماريه" في باريس. كان متيقنًا حين قال:

- سأرحل في أغسطس. لا أتحمل الوضع أكثر من ذلك. إن مكاني هناك.

حاولت "روبرتا" أن تضيف إلى حلمه القليل من توابل الواقع، وهم جميعًا في الغرفة المستخدمة كمطبخ، وغرفة معيشة، وغرفة طعام، وكانت "لينا" تنظف الطاولة، وتعطي "باولو" الأطباق ليغسلها. قالت له "روبرتا":

- تقصد إذا أعطوك جواز السفر.

فكان رده:

- سيفعلون هذا. أتعلمين يا "هيلينا" أنني رفعت دعوى قضائية. فعلى أية حال، هناك دائمًا قوانين، وسوابق قانونية، أو أيًّا ما كانوا يسمونه. نجحنا بالفعل في الحصول على جوازات سفر للأطفال بعد هذا التقرير في المجلة الإخبارية "فيجا".

أما عن الأطفال، فكان "كاميلو" يجلس في كرسي الطعام العالي الخاص به ويملأ فمه بالجزر المبشور: الأكلة التي تعلم أنه يحبها في الحضانة. استطاعو أن يسمعوا "إرنستو" وهو يغني "على بحيرة أفينيون"، والتي ستتحول يومًا ما إلى "طِرْ.. طِرْ يا صقر"، فالآن هما برازيليان ومعهما كل الأوراق الرسمية لذلك. لم يحتاجا سوى أن يتعرفا على البرازيل، وأوراق أولياء أمورهما.

كل هذا حدث منذ يوم واحد فقط، وهي مدة قصيرة جدًّا.

تقول السيدة "سيلينا" الآن إنهم عائدون. فكرت "لينا" في "باولو" عندما كان لا يزال في المدرسة. كان طالبًا جيدًا، ومهتمًّا بكل شيء، ولا يهدأ. كان يحصل على الدرجات النهائية في الامتحانات، ولديه أصدقاء رائعون من الطلاب الآخرين، كما كان الأكثر طلبًا من المعلمين. لم يتمكن من الانتهاء من دراسته بالطبع، وتدمرت مسيرته المهنية قبل أن يبدأ.

لم تطق الانتظار، وها هم الآن سيعودون يوم السبت.

دُعيت إلى حفل يوم الجمعة، ولكنها لم تذهب؛ لأنها لم تستطع التركيز. أمضت وقتها تفكر في أصدقائها، وتشعر بالرغبة في أن تفسر للآخرين، وتقول: "لا يمكنني أن أكون مشتتة الانتباه، وأن أذهب إلى الحفلات، أو أي شيء. أخبروا الجميع أنني لا أستطيع، وأن صباح الغد سيشهد أول رحلة طيران للعودة. لا، ليس غدًا بل اليوم. فالآن هم يتركون شقتهم للذهاب إلى المطار، ويتفقدون أمتعتهم، ويدخلون الطائرة. كيف لي أن أتظاهر بالذهاب إلى حفل هنا في حين أن فكري كله بعيدًا مع «باولو»، و»روبرتا»، و»كاميلو»، و»إرنستو» في مكان ما في الليل، وعلى ارتفاع آلاف الأمتار فوق المحيط الأطلسي؟ لا أستطيع تخيُّل ما تفعله السيدة «سيلينا»...».

كان من الصعب الخلود إلى النوم. ظلت مستيقظة حتى الثالثة فجرًا خوفًا من ألا تسمع المنبه. قررت أن تنهض في الرابعة، وأن تتمشى فقط في ردهة المطار. لم تقدر على البقاء في المنزل وعدم فعل شيء؛ فقد أرادت أن تكون هناك، وأن ترى، وأن تتأكد أنهم وصلوا، وأنه لم يحدث مكروه. قالت «لينا» لنفسها: يا إلهي، إذا كنت أنا في هذه الحالة فماذا عن السيدة “سيلينا”؟

على الرغم من أن “لينا” وصلت مبكرًا للغاية إلى المطار، فقد وجدت أن والدة “باولو” موجودة بالفعل هناك كأنها في عشية العيد. يبدو أنها قضت الليلة كلها هنا منذ أن تركوا باريس.

ذكرت “لينا” أنها لم تنم، فردت عليها “سيلينا”:

- ولا أنا يا “هيلينا”. لم أستطع. ظننت أنه من الأفضل أن أحضر إلى هنا مبكرًا. ولكنني تناولت الكثير من المهدئات.

وبعد لحظة صمت أكملت:

- في الحقيقة، كنت آخذ الكثير من المهدئات طوال الأسبوع الماضي دون توقف. أتناولها حتى مع وجبة الغداء، وعوضًا عن الماء، أشرب عصير ثمرة زهرة الآلام أو شاي الكاموميل.

ربما لهذا السبب بدت هادئة جدًّا بطريقة يحسدها عليها من حولها من أصدقاء آخرين وأقرباء ممن كان يصلون الآن. بدت هكذا، خاصة عندما هبطت الطائرة وبدأ أول الركاب في الخروج ولم تخرج عائلة ابنها. تعرف عليهم أحد فجأة، وقال:

- ها هم هناك، ها هم الأطفال!

- إن “كاميلو” ضخم!

- “روبرتا” تبدو مختلفة؛ فقد قصت شعرها...

كان أخو “باولو” الأصغر - خارج الحائل الزجاجي - الذي تُرك حين رحل “باولو” يشبهه كثيرًا وهو في مثل عمره منذ أعوام قليلة ماضية حين كان عليه الاختفاء والرحيل. ظهر التشابه العائلي في وجوه أخرى. كان هناك تبادل لا يتوقف من التلويح بالأيدي، والإيماءات، والقُبلات في الهواء على جانبي الحائط الزجاجي. طلبت السيدة “سيلينا” مرة أخرى قائلة:

- لا تحدثوا الكثير من الجلبة. لا تفعلوا أي شيء يلفت انتباه الرجال. يجب على المرء أن يتنكر، وأن يبدو كأنه غير مهتم. تعاملوا كأنهم عائدون من إجازة بعد مدة قصيرة.

كان الأطفال قد خرجوا بالفعل في هذه اللحظة ومروا من المسح، ثم الأبواب. تفاجأوا قليلًا باللغة البرتغالية حولهم والوجوه غير المعروفة، ولكن بدأوا في إيجاد أشخاص يعرفونهم شيئًا فشيئًا. حكوا عن رحلة الطيران، وعانقهم الأعمام والأجداد. لا يزال "روبرتا" و"باولو" بالداخل وقد مر وقت طويل.

قالت "سيلينا":

- خرج الجميع إلا "باولو" و"روبرتا". أتظنين أن شيئًا ما قد حدث؟

- لا تقلقي يا عمة "سيلينا". لا بد أنها الجمارك.

- لديهم العديد من الحقائب.

- إذن من الأفضل أن نخبرهم أن يتركوا الحقائب هنا ويخرجوا على أية حال. سنجد لهم ملابس لاحقًا.

رد أحدهم عليها:

- لا أستطيع إخبارهم هذا عبر الزجاج.

فقال أخو "باولو":

- هذا هراء يا أمي، لا حاجة لكل ذلك. إنها فقط البيروقراطية.

فردت عليه "سيلينا":

- يقولون إن هناك حاسوبًا بالداخل يظهر أسماء الأشخاص على شاشة. أتعتقد أن به مشكلة؟

فرد عليها:

- لكنهم لا يملكون أي شيء ضدهم يا أمي، لا قضية، أو إدانة أو أي شيء. ألا تذكرين كيف شرح المحامي الموقف عدة مرات؟ هيا بنا فلنسأله مجددًا.

فقالت له:

- لا، لا تشتت انتباهه الآن. يحب عليه أن يصب تركيزه على ما يحدث بالداخل.

فقال لها:

- سترين أن الأمر مجرد إجراءات جمركية. سيخرجان خلال لحظة.

فقال أحدهم:

- هذا صحيح. فالرجل يضع الآن علامة بالطباشير على حقائبهم، سيخرجون بعد دقيقة.

فقالت "سيلينا":

- خذوا حذركم ولا تحدثوا ضوضاء بحق الرب. لا تجذبوا انتباه الرجال. تحدثوا بهدوء ورحبوا بهما بهدوء.

خرجا، واحتوتهما الأحضان الدافئة من جسد إلى آخر بمجرد أن مرَّا من الأبواب. كانت السيدة "سيلينا" تقف بعيدة قليلًا، وتنتظر دورها وتكرر:

- لا ضوضاء.

احتضن "باولو" أخاه، ثم رجع خطوة إلى الوراء ونظرا إلى بعضهما بعضًا، ثم قال:

- تبًّا يا رجل، لقد تغيرت. لم أكن لأتعرف عليك لو رأيتك في الشارع.

انفجر الجميع ضاحكين بدلًا من أن يبكوا، وقال أحدهم:

- ولكنه يشبهك يا "باولو"، كأنك تنظر إلى نفسك في المرآة.

اقترب الأصدقاء، وقالوا:

- كم هو جيد أن نراك هنا! هناك الآلاف من الأشياء التي سنتحدث عنها، تعالَ إلى منزلنا حين ينتهي كل هذا الحماس لقدومك.

كانت السيدة "سيلينا" هي الوحيدة التي تقف بعيدًا ومتحكمة في أعصابها ومنتظرة دورها. ابتعد "باولو" فجأة عن كل الأشخاص وصرخ بأعلى صوت كما لو كان على صوته أن يعبر المحيط وكل أيام فراق المنفى، قائلًا:

- أمي! ألم أقل إنني سأعود؟ انظري لي هنا!

رفعها حضنه عن الأرض، واحتوتها ذراعاه بقوة، وأخذ يلف بها حتى داخت. كان يلف بها بحماس طفل في ممر المطار المسيطر عليه إلكترونيًّا والمكيف والمصنوع من الزجاج والمضاد للرصاص. كان يغني بصوتٍ عالٍ مثل الطفل:

- عدت إلى المنزل، عدت إلى المنزل، عدت إلى المنزل..

حاولت "سيلينا" أن تقول وسط الضحك والغناء، والرقص والدوران، والبكاء والدموع:

- يا بني احذر الضوضاء..

كان من الصعب تخيل أي شيء أقل سرية؛ فكان على جميع من في المطار أن يلحظوا هذا الشاب المزعج الذي كان يغني ويرقص، ويجعل من نفسه مركز انتباه الجميع. كان مثل الطائر الغريب.

وزعوا الحقائب والأشخاص على السيارات؛ فقد حان وقت العودة إلى المنزل. كان "باولو" يصرخ حين دخل إلى المصعد الذي كان سيأخذه إلى مكان ركن السيارات. كان متهورًا، وخارجًا عن السيطرة، وفاضحًا، ومحتفلًا. صرخ قائلًا:

- أتسمعونني؟ انتباه للجميع! أنا عائد إلى المنزل. المنزل يا شعب!

تتبع طائر البلشون نهاية رحلته الفردية، وهبط بين أشجار المانجروف في الطريق مقابل الخليج بين أحياء "ماريه" الفقيرة وقاعدة "جاليون" الجوية.

تغني روحي، أرى ريو دي جانيرو، أشتاق إليها. أشتاق إلى ريو وسمائها، وشواطئها الخالدة. خُلقتِ من أجلي يا ريو. ريو التي لا تزال جميلة، ريو التي لا تزال ريو في يناير، وفبراير، ومارس.. ريو قبل أبريل والانقلاب. أشتاق إلى ريو قبل حافلات الأسمنت والثورات، والمحركات، والمناشير الكهربائية، والكوابيس. وفوق كل هذا، أغاني "طوم جوبين" أو "جيلبرتو جيل". أشتاق إلى ريو التي تتبعت طيران البلشون، ويوم النعم، والعدل، والأمان. أعلن "باولو" عن استهوائه النظر إلى الأعلى في السماء؛ منتظرًا باقي السرب للطيران الكبير والكريم، وإلى العيد القبلي، حيث لن يتغنى بأغنيته الجديدة وحيدًا:

- عدت إلى المنزل، عدت إلى المنزل، عدت إلى المنزل.

دُمرت الريشة البيضاء لطائر البلشون، وأتلفت سرب النسور بين أشجار المنجروف على حافة الخضار الذي لا نهاية له.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون E-BOOK

9

“أنا أيضًا كنت برازيليًّا

وبشرتي بنية مثلك

عزفت على أوتار الجيتار، وقدت سيارة “فورد”

وتعلمت بين طاولات الحانات

أن القومية فضيلة

ولكن يأتي وقت تُغلق فيه أبواب الحانات

وتُنكر كل الفضائل..”

“كارلوس درموند دي آندرادي”

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وقفت تلك الشجرة بجانب المنزل منذ زمن بعيد لدرجة أنها لا تتذكر المكان من دونها. لا بد وأن الشجرة وُلدت هنا، في هذا المكان نفسه؛ فالأشجار لا تسافر على أية حال. ولكنها قد سمعت شيئًا: يبدو أن هذه الشجرة وصلت مع الأخريات وهي لا تزال شتلة. لا بد أن حالتها تشابهت مع أشجار الجهنمية التي زُرعت بجانب السور منذ بضعة أعوام سابقة. لم يعش منها سوى اثنتان أو ثلاثة ذات اللون الطوبي والأرجواني. أكل النمل أو اليرقات بقية الأشجار؛ لم تستطع أن تحدد من مكانها الذي تقف فيه. ولكن لا بد وأن المتهم هو النمل؛ لأنه الأكثر طمعًا. إنه أمر بشع؛ فالنمل يأكل أي ورقة شجر صغيرة تنمو. لا يخفف من وطأة الأمر أن يخبر المرء نفسه بأن النمل لا يأكل أوراق الأشجار، ولكن يأخذها فقط لمنزله ليطعم قمل النبات. إنه لأمر بشع أيًّا كان ما يفعله. رأت النمل خلال حياتها في الحديقة يلتهم العديد من الشجيرات التي تتمكن من أن تنمو وتصبح شجرة. يبدو أنه كان من نصيبها شجرة تعيش مدى الحياة. لم يتبقَّ سوى تلك الشجرة في وقت ظلَّ فيه الناس يرحلون ويختفون دون رجعة، وتموت فيه الحيوانات. فعلى سبيل المثال، لم يأتِ الرجل العجوز هنا منذ عدة فصول صيف. كبر الأطفال الذين علمهم الرجل العجوز أشياء كثيرة وأنجبوا أطفالًا. أصبحت ابنته الآن هي من تملك شعرًا أبيض، وتضع نظارة، وترعى الحديقة وتنزع منها الأعشاب الضارة، وتنظف أحواض الزهور لتريها إلى أولاد وبنات جدد. كم كان غريبًا أن تتذكر الرجل العجوز الذي لم يعش هنا حتى بعد كل هذا الوقت. مر يوم ما كانت فيه تلك التي تستلقي وهي رافعة قدميها إلى أعلى صغيرة.. ولكن ليست صغيرة جدًّا فقد مضى وقت كانت فيه أطول من الشجرة. تذكرت مرة واحدة رؤية الفتاة وهي ناضجة ولها ضفائر

وتقارن طولها بطول الشجرة. كبرت الفتاة واختفى الرجل العجوز، ولكن لا تزال تتذكر الشجرة يوم تحدثوا فيه عنها. سألت الفتاة يومها، وقالت: - وماذا عن هذه يا جدي؟ هل يمكن أن تعيد اسمها؟ تقول السيدة «تيودوسيا» إنها شجرة جوز، أما أنا فأسميها شجرة المظلة، ويلقبها الصيادون بشجرة الكستناء.

استمعت الشجرة إلى الإجابة:

- يطلقون عليها اسم شجرة المظلة في الجنوب بسبب ظلها المحكم الذي تعطيه هذا النوع من الكائنات.

فتعجبت الفتاة، وقالت:

- ظل؟ هذه البقعة الصغيرة التي لا تمثل شيئًا؟

جاوب الرجل العجوز متحدثًا ببطء، ومطيلًا في مقاطع الأحرف الأولى من الكلمات الأكثر طولًا أو بدايات الجمل حتى لا يتلعثم. ولكن على الرغم من ذلك، فقد كان يكرر بعض الأصوات دون قصد. لم يلحظ الأمر من اعتادوه فيه. قال لها: - هذا لأنها لا تزال صغيرة. لكن سترين حين تكبر. وبما أنها شجرة تنمو جيدًا بالقرب من الشاطئ، ويمكنها أن تزدهر بين الرمال، وأن تتحمل الرياح وأمواج البحر، تصبح شيئًا اعتياديًّا لجزء كبير من ساحل بحرنا. إن اسم "شجرة المظلة" يلفت الانتباه لاستخداماتها.

أصرت الفتاة، وقالت:

- إذن أليست شجرة كستناء؟

فرد عليها:

- بلى، إنها كذلك أيضًا. كل هذه الأسماء مثل شجرة اللوز، وشجرة الكستناء، و"كاستناجول"، وحتى شجرة الجوز تلك الخاصة بالسيدة "تيودوسيا" تشير إلى ثمرتها.

سألت الفتاة:

- ألديها ثمار؟ أيمكن للمرء أن يأكلها؟

فرد عليها:

- يمكنك أن تأكليها، ولكنها ليست لذيذة على الرغم من أن الخفافيش والأحصنة يحبونها. سترينها مغطاة بالثمار عندما تكبر، بعد موسم تفتح الأزهار الرقيقة فاتحة اللون.

سألت الفتاة:

- ولكن ما اسمها في نهاية الأمر؟

فأجابها:

- يمكنك أن تسميها بأي من هذه الأسماء، أو يمكنك أن تسميها "ترميناليا" كما هو معروف: مصطلح مستخرج مباشرة من اسمها العلمي.

أرادت أن تعرف الفتاة أكثر، فسألت:

- أهذا هو اسم عائلتها؟

فأجابها:

- لا، إنها "القمبريطية"، التي لديها العديد من الأشكال في البرازيل وفي بلاد استوائية أخرى. تختلف هذه الشجرة تمامًا عن شجرة اللوز الأوروبية والتي تندرج تحت فصيلة "الوردية" وتحول المنظر الطبيعي للبحر المتوسط إلى اللون الوردي في الربيع. إنه منظر جميل يا طفلتي؛ سترينه يومًا ما..

كانت شجرة اللوز أو شجرة الكستناء هي الأسماء التي ينادونها بها في أكثر الأحيان في المنطقة، ولديهم حرية الحميمية في الاختيار. جاءت «تيودوسيا» العجوز، المعالجة المحلية، لتأخذ قطعًا من اللحاء لصنع الشاي أو اللاصقة لتضميد الجروح، أو لتأخذ الثمار أو «الجوز» لتستعملها في معالجة أمراض الصدر. جمع الأطفال الثمار ليستعملوها في ألعابهم كذخيرة أو طعام تخيلي مقدم مع أوراق شجرتها وممزق إلى قطع صغيرة. استخدمت شجرة المظلة على مر السنوات كأنها أرجوحة، وأدغال طرزان، وسارية مركب قراصنة، وحصان راعي بقر، وطائرة لقافزي المظلات، وبقية الأفكار التي يقترحها خيال الأطفال أو أبطال اليوم. كبرت الشجرة في وقت لا يُذكر وأصبحت أطول من الأطفال، والمراهقين، والكبار. ثم وصلت أفرعها إلى طول السقف وبعد فترة قصيرة أصبحت أطول من المنزل، والآن، تطل الشجرة على الفناء كله من الأعلى وعلى الشارع بجانب المنزل، وعلى الطريق إلى النافورة الذي امتد إلى خلف المنزل، وعلى رمال الشاطئ أمام المنزل. كما طلت أيضًا على البحر الممتد إلى ما لا نهاية، وعلى الجانب الآخر من الغابة الممتد بعيدًا عن الأنظار، وعلى البحر والغابة المفصولين بغطاء شجرة منقوش بأسقف المنازل. ظهر العديد من الأسقف الجديدة خلال كل هذه السنوات. شهدت تحول الأغطية المصنوعة من القش إلى بلاط من السيراميك أو الحرير الصخري. كما رأت حتى ظهور أول مبنى سكني يشبه الصندوق: مربع من الأسمنت البشع ودون سقف مائل، وثلاثة أدوار مكدسة غير ضرورية مهينة للمنظر الطبيعي. صمدت أمام كل شيء، بجذورها الراسخة، تظلل

الحديقة دون أن تحجب الشمس عن المنزل، وتساعد الوقت في أن يقشر الحيطان، وأن تعتم بلاط السقف، وأن تطرد بعض الأشخاص، وأن تأوي البعض الآخر. آوت الأطفال الذين جاءوا ليأكلوا على الطاولة الخشنة التي بنوها في الحديقة، ومنصة الشواء، وأقاموا أعياد الميلاد، واحتفالات السلطعون في غداء أيام الأحد، ومن أجل ملجأ دائم لتجَمُّع يأكلون فيه الطعام المقلي؛ لأنهم لا يريدون أن يضيعوا يومًا من الهواء الطلق حتى للأكل، وبمرور الوقت كبروا، وجاءت مكانهم وجوه جديدة. آوت الشجرة أيضًا حُب الشباب، والتدخين في الخفاء، وتجمع الأصدقاء ليتحدثوا دون توقف على خلفية أصوات المذياع أو الجيتار، تاركين ألواح ركوب الأمواج لتجف في الظل بعد عودتهم من الشاطئ. كانت الشجرة مرآب لمركب مقلوبة على حوامل مسحوبة من الرمال حتى يتم إصلاح محركها. وإذا كثر عدد الناس، كانوا يصفون سياراتهم تحتها. وكما كان الحال دائمًا في السابق، كان المالك يعلق أرجوحته الشبكية من الفرع الأقل ارتفاعًا إلى الشوكة على اليمين ويرتاح بعد الغداء حين كان لا زال يعيش هنا. كان هذا هو وقته المقدس والهادئ حين تتوقف كل ألعاب الكرة للأطفال في الحي. ولم يحصل على وقته هذا إلا في حالة عدم استعمال أيٍّ من بالمنزل للأرجوحة الشبكية للقراءة أو الراحة. كانت دومًا موجودة: ثابتة في مكانها، وتنمو، وتبدل من أوراقها مرتين في العام، وتكسر من أغصانها، وتقدم نفسها في هيئة براعم وأوراق ناعمة. كانت تظلل المنزل وتراقبه هو والعائلة مثل الروح الحامية؛ تتأمل كل سكانه بلطافة كما لو أنها صديق قديم يعرف كلًّا منهم، ويحتويهم تحت ظلها مثل الملاك الحارس. كانت تحرسهم مثلما كانت تحرس الفتاة الأكبر سنًّا، والتي أصبحت الآن امرأة جاءت في سبتمبر: شهر الأمواج العالية وصحوة اللون الأخضر. كانت الفتاة تعرج، وبالكاد تتحرك، وتقضي كل هذا الوقت وهي تغلق عينيها أو تقلب الأوراق. تبدو حزينة مثل شخص في حاجة إلى ملاك حارس يحمي ذكريات طفولتها.

- أحتفظ في محفظتي بورقة رفيعة من الأظرف عليها رسمة قدمك العارية مطوية بعناية. إن الرسمة مائلة بالطبع لأنها لو رسمتها بطريقة غير ذلك لن يكون لها مكان على الورقة. أتذكر حين رسمتها منذ زمن بعيد في غرفة طعام أمي؟ كنت لا أزال أستعمل قلم حبر، والحبر الأزرق الملكي "الباركر" الذي صممت عليه. اطمئن، فإنه محفوظ في أمان. يجب عليك ألا تقلق إذا أردت في أي وقت زوجًا من الأحذية في مكانٍ كل الأشخاص فيه لديهم أقدام صغيرة. إذا وجدت طريقة لتراسلني، سأصنعها حسب مقاسك، ولكن لن أستطيع أن أضمن لك أنها ستكون في مستوى الأحذية الطويلة الإيطالية التي لم تمتلك المال لتشتريها يوم أن التقينا في برودة المنفى، تلك الأحذية التي تشبع من خيالاتك في الإعلان الذي يعدك بأنها ستكون ناعمة ومبطنة. من

الجائز أن أجد يومًا ما في "كابو فريو" أحد الصنادل المصنوعة من قبل "مالاكياس": تلك التي أعجبتك كثيرًا. كانت كبيرة ولها رباط حول الكعب. يمكنني أن أشتريها وأبقيها حتى أجد شخصًا يستطيع أن يأخذها إليك. حاولت أن أجد الحذاء العديد من المرات ولكني لم أجد مقاسك. أظن في بعض الأوقات أنني لن أجده أبدًا. إن المقاسات أصغر بكثير جدًّا جدًّا، ومنكمشة بطريقة سخيفة.

- أحتفظ ببعض كتبك المفضلة على الأرفف الخاصة بي حتى لا تختفي حين يستعيرها العالم. وقفت كتب "ستندال" بجانب طاحونة سكر "كانانيا" وحفلتها الريفية. إن المجلدات قريبة مني، ولكنني لا أعلم أي "كانينوس"، أو "فابريسيو"، وجوليان/ جولياو يعيشون في أعماقك، ومتكدسون بين "فابيانو" و"ماكونعيمة". اختفت معظم كتبك التي كانت على الأرفف ولم تَضِعْ وهي في طريقها إلى عِلِّية بيت جدتك في الجبال. أعلم أنه يجب ألا نأسف على الكتب التي كانت بيتك؛ فقد تحولت إلى سُمك الجلد. لا توجد ضرورة لأن يقلق أي شخص بشأن الحفاظ عليهم.

- احتفظت برداء الجودو الخاص بك، مغسولًا ومطويًّا، وحزامه الداكن لوقت طويل. تجد الأمر مزعجًا بالطبع. شغل الرداء رفًا كاملًا، ولكن ظهر شخص يحتاجه، وهكذا لم يعد موجودًا. لا يمكنك أن تستمر في تحويل الأشياء إلى معالم تاريخية على أية حال، خاصة أنه لا توجد مناسبة لذلك. إنه مفيد بالنسبة لشخص يتعلم كيف يقاتل. ولكن هل يهم ذلك، لماذا نبقيه؟

"احتفظت بالشريط الذي قذفته باتجاهي بمنتهى العناية. كانت فتاة جميلة من كولومبيا، ولم أكن سوى مهرج إيمائي فقير. هل تذكر الكوميديا الموسيقية الرخيصة تلك من استديو "أتلانتيدا" التي ذهبنا لنراها في نادي السينما وكان هناك رجل نبيل يرتدي بذلة صيفية ويغني تلك الأغنية وسط البالونات وقصاصات الورق؟ حسنًا، لا أملك المزيد من الشرائط يا عزيزي على الرغم من أنني لا أتوقف عن رؤية بعض الشبه بينك وبين مهرج إيمائي قام ببطولته "كارنيه باروه" المنحرف. أتخيل وجهك الساخر وأنت تقرأ ما كتبته وتصنفني بأنني كولومبية، غير قادرة على اتخاذ قرارات للأبد، وغير قادرة على دمج الموضوع ونقيضه لتصل إلى مجموع هذه النظريات. ولكن إذا لم أحافظ على الشرائط - ولن أكون كاذبة إذا أخبرتك أنني أحتفظ دائمًا بقصاصات الورق لأرميها علي أيًّا ما تفكر في فعله - فقد اعتنيت جيدًا بجميع أسطواناتك القديمة "الفينيل" التي أحضرها أولئك الشباب من "باهية". تجلب أصوات "كايتانو" و"جيل" إلى ذهني الذكريات الأكثر وضوحًا حتى الآن حين أفتقدك كثيرًا. تحضرنا الذكريات وهما يصرخان: هيا فلنتمشى في الجادة (طالما لم يأتِ السيد ذئب) وينصحانا بـ"أمي، أمي، تحلي بالشجاعة"، ويترقبان "اليوم

الذي ذهبت فيه" ويعلنان، ويتنبئان، ويشجبان. إن أسطوانات الاستوائيين موضوعة بعيدًا بجانب "لويس جونزاجا"، و"كايمي"، و"باولينيو دا فيولا"، و"كارتولا"، و"شيكو"، و"إسماعيل". سننسخ شريطًا لك لكل الأغاني التي ستصدر سواء جيدة أم سيئة. أرسل صبيك ألبومًا جديدًا لـ"شيكو" للأطفال، ستحبه، وذلك لتبدأ في مجموعتك الجديدة.

- بالمناسبة، أحتفظ بكل الصور التي أستطيع أن أستحوذ عليها لابنك في ألبوم. لا يوجد العديد من الصور، ولكن يمكن للمرء أن يتابع نموه. كنت سأرسلها إليك لو كنت أعرف إلى أين سأرسلها. إذا عدت قبله يمكنك أن تكوِّن فكرة عن كيف يكبر الصبي، بجسمه الطويل الذي أخذه منك، وعينيك الكبيرة، وفم أمه، والتعبير الحازم الذي أخذه منكما أنتما الاثنين. بدأ في تغيير أسنانه اللبنية ويمكنه أن يقرأ بالفعل. إن الصبي صغير ومتجول، ويتعافى في أفريقيا من الربو التشيلي الذي زاد صعوبة عليه في الشتاء الأوروبي. أحفظ له ذكرياتنا عن وصف الصبيان وعن قصص وتاريخ والده. سأخبره يومًا ما عن شجرة المشمش الشاطئية في فناء الجد؛ حيث كان لكل حفيد فرع ولم يمتلك أحد أي شيء في الواقع. سأخبره عن شجرة المظلة الموجودة في المنزل. وسأخبره عن الشبكة التي يسحبها الصيادون، ويمررونها من يد إلى يد، ويغنون في عملهم الذي ينتهي فقط حين يتشاركون كل الأسماك التي اصطادوها. وسأغني وأخبره عن كيف كنت وأنت مراهق، وكيف أنك انتميت لاتحاد الطلاب في المدرسة الثانوية وكنت محرر الجريدة. سأخبره عن كيف كنت تلعب كرة القدم، وكيف كنت مشاغبًا، هل تتذكر حين خبأت جرس الكنيسة الصغيرة في بيت حافظ غرفة المقدسات؟ أو كيف رقصت في الكرنفال، وتجادلت بشأن السياسة وكنت تفقد أعصابك بسهولة لدرجة أن الناس لقبوك بـ"الرفيق لياو" العلامة المحروقة في الصندوق.

- أتذكر كل تفصيلة من يوم الجمعة الثالث عشر، وسأحكي الحقيقة للجميع يومًا ما. كان المذياع مفتوحًا، والرجل يتحدث وكنا نستمع إليه في هدوء. كنا نستمع إلى غضبك، وحركات يديك وهي تلوح في الهواء. سمعناك وأنت تتخلى فجأة عن هدوئك واسترخائك مثل حيوان أُطلق سراحه لتوه من القفص. شعرنا بتواصلك القوي مع السرب، الذي لا يزال يستمد قوته من القلم على الرغم من الأوامر المناقضة. سمعنا صرختك: «يا مقتاء! سيرى أولاد السفلة. سأخرجهم من هنا. لا أعرف كيف، ولكنني سأفعل!».

- نجحت، الرب وحده يعلم كيف، وأي سعر دفعت في المقابل. نعلم جميعًا ما حدث، ولكن بما أن القصة رُويت بطريقة بشعة سأحفظ للتاريخ ما حدث في الحقيقة. سنروي الحكاية يومًا ما.

- لم أحتفظ بأي شيء يخصك بعد ذلك اليوم. لم أحتفظ بأي شيء يمكنهم أن يأخذوه مني، لم أحتفظ سوى بالذكرى. حافظت أيضًا على الإيمان الذي لا يمكن لأحد أن يدمره، وذلك الأمل الذي لا يمكن لأحد أن يخمده، وذلك الحب الذي لا يمكن لأحد أن يروضه. إن الإيمان، والأمل، والحب موجودون مثل أولئك الموجودين في تعاليم الدين المسيحي الخاصة بالأخت "زوي" قبل المناولة الأولى، وفي القصص المصورة للتاريخ المقدس التي اعتدت أن تقرأها مرات ومرات، وفي النشيد الذي تغنى به البسطاء بعيدًا عن اللحن على الشاطئ في الكنيسة البيضاء الصغيرة على قمة التل بعد مراسم رفع السارية من أجل القديس "سيباستيان" أو القديسة "آن". أتحدث عن الإيمان، والأمل، والحب الذي لا يمكن لأي حراس أن يتركوا حراستهم يا ملاكي الحارس، يا أخي.

في نهاية الأمر، لم تعط "مارسيلو" الرسالة ليقرأها. لم يكن هناك رسول ليأخذها، ولم تعلم مكانه؛ هل كان منفيًّا في العالم أم يعيش حياة سرية في بلده؟ كانت هناك أشياء عديدة يتحدثون عنها بمجرد أن ظهر أخوها مرة أخرى بعد السماح. كان هناك العديد من الأخبار ليتبادلوها، والعديد من المشاريع للمستقبل لدرجة أنها نسيت أمر الرسالة. لم تتذكرها سوى مؤخرًا وهي تفتش في أشيائها باحثة عن مادة لمسرحيتها ووجدتها وسط الأوراق. أعادت قراءتها ووجدتها محيرة، وشخصية؛ شخصية للغاية. لن يمكنها أن تستخدمها أو أن تحاول نشرها؛ لأن لا أحد سيفهمها أبدًا: فهي مبنية بقوة على الذكريات الشخصية، وعلى الشفرة التي يتشاركها الإخوة والتي لا يمكن مشاركتها مع أي شخص آخر. ولكن الرسالة أيقظت بداخلها الذكريات، خصوصًا تلك التي وقعت يوم الجمعة الموافق الثالث عشر من ديسمبر عام 1968. أُطلِق سراح "مارسيلو" وأصدرت المحكمة العليا حكمًا بالإفراج عنه. كما صدر الحكم الخاص أيضًا بأربعة من الطلاب بترتيب أسمائهم الأبجدي. وستصدر الأحكام الخاصة بالأربعة الآخرين في المساء. صعد أبوها على متن طائرة على الفور ومعه كل الوثائق الصادرة، وذهب من العاصمة إلى حصن الجيش حيث كان الشباب موجودين. ظل المحامي على أتم استعداد ليأخذ الأوراق التي ستطلق سراح الآخرين في المساء. كان يجب علينا أن نقضي يومًا كاملًا من المفاوضات والضغط مع رئيس حراس السجن الذي لم يقبل أحكام القضاء. كان صاحب رتبة عالية في الجيش، وغالبًا لهذا السبب رفض أن ينفذ أحكام المحكمة العليا وأن يطلق سراح الطلاب. اضطر إلى أن يستسلم في نهاية الأمر، وأن يسمح للخمسة بالرحيل. ولكن عندما وصل المحامي الآخر ومعه أوامر المحكمة بإطلاق السراح، أخر وماطل العملية ولم يحرر أحدًا. قال إن ساعات العمل لهذا اليوم قد انتهت، وأن عليهم العودة في اليوم التالي. وفي اليوم التالي، أخبرهم أن يوم الثالث عشر من ديسمبر هو يوم البحرية، وأنه

إجازة عسكرية، وأن لا أحد يعمل في هذا اليوم، ولن يمكنه إطلاق سراح أحد. ما لم يتخيله أحد في هذه المرحلة هو أن السجناء قد نُقلوا إلى حصن آخر في الليل في مدينة أخرى وفي ولاية أخرى. في الوقت الذي تجادل فيه المحامي مع القائد، لم يعد هناك أحد بالداخل لكي يحرَّر. علم الجيش ما كان يلوح في الأفق، ولم يمتلك المدنيون أدنى فكرة عما يحدث.

كان «مارسيلو» والآخرون محظوظين؛ لأنهم استفادوا من الترتيب الأبجدي لأسمائهم، وأطلق سراحهم بالفعل. كانت هناك خطة لإخراجهم من «ساو باولو» وإيصالهم إلى ريو منفصلين لتأمينهم بطريقة أفضل. كانوا سيعيدونهم بالسيارة وعن طريق تبادل الأدوار في السيارة؛ كان هذا ضروريًّا حتى لا يُعتقلوا مجددًا. على سبيل المثال، غادر «فرناندو» الحصن مع «مارسيلو» في سيارته وتوقف في محطة بنزين، وبحسب الخطة بدَّل بأخيه راكبًا آخر. دخل «مارسيلو» إلى سيارة صديق كان ينتظره بعد أن غادر الحمام، ورحلوا دون أن يلحظهم أحد. أوقفت الشرطة «فرناندو» بعد عدة كيلومترات تحت ذريعة أنهم أرادوا الاطلاع على أوراقه. كان على «فرناندو» أن يقضي الليلة في مقر القيادة في حين يتواصل الرجال مع قادتهم ليبلغوا أن زميله في السفر قد اختفى. كان «مارسيلو» هو من دق جرس باب شقة أخته خلسة في الصباح. وقف أمامها والابتسامة على وجهه عندما فتحت الباب، وسألها: - أهلًا “لينا”، جئت لأقضي معكِ أيامًا قليلة. أتسمحين لي؟

غلبتها مشاعرها القوية. كانت تتحدث بصعوبة وسط العناق القوي، وامتلأت عيناها بالدموع، وانتابتها غصة في حلقها: - بالطبع، إنه لأمر رائع! ابقَ كما تشاء، ادخل..

أخذ «مارسيلو» حمامًا ساخنًا، وشرب قهوته، وتحدثوا إلى أمهم في مكالمة مشفرة أخبروها فيها بأنه قد عاد بأمان. ثم تحدثوا حديثًا مطولًا يشع حنانًا وعاطفة ضرورية لتخطي ما قد يتخيله المرء من آثار العودة إلى الحياة العادية والحرية. لم يحتفلا بعودته، ولكن على العكس؛ خيم التوتر على الأجواء بسبب المناخ السياسي في البلاد، وقلق الانتظار لأخبار عن الآخرين الذين لم يتمكنوا من الرحيل في اليوم السابق. لم تهدئ المكالمات التليفونية قلقهما، ولكنها على خلاف ذلك زادت منه. فبالإضافة إلى احتجاز «فرناندو» على الطريق، لم تخبرهما الأصوات على خط التليفون سوى عن جهود المحامين لتسمعهم السلطات المسؤولة عن السجن، وعدم قدرتهم على إقناعهم بتنفيذ الأمر القضائي في محاولة سخيفة للنيل منهم. أدرك «مارسيلو» و»لينا» تدريجيًّا كما لمحت جرائد الصباح أن الأجواء كانت متوترة بصورة استثنائية في كل مكان. كان الراديو والتليفزيون مفتوحين طوال الوقت. ناقشت البلد كلها نتائج تصويت مجلس الشعب في اليوم السابق،

وقرر نواب مجلس الشعب على الرغم من كل التهديدات ووقوفًا ضد رأي اللجنة القضائية في الحزب أن يواجهوا الفاشية العسكرية. صمد الممثلون في وقفتهم الاحتجاجية في جلسة استمرت الليل كله وحتى الفجر، وما أسمته الصحافة بـ«نصاب قانوني غير عادي». وأخيرًا، في يوم الخميس الموافق العاشر رفضت أغلبية كبيرة بنسبة ٢١٦ صوتًا إلى ١٤١ صوتًا توجيه التهم لزميلهم الذي طلب الجيش رأسه. ازدحمت أماكن المشاهدة، ووقف المدنيون يغنون النشيد القومي. وكما جاء في الصحف اليومية، فقد امتدت الاحتفالات باستقلال مجلس الشعب في جميع أنحاء «برازيليا»، على الرغم من التهديدات التي تلقاها نائب مجلس الشعب المنوط بالأمر. خيَّم على البلاد جو من المقاومة المدنية. كان النشيد القومي يُعزف في خلفية أفكار كل شخص. لم يكن على المرء أن يفعل شيئًا سوى أن يغمض عينيه حتى يرى ألوان العلم الأخضر والأصفر تلوح في السماء الزرقاء للبلاد. شعر المرء أنه حان الوقت ليقول «كفى» لنزوة الحكومة، وها قد أعطى نواب مجلس الشعب ورجال القضاء مثالًا ولن يخضع أحد. لن يصبح السيف أقوى من القانون أو الأصوات الانتخابية، أو على الأقل ظن المرء كذلك.

لم يستمر الحلم كثيرًا؛ أُعلِن عن رد فعل السلطات في الأخبار أيضًا. أذاعت وزارة العدالة إعلانًا رسميًّا للأمة في المساء في برنامج على الراديو اسمه "صوت البرازيل". انتظرت الأمة بأكملها لتعرف من اختار نفسه ليكون صوتها دون شرعية أو تفويض شعبي.

جهزت "لينا" عشاءً خفيفًا وتركت الراديو مفتوحًا. لم يكن العشاء أكثر من مجرد وجبة خفيفة. كان الجو حارًّا ولم يشعر أحد بالجوع. أكل "مارسيلو"، وقال: - لا يمكن للمرء يا "لينا" أن يرفض الأكل المنزلي بعد طعام السجن المقزز.

- هذا ليس أكلًا منزليًّا يا "مارسيلو". إنه أقرب للقهوة والخبز والزبدة التي تتناولها في الحانة عند الزاوية.

- وهل هناك شيء أفضل من خبز طازج وعليه زبد سائح؟ شميه فقط..

لطالما عشقت "لينا" حيوية أخيها: حب الحياة هذا الذي يظهر في كل جزء صغير من حياته. استمتع بوضوح وانفتاح بكل الحواس، والروائح، والأطعمة، وحتى درجات الحرارة المعتدلة. تذكرت أن "أماليا" كانت تقول إن "مارسيلو" يعيش مثل القديس "فرانسيس" في صلاة دائمة. إلا أنه بدلًا من كونه أخًا صغيرًا بطبيعة الحال، كان يحتفل دائمًا بالاستمتاع بكل تفصيلة صغيرة: صابونة جديدة، وملابس غُسلت لتوها، والكتابة في دفتر جديد، ووسادة ناعمة، ورائحة الأرض المبللة، وقطع اللحم في الفاصوليا. ضحك أبوها ذات

مرة قائلًا: - إنه ليس قديسًا يا «أماليا». لا تفسدي الولد بهذه الأشياء. إنه معتنق لمذهب اللذة، وشهواني تائه في الثورة. ستفسرين قريبًا لماذا يخرج ليلًا ليدهن الشعارت لأنه يحب أن يرج علبة بخاخ الطلاء ليسمع صوت الكرة بداخلها وهي ترقص، أو أن يستنشق الهواء المنعش قبل الفجر.

رد عليه "مارسيلو" مازحًا، وقال:

- هذا هو الأمر فعلًا يا أبي. أعشق صوت الطلاء وهو يخرج، وألوانه، ورائحته. أحب رائحة الحبر على المنشورات بمجرد خروجها من المطبعة، لكن ما يعجبني حقًّا هو قوة المشاعر.

ثم قلد إعلانًا تجاريًّا في التليفزيون، وقال:

- أحب أن أعيش في خطر.

تذكرت "لينا" تلك الألعاب العائلية بقلب يتألم أثناء وضعها للغداء على الطاولة، وفكرت كيف أن المخاطر أصبحت أعظم، وكيف أن المشاعر أصبحت أقوى مما يمكن احتماله. لم تكن تعرف سوى القليل، ولم تعلم أن الأشياء لم تبدأ بعد، وأن التهديد الأعظم كان على بعد دقائق قليلة من كشف نفسه.

جاء الإعلان عن طريق الراديو وبصوت معلق محترف لم تستطع "لينا" أن تسمعه بعد ذلك دون أن ترغب في التقيؤ. كان الجيش يقاوم الشعب، ويأمر بالقضاء على ما تبقى من الدستور. أعلن الجيش عن "قانون دستوري" جديد، عُرف فيما بعد ولُعن بالقانون سيئ السمعة "IA-5". أغلقوا مجلس الشعب، وأخضعوا الصحافة للرقابة، ولغوا تفويضات المسؤولين المنتخبين، وعاقبوا أعضاء مجلس الشعب، والقضاة، ووزراء الدولة، والصحفيين، والمفكرين، والطلاب، والعمال، وأي شخص ظن أنه يمكن لهذا البلد أن يعيش سوى تحت أحذية الجيش البرازيلي الطويلة في أي وقت.

استمعت "لينا" في صمت بين زوجها وأخيها إلى قراءة الوثيقة كلها على الراديو. ظنت أن ما يحدث كان نهاية لكل الآمال. ماذا سيحدث للبرازيل الآن. سمعت تعجبًا من وقت إلى الآخر من "مارسيلو" أو "أرنالدو": - المقتاء!

- يا له من استخفاف!

لاحظت فجأة بعد توقف المعلن عن الكلام أن "مارسيلو" كان يروح ويجيء في الغرفة. كان مثل أسد محبوس في قفص.. ظل يلكم الهواء ويسب: - الأوغاد! كان يعلمون من قبل، ولهذا ظلوا يلهون بنا. أولاد ساقطة.

أدركت أنه كان يتحدث عن السجَّانين. أولئك الذين لم يتبعوا الأوامر القضائية ولم يطلقوا سراح رفقاءه وأصدقاءه الذين تشارك معهم الزنزانة الضيقة

وعزلتهم جدران من الطوب وبوابات حديدية عن العالم. كان هو بالخارج وهم لا يزالون محبوسين لمجرد أن ترتيب حروف أسمائهم الأبجدي جاء بعد ترتيبه. أكمل “مارسيلو” حديثه غاضبًا: - ولكن لن يصبح الأمر هكذا، إطلاقًا! سيرون هؤلاء الـ... أولاد العاهرة.. سنجر الشباب من الداخل. سأخرجهم واحدًا تلو الآخر، يمكنك الاعتماد عليَّ. لا أعرف كيف، ولكنني سأفعلها.

صمت “مارسيلو” لحظة. كان أمام أخته وزوجها الذين جلسوا في صمت خائفين من عنف الـ”IA-5” الذي سمعوه لتوهم. كان هذا القانون بمثابة الضربة التي أفقدتهم توازنهم ولم يدركوا بعد حيثياته وما قد يؤدي إليه. أكمل “مارسيلو” حديثه وهو لا يزال يلكم الهواء: - وإذا كنتما تشكان بكلامي، سأخرج “ويليام” أيضًا كإضافة.

كان “مارسيلو” مهووسًا بهذا الأمر. كانت “لينا” ستبتسم لو كانت الظروف مختلفة. كان “ويليام” قائدًا شيوعيًّا قديمًا من المنطقة الشمالية الشرقية. كان رجل الشعب، وعجوزًا، ولديه كرامة أهل الريف المحبوبة. اعتُقِل عام 1964 مباشرة بعد الانقلاب. جروه في الشوارع مربوطًا إلى سيارة “جيب” في محاولة من الجيش البرازيلي لإضعاف معنوياته وإهانته في العلن. كان “مارسيلو” في الخامسة عشرة وقتها، وشعر بالاشمئزاز حين علم بالأمر. مرت خمسة أعوام، وما زال “ويليام” يتعفن في زنزانة ما. لم ينسَه “مارسيلو” على الرغم من أنه لم يعرفه، وأنه عاش في مدينة أخرى، وينتمي لجيل آخر. كان “ويليام” رمزًا بالنسبة له، وقديسًا على مذبحه الخاص كما كانت تقول “أماليا”. ذكرهم “مارسيلو” في هذه اللحظة التي بدأت فيها سنين الإرهاب رسميًّا، وأعلن عن ذلك على الراديو في ليلة صيف حارة في ريو أن الإرهاب قد بدأ منذ خمسة أعوام في مناطق مختلفة من البلاد. وعد “مارسيلو” نفسه أنه سيحاربه بأفقر الوسائل المتاحة تحت تصرفه، أو كما قال الشاعر: “سيصنع فيلًا كبيرًا بالمصادر القليلة لديه”.

كان هناك العديد من الأشياء التي يجب القيام بها على الفور على أية حال. كان “مارسيلو” هو أول من أدرك الشر الذي يخبئه لنا المستقبل وخطورة الأوقات الجديدة. نهض وبدأ في حزم حقيبة سفره الصغيرة التي كان أفرغها في الصباح. سأل زوج أخته قائلًا: - أيمكنك أن تذهب إلى هذا العنوان وتخبرهم أنني هنا ويجب عليَّ الذهاب؟

تساءلت “لينا” قائلة:

- ترحل؟ ألم نستقر على أنك ستبقى لبعض الأيام، وأن هذا آمن؟ أتظن أنه من الحكمة أن ترحل الآن؟

- إن هذا المنزل أكثر آمانًا من منزل أبي يا عزيزتي، ولكنه ثاني مكان سيبحثون عني فيه. سيبحثون عني هنا وفي منزل “تيريزا” لأنكما شقيقتيَّ. بدأ موسم الصيد، وليس أمامي سوى أن آخذ حذري.

رحل زوجها، وساعدت “لينا” أخاها. كانت قلقة لما قد يحدث لـ”أرنالدو” في الشارع وخائفة مما قد يجده في هذا العنوان الذي ذهب إليه، ومرعوبة من فكرة أن بيتها لم يعد آمنًا لـ”مارسيلو”، وبالتبعية لها أيضًا.

قال “مارسيلو”:

- من الأفضل أن تتخلصي من أي شيء في المنزل يا “لينا”.

فسألته:

- أتخلص؟

فرد عليها:

- نعم، استيقظي يا فتاة وتوقفي عن الركض في ذهول مثل الغبية تكررين ما أقوله. يجب عليكِ أن تفكري بسرعة، وأن تقومي بالأشياء في استعجال.

فقالت له:

- أقوم بالأشياء؟

لم تستطع أن توقف نفسها عن التكرار. وجدت كل شيء غريبًا ولم تفهم ما يحدث. فردَّ عليها: - نعم يا “لينا”، سيأتي الرجال ويطرقون الباب هنا. إن الأمر مسألة وقت فقط. يجب أن أكون بعيدًا حين يأتون، ولكنهم سيفتشون كل شيء. يجب عليكِ ألا تبقي شيئًا في المنزل.

فسألته:

- مثل ماذا؟

توقف “مارسيلو” عما كان يفعل ونظر إليها، ثم جلس على طرف السرير، وقال لها في صبر: - تعالي، اجلسي هنا.

جلست “لينا”. كانت بالفعل مذهولة؛ تشعر أنه يمكنها أن تفعل أي شيء يخبرها به أي شخص، ولا شيء إن لم يأمرها أحد أو يقرر لها أحد. فسر “مارسيلو” الأمر لها وهو يداعب يديها: - اعذريني إن كنت فظًا، من الجائز أنني أعطيكِ العلاج بالصدمة. ولكنني أظن أنه عليكِ أن تدمري براءتك يا “لينا”. إن الزمن تغير، والوضع في حالة غليان. إن المتشددين قد صمموا لتوهم انقلابًا.

فسألته:

- ولكن ألم يقوموا بهذا بالفعل؟

فقال لها:

- إنه انقلاب داخل انقلاب هذه المرة، وستسوء الأمور كثيرًا. لن توجد خطابات بعد الآن، ولا مظاهرات، ولا تجمعات، ولا مقالات في الصحافة، ولا دورات تعليمية من الأساتذة الذين ينتقدون الأحوال والسياسات، تركت الزنزانة الصغيرة لأذهب إلى زنزانة أكبر، وأنتِ أيضًا محبوسة. نحن أفضل ممن بقوا بالداخل بالطبع؛ لأننا يمكننا القيام ببعض الأشياء، ونحن ملزمون بالقيام بها. ولن نستطيع أن نخرج من هذا الوضع أبدًا إن لم نقم بها.

ما زالت لم تفهم الأمر بعد، وسألت:

- ماذا تريد مني أن أفعل؟

كانت الإجابة سريعة:

- يجب عليكِ أن تتحكمي في نفسكِ أولًا، وأن تتوقفي عن هذه التصرفات الطفولية. لا يمكنك أن تقفي مثل الغبية الآن أو للأبد. لو استمررتي هكذا مثل الصرصور الدائخ فلن تقدري على القيام بأهم شيء، وهو أن تبقي على قيد الحياة.

لفت هذا انتباهها فقالت:

- البقاء على قيد الحياة؟

- البقاء على قيد الحياة لتنظمي حياتك، أو تنظمي من نفسك لتبقي على قيد الحياة، أيهما، لن أستطيع أن أعرف كل شيء في لحظة واحدة. أعلم فقط أن على المرء أن يكون حيًّا وحُرًّا ومنظمًا. وهذا يعني أنه يجب علينا ألا ندع أي شيء يحدث لنا. سيأتي الرجال هنا؛ هذا أمر أكيد. أولًا، لا يمكنهم أن يجدوني هنا. وثانيًا، لا يمكنهم أن يجدوا أي شيء يجرِّم أي شخص. لهذا يجب عليكِ أن تنظفي المنزل يا "لينا". تخلصي من بوستر "جيفارا"؛ لأنه لن يتسبب سوى في مضايقة الرجال أكثر ويجعل الأمور أسوأ بالنسبة إليكِ. تخلصي من بعض تلك التسجيلات، وخبئي الكتب. احذري جيدًا من أي شيء مكتوب: عناوين، ومنشورات، والمسودات الأساسية للمقالات. لا أملك أدنى فكرة عما يرقد في منزلك. تخلصي ليس فقط من أشيائك ولكن من أي ورقة خاصة بأي شخص آخر من الممكن أن تشكل مشكلة. أفهمتي؟

فردت عليه:

- نعم، فهمت. سأعتني بكل هذه الأشياء في صباح الغد.

فقال لها:

- أنتِ لم تفهمي. لا يمكنك الانتظار. يجب عليكِ أن تبدئي فورًا.

بدأت في الأمر، ولكن بدا لها أنها لن تتوقف أبدًا. عاد "أرنالدو" برسالة من فتاة كانت تنتظر بالأسفل لتأخذ "مارسيلو" إلى مكان ما آخر، ولا يمكن لأحدهما أن يعرف أين. رحل أخوها وهو يحذرهما قائلاً: - أخبروا أمي أنني ذاهب إلى مكان آمن. سيتواصل معكم أحدهم إذا تطلب الأمر. وهناك شيء واحد لا أريدك أن تنسيه أبدًا: لو لم توجد أية أخبار عني فهذا يعنني أنني بخير. يجب ألا تعرفوا أي شيء عني لمصلحة الجميع. ستعرفون ما إذا حدث لي شيء على الفور. هناك مقولة قديمة تقول: "انقطاع الأخبار يدل على الأخبار الجيدة".

عانق "لينا" بقوة عند الباب، وأضاف:

- لا تخافي. كنا نحضر أنفسنا لهذه الأنواع من الاحتمالات؛ هناك منظمة كاملة ورائي. ولكن أنتِ على العكس، لا تملكين واحدة. اعتني بنفسك يا فتاة. ابدئي بتنظيف المنزل، ولا تنسي أن المراحيض تنسد، والقمامة يمكن البحث فيها، وأن النار تسبب الدخان.

أغلقت "لينا" الباب وراءه ورمت نفسها بين ذراعي "أرنالدو" تبكي. أصبحت مؤخرًا هكذا: متوترة، وحساسة، وتشعر أنها تريد أن تستيقظ من هذا الكابوس. تألمت لـ"مارسيلو" والآخرين ولنفسها. لطالما كانت قريبة منه، فقد كانت الأخت الكبرى والحامية. وفجأة رأت في هذه الليلة أن الأدوار قد تبدلت. لقد لقبها بـ"فتاتي"، وأعطاها الأوامر والنصيحة كما لو أنه حارسها. فجأة، رحل الصبي وظهر مكانه الرجل.

مرر "أرنالدو" يده على شعرها وترك ذراعيها، وقال لها:

- ما كان يتحدث عنه في غاية الأهمية يا "لينا". لا يمكننا أن نهدر الوقت.

أمضيا الليل بطوله يمزقان الأوراق. رميا الأوراق الصغيرة شيئًا فشيئًا في المرحاض خائفين من أن يسداه أو أن يتساءل الجيران عن صوت تدفق المياه الكثير. أحرقوا بعض الأجزاء الكبيرة من الأوراق في قاع حوض الاستحمام، ولكن كان عليهما أن يتوقفا. هاجمتهما الكحة وخافا من أن يتصل أحدهم بالمطافي في منتصف الليل. قررا أخيرًا أن يثقا في الحظ ويتركا جزءًا من العمل لليوم التالي، وأن يتخلصا من الأشياء في وقت تكون محرقة شقة المبنى تعمل. ولكن إذا أتى الرجال قبل ذلك..

لم يأتوا. كانت «لينا» و»أرنالدو» محظوظين؛ فقد استغرق الأمر من الرجال بضعة أيام حتى يصلوا. قلبوا كل شيء رأسًا على عقب عندما جاؤوا، وكسروا الأشياء، وهددوا كثيرًا، ولكن كان هذا كل ما في الأمر. كانوا يعلمون بالطبع أن «مارسيلو» لن يكون هناك. كان لديهم عمل أكثر بكثير في اليوم الأول وهم يبحثون في أماكن أخرى. بدا الأمر وكأنهم في حرب؛ اعتقلوا الآلاف من الأشخاص. وافق اليوم الرابع عشر يوم سبت. قاومت الصحف قدر استطاعتها الرقابة القوية. نشرت الأخبار كما لو أنها برقيات؛ مكدسة، وبخط صغير. كانت حرفيًّا بين سطور صفحة الوفيات: اعتُقل هذا وذاك، ومن اعتُقِل. استعملت الصحف حيل الترقيم لتخبر القراء أن الأمور كانت في غاية السوء. كما استعملت عناوين مبهمة، وتعليقات مكتوبة تحمل معاني مزدوجة، وصورًا غريبة لا علاقة لها بالموضوع. فعلى سبيل المثال، نشرت «جورنال دو برازيل» في حركة مقاومة شجاعة منشورات محظورة بشكل عشوائي عبر صفحات الجريدة بدلًا من أخبار خضعت للرقابة. نشرت الجريدة أن مجلس الشعب قد أوقف عن ممارسة واجباته، وطبعت النص الكامل لقانون الدستور رقم ٥. وطبعت صورة عملاقة للتوضيح، وعليها تعليق: «لحظة درامية»، وتظهر مباراة كرة قدم قديمة حيث يُطرد «جارينشيا» المعروف بـ»بهجة الشعب» من الملعب. وأضافت الجريدة بعض الصور الرياضية لتزيد من حدة الموقف مثل الفلفل والشطة. كانت هناك صورة بدلًا من المقالة الافتتاحية تحت عنوان «مهمة هرقل الجبارة» تبين طفلًا صغيرًا يحاول أن يطيح ببطل عالم في الجودو أرضًا. كانت هناك صور لـ»الغوريلات» في كل مكان بين المنشورات والرسائل إلى المحرر المتغير مكانها، وإشارات أخرى للوضع في البلاد.

كان من ضمن الإشارات أيضًا صورة قديمة للمنتخب البرازيلي في كأس العالم البرازيلي في مخيم التدريب، وتحتها تعليق: «المحاربون في راحة - اللاعبون البرازيليون سعداء بالمرافق وآخذون الأمور بسهولة». كانت هذه طريقة خفية لإخبار القراء بأن هناك العديد من الأشخاص في السجن. احتفظت «لينا» بالجريدة. في الحقيقة، «أماليا» هي من احتفظت بها وأعطتها لها لاحقًا. لم تنسَ الصفحة الأولى حيث احتوى كل ركن علوي على رسالة ما بجانب الخطوط التقليدية حتى دون الصفحات المطبوعة أمامها. كان هناك على جانب واحد أخبار عن: «الاحتفال بيوم المكفوفين» في إشارة علنية إلى الاحتفال بعيد القديسة «لوسي»، راعية البصر. وعلى الجانب الآخر، نشرة جوية تهديدية تحذر من السحب السوداء التي تلوح في الأفق ومخاطر أخرى. وتدعو النشرة الجوية بوضوح إلى الاستلقاء عند الشواطئ المشمسة التي تجذب الجميع إلى البحر: المكان الوحيد الذي لا يزال ممكنًا فيه أن يجتمع الناس، ويناقشوا الضحايا، ويحاولوا معرفة من اعتُقِل ومن

يختبئ. رسمت الجريدة صورة لشمس صيف صارخة ومتأججة؛ وصورة لجنة استوائية لا تبالي بالإرهاب الذي استوطن الأرض. كان الإرهاب خائنًا متهكمًا على النشيد الوطني وتأكيده على: «وفي هذه اللحظة، سطعت شمس الحرية بأشعتها البراقة من سماء الوطن».

والآن كانت الشمس نفسها أقل حدة في حديقة منزل الشاطئ. كانت شمس سبتمبر مثل شمس يوم الإعلان عن استقلال البرازيل الذي أشار إليه النشيد. كانت لا تزال شمس الربيع المبكرة موجودة وأنعشها النسيم. وضعت "لينا" الرسالة التي لم ترسلها إلى "مارسيلو" في الملف، واتكأت على عمود الشرفة لتنزل السلالم إلى الحديقة المشمسة. كان جميلًا أن تأخذ نزهة قصيرة حول المنزل حتى لو كانت تعرج. مشت بصورة أفضل وأكثر اطمئنانًا، وكانت هذه علامة جيدة على أن قدمها بدأت تتعافى. استطاعت أن تتخطى ما حدث، وأن تظل على قيد الحياة، وكان يجب عليها أن تكون ممتنة لأنها عاشت. لقد نجت مرات قليلة. "ابقي على قيد الحياة لتصبحي منظمة، أو العكس" كما قال لها "مارسيلو" ذات يوم. كانت "لينا" في هذه اللحظة تكاد تكون حيَّة. لم تكن منظمة على الإطلاق. إذا كانت تريد حقًّا أن تعيش فعليها أن تنظم من نفسها. عليها أن تقاوم، وترفع رأسها، وترتب أوراقها، وتحضِّر نفسها لليوم الذي ستستطيع فيه أن ترتب كلماتها، وجملها، وأفكارها، وأن تكتب النص. عليها أن تخاطر وتتوقف عن الأدوية وتعود إلى السقوط من أجل أن تفعل ذلك. كانت تعلم أنها ستصل هناك عندما تستجمع شجاعتها. ما زال أمامها طرق عدة عليها أن تسلكها لكي تصل، والآن، حان الوقت لكوب آخر من الحليب وقرص. لم تستطع حقًّا أن تمشي مدة طويلة. بعد قليل، ستخرج الرسائل وستُعيد قراءتها قليلًا. من الممكن أن تجد بينها مادة للمسرحية، ولهذا فليس عليها سوى أن تقوم بالفرز وبعض التغييرات.

"باريس، السابع من مارس، 1970

أمي العزيزة،

كل شيء على ما يرام، على الرغم من المشكلات الأولية التي وجدناها في الاستقرار وهذا الجو البارد الذي لا ينتهي مع أننا اقتربنا من فصل الربيع. كل شيء يشير إلى أننا سنبقى هنا ولن نستمر في الترحال كما كانت الخطة. كان أصدقاء "ألفيردو" رائعين ونحن واثقون من أن شيئًا ملموسًا سيحدث عن طريق مساعدتهما؛ ربما منحة دراسية لـ"أرنالدو" ووظيفة لي أو العكس. نقتصد في معيشتنا في غضون ذلك مستعينين بمدخراتنا القليلة التي أحضرناها معنا. استمري في الكتابة إلى العنوان نفسه. سنترك الفندق في الأسبوع المقدس وسنقضي خمسة عشر أو عشرين يومًا في منزل بعض الأصدقاء المسافِرين إلى إيطاليا. سندخر بعض الأموال بهذه الطريقة. إن

الأمر ليس سهلًا فالمعيشة مكلفة للغاية. إن عملتنا لا قيمة لها، وبما أننا لا نعلم متى سيأتي أي دخل لنا، فيجب علينا إذن أن نعيش مثل البخلاء. أرسلت مقالتين إلى المجلة وأخبرني المكتب الفرعي أنه سينشرها. إنها بداية. وبما أنهم سيدفعون لي في البرازيل فعلى أبي أن يتابع الأمر، ويتأكد من وصول المال في آخر الشهر.

إن عملية البحث عن محل إقامة عملية محبطة؛ فكل شيء مكلف وعلى وشك الانهيار. سنجد شيئًا في نهاية الأمر، ولكن علينا أن نصبر. أخبرنا "تيكسيرا" من الجريدة البارحة أن هناك زوجين - هو ممثل وهي صحفية - يريدان العودة، وأن يتركا إيجار شقتهما. يريدان شخصًا يدفع لهم إيجار ثلاثة أشهر دفعاها مقدمًا ويعيدها المالك فقط في نهاية فترة الإيجار للمؤجرين الجدد. سنرى، لكن هذا الوضع سيفيدنا كثيرًا. من الجائز أن تكون هذه الشقة احتمالية، ويعتمد هذا على حالة الشقة ومستقبل عملنا.

نشتاق إليكِ كثيرًا، ولكننا نشعر بالراحة إلى حد كبير. احتفل "أرنالدو" في ذلك اليوم بأسبوعه الأول الذي تمكن فيه من النوم، دون كوابيس أو أرق لكلينا. هذا الأمر وحده قادر على تعويضنا عن كل الصعاب وعن أي اشتياق.

قبلاتي..

لينا".

"باريس، الخامس من مايو، 1970

والديَّ العزيزين،

لا يمكن لأحد أن يعلم حقًّا أن الربيع قادم، وأن هذه المدينة جميلة مثل مسرحية موسيقية من إنتاج شركة «MGM»، على الرغم من تجهم وعدوانية سكانها. استقررنا أخيرًا في «علية» ساحرة، على بعد خمسة أدوار بين الأسطح المجاورة. ينظر إليَّ من كأس الماء على الطاولة باقة صغيرة من زهور «زنبق الوادي». اتضح أن كل شخص يوزع هذه الزهرة كل يوم اثنين في الشوارع لجلب الحظ السعيد. سأمتلك الحظ، وسنكون كلنا محظوظين، فهذا ما يبدو أن الأجراس البيضاء الصغيرة تقوله. استطاع «أرنالدو» أن يحصل على تدريب في مستشفى للوقت الحالي، وغير مدفوع الأجر؛ لأنني كما قلت لكِ في رسالتي الأخيرة إن درجته العلمية غير معترف بها هنا. مثل العمل طبيبًا مقيمًا (مرة أخرى!) ويحصل على وجباته، بالإضافة إلى فرصة ليقابل زملاءه ويتعرف على المكان. إن «سيلفيا» متأكدة من أنه سيحصل على منحة، والتي من المنتظر أن تُعلن في سبتمبر بداية العام الدراسي، ثم سيتمكن من الاستمرار في العمل هنا وسيقبض مرتبًا بصفته دارسًا. أحاول

أن أتدبر أموري قدر استطاعتي. فبالإضافة إلى العمل في المجلة (نُشرت مقالتي الأولى الأسبوع الماضي، وسأرسل لكِ قصاصة منها. لم يظهر اسمي بالطبع ولكن كان أمرًا شيقًا أن أرى شيئًا كتبته منشورًا بالفرنسية). سأبدأ هذا الشهر في القيام ببعض أعمال الترجمة والأبحاث عن أمريكا اللاتينية لمكتبة منظمة كاثوليكية. يدفعون القليل من الأموال، بالطبع، ويطلبون الكثير من العمل. لكنني أختار ساعات عملي، ويمكنني عادة أن أعمل من المنزل. وبالحديث عن المجلات، أرسلت أربعة مقالات أخرى في أبريل هناك. أحاول أن أحافظ على معدل مقالة واحدة كل عدد، ونُشِرت كلها.. ماذا عن أجري إذن؟ هل يمكن لوالدي أن يضغط عليهم قليلًا؟ نحتاج المال بشدة؛ خاصة بسبب ترك «باتريشيا» و«إدورادو»؛ الزوجين اللذين كانا يعيشان في هذه الشقة من قبل، العديد من الفواتير غير المدفوعة، من فواتير الهاتف إلى فواتير طبيب الأسنان، وطلبا منا أن ندفعها وسيدفعونها لنا لاحقًا من مبلغ ستتسلمه عن طريق «تيكسيرا» من عمل ما أرسلته إلى البرازيل. نحن واثقان من أننا لن نواجه مشكلة بما أنهما صديقين مقربين لـ«ألفريدو» وضمنتهما «تيكسيرا» أيضًا، فعلى أية حال، سترسل الجريدة المال له مباشرة هنا في باريس، وتركت «باتريشيا» تفويضًا مكتوبًا له ليسحب المال ويعطيه لي. المشكلة تكمن فقط في الوقت، تضييق الوضع المالي قليلًا. صارت مديونياتنا ٢٥٠ دولارًا، ولا نملك أموالًا أخرى في مدخراتنا.

اكتبوا لنا دائمًا وكثيرًا. نشتاق إليكم بشدة، ونقلق حين لا نسمع أخبارًا منكم، خاصة أن ما نسمعه عن البلاد محبط للغاية.

قبلاتي..

لينا».

“ريو، العشرين من مايو، 1970

عزيزتي “لينا”،

هذه رسالة قصيرة لأنني في عجلة شديدة من أمري. لكنني أريد أن أخبركِ بأننا سنرسل لكِ من سيعطيكِ خمسين دولارًا، إضافة إلى الفاصولياء واللحم المقدد. هذه هدية مننا، إنها ليست كبيرة ولكنها كل ما نستطيع أن نقدمه. أتمنى أنها ستخفف من عليكِ ولو قليلًا. نحاول بكل الطرق أن نحصل على المال الخاص بكِ. يظن أبوكِ أن مشكلة أموال مقالات المجلة ما هي إلا مسألة أيام، وأنه هناك فقط تعقيدات إدارية وبيروقراطية. يضغط الجميع عليهم ضغطًا معنويًّا منذ أن وصلت تلك السافلة “باتريشيا” وأوقفت تحويل الأموال من الجريدة. قام “ألفريدو” بالفعل بمحادثة حادة معهم وجاء بفكرة عظيمة: سيعطي “إدورادو” دورًا كبيرًا في الفيلم الذي هو على وشك إنتاجه

الآن. وبمجرد أن يحصل الإنتاج على بعض التمويل، سيدفع له مسبقًا حتى يصل المال قريبًا. أترين؟ لن تشعري بوحدة أبدًا ولديكِ أصدقاء. إنه وقت قصير الآن.

أما بالنسبة لأخبار البلد، فلا بد وأنكِ تقرئين عنها في الجرائد هناك. سمعنا أن أخبارنا وصلت حتى إلى التليفزيون. هل رأيتيها؟ سيخبرك من سنرسله لكِ بالمزيد، وسيعطيكِ التفاصيل وجهًا لوجه. قبلاتي، واشتياقي من أختك.

تيريزا”.

“باريس، الثامن عشر من يونيو، 1970

والديَّ الأعزاء،

كم هو رائع أن تصل أخبار جيدة عن البرازيل في الجرائد هنا! كان لدينا احتفال وكان على الموطن الأم أن يرتدي أحذية كرة القدم أولًا ليحتفل معنا. شاهدنا النهائيات على التليفزيون في منزل “تيكسيرا”، ثم خرجنا إلى الشوارع لنحتفل مع مجموعة من البرازيلين الذين أتوا من كل حدب وصوب، ومعهم الأعلام، والطبول، ومرتدين قمصان المنتخب الوطني لكرة القدم. هل تستطيعين تخيلي وأنا أرقص السامبا في يونيو تحت قوس النصر وفي منتصف زحمة مرورية تاريخية؟! حسنًا، أغلقي عينيكِ وتخيلي المشهد. ذهبنا لنأكل في مطعم إيطالي بعد ذلك حيث تراهنَّا مع المالك. إن الإيطالين رائعون، نزلنا من محطة مترو “مابيلون” ومشينا إلى زقاق خلفي ضيق، كأنه طريق مسدود. كان المطعم مغلقًا ومكدسًا. لن تصدقي هذا، ولكنهم كانوا يحتفلون بالمركز الثاني في البطولة.. وتركوا لنا طاولة مميزة مجانًا بصفتنا ممثلي البطولة العالمية. شعرت أن جميعنا، هنا، وهناك، وعلى الجزيرة، وفي كل البلاد، وأينما كان البرازيليون أننا جميعًا نشجع في الوقت نفسه ونتابع اللعبة معًا. لا يهم أنهم يحاولون أن يستخرجوا أسبابًا سياسية من المشهد هناك، ولكن ما يهم هو أننا نحتاج إلى أن نشعر بالسعادة معًا. ولهذا كاد قلبي أن ينحني على ركبتيه بجانب “جارزينيو” وهو يضحك، ويرفع ذراعيه، ويرتدي قميص الفريق الأصفر على هذا الملعب المكسيكي الأخضر.

من الممكن أن نترك هذه الشقة مع نهاية الشهر. سنقابل المؤجر غدًا ونتحدث. سينتهي العقد قريبًا، وبالنظر إلى سوداوية المشهد، سيكون من الأفضل أن نحصل على مال المقدَّم الذي دفعناه ونحاول أن نجد شقة أرخص حتى لو كانت أبعد وغير مفروشة. سنشتري بعض الأثاث عندما يصل المال من “باتريشيا” و”إدورادو”، أو ربما سنسدد بعضًا من ديوننا لأنه حتى يأتي هذا المال وتدفع لي المجلة - ماذا يحدث بخصوص هذا الموضوع بالمناسبة؟ - سنضطر إلى أن نستلف، وقد طلبت سلفة مبكرة من المكتبة. ولكني لا أريد

أن أتحدث عن هذه الأشياء اليوم، ما زلت أحتفل بالبطولة. قبلاتي لكم جميعًا..

لينا".

أختي الحبيبة "لينا"،

كنت أود لو أكتب لكِ اليوم، في الرابع عشر من يوليو، في يوم قد تصل فيه أموالك إلى بلاد الباستيل. ولكنه كان غير ممكن. استطعنا أخيرًا أن نكتشف ما حدث. دفع "ألفريدو" إلى "إدورادو" نصف كل شيء مما سوف يتقاضاه نظير عمله مسبقًا؛ حتى يستطيع أن يرسل إليكِ الأموال على الفور. لم يرسلها، وهذا حين قابلته صدفة يضايف طاولة كبيرة ويقدم الويسكي في شرفة "أنطونيو"، وكان هناك المشهد الذي كتبت لكِ أمكِ عنه. أعلم أنه لم يكن تصرفًا راقيًا، ولكنني لم أستطع أن أتمالك أعصابي. وبخته بصوت عالٍ حتى يعرف الجميع، ولكن لم ينفع معه، فالشاب وقح. على أية حال، كان الجميع في المطعم يتحدث عن الأمر، واكتشف "ألفريدو" أنه لم يرسل المال. وفي اليوم التالي، ذهب معه إلى البنك وأعطاه شيكًا بقيمة المبلغ الذي يدين به لكِ، بالإضافة إلى نصف المبلغ الذي سيستلمه بعد نهاية التصوير حتى يرسله على الفور. فعل "ألفريدو" المزيد: وقف بجانب "إدورادو" وهو يملأ الاستمارة ليرسل المال. ولهذا اتصل بعد التحويل مباشرة ليقول إن المال في الطريق. ما حدث هو أنه ابتعد بعينيه عن الإجراءات المتخذة أثناء إعطاء الوثائق للصراف، ولكن السافل "إدورادو" وضع الشيك وهو بجانبه مباشرة في جيبه ولم يرسل الأموال! لم أرَ في حياتي دناءة مثل هذه. من الصعب التصديق بأن صديقًا لنا عديم الأمانة، وغير متضامن، ومحتال لهذه الدرجة. لا أعرف. أعتقد أنه سيكون من الصعب أن نعيد الأموال، فهؤلاء الاثنين عديما القيمة. أنا تائهة حقًّا، ولعلمي بأنك حامل الآن وأنك ستحتاجين هذا المال بشدة. سيكون هناك العديد من النفقات، وستسوء الأمور ببشاعة هنا.

يعتقد "أدريانو" أنه من الأفضل ضرب "إدورادو". أعتقد أنه لن ينفع شيء معه؛ فالشاب عديم القيمة حقًّا. ولكن "ألفريدو" يظن أنه يمكنك أن تحاولي شيئًا آخر إضافيًّا. إن "باتريشيا" تنتظر طفلها الثاني ويمكن لهذا أن يهدئهما. يقترح "ألفريدو" أن تكتبي رسالة طويلة، تشرحين فيها كل ما حدث وتصرين على أنكِ بحاجة ماسَّة للمال، وترسلي الرسالة إلى "ألفريدو"، وسيوصلها شخصيًّا ويضغط على "إدورادو" مرة أخرى. يعتقد أن هذه المحاولة ستنجح، وأن "إدورادو" ليس سيئًا كما يبدو، ولكنه فقط غير مسؤول قليلًا، ومتضاد. يظن "ألفريدو" أن "إدورادو" يملك قلبًا طيبًا ويظهر تضامنًا سياسيًّا. لن يكلفك شيئًا أن تحاولي وأنت بحاجة ماسة إلى ذلك.

قبلات كثيرة لكما أنتما الاثنين، واعتني جيدًا ببطنك الصغيرة التي غالبًا لم تظهر بعد.

تيريزا".

علمت "لينا" أنها لن تقدر على مواصلة القراءة فقد كان الأمر يفوق احتمالها. انتهت أيام المنفى، والأوقات الصعبة، والزواج، ولكن لا يزال الألم موجودًا وملموسًا. لم تحتفظ بنسخة من الرسالة التي كتبتها إلى "إدورادو" و"باتريشيا". تذكرتها جيدًا ولكنها تفضل أن تنساها الآن. تفضل ألا تفكر في كيف شرحت لهما أنها حامل، وأنها كانت بحاجة ماسة إلى المال الذي أعطتهما إياه؛ لأنها كانت واثقة من أنهما سيردانه لها حينها. أرادت الآن أن تنسى كل شيء. شعرت بأنها منكسرة من جديد، وأنها لن تحمل مرة أخرى أبدًا. خسرت هذا الطفل الذي لم يعِش أبدًا، وخُلق في وقت لم يكن هناك مصادر له، وخسرته بعد شهور حاولت خلالها كل يوم أن تطيل من حياته داخلها قليلًا. خسرت ذلك الطفل الذي حلمت به والذي اختفى. كانت تشعر بفراغ لن يملؤه أبدًا طفل مرة أخرى من رحمها، يعانقها بدفء وحنية وهو جالس على ركبتيها، ويرضع من صدرها، ويدفئ قلبها.

- أخبروا تلك المرأة أن تتوقف عن مضايقتي! لن أدفع قرشًا لعينًا، من أخبرها أن تكون مغفلة هكذا؟ وأما بالنسبة لحملها، فـ"باتريشيا" حامل أيضًا.

لم يدفع "إدورادو" شيئًا. ظل في البرازيل يشرب الويسكي، وتحول إلى مخرج، وأصبح نجمًا تليفزيونيًّا. صنع أفلامًا تتبع الفكر اليساري، ثم تقلّد المناصب في الحكومة وزوجته بجانبه في فترة إعادة الديمقراطية. ترك في نفس "لينا" أكثر من مجرد ذكرى لشخص محتال؛ ترك لها صدمة مواجهة عدم الأمانة المطلقة وضرب بعرض الحائط اعتقادها أن المجتمع الجديد يجب أن يكون أخلاقيًّا. ساعدها في أن تفقد براءتها وجزءًا كبيرًا من أملها في الإنسانية.

كل هذا كان مؤلمًا، حتى على المستوى الجسماني. شكّل حملًا ثقيلًا على صدرها، وكاد أن يخنقها. أحرقت الدموع التي لم تُرد أن تذرفها فتحتي أنفها. ابتلعت دموعها بصعوبة وشعرت أنها لا تريد حتى أن تنزل في حلقها. ضاق صدرها، وانسد كما لو أنه يهشم. من الجائز أنه من الأفضل أن تستسلم وتدع الألم يسحقها حتى تضع نهاية للأمر مرة واحدة للأبد. سقطت دموعها، وتعالى نحيبها. لم ترد أن ترتعش أو أن تصدر أي أصوات، غالبت رغبتها في التأوه والحركة، وفي تحكمها في اهتزاز أحبالها الصوتية. سمعت الهاتف يرن، وجاءها صوت أمها بعد ذلك مباشرة تقول: - إنه "ألونسو" يتصل.

لم تستطع، لم تتحمل ذلك، ولم تتمكن من التحدث الآن. لاحظت أمها على الفور بمجرد أن رأت تعبير وجه ابنتها، فقالت: - سأخبره أنكِ تستحمين، وسأدعه يتحدث لاحقًا.

ثم اتبعت غريزتها وعادت لابنتها، ولم تقل أي كلمة أخرى.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

10

“هناك في لندن، من وقت إلى الآخر، أشعر بأنني بعيد عن هنا،

من وقت إلى الآخر، عندما يداهمني هذا الشعور، أجد نفسي

أشد شعري

ومتململًا، وأرغب في الاستماع إلى “سيلي كامبيلو”، حتى لا أقع

في هذا المنخفض

الذي ابتلع زميلي من “بورتبيلو”

هكذا، دون سبب

فلم أكن أملك سببًا

لأستمتع

وسط غياب

الدفء، واللون، والملح

ولا قلبًا لأشعر به”.

“جيلبرتو جيل”

“اقتنعت بأن أقول نعم، وأقول

ولكن عيناي

تذهبان لتبحثا عن صحون طائرة في السماء”.

“كايتانو فيلوسو”

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

اخترقت جمرة صغيرة الخط الفاصل بين الأزرق الداكن والأزرق الأكثر قتامة. كانت الجمرة مشتعلة وتظهر نفسها بصورة أوضح بكل استدارتها النارية غير متأثرة بمياه البحر التي خرجت منها مثلما يخرج رأس الرضيع من بين أرجل أمه أثناء الولادة. سيظهر كل جزء منه في لحظة ويولد كاملًا وممتلئًا، وبسيطًا. سيصعد إلى أعلى السماء ببطء، ويحول النار إلى اللون الذهبي، ثم إلى أسطوانة فضية نحتفل بها، عليها العديد من الأغاني والقصائد التي تمثل قمر كل شخص. ولكن هذا القمر الآن بلونه القرمزي وهو يتدفق من رحابة المحيط يطالبنا بأن نوقف كل شيء لنتأمله في صمت في وقت الغروب

الاستوائي الخاطف. كانت رؤيته في هذا الوقت ميزة لا يتمتع بها سوى قليلون من الأشخاص.

شعرت "أماليا" كأنها تصلي في كل مرة رأت فيها القمر بدرًا. حضرت نفسها بطقوس خاصة. لا تتكرر هذه اللحظة سوى مرة كل شهر إذا لم تكن السماء مغيمة. اعتادت إخراج مقعدها إلى الشرفة المظلمة أو على الشاطئ باتجاه الشرق بحسب الرياح. ثم تضع كرسيًّا آخر خلف المنزل في اتجاه الغابة التي تغطي التل ناحية الغروب وتجلس لتنتظر. شاهدت الشمس وهي تستلقي وتتمدد في محاولة منها أن تبقى قليلًا وتطيل من شعاعها الذهبي، والبرتقالي، والوردي، والأرجواني الفاتح، وكل الألوان الدافئة. نهضت "أماليا" في اللحظة التي اختفت فيها الشمس بالضبط، وذهبت إلى الكرسي الآخر على الجهة المقابلة لترى القمر وهو يصعد. علمت هذا منذ طفولتها وتذكرت جدتها وهي تخبرها بما تعلِّمه حاليًّا إلى أحفادها: "عندما يكتمل القمر، يولد في اللحظة التي تموت فيها الشمس".

صعد القمر إلى السماء في الليلة السابقة مبكرًا قليلًا، وسيظهر في اليوم التالي متأخرًا للحظة. لا يوجد سوى يوم القمر المكتمل الذي يحصل فيه المرء على تذكرة مزدوجة في مسرح أفلام الرب، كما روت نكتة الأحفاد. ولهذا السبب، لم تفوت "أماليا" هذا الطقس الشهري، وهذه اللحظة الفريدة التي أُعجبت فيها بجمال الخلق، وتأملت في حياتها الخاصة. كان أحد الأشياء التي تقدرها "أماليا" للغاية هو تفرد هذه اللحظة على الرغم من كونها دورية. كان هناك أمان معين في فكرة أن القمر سيعود دائمًا. وكما رأته جدتها في وقت كان لا يزال هناك عبيد في البرازيل، وكما سيراه أحفادها في وقت عسى ألا يكون فيه هذا القدر من البؤس.

أرادت "أماليا" بشدة طلوعًا جميلًا للقمر في هذا اليوم بالذات. كانت أزمة "هيلينا ماريا" صعبة للغاية؛ فبكاؤها بهذه الطريقة دون أن تخبرها السبب، وعدم قدرتها على البوح بأي شيء وحتى عدم رغبتها في التحدث إلى "ألونسو" فيما بعد شغل بالها. لكنها أعطت ابنتها الآن مهدئًا وستنام بالتأكيد حتى اليوم التالي، وسيذهب كل شيء حين تستيقظ. لم ترَ "لينا" في حياتها على هذه الحال، وتساءلت عمَّا قد يمكن أن يكون السبب في هذا الوضع. فكرت حتى في الحديث إلى طبيب، وفي سؤال "ألونسو" عندما يتصل مجددًا ما إذا كانت ابنتها تمر بأزمات كثيرة مثل هذه مؤخرًا. ولكن "لينا" ترجتها ألا تكلم أحدًا، وخاصة ألا تقول شيئًا إلى صديقها، وطمأنتها أن كل الأمور ستتحسن إذا أخذت الدواء. وبالفعل، هذا ما حدث. كانت "لينا" نائمة الآن في المنزل ساعات عدة، وخيم الهدوء على المنزل. كان الأمر مثل موجة مرت، ومد أتى، وجَزْر ذهب.

ظنت "أماليا" أن للمحيط دورات أيضًا. من الجائز أن يكون هذا سبب شعورها بأنها في منزلها حين تكون بالقرب منه. كانت هنا، طوال العام بجانب البحر وتقريبًا وحيدة في هذا المنزل الكبير. شعرت أنه يجالسها. فَهِمَا بعضهما بعضًا. كان البحر مالحًا مثل الدموع، ومثل السائل الذي يفصل اللبن عن الجبن، ومثل عرقها من العمل الذي قامت به طيلة حياتها، ومثل السائل بداخلها الذي احتضن كل الأطفال الذين ولدتهم. نظَّم المحيط أيضًا مثل المرأة نجاحاته وإخفاقاته حسب القمر. كان المحيط كائنًا حيًّا؛ حيوانًا ضخمًا له إيقاع وأمزجة مختلفة، ولكن كانت التغيرات دورية. اعتادت جدتها أن تقول: "الهدوء يأتي بعد العاصفة، وبعد الفيضان، والانحسار، وبعد الأمواج الاعتدالية العالية التي تأتي في مارس وسبتمبر، وأمواج الليالي الطويلة الصغيرة في وقت عيد القديس "جون"، أو الأيام الطويلة القريبة من موعد عيد الميلاد"، عاد كل شيء لما كان عليه بالسابق. ظل البحر هنا؛ لا يتغير أبدًا، ومختلفًا دائمًا. كان البحر واسعًا دائمًا ولا يزال يريد أن يكبر، وأن يمتد عبر الأرض ويرسل أمواجًا بطيئة لتداعب الرمال وتخترق الهواء برذاذها الرقيق، وأمواجًا صوتية لتحتضن النوم في عز غضبه، وأمواجًا من الرائحة التي تملأ الرئتين بنكهة البحر. لم تشعر بالوحدة أبدًا بجانب البحر؛ فقد كان حيًّا، ومتغيرًا، وأنيسًا.

كانت الآن تنظر إلى القمر الذي بزغ عاليًّا وواضحًا في السماء يغطي البحر بقشوره الفضية. أنعش نسيم الليل بشرتها، وقررت أن ترتدي شالًا وتحتمي فيه نوعًا ما. استرقت نظرة من غرفة «لينا» وهي في طريقها لإحضار الشال لتتأكد من أن ابنتها بخير. كانت نائمة وتتنفس ببطء. ما الذي جعلها مهزوزة إلى هذا الحد؟ تلك الأوراق التي كانت تعبث بها. فتحت الملف وألقت نظرة. وجدت رسائل قديمة، وقصاصات جرائد، ودفاتر، وأوراق متناثرة. التقطت بعض الصفحات المطبوعة والمربوطة معًا؛ لأنها كانت الأسهل في أن تحملها معها: مجرد شيء واحد. أغلقت الملف وقرأت في الشرفة وهي كانت تنتظر النوم: (المكان: شقة "ريكاردو" و"فيرا" في باريس. كانت "فيرا" تجلس على حقيبة سفر معها آلة كاتبة محمولة تكتب عليها. يرن الهاتف، وترد هي).

"فيرا": "أهلًا "تياجو"، كيف الحال؟ هل "تانيا" بخير؟ وهذا الجنين؟ هل يتصرف بأدب؟ (صمت) نعم، اتصلت، ولكنك كنت قد غادرت. قلقت كثيرًا مما إذا كانت السيدة "أودارد" ستعترض لو طلبتُ منها أن أعطيكِ رسالة ولكنني قررت أن أخاطر لأن الأمر طارئ. (صمت) لا، لا، لم يحدث شيء؛ فكل شيء بخير، ولكن كل ما حدث هو ما يلي: هناك شقة فارغة في بنايتنا؛ لأن الفتاة نُقلت إلى مارسيليا، ويجب عليها أن ترحل على الفور. لا تريد المالكة أن تترك الشقة فارغة، ولو ليوم واحد، وتريد أن تؤجرها على الفور حتى لا توقع على الفتاة غرامة، حتى لو أجرتها بالسعر نفسه. ظننت أنه من الجائز أن

يهمك الأمر فهي رخيصة جدًّا، وصغيرة للغاية: غرفة واحدة فقط، استوديو. ولكنها ستكون مناسبة لكما وللرضيع على الأقل لمدة عام. (صمت) ستعود إن شاء الرب.. (صمت) وهناك ميزة واحدة؛ أن الشقة تم تجديدها، وبها حمام رائع، ومطبخ عصري مجهز بشكل جيد. إن الشقة في حالة جيدة. (صمت) تقول إنه يمكنها أن تترك المفتاح مع الحارس، ويمكنك أن تطلبه من الطابق السفلي.

(يأتي "ريكاردو" من الشارع حاملًا البريد وملوحًا بأحد الأظرف. يخلع معطفه، ويعلقه، ويقبل "فيرا"، ويضع الرسائل على حقيبة السفر الكبيرة بينما تكمل حديثها. يضع الرسائل كلها عدا الظرف المميز الذي يمسكه).

"فيرا": حسنًا، لا أعلم عن هذا الأمر، ولكنني لا أظن أن الشقة بها أثاث. أعتقد أن كل الشقق هنا في هذه البناية غير مفروشة، ولهذا فهي أرخص كثيرًا. ولكن تملك الفتاة التي تعيش هنا أثاثها الخاص، وقد تكون مستعدة للتفاوض إذا حصلت على صفقة رابحة. ففي نهاية الأمر، ستهرب من غرامة ثقيلة إذا جئت. (صمت) حسنًا، ثم ستأتيان هنا لتشربا فنجانًا من القهوة، ويمكنكما أن تخبرونا كيف صار الأمر. وداعًا، أرسل قبلاتي لـ"تانيا".

"ريكاردو":

- هل اهتم بالأمر؟

"فيرا":

- بالطبع. فبعد كل هذه الأشهر من البحث عن مكان، والعيش في مقلب نفايات في آخر العالم.. قال إنه قادم حالًا؛ لأنه في المنطقة. ماذا كان ذلك الظرف؟

(تبحث عنه بين الأظرف الأخرى ولا تجده. يحضره "ريكاردو" من خلف ظهره، حيث كان يخبئه ويمزح ويلوح به في الهواء).

"ريكاردو":

- ظرف به نافذة صغيرة.. كلها شفافة.. لا ينقصها سوى مزهريات الزهور. انظري، يا له من خط مزخرف جميل. يا له من ظرف لطيف.

(يعطيها إيَّاه، وتتفحصه، ثم تفتحه).

"فيرا":

- بنك باريس القومي.. لا أصدق.

(انتابها القلق فجأة، وظهر في نبرة صوتها)، قالت:

- أو هل تكون هذه فاتورة؟

“ريكاردو”:

- من المستحيل أن تكون فاتورة، ليس لدينا فواتير كهذه. افتحيه!

“فيرا”:

- فتحته. أخيرًا، مال. تعادل قيمته ستة أشهر مرة واحدة. وأعتقد أن أبي قد قام بتقريب المبلغ بعض الشيء؛ لأنه أكثر مما كنا ننتظر.

(تقبِّل الظرف، وترقص حول الغرفة).

“ريكاردو”:

- يستحق هذا الأمر الاحتفال. ما رأيك في عشاء حقيقي؟ شريحة لحم؟

“فيرا”:

- انسَ الأمر، سنحتفل بعقلانية. سمك أو شطيرة لحم، فلتختر أنت.

“ريكاردو”:

- لحم، وزجاجة نبيذ.

“فيرا”:

- وبعض الزهور لتضيف بهجة إلى المنزل.

“ريكاردو”:

- وهذا كل شيء، وبهذا سيتبقى بعض المال لشراء معطفك.

“فيرا”:

- وحذائك الطويل.

“ريكاردو” (يعانق “فيرا” ويرقص معها حول الغرفة):

- وطاولتنا يا “فيرا”، طاولتنا!

“فيرا”:

- هذا صحيح! لم أفكر أبدًا كيف أن الحياة دون طاولة صعبة للغاية. يمكنك أن تتعود على أن تعيش دون سرير، أو كرسي، أو حتى خزانة ملابس، ولكن من الصعب جدًّا أن تعيش دون طاولة.

“ريكاردو”:

- وخزانة الملابس أيضًا يا "فيرا"؛ لا أستطيع أن أعتاد الأمر. أعتقد أننا لو بحثنا بعناية وكنا محظوظين، سيكفي المال لشراء طاولة وخزانة ملابس.

"فيرا":

- ربما. كل ما نحتاجه هو طاولة بسيطة ورخيصة: طاولة مطبخ. نحتاج إلى مجرد مكان لنضع الآلة الكاتبة في ارتفاع مناسب وأن يستطيع المرء أن يضع أرجله تحتها. إن الكتابة على رجلي أو في وضعية القرفصاء تقتلني؛ فأنا لست هندوسية.

"ريكاردو":

- ولا فلاحة أيضًا. يجلس "جيكا تاتو" على كعبيه على عتبة المحل العام.

"فيرا" (تنظر إلى باقي الرسائل):

- هناك رسائل من أمي ومن أبيك. خذ رسائلك، ثم سنتبادل. يا لروعة اليوم! رسائل من الوطن ومال في البنك.

(يفتحان الرسائل، ويقرآنها، ويعلقان عليها).

"ريكاردو":

- ابنة "نييد" ستتزوج.

"فيرا":

- "أدريانا" لديها سنة مخلخلة، لا أصدق الأمر، فالوقت يمضي بسرعة. تدير ظهرك وتفاجأ بأن السمكة الصغيرة كبرت للغاية.

"ريكاردو":

- انتقلت "لوسي" و"جون" إلى شقة جديدة؛ يقولان إنها واسعة وتقع في شارع جانبي من "روا أوجوستا".

"فيرا":

- إن الخالة "كورا" مريضة للغاية، يا له من أمر مخزٍ! هل سأتمكن من رؤيتها يومًا ما؛ فهي عجوز جدًّا.

(تضع الرسائل وتنظر حولها، بتعبير حزين على وجهها. ينتهي "ريكاردو" من رسالته ويضعها في الظرف، ثم في جيبه).

"فيرا":

- تفضل، هلِ تريد أن تقرأها؟ دعني أرى رسائلك.

“ريكاردو” (يأخذ رسالتها):

- لا شيء يستحق أن تقرئيه. أخبرتك بما قرأت بالفعل.

“فيرا”:

- ماذا تفعل الآن؟ أتحتفظ بأسرار صغيرة دون أن أعلمها؟ هل وقع مكروه؟ هل اعتُقِل أحدهم؟ هل مات أحدهم؟ ماذا حدث يا “ريكاردو”، أخبرني.

“ريكاردو”:

- لا شيء، لم يحدث شيء، أخبرتك.

“فيرا”:

- لا يمكنك خداعي، أنا أعرفك. أعلم أن هناك شيئًا لا تريد أن تخبرني به.

“ريكاردو”:

- حسنًا، هناك شيء بالفعل. ولكن أليس لدي الحق لأحتفظ بشيء لنفسي؟ أليس لدي الحق أن أقرأ شيئًا ما في رسالة أبي وألا أخبرك به؟ هل يجب عليكِ أن تعرفي كل شيء؟

“فيرا”:

- حسنًا، ولكن يجب عليك ألا تهاجمني بسبب هذا. سأفكر في أسوأ الأحداث، وأنا واثقة أنها كانت أخبارًا سيئة، وأظن أنه من السخافة أن تحاول أن تحميني بهذه الطريقة الغبية. سأكتشف الأمر على أية حال، مهما كان. ومن الأفضل أن أعرف منك إذا كان أمرًا سيئًا بدلًا من أن أعرفه من غريب.

“ريكاردو” (غير صبور):

- حسنًا، اقرئي وانظري بنفسك. إنها ليست أخبارًا سيئة، إنها كيفما تأتينا دائمًا، ولكنها أكثر إلحاحًا هذه المرة. أستطيع أن أعيش دون نصيحته، وظننت أنه من الأفضل ألا أضايقكِ بها.

“فيرا”:

- هل هي هذه القصة القديمة أنني مصابة بجنون الارتياب وأنني أفسد مسيرتك المهنية، وأبقيك بعيدًا عن منزل أبيك وعن ملذات علاقاتك العائلية؟

“ريكاردو”:

- نعم، ولكن ليس عليكِ أن تبالغي. الأمر لا يُشرح هكذا. هو يظن فقط أن كل الأمور على ما يرام، ولهذا فلا سبب يجعلنا نبقى هنا نجمع القروش في وقت

يتطور فيه بلدنا بسرعة، ويعيش معجزة اقتصادية.. إنه يؤمن بذلك.

"فيرا":

- بالطبع، كل شيء على ما يرام. يُعتقل الرجال الجميع، ويعذبونهم، ويخفونهم، ويقتلونهم، ولكن هذا تطور، أليس كذلك؟ نحن الوطنيون السيئون ولا نحب بلدنا، صحيح؟ إنهم الأبطال. إنها برازيل الأعظم.

"ريكاردو":

- إنه يؤمن بذلك يا "فيرا". إنه يجني الكثير من الأموال، ويحقق كل شيء لم يستطع أن يحققه من قبل من خلال العمل الأمين. فللمرة الأولى في حياته بعد أشهر قليلة من الاستثمارات يستطيع أن يتمتع بأمواله. إنه ليس خطأه، فـ"جون" أيضًا يسبح في الأموال. يأسف أبي لحالنا، ولأننا لسنا هناك لنستفيد من الوضع يا "فيرا". إن تذمره مزعج، ولكنه نابع من حب وقلق بشأن موقفنا.

"فيرا":

- وهل من الممكن أنه لا يرى ما يحدث مع الآخرين؟ المرتب القليل البائس الذي يضمن كل التوقعات المجنونة من قبل جزء واحد من الطبقة المتوسطة؟ والقمع الوحشي، والسجون، والتعذيب حتى لا يشتكي أحد، ولا ينظم أحد شيئًا، ولا يصرخ أحد؟ الموت، والعنف، والأدوات العسكرية؟

"ريكاردو":

- لا يا "فيرا"، لا يرى كل هذا. أنسيتي أن كل هذا لا يُكتب في الجرائد، فكل شيء خاضع للرقابة؟

"فيرا":

- ولكن يمكنك دائمًا أن تعرف ما يحدث، هناك شخصٌ يرى، وشخصٌ يحكي ما رآه. من لا يعرف لا يريد أن يعرف، ويفضل أن يشارك في الوضع.

"ريكاردو":

- إن الأمر ليس كذلك. من الجائز أنهم يعرفون، ولكن لا يرون صلة بين المعجزة الاقتصادية، والرقابة، والتعذيب.

"فيرا":

- ولكن المعجزة موجودة بسبب القمع، فمن دونه لن يكون هناك برازيل الأعظم يا "ريكاردو".

"ريكاردو":

- نعلم هذا، ولكن الأشخاص الذين لم يتم إخبارهم لا يرون الأمر. ولهذا فإن الرقابة ضرورية للدكتاتورية. يعتقد الجميع أن هذه الأوقات القليلة التي يتم فيها اعتقال أحدهم بأنه قاطع طريق شرير، أو إرهابي قاسٍ، ويشكرون الرب أن الجيش يحكم البلاد.

"فيرا" (بعد لحظة صمت):

- أيظن أبوك أننا إرهابيان؟ أشخاص يقتلون الأطفال الصغيرة، وأشياء من مثل هذا القبيل؟ أو يعتقد أننا برازيليون سيئون؟ هذه القصة التي أخبرتنا بها "تانيا"، أنه الآن في البرازيل يوجد على كل السيارات في أنحاء المدن البرازيلية ملصقات تسيء لنا: "برازيل: أحبوها أو اتركوها".. "تستحق البرازيل حبنا".. كما لو أننا لم نحب البرازيل حتى نزفت قلوبنا.

"ريكاردو":

- لا أعتقد أنه يفكر في أيٍّ من هذا، إذا أردتِ أن تعرفي حقًّا. كل ما في الأمر أنه لا يفهم أي شيء مما يدور حوله، وأنه يود لو نعود ونبقى بقربه. يستمر في الرغبة بعودتنا؛ لأنه لا يظن أننا قمنا بشيء خاطئ ويقول إنه لا جدوى من بقائنا هنا.

"فيرا":

- ولكنني اعتُقلت، وأنت كذلك.

"ريكاردو":

- بالطبع، ولكن أُطلق سراحنا. يعتقد أن هذا جعل من صحيفتنا بيضاء، وأنها كانت مجرد غلطة.

"فيرا":

- إذن فهو ليس خائفًا أن يتم تعذيبنا لنقول أشياء؟ أو لتهديد أخي حتى يسلم نفسه؟

"ريكاردو":

- لا يا "فيرا"؛ فقد شرحت الأمر مرارًا. لا يعتقد أنه يوجد تعذيب. يؤمن أنه إذا لم تكوني مدانة، فليس عليكِ أن تخافي.

"فيرا":

- حسنًا، في هذه الحالة فإن البرازيل لديها الكثير لتخافه؛ لأنها تدان أكثر كل يوم. فالطريقة التي يجمع بها الشباب هنا المال لتمويل كل هذا، سنربح كأس

العالم ونحن مديونون أيضًا.

“ريكاردو”:

- أنتِ محقة بالطبع. ولكن لا يعلم أبي كل هذا، ولا يراه، ولا يوجد مكان له ليعرف منه. إنه سعيد للغاية لأنه بعد حياة من العمل الشاق والتضحية أصبح لديه المال الكافي للحصول أخيرًا على شقته الخاصة، ولا يريد لنا أن تفوتنا هذه الفرصة. هذا كل ما في الأمر.

“فيرا”:

- إنها فرصة بشعة بالنسبة لي.

“ريكاردو”:

- ولكن بالنسبة لأولئك الذين لا يرون شيئًا سواها إنه أمر رائع. لا تتحدث بقية الرسائل سوى عن سوق الأسهم المالية، والأسهم التي اشتراها، وكيف ارتفعت. إن الأرقام مبهرة حقًّا.

“فيرا”:

- لا بد وأنها كذلك. حتى أمي ذكرت الاقتصاد في رسائلها، كما ستقرأ.

“ريكاردو”:

- أترين؟

“فيرا”:

- نعم.. تقول إننا نبدو مثل المريخيين؛ لا نتحدث سوى عن متى ستأتي مركبتنا الفضائية.

“ريكاردو” (مذهول):

- أنفعل ذلك؟

“فيرا”:

- نعم بالطبع. نقول في كل رسالة أننا ننتظر المنحة، ونعتمد أنها قادمة قريبًا. لا بد وأننا البرازيليان الوحيدان اللذان عندما يتحدثان عن الوضع الاقتصادي يفكران في “البورصة” بمعنى منحة وليس معنى “سوق الأسهم المالية”.

(يضحك الاثنان. يرن جرس الباب. يفتح “ريكاردو” الباب ويدخل “تياجو”).

“ريكاردو”:

- أهلًا “تياجو”، مرحبًا! تفضل! إذن، هل جئت لترى الشقة؟

“تياجو”:

- ألقيت نظرة. إنها حقًّا رائعة، صغيرة ولكن منظمة. ستحبها “تانيا”.

“فيرا”:

- وستكون مناسبة أيضًا لأننا قريبون جدًّا. أستطيع أن أمد لكما يد المساعدة حين يولد الطفل، ولن تشعرا بالعزلة.

“ريكاردو”:

- إذن، متى ستنتقل؟ أستطيع أن أساعد إذا كنت ستنتقل في نهاية الأسبوع.

“تياجو”:

- حسنًا هذه هي المشكلة. لا أعرف ما إذا كنا نستطيع أن نؤجرها من الأساس بسبب المال.

“فيرا”:

- ولكن الفتاة قالت إنه يمكنكما أن تؤجرها لكما بالسعر القديم نفسه؛ إنها رخيصة للغاية. لا أعتقد أنكما ستجدان شيئًا آخر بهذا السعر.

“تياجو”:

- بالطبع، أعلم ذلك. لا تكمن المشكلة في الإيجار نفسه، بل في أن المالكة لن تؤجر لأحد إلا إذا رشحه الساكن الحالي. ولن ترشح الفتاة أحد إلا إذا دفع لها مال الوديعة الأولى الذي يساوي إيجار ثلاثة أشهر، ثم ستعيد المالكة هذا المال إلى الساكن الجديد في نهاية فترة الإيجار.

“ريكاردو”:

- هذا عادل.. لا تزال صفقة رابحة وأبسط طريقة للقيام بالأمر لمصلحة الجميع.

“تياجو”:

- إن المشكلة الوحيدة هي أننا لا نملك هذا الكم من الأموال.

“فيرا”:

- ألا تستطيعان أن تطلباه من البرازيل؟ ألا يمكن لوالديكما أو والدَيْ “تانيا” أن يرسلوه لكما؟

“تياجو”:

- بالطبع، يمكنهم. ونحن على وشك أن نجني بعض المال من أرض ما تملكها “تانيا” وتحاول بيعها. إن الشخص المفوض بالتوكيل أمضى التأمين بالفعل، وسيوقعون العقد الأسبوع المقبل ويرسلون المال. ولكن المرأة تريد المال الآن؛ فهي في عجلة من أمرها وأعطتنا مهلة للموعد النهائي يومين من الآن.

(ينظر “فيرا” و”ريكاردو” إلى بعضهما؛ وتلمس الظرف من البنك خلسة وتقوم بإيماءة لتستشيره. يهز رأسه، وترفع إبهامها موافقة).

“فيرا”:

- يمكننا أن نحل الموقف يا “تياجو”، لو كانت المشكلة تكمن في الأيام وأنك ستتمكن من الدفع لنا قريبًا.

“ريكاردو”:

- نعم، لا فائدة من تفويت فرصة كهذه لمجرد فرق الأيام. يمكننا أن نعيرك المال.

“فيرا”:

- وسترده لنا عندما تحصل على التحويلات المالية.

“تياجو”:

- أنتما؟ أتملكان هذا الكم من المال؟ ألا تقولان دائمًا إنكما مفلسين؟

“فيرا”:

- حسنًا، نحن دائمًا هكذا. ولكن اليوم لسنا مفلسين. جاءنا هذا المال في الصباح، انظر إلى هذه الورقة من البنك هنا.

“ريكاردو”:

- إنه مبلغ كان من المفترض أن تتسلمه “لينا” منذ فترة نظير أشهر من العمل في المجلة، تراكم المبلغ وها قد أتى لتوه.

“تياجو” (يريد أن يوافق ولكنه لا يزال مترددًا):

- وهل تستطيعان أن تستغنيا عن المبلغ؟ أمتأكدان؟

“فيرا”:

- بالتأكيد. لا تقلق. كنا سنشتري طاولة والقليل من الأشياء الأخرى ولكننا انتظرنا طويلًا فلن يشكل فارقًا أن ننتظر المزيد من الأيام.

“تياجو”:

- يا إلهي! هذا رائع! شكرًا لكما يا شباب. أنتما أصدقاء صديقان حقيقيان، أنا مرتعش قليلًا.

“فيرا”:

- يجب عليَّ أن أذهب إلى البنك لأسحب المال. ولكن يمكنني أن أذهب الآن وأعطيه لك في المساء. يمكنك أن تعود حينها.

“تياجو”:

- ياه، هذا رائع! لا أصدق الأمر. ستسعد “تانيا” للغاية. لم نرتح في ذلك المكان؛ فقد كان حفرة بشعة. لا تستطيعان أن تتخيلا الأمر. حسنًا، سأتصل وأخبر السيدة أننا سنؤجر الشقة.

“فيرا”:

- وسأذهب أنا إلى البنك، ويمكنك أن تعود في المساء.

“تياجاو” (يعانق كليهما): شكرًا جزيلًا لكما. لن أنسى هذا أبدًا، ويمكنكما أن تطمئنا، بمجرد أن يصل المال سيكون أول ما أفعله هو أن أدفع لكما.

(تتركهما “فيرا” وتعطي قبلة لـ”ريكاردو” وتخرج. يذهب “تياجو” إلى الهاتف وتخفت الأضواء بينما يتحدث، ويحل الظلام على المسرح بينما يتلاشى صوته).

“تياجو”:

- مرحبًا، السيدة “ديبونو” إذا سمحتِ.. نعم.. يحدثك السيد “سيلفا” بخصوص الشقة.. نعم.. معي المال ونستطيع..

كان الأمر مسليًّا بالنسبة لـ”أماليا” أن تقرأ هذا؛ فقد كانت تعرف القصة جيدًا. كانت جزءًا منها بطريقة ما بما أنها هي من أرسلت المال أو جزءًا منه بالخارج إلى ابنتها. كان يجب عليهم أن يجدوا أكثر من شخص ليرسل المال إلى أكثر من شخص؛ لأن القانون لا يسمح بالتحويلات المالية لأكثر من مبلغ معين. دُفع المبلغ أخيرًا بعد كل هذا الوقت الذي قضاه زوجها يحارب من أجل الحصول عليه نظير المقالات المُرسلة إلى المجلة وقد تخطى المبلغ الحد الأقصى الذي يسمح البنك لهم بإرساله. تذكرت القصة جيدًا عدا أن الشاب لم يُدعَ “تياجو” ولكن اسمًا آخر لم تتذكره الآن. لكنها علمت أنهما دفعا المال بالفعل كما وعدا بعد أسبوعين وأنهما حتى طهيا لـ”لينا” و”أرنالدو” عشاءً ليشكراهما. أصبحوا أصدقاءً مقربين للغاية. لم يتغير كل شيء سوى بعد فترة، وعلمت

"أماليا" كم ضايقها الأمر بشدة. علمت أنه كان يتم تجنب "لينا" و"أرنالدو"، وابتعد الجميع عنهما وهربوا منهما. لم تتم دعوتهما إلى أي شيء. سكت الناس عندما اقتربا أو غيروا الموضوع. خسرت "لينا" وظيفتها بعد فترة في المكتبة، وتم وقف المنحة المشهورة عن "أرنالدو"، والتي انتظراها بتوتر كبير، والتي تم طمأنتهم أنه تقريبًا قد حصل عليها. ظنت أنه حتى تم دفع مرتب الشهر الأول لهما. حدث هذا دون أي تفسير. كانت الوظيفة والمنحة مقدمتين عن طريق مساعدة برازيليين آخرين في المنفى الذين قضوا هناك وقتًا أطول، ولديهم معارف أكثر، وينتمون إلى منظمات عريقة.

علمت "أماليا" جيدًا أن هذه كانت بداية أسوأ فترة مرت على ابنتها في المنفى. آل بها الحال إلى خسارة جنينها في الوقت الذي كانت قد حملت فيه لتوها دون مال، ودون دخل، ودون أصدقاء. كانت حياة "هيلينا ماريا" لتختلف كثيرًا إذا كانت قد أنجبت طفلًا. أرادت هذا الأمر بشدة. كان كل شيء سيختلف. كانت بالتأكيد لن تكون مثل الآن: عصبية، وباكية على لا شيء وكل شيء. من الجائز أنها كانت ستظل متزوجة من "أرنالدو". كل ما في الأمر أنه لا يستطيع المرء تغيير هذه الأشياء، فللرب خطط أخرى خاصة به. ولكن كانت "أماليا" واثقة أنه لا يوجد سوى أشياء قليلة قد جرحت "لينا" بهذا الشكل، مثل قصتها مع أولئك الأصدقاء. لم تكن أسماؤهم الحقيقية "تياجو" و"تانيا"، ولكنها لم تتذكر، فقد حجبت الأسماء من فكرها. اتضحت الحقيقة بعد فترة، واكتشفت "لينا" أن صديقيهما يخبران الجميع أنها هي و"أرنالدو" غرباء للغاية، ومن المؤكد أنهما مزروعين من قبل الشرطة أو يعملان لصالح المخابرات. قالا إن "لينا" و"أرنالدو" يدَّعون أن حالتهم المالية صعبة حتى يجمعان أكبر قدر من المال في مدة قصيرة. وأنهما استطاعا أن يجدا شقة لـ"تياجو" و"تانيا" - حسنًا فلنلقبهم بهذه الأسماء - في البناية نفسها حيث يقيمان، وبالتأكيد كان معهما مفتاحًا إضافيًّا حتى يتجسسا عليهما بشكل أفضل، وأن الإيجار كان رخيصًا؛ لأنهما لا بد أنهما كانا يدفعان جزءًا من الإيجار مباشرة إلى المالكة حتى يجذبا الآخرين إلى البناية نفسها. بالإضافة إلى ذلك، لم ينتميا إلى أي حزب، أو منظمة وليس لديهما أحد ليضمنهما، مما كان يدعو للشك في هذا المجتمع من المنفيين، حيث كان كل شخص متصلًا بطريقة ما إلى نوع ما من الحركات. وحدهما "لينا" و"أرنالدو" وهذان الزوجان اللطيفان وولدهما الصغير (ماذا كانت أسماؤهم مرة أخرى؟ قابلت "أماليا" الكثير من الأشخاص عندما زارت ابنتها في باريس لدرجة أنها كانت تتذكر كل شيء. احتفظت في ذاكرتها بالوجوه ولكن نسيت الأسماء. لم تتذكر سوى تلك المرأة التي تم إيداعها مصحة بسبب اضطراب نفسي ما). لم ينتموا إلى أي منظمة. عرفت "لينا" من خلالهم عن تشويه السمعة القذر. أخبرها أحدهم بالأمر، واعترضت، وطمأنت الشخص أن ما سمعه كذب، وحتى أنها تتبعت

مصدر النميمة وأخبرت “أرنالدو”. كان الأمر مؤسفًا حقًّا، ولكن على الأقل تضامن معهما هذان الزوجان، وكانا الصديقين الحقيقيين الوحيدين اللذين لم يخذلاهما طوال هذا الوقت في باريس، كما كانت تقول “لينا” عندما عادت بحسب ما تتذكر أمها.

ولكن ماذا كان يجول بخاطر “لينا” الآن حتى تقرأ وتكتب هذه الأشياء؟ لهذا كانت تبكي دون سبب. شعرت “أماليا” أن تخبئة هذه الأوراق، وإخفاء هذه الملفات سيكون من مصلحة ابنتها. ولكن لن تعرف أبدًا ردة فعل ابنتها إذا قامت بهذه الخطوة؛ فقد كانت خائفة من إطلاق العنان لعاصفة. علمت أيضًا في هذه المرحلة من حياتها أنه في بعض الأحيان يجب على المرء أن يوقظ كل هذه الأشياء المؤلمة وأن يدعها تنطلق؛ فلا يجدي نفعًا أن تقضي وقتك كله متظاهرًا بأن الأمر لا يؤلم أو أنه لا يوجد شيء هنا. يجب عليك أن تدع الأمر يصعد إلى السطح، مثل الخراج الملتهب المليء بالصديد الجارح والمؤلم، وينبض حتى يذبل ويمكن للمرء أن ينتزعه ويخرج كل هذه البقايا المتعفنة بداخله ويطهرها ويصفيها حتى يخرج دمًا فقط، وحينها يعلم المرء أنه وصل لآخره. كل ما عليك فعله أن تنظفه تمامًا حتى لا يظهر في مكان آخر، وفي هذا راحة كبيرة. من الممكن أن يكون الأمر كذلك. من الجائز أن “هيلينا ماريا” بحاجة إلى أن تتخلص من هذه الإصابة ببطء حتى لا تضطر إلى أن تخضع لعملية جراحية قاسية. وربما لهذا السبب كانت على هذه الحالة في هذه الأيام: تتحدث دائمًا عن الماضي طوال الوقت، وعن الأشياء التي لم تذكرها لقرون. وأدركت “أماليا” أيضًا أنها أرادت أن تتذكر أكثر، وأن تدع الذاكرة تبحر في الذكريات، وتدعها تصعد ببطء مثل مياه الينبوع خلف المنزل. كان هذا هو الينبوع الذي نصل إليه عن طريق المشي وسط الأشجار الكثيرة بلا نهاية، والمحاطة بالرمال البيضاء الخشنة والعاكسة للسماء في مرآتها الصغيرة، حيث يأتي اليعسوب وطائر الطنان ليستحما حاملين أوراق الأشجار المثمرة إلى غدير الماء على طول المنحنيات الكسولة التي تدفقت في المدينة حتى وصلت إلى البحر بين الصخور، حيث يعيش السلطعون بجانب أشجار “المانجروف”، وحيث يضع الأطفال الفخاخ لصيد الجمبري.

كان الأمر مثل ذلك؛ مثل المياه وهي تتدفق لأعلى من الينبوع. يجب على الأرض أن تُصفي مياهها إذا اتبعت المياه طريقها وذابت في رحابة البحر الخضراء. كانت الذكرى مثل ذلك بشكل متشابه. تمر بعض الأوقات يجب على المرء أن يتذكرها، مثلما كانوا يفعلون في هذه الأيام الأخيرة، في كل الأوقات ويتحدثون عن أوقات مضت. كانت الذكريات تتجلى بوضوح حتى دون كلام، أو على الأقل من ناحيتها. ظلت الشهور التي تلت صدور قانون “AI-5” شديدة الوضوح في ذاكرتها. يُعرف باسم “AI-5”. كان هذا هو القانون الذي

منح الحكومة سلطات هائلة، وسلبت الحريات المدنية، وبدأت فترة من القمع القاسي والمفرط.

بمجرد أن تنفست الصعداء بعد إطلاق سراح ابنها، كان عليها أن تتعلم أن تعيش في واقع جديد لم تكن لتتخيله أبدًا: وهو أنه يجب عليه أن يعيش في الخفاء. تعلمت الكثير من الأشياء في هذا الوقت، وكانت قيمة الصمت واحدة منها. كان عليها أن تتعود على فكرة أن نقص الأخبار من "مارسيلو" هو علامة جيدة، وأنها يجب عليها ألا تتكلم عنه خارج دائرة العائلة المقربة. تعلمت أيضًا أن تفكر في ابنها طوال الوقت وأن تقوم بالأعمال المنزلية وهي تصلي له، وتستودعه هو وأمانه وحياته بين يدي الرب ليرعى صبيها الذي كبر بعيدًا عنها.

استطاعت على الأقل أن تتعلم تدريجيًّا. كان يرسل الأخبار في بعض الأوقات في الأشهر الأولى. كان يتصل أحيانًا، أو يبعث صديقًا برسالة. تمكنا من رؤية بعضهما في مناسبتين وأخذا آلاف الاحتياطات، ولكن على الأقل تقابلا وجهًا لوجه. وصلت لها ورود في عيد ميلادها مع تدوينة منه. واليوم السابق لعيد ميلاده، استطاع "مارسيلو" وأمه حتى أن يتناولا معًا وجبة الغداء في مطعم صغير وبسيط على حافة المدينة.

لكن توقف كل شيء، وتبين أن ما تعلمته في الأشهر السابقة كان مفيدًا. لن تكون قادرة على قول أي شيء الآن حتى لو عذبوها حتى الموت؛ لأنها لم تعرف شيئًا على الإطلاق. لم تعرف أين يعيش "مارسيلو"، ولا ماذا يفعل، ولا حتى ماذا يُسمي نفسه، ولا ما إذا كان صبغ شعره باللون الأشقر، أو ما إذا كان لديه شنب الآن. كانت تعرف رائحته، ودرجة حرارته، وصوته، ولكن لا شيء من ذلك يمكن أن يكون جزءًا من وصف يساعد الشرطة في القبض عليه.

بدأت المرحلة الجديدة من حياتها فجأة مثل الكابوس، وقد كان من المتوقع أن تستمر عشرة أعوام حتى هذا العفو الزائف والكاذب الذي لم يتم تطبيقه تقريبًا على شخص واحد. كانت وظيفته الوحيدة هو طمأنة أي مُعذب أو إرهابي أنه لن يُعاقب أبدًا. إنه لمن الجيد أن القانون مكتوب بشكل سيئ للغاية لدرجة أن الثغرات بدأت في الظهور في معركة تلو الأخرى في القضاء، وانتهى الأمر بتطبيق القرار على كل الأشخاص. حلمت طويلًا بعطلة، حفلة قومية مجمعة للاحتفال بنهاية الإرهاب، وتُفتح فيها جميع السجون لإطلاق سراح كل المساجين السياسيين. حلمت بإجازة تعود فيها رحلات الطيران وأساطيل المراكب محملة بكل المنفيين للمشاركة في الفرح الجماعي كما رأته يحدث عندما عاد الجنود الذين حاربوا في الحرب العالمية واحتفلوا في وسط المدينة في سيارات مفتوحة تحت أمطار من قصاصات الورق. ظنت "أماليا" أن انتهاء الديكتاتورية سيكون يومًا مثل "يوم الباستيل"

في فرنسا، أو يوم الخامس والعشرين من أبريل في البرتغال وأنه سيكون بمثابة خلق عطلة جديدة تبشِّر بعهد جديد حتى ولو لم تكن واضحة مثل حدث سقوط سجن "الباستيل" أو الانتفاضة التي تعلن عن "ثورة القرنفل" في البرتغال. ولكن لا، كان الأمر بطيئًا وتدريجيًّا، وبه مماطلة لا تنتهي أبدًا. ستعلِّم بالأحمر في تقويمها الشخصي يوم أن تم العفو أخيرًا عن ابنها وعودته، لن تنسى أبدًا أنه كان هناك من لم يحصل على عفو نهائي. لن تنسى أن الحكومة لا يزال بها أشخاص في مناصب عالية خدموا النظام السابق بالحماس نفسه، أو أن المرء لا يعرف بعد متى ستنعقد الانتخابات الرئاسية القادمة: وهو شيء لم تره لمدة ثلاثين عامًا على الأقل. لا يمكنها أن تنسى بالذات أن أولئك من قمعوا، وضربوا، واعتقلوا، وفجروا، وقتلوا خلال سنوات الإرهاب ما زالوا أحرارًا ومتناثرين بين السكان، ولم يُعاقبوا بأي طريقة ولم يُعرضوا على الرأي العام. بالإضافة إلى هؤلاء، هناك كل الحرامية والمسئولين الفاسدين الذين شاركوا في أعمال إجرامية وخداعية حتى وصلت البلاد إلى حالة من الهدوء الاقتصادي وجدت نفسها فيه، وساهمت في جعل جزء من الحشود يتمتع بحصانة مثالية. لهذا تشعر "أماليا" بالاكتئاب الشديد حين تفكر في البرازيل. أخبرت نفسها أن الوضع كان أفضل الآن؛ لأن الصحافة كانت حرة لتغطي هذه الفضائح المالية، وأن المسؤولين المنتخبين لديهم الحرية ليستنكروها (لم يستنكروا أي شيء، بل تورطوا في فضائح جديدة). كانت الأحزاب حرة لتأسيس نفسها، وكان كل شخص حرًّا في تكوين الآراء دون أن يتم إعدامه بسببها. لا شك أن الوضع أصبح أكثر ديمقراطية في المجمل. لن تصدق أن الأوضاع تغيرت حتى ترى العدالة تأخذ مجراها، أو أن تدع نفسها تشعر بالأنانية، فبعد كل شيء، كان لديها سبب جيد: أطفالها بخير، وأحياء، وأحرار، وبالمنزل. شكرًا للرب! كان كل شيء على ما يرام.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

11

"عندما تعود من رحلاتك،

ستحضر معك رأسًا يدمى دماء بيضاء،

وذكريات لا فائدة منها،

لسكان الجحيم الأساسيون.

ستحضر معك رأسًا

يشبه الجذع القبيح،

وسيقبل قلبك المساء طيب الرائحة"..

"أوزفالد دي أندرادي"

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كانت الشمس قد بزغت في السماء في الوقت الذي استيقظت فيه "لينا". أدركت أنه قد فاتها مواعيد الجرعة الأولى من أدويتها مما تسبب في قلقها. عليها أن تعوضها بأن تتناول كل الأقراص على الفور. تألم جسدها كله من توتر البارحة: العضلات في ظهرها، وكتفاها، وذراعاها، وأرجلها. شعرت بثقل رأسها. أحست كما لو أنها على وشك أن تصاب بنزلة برد، أو أن أحدهم ضربها.

في الواقع، ظنت "لينا" أن الأمر كان يشبه الضرب فعلًا. هاجمتها الذكريات، ولكنها رفضت أن تبدأ يومها وهي تفكر بالأمر. نهضت وفتحت النافذة ورحبت بها شجرة المظلة الموجودة أمامها مباشرة بكل أوراقها الجديدة والناعمة، والخضراء والبراقة والمزينة بمجموعات من الورود البيضاء الصغيرة المتفتحة والمرفرفة وسط الرياح. فكرت في أن الشجرة ما زالت تعطيها دروسًا في البعث من جديد. تذكرت تفسير جدها: - إن شجرة المظلة عنقاء خضراوات أصلية.. فهي تُخلق من رمادها كلما دعت الضرورة. تتخلص من أوراقها عندما تلاحظ برودة الجو لتحافظ على عصارتها وطاقتها. إن خسارتها السريعة تلك هي خير وسائل الدفاع.

سألت "لينا" وهي فتاة صغيرة قائلة:

- كيف تعرف الشجرة أن الجو على وشك أن يبرد؟

كان جدها دائمًا مستعدًا ليعلمها، وجاوبها ببطء حتى يتحكم في تلعثمه:

- تملك الكائنات الحية ساعة بيولوجية. يعرف النمل إذا ما كانت ستمطر بشدة فيبتعد عن الأنهار ويذهب إلى الأماكن التي لا يصلها الفيضان. تعلم الثدييات، مثل السناجب، متى سيكون الشتاء باردًا للغاية، وتخزن الكثير من الطعام. تنظم كل فصيلة نفسها بطريقتها الخاصة.

أصرت "لينا" على السؤال؛ فقد كانت مهتمة بشجرتها المفضلة والمنظر الجميل الذي قدمته: - وشجرة المظلة؟ كيف تعرف وتقرر ما إذا كانت ستتغير إلى اللون الأصفر أو الأحمر؟

فرد عليها جدها:

- كما قلت لكِ، إنها تعرف بيولوجيًّا..

لم تفهم الفتاة تمامًا، فاستمر في الشرح:

- إن هذه الشجرة فصيلة حساسة جدًّا. لا تحتاج في بعض الأوقات سوى إلى تغيير مناخي صغير حتى تبدأ في التخلص من أوراقها. تبدأ في تخزين مادة "الكلوروفيل"، ويتغير اللون الأخضر إلى الأصفر، وترين هذه السيمفونية الذهبية. ثم يختفي "الكلوروفيل" تمامًا ولا يبقى سوى اللون الأحمر الناري الرائع المتوهج. ثم تبدو كما لو أن كل الأوراق احترقت؛ لأنها تجف وتقع. تخلع شجرة المظلة ملابسها كلية لتواجه الشتاء بشجاعة حين تطول الليالي ولا يتصرف معها الشمس والقمر بكرم كبير ويطعماها. وعندما لا تمتلك الأوراق وتبدو ميتة؛ يرجع هذا إلى أنها تستعد للنمو وبعث الحياة فيها، وتُغطى ببراعم جديدة.

يصمت جدها لحظة، ثم يقول:

- عنقاء خضراوات.

لم تعرف "لينا" الطفلة ما هي العنقاء. عرفتها فقط مؤخرًا عندما كبرت. ظنت "لينا" المرأة أن هذا ما كان يجب أن تكون: عنقاء. يجب عليها أن تقوم بذلك في مرحلة ما، يجب أن تولد من جديد كاملة. تولد مثلما يتخلص الثعبان من جلده القديم، ويترك قشرته القديمة وراءه، ويولد جديدًا مع الإبقاء على روحه القديمة. لا تريد أن تكون مثل الفراشة التي تترك يرقاتها ولا تحافظ على أي شيء من حالتها السابقة كدودة. تريد أن تولد من جديد دون أن تنسلخ عن نفسها القديمة، وأن تبقى وفية لها. فكما أصر "مارسيلو"، إن تحقيق الحياة، والإبقاء على قيدها، وتنظيمها هو تحدٍّ دائم.

ساعدها المجهود البدني، وبما أن قدمها تتحسن كل يوم عن الآخر، كانت تستطيع أن تمشي وتستفيد من موجة المد والجزر، وتتجول على الرمال الصلبة بجانب البحر. احتاجت أمها حقًّا لتساعدها في أن تصل هناك حتى

تستطيع المشي على الرمال الأنعم والأكثر صلابة بعيدًا عن المياه، حيث توقفت المساحات الخضراء. أخذت جولة صغيرة. يمكن أن تجازف لمسافة أبعد في اليوم التالي إذا مضى كل شيء على ما يرام، وتمشي للجانب الآخر من القرية، باتجاه مرفأ السفن الصغير حيث يصلحون السفن ويبنونها. لكن ليس اليوم، يجب عليها أن تتخطى الحدود ببطء.

تحدثت مع أمها عن خطتها للمشي على طاولة الإفطار. ارتاحت “أماليا” لرؤية الاكتئاب الرمادي ينقشع. غادرا الطاولة بمجرد أن أعلنت “لينا” عن انتهائها من الأكل.

طلبت “لينا” من أمها عندما وصلوا إلى الرمال الصلبة:

- عودي الآن يا أمي. دعيني أسير وحدي قليلًا.

فسألتها أمها:

- هل أنتِ واثقة من كونك قادرة على فعل ذلك؟

- أستطيع وأريد ذلك. أحتاج إلى هذا يا أمي. أرجوكِ.

علمت “أماليا” أن “لينا” كانت بحاجة إلى ذلك، وكانت واثقة من أن ابنتها قادرة على أن تمشي قليلًا إلى هناك. كانت قلقة بشأن رأسها، أو قلبها وليس بشأن قدمها. ولكنها لا تستطيع فعل شيء في هذه اللحظة. وافقت على أن تتركها واقترحت تعبيرًا منها - تقريبًا - على احترام استقلال “لينا” وقالت: - إذن، سأذهب للحظة لأحضر لكِ كرسيًّا لحين عودتك، اتفقنا؟ وبهذه الطريقة ستتمكنين من أن تجلسي، وترتاحي قليلًا، وأن تأخذي حمام شمس على البحر. ستدخلين عندما تشتد الحرارة.

فقالت “لينا”:

- فكرة جيدة يا أمي. ما أريده حقًّا هو أن أسبح في المحيط.

ابتسمت “أماليا” بسبب روح ابنتها، وقالت:

- إن أخذ الأمور بالتدريج أفضل. إذا أردتي السباحة، فيجب عليكِ أن تبدئي بعبورك الأمواج الضاربة. وهذه ليست فكرة جيدة بسبب قدمك؛ يمكنك أن تفقدي توازنك.

وافقت “لينا”. كانت مشتاقة للغاية لأن تشعر بالبحر على بشرتها، ولكنها كانت لا تزالت خائفة جدًّا. لم تكن خائفة بسبب القدم - هذا كان أقل ما في الأمر، ستتعافى إذا قامت بحركة خاطئة، ولكنها كانت خائفة من الدوار، والسقوط فجأة في المياه، وأن تفقد الإحساس بما يوجد بالأعلى وما يوجد بالأسفل. من

الممكن أن تغرق لأنها في هذه الحالة ستكون قد فقدت كل نقاط ارتكازها. صحيح أنها لم تسقط لأيام، ولكنها لا تزال محبوسة في شعور الفزع الذي ينتابها مع السقطات والعجز الكامل. لا، من الأفضل أن تبقى على الأرض الجافة. اعتاد جدها على تشجيعها بأن يقول عندما كانت صغيرة وخائفة من تسلق الأغصان الأقل ارتفاعًا من أشجار المشمش والجوافة: - إذا وقعتِ فستمسك بكِ الأرض.

عادت "أماليا" وجلست في الشرفة، وراقبت ابنتها دون أن تراها. عرجت "لينا" على الرمال في سعادة؛ لأنها كانت تمشي وحدها على البحر متذكرة قول جدها؛ فقد كان دائمًا يدفعها لتخطي الصعاب، والنمو.

إذا سقطت، ستمسك بي الأرض. علمت عندما كبرت أنه يمكن في الحقيقة أن تسقط تحت الأرض وتُدفن تحتها. كانت واحدة من أكبر مصادر التوتر في المنفى وفي الأشهر السابقة تبدأ عادة بـ"سقط فلان وفلان".. كانت طريقة لقول إنه قد اعتُقِل فلان وفلان، محدثين المزيد من الألم.

أبعدت الفكرة عنها تمامًا. كان عليها أن تشغل بالها بأشياء أخرى: تفكر في جدها، وأولاد العم والخال، والطفولة. ولكن لا يمكنك أن تأمر الأفكار؛ لا تستطيع ذلك. ويمكنها أن تفكر في "ألونسو" أيضًا، ولكن سيكون هذا مؤلمًا جدًّا. ستحادثه في المساء إذا لم يتحدث لها اليوم طوال النهار، فعلى أية حال تحدث إليها البارحة ولم ترد عليه. كان من الأفضل وهي مهزومة هكذا ألا تقول أي شيء وتتظاهر بأنها كانت نائمة. كانت تشتاق إليه حتى الموت. وجدت الحل: ستحادثه في المساء. ولكن ماذا إذا لم يكن وحده؟ ماذا إذا ردت الصديقة الحميمة الأخرى؟ كانت مخاطرة يجب أن تخوضها لا مفر. لا جدوى من القلق بشأن شيء لم يحدث بعد على أية حال.

حاولت ألا تفكر في شيء، وأن تشعر فقط بالرمال المبللة تحت قدميها، وأن تتابع طيران النورس وهو يطارد السمك، وتترك عينيها مرتاحة لرؤية الأفق، وتملأ رئتيها بهواء البحر. كانت متأكدة من أن هذه النزهة الصغيرة ستفيدها، وهذا ما حدث بالفعل. ظنت أنه يجب أن يكون هناك تعويض، وتوازن. لا يمكن لدول العالم الأول أن تملك كل شيء. إن البلد حاله بائس، ولا تزال الديمقراطية بطيئة الحدوث، والتبعية الاقتصادية مطلقة، ولكن نملك هذا المناخ الرائع، والمناظر الطبيعية الخلابة، وهذه الجنة الاستوائية اللذيذة وغير المعقولة التي يكاد المرء يشعر بالخزي وهو يستمتع باللذة التي تعطيها بشكل كامل ومكثف. كانت حياتها بائسة طبعًا؛ فقد كانت صحتها في حالة من الفوضى، ومحرومة من أكثر عمل أحبته، وفضل الرجل الذي أحبته امرأة غيرها، واختبأ الطفل الذي تمنته في طيات الأبدية، واختفت الكلمات التي احتاجتها وهربت منها وتلاشت مثل الدخان. ولكن لا يزال منزلها بجانب البحر

موجودًا، هذا الملجأ الذي يمكنها دائمًا الاعتماد عليه، وحنية أمها السرية وتربة الطفولة هذه، وأبعاد منزلها الخالدة. كان لا زال لديها بلدها الأم الذي يمكن للمرء أن يعود إليه من المنفى دون هزات مفاجأة، وكان هذا ميزة ونعمة. أعاد بيتها شحن بطارياتها وأرغمها على أن تقف على قدميها مجددًا. كان شعورها بذلك يتزايد. عليها أن تنهض بنفسها، ودون أية عكازات كيميائية وأن تواجه المخاطر وأن تبذل مجهودًا لترى. كانت اللحظة التي شعرت فيها أنها قوية بما يكفي، بأقل قدر ممكن من الدعم، هي اللحظة التي استندت إليها لترفع نفسها. ولكن ليس الآن؛ لم تكن مستعدة بعد. كانت بالكاد تمشي إلى النقطة أمام منزلها، حيث وضعت أمها الكرسي. جلست؛ منهكة ولكن سعيدة. ستمشي مسافة أكثر في اليوم التالي.

لن تمشي الآن، ستجلس وتنظر إلى البحر والسماء، وترتاح حتى تشعر بعودة قوتها. فكرت في صديقها "لويس سيزاريو" المنتبه دومًا للألوان عندما رأت حدة درجات اللون الأخضر والأزرق الأخاذة. فكرت في صديقها المنتبه لكل شيء، هذا الساحر، الذي يستطيع أن يرى ما وراء الألغاز، ويتنبأ باحتياجات المستقبل، ويرسل رسائل عبر مسافات بعيدة دون دعم مادي.

يمكن للأمر أن يكون مسليًّا. ذهبت "لينا" إلى منزلهما ذات مساء، ولكنه كان بالخارج يقضي اليوم في مزرعة صديق على بعد ساعتين بالسيارة. كان من المفترض أن يعود في اليوم التالي. لا يمكن لها حتى أن يخيب أملها؛ لأنه كان من دواعي سرورها أن تستمتع بـ"كارلوتا" وحدها. مرت أوقات ظنت فيها أنها لم تحب أحدًا بقدر ما أحبت "كارلوتا". كان الأمر كما لو أن لديها والدتين، "أماليا" و"كارلوتا". ولكن كان هناك تقارب نادر بينها وبين الأم التي اختارتها من الصعب تفسيره؛ فَهِمتا بعضهما دون الحاجة للكلام على الرغم من الأربعين عامًا أو أكثر التي تفصل بينهما. يمكنهما أن تقضيا ساعات صامتتين تقريبًا في الشرفة معًا، وتداعبهما الروائح الطيبة للمساء، أو يمكنهما أن تتحدثا لساعات عن كل شيء. كانت "كارلوتا" من أعطتها مذكرات "أناييز نين" لتقرأها، وأخبرتها عن "لو أندرياس سالومي"، وقدمتها إلى أعمال "هرمان هيسه"، وكانت هي من تجادلت معها بشأن مسارات "نركسوس" و"جولدمند" الفكرية كما لو كان يعيدان خلقها من جديد. وتعلمت مع "كارولتا" كيف تصنع مربى العنب البرازيلي، وخبز القمح الكامل، والجبن المنزلي. أوضحت "كارلوتا" لها الجمال البرازيلي في موسيقى "ألبرتو نيبوموسينو" والغضب العالمي لـ"سترافينسكي". ويمكنها أن تشارك مع "كارلوتا"، التي خسرت طفلتها الصغيرة، جرحها الأعمق، وأحلامها الأكثر غموضًا، ومتعها الطفولية.

ولهذا لم تمانع عدم وجود "لويس سيزاريو". كانت "كارلوتا" مكتفية بنفسها. ارتاحتا ذلك المساء في الشرفة وتجولتا في الحديقة، وقامتا ببعض تقطيعات

للسرخس، وغرستا براعم البنفسج الأفريقية الصغيرة، وزرعتا "البيجونيا". تحدثتا وهما تقومان بكل ذلك، وتناقشتا بشأن الوضع السياسي. كانت "كارلوتا" هوجاء مثل المراهقين في تصريحاتها. كان على "لينا" أن تهدأها من وقت إلى آخر. كانت "فيفينا" الكلبة نائمة أعلى سلالم الشرفة أمام الباب الأمامي مباشرة، ولا تبالي بأنشطة ومجادلات المرأتين.

فجأة، رفعت "فيفينا" رأسها، وأذنيها. أصدرت صوت أنين مرة واحدة وبدأت في النباح. ركضت ناحية البوابة ولحظة أن وصلت هناك بدأت في مطاردة ذيلها كما لو أنها كانت تنوي أن تعضه. ثم توقفت، ونبحت كثيرًا واستلقت مجددًا في الفناء بجانب البوابة.

قاطعت "كارلوتا" ما كانت تفعله، ونظرت إلى الكلبة، وقالت:

- سندخل، بعد أن نتنهي من هذه "البيجونيا".

تفاجأت "لينا"، وقالت:

- ألم تريدي أن تنتهي من هذا الحوض أولًا؟

لم تصدق "لينا" الإجابة التي قالتها، وكأنه أمر طبيعي:

- قرر "سيزاريو" العودة اليوم. يجب علينا أن ندخل ونذهب إلى المطبخ. أعتقد أنني سأطبخ شوربة الخضار التي يحبها، كي أطبخ عشاء مشبِعًا أكثر.

تفاجأت "لينا"، ولكن "كارلوتا" أكملت حديثها:

- دائمًا ما يحب شوربة لذيذة عندما يعود من رحلة كهذه. يقول إنها تساعده في أن يرتاح، خاصة حين يرحل في هذه الساعة، سيكون عليه أن يقود ليلًا.

نظرت "لينا" إلى ساعتها. كانت السادسة والنصف إلا خمس دقائق، وسألت:

- لا أفهم يا "كارلوتا". كيف داهمتك فجأة فكرة أن "لويس سيزاريو" عائد هذا المساء؟

ضحكت المرأة العجوز وهي تجمع أدوات البستنة. فتحت "لينا" صنبور الحديقة، وفسرت "كارلوتا" الأمر وهما تغسلان يديهما من الطين: - آسفة، أنتِ لا تعلمين عن هذا. اعتدت الأمر حتى أنني أنسى أنه من الممكن ألا يعرف الآخرون، ولكنها "فيفينا". تملك هي و"سيزاريو" كل هذه التواصلات السرية، ويتحدثان إلى بعضهما في الأركان. لا أعلم ما حدث لهما في حياتهما السابقة. يحدث الشيء نفسه في كل مرة يرحل فيها، تعلمني بكل مرة يبدأ فيها رحلته إلى المنزل. تقوم بفعل كل هذه الأشياء التي رأيتيها: تركض حول نفسها، وتنبح، وتطارد ذيلها، ثم تنتظر بجانب البوابة. أعلم حتى متى يصعد

على متن الترام عندما يذهب إلى وسط المدينة، وبعد عشر دقائق أجده وصل إلى المنزل، ولذلك أستطيع أن أضع الطعام على الموقد لأسخنه. وإذا تأخر الميعاد، ولا أستطيع أن أتوقع ميعاد وصوله بالدقة نفسها، فقد يكون هناك زحمة مرورية، أو شيء غير متوقع، قد تمطر وهو في الطريق، وأشياء مثل هذا القبيل. إن الشيء الوحيد الذي يمكن أن يعرفه المرء بلا شك هو موعد مغادرته من أي مكان كان فيه.

لم تصدق "لينا" الأمر تمامًا، على الرغم من معرفتها الملمة بقدرات "لويس سيزاريو" السحرية. قالت "لينا": - أتقصدين أنكِ ستحضرين له العشاء لمجرد هذا الإحساس؟

لم تفوت "كارلوتا" فرصة الرد، وقالت:

- هذا ليس إحساسًا يا طفلتي. أعلم أنه قادم وسيكون جائعًا عندما يصل هنا.

وقد كان. سمعت "لينا" بوق السيارة قبل الساعة الثامنة بقليل. أظهرت أضواء السيارة أمام بوابة المرآب أن "لويس سيزاريو" قد وصل. عادت "كارلوتا" إلى المطبخ، وذهبت "لينا" لتفتح البوابة متجنبة "فيفينا" التي كانت تركض حول رجلها لتبحث عن أول منفذ يجعلها ترمي نفسها في الشارع لترحب بسيدها. فكرت "لينا" في كيف أن صديقها سيفاجأ بوجودها وهي تدفع بالبوابة الحديدية الثقيلة لتفتحها. دخل، وأطفأ السيارة، وركض ليعانقها.

- كنت أعلم أنكِ هنا! عدت مبكرًا فقط لأجدك.

قامت بمحاولة ضعيفة في المزاح وقالت:

- كيف عرفت؟ هل سمعت "فيفينا" تنبح؟

ضحك وقال:

- "كارلوتا" هي من تحتاج "فيفينا" لتعرف أشياء مثل هذه، وليس أنا. أعلم، وهذا ما في الأمر.

فكرت في أن تختبره، وقالت:

- متى رحلت؟

فقال:

- حوالي في الخامسة والنصف. ذهبنا في حوالي الساعة الرابعة إلى الحضانة، كانت جميلة، يومًا ما سأخذكِ هناك وترين. ثم فجأة، حدث ما حدث.

بدا محتالًا من الدرجة الأولى، ومليئًا بالخداع، ويمازحها بحب. غمز وقال: - يوجد هناك زهرة "أوركيد" جميلة، فقط جميلة، النوع الذي تحبينه.. وبجانبها مباشرة زهرة "بيجونيا" مهلهلة دون ثمرة واحدة وأوراقها محروقة. ذكرتني "الأوركيد" بكِ، ولكن كانت "البيجونيا" هي من أخبرتني أنكِ هنا. ولهذا قررت أن أسرع، وأن أنهي ما كان عليَّ فعله، وأجمع العسل، ثم حزمت أشيائي وفي الخامسة والنصف..

وبينما كانا لا يزالا يصعدان السلالم إلى الشرفة، سأل:

- هل طبخت "كارلوتا" الحساء؟

جاوبت "لينا" بتلقائية:

- نعم. إنها بالداخل لتبقى دافئة.

فقال لها:

- إذن دعيني أغسل يديَّ حتى نأكل؛ لأنني أكاد أموت من الجوع. ولكن عليَّ أن أتحدث أولًا إلى "فيفينا".

سألت "لينا" نفسها بينما انحنى "لويس سيزاريو" ليربت على "فيفينا" التي كانت مستلقية على ظهرها وترفع مخالبها في الهواء ما إذا كان العجوزان يمازحانها أم أنها قد شاهدت للتو ما هو حقيقي للغاية وواحدة أخرى من حيل صديقها العراف السحرية.

ولكن لم يكن عليها أن تشك في الأمر. شاهدت على مر الزمن المزيد من أعمال "لويس سيزاريو" السحرية الودية. فعلى سبيل المثال، تفاجأ "أرنالدو" ذات يوم شتاء بارد وممطر بعد أشهر قليلة من قانون "AI-5"، في الوقت الذي تظلم فيه مبكرًا في الخامسة والنصف من المساء، وفي يوم كل ما يريد فعله المرء فيه هو أن يمكث في المنزل يقرأ تحت الأغطية أو على الأقل أن يحتسي كوبًا من الشيكولاتة الساخنة، بأن هذا المريض الذي حجز مقابلة معه تحت اسم غير مألوف هو في الحقيقة "لويس سيزاريو".

قال "أرنالدو":

- يا لها من مفاجأة أن أراك هنا! أخبرتني مساعدتي باسم مختلف تمامًا: "لويس نيفيس".

فرد عليه:

- ظننت أنه من الحكمة أن أختار اسمًا مختلفًا.

لم يجادله "أرنالدو"، بل رحَّب بالرجل العجوز. كان لا يزال يشعر بالفضول تجاه هذا اللغز، وأشار إلى كرسي ليدعوه ليجلس، وسأله: - إذن، كيف حالك؟ هل السيدة "كارلوتا" بخير؟

فرد عليه:

- الشكر للرب، نحن جميعًا في صحة جيدة.

ظن الطبيب أن هذا الأمر غريب، وقال:

- حسنًا، ماذا أتي بك إلى هنا؟

بدا "لويس سيزاريو" العجوز جادًّا وأعطاه ظرفًا رماديًّا، ومطويًّا كله حتى صار طردًا صغيرًا، وبه شيء من الداخل: - أردت أن أعطيك هذه، ولكن ظننت أنه من الأفضل أن أقوم بالأمر هكذا بطريقة حيادية.

بدأ في فك الحزمة حتى فتحها كاملة. نظر إلى داخلها. كانت عبارة عن مفتاح قديم، أو مفتاح أثري. كان مفتاحًا يجعلك تفكر في البيوت القديمة أو الصناديق في مجالس الكنيسة: مفتاح طويل وله عقدة حلقية وجسم أسطواني، وعمودية على الدوائر القليلة التي تزينه. إنه أقدم بكثير بالطبع من المفاتيح الحديثة التي يستعملها كل الناس.

فسر "لويس سيزاريو" الأمر قبل أن يسأله "أرنالدو":

- إن هذا هو المفتاح لمنزلي. يفتح الباب الجانبي لغرفة المكتب من ناحية الشرفة، ولكنه يفتح أيضًا البوابة للخارج.

لم يقل "أرنالدو" شيئًا؛ فقد اعتاد أن يستمع بمهنية وينتظر المزيد من التفسيرات. وضَّح "لويس سيزاريو" الأمر، وقال: - إن الغرض هو لتتمكنوا أنتم من الدخول في أي وقت من النهار أو الليل، إذا دعت الضرورة. حتى ولو لم يوجد أحد بالمنزل. وقد غيرت مكان مسند الأوراق، الذي كان دائمًا في الطريق، حتى لا يصطدم أحد به. أتمنى ألا يحدث موقف ضروري، ولكن من الأفضل أن يكون المرء مستعدًا.

كان "أرنالدو" لا يزال محتارًا قليلًا؛ فلم يفهم الأمر بعد، ولم يعرف ماذا يقول.

- شكرًا، إن هذا دليل عظيم على الثقة، ولكن سنتصل بك إذا احتجنا أن نذهب إلى هناك، ولن نذهب إلا إذا كنت بالمنزل.

حاول "لويس سيزاريو" العجوز أن يوضح كلامه أكثر بصبر، كأنه يتحدث إلى طفل: - بني، لقد عشت حربين عالميتين، ووظيفة واحدة، وديكتاتورية أخرى. عشت خلال مقاومة واحدة وأعلم ما تحتاجه تلك الفترة. سأتم عامي

السبعين قريبًا، ولست بصحة جيدة، ولا يمكنني أن أشارك في حرب ما سرية كما ينبغي. سينتهي بي الأمر عائقًا في الطريق. ولكن هناك أشياء يمكنني القيام بها. إحدي هذه الأشياء هي تقديم منزلي.

فقال له “أرنالدو”:

- ولكننا لسنا..

قاطعه “لويس سيزاريو” بجفاء، وقال:

- لا أريد أن أعرف. كل ما أريد معرفته هو أننا معًا، وأنا أريد أن أساعد. تحدثنا أنا و”كارلوتا” لمدة طويلة وقررنا أن نفعل ذلك. إنه قرار مدروس جيدًا. أخبر “لينا” أنني أرسلت المفتاح. يمكنها أن تفعل به ما يحلو لها، وأن تعطيه لمن تريد، أثق في زوجتك كلية يا بني.

لم يستطع “أرنالدو” أن يجادل بعد الآن. شكره متأثرًا، ووعده أن يصل المفتاح إلى يدي “لينا”. أكمل الرجل العجوز حديثه: - أخبرها أنها حرة في استعماله كما تشاء. ولكن هناك شرط واحد؛ شرط حزين بعض الشيء.

فقال “أرنالدو”:

- وهو؟

فرد عليه “لويس سيزاريو”:

- ربما يكون من الأفضل ألا نرى بعضنا لفترة؛ حتى لا نهدد أمان مكان الاختباء. لن يشك أحد أننا أصدقاء مقربون بهذه الطريقة. ولكن سيكون علينا أن نتحمل الاشتياق. سنفكر بكما أنا و”كارلوتا” كل يوم، ونصلي لكما أن تكون كل أموركما بخير، وسنقابل بعضنا صدفة في افتتاح ما، أو في حفلة.

بدأ “أرنالدو” يتساءل ما إذا كان الرجل العجوز فعلًا في صحة جيدة، أو يهذي قليلًا ويختلق حبكة فيلم الجواسيس هذه. وتفاجأ أكثر بالطلب الأخير لـ”لويس سيزاريو”، فقد طلب منه: - والآن يا بني، ستكتب لي وصفة طبية باسم “لويس نيفيس” حتى نقوم بالأمور كما ينبغي. إن هذا الاسم هو اسم عائلي لي لا يظهر سوى على بطاقة هويتي. كان هو الاسم الذي استعملته لأحجز هذه المقابلة، وضع عليها تاريخ اليوم، فقد يمكن أن تصبح دليلك أنني جئت إلى هنا بالفعل في حاجة إلى خدماتك المهنية.. حتى أحصل على علاج للنقرس.

وفي المساء، اقترح “أرنالدو” وهو يخبر “لينا” بما حدث أنه ربما كان العجوز يمزح بلعبته هذه من الألغاز التخيلية والمغامرات. وضعت “لينا” المفتاح بعناية في حقيبة يدها في الجزء المحكم بالسحاب، ونست أمره تقريبًا.

تكلمت “أماليا” بعد شهر تقريبًا وسألت “لينا”:

- “لينا”، يا طفلتي، هل يمكن أن تأتي معي إلى “ديل كاستيلو”؟

فسألتها:

- “ديل كاستيلو” يا أمي؟

فردت عليها:

- نعم.. وجدت محل أقمشة هناك يبيع بضاعة رخيصة للغاية. أريد أن أصنع بعض القمصان لوالدك، وكما تعرفين فهو لا يحب سوى تلك الأقمشة القيمة التي تتبع فيها الغرزة الغرزة الأخرى، والتي لا يمكن أن نجدها في مكان آخر. وإذا وجدها المرء، ستكون باهظة التكلفة. أريد أن أشتري أيضًا بعض الأقمشة لـ”فرناندو” حتى أصنع له بعض البيجامات.

تنهدت “لينا” بينما أكملت أمها حديثها. كانت “أماليا” هكذا؛ فقد كانت تجد عروضًا لا مثيل لها في أماكن بعيدة، وكان يجب على إحدى بناتها أن تذهب معها لترافقها. أعطتها تحذيرًا هذه المرة على الأقل.

قالت “لينا”:

- حسنًا يا أمي، سأنظم الأشياء في الجريدة، وأخبرهم أنني سأتأخر.

فردت عليها “أماليا”:

- سنذهب في الصباح، وفي الواحدة ستكونين قد عدتي، وتتناولين وجبة الغداء.

عادتا بالفعل في الواحدة، ولكنهما تناولتا الغداء في الحادية عشرة في مطعم للطبقة العاملة على مشارف المدينة - التي لم تكن “ديل كاستيلو” بالمناسبة - مع “مارسيلو” الذي كان عيد ميلاده في اليوم التالي، والذي أرسل رسالة يرتب فيها هذا الاجتماع مع أمه. أحضرت “أماليا” هدية له؛ معطفًا دافئًا لابنها. ولكن أُخذت “لينا” على حين غرة. لم تكن مستعدة للمقابلة. أرادت أن تعطي أخاها شيئًا؛ فقد كانت متأثرة للغاية، وتذكرت المفتاح. أعطته إياه، وشرحت له من أين أتى، وأين يقع المنزل. وأوصت: - لا تعطي هذا المفتاح إلى أحد بحق الإله. هذا لك فقط، مخرج في حالة الطوارئ، جسرك للعبور إذا أردت التراجع. أشعر بأنني أفضل حين أعلم أن لديك مكانًا تختبئ فيه. ولكنني قلقة للغاية بشأن العجوزين، فكن حذرًا.

رأت أن “مارسيلو” تأثر أكثر مما تخيلت، وجاوبها:

- لا تقلقي. لن أفتح لأي شخص. ولن أستعمله إلا كملجأ أخير لو فشلت كل الحلول ويئست. ولكن لن يكون الأمر ضروريًّا. نحن منظمون للغاية، ولدينا هيكل دعم جيد، فالمنظمة تهتم للغاية بالأمن. أقبل المفتاح فقط لأنه لا يوجد من يعلم ما سيحدث، أليس كذلك؟ إن هذه الهدية منك، المدروسة، تعني لي الكثير، وتعني أنك تساندينني. إن هذه الهدية ستكون جالبةَ حظٍّ لي، وتميمتي. ولكن يجب علينا أن نرحل الآن. سآخذكما في سيارتي إلى حيث ركنتما سيارتكما.

كان "مارسيلو" المالك الخامس لسيارة "بيتلز" على وشك الانهيار. اختنقت السيارة، وسعلت، وبصقت، وفعلت كل ما يمكن أن يخربها. توقفت فجأة في هذا اليوم في إشارة حمراء بجانب سيارة شرطة مباشرة مركونة في الركن. لم ترغب السيارة أبدًا في أن تعمل. اجتاحت موجة من القلق "أماليا" و"لينا"، وضعفت أرجلهما، وارتعشت يداهما. أمرهما "مارسيلو": - ابقيا هادئتين!

لوح لأحد الشرطيين وسأله:

- هل تظن أنه يمكنك أن تساعدني وتعطي السيارة دفعة؟ هناك مشكلة صغيرة بالمحرِّك.

خرج رجال الشرطة من السيارة، وأعطوا دفعة للسيارة. عمل المحرك ورحلوا مصدرين أصواتًا على طريق الطبقة العاملة المليء بالحفر. كادوا أن يطفوا على أمواج تنفسهم الصعداء.

وبخته "أماليا" وقالت:

- أنت مجنون يا بني لتفعل شيئًا كهذا. لا يجب أن تتحدى مصيرك بهذه الطريقة.

فقال لها:

- إن الأمر ليس كذلك يا أمي. كانوا سيأتون إلينا على أية حال نظرًا للوضع في وقتها. وكان من الممكن أن يقتربوا ليظهروا لنا قوتهم، ويطلبوا الأوراق، ولم نكن لنستطيع فعل أي شيء وقتها وكان سيخرج الوضع عن السيطرة. يمكثون في الشوارع حتى يبدؤوا في حملة، ويطلبوا من أي شخص في أي وقت أن يخرج من السيارة ويرفع يديه حتى يتم تفتيشه، بينما يوجهون رشاشًا باتجاهه. يريدون أن يظهروا النتائج. ولكن عندما أخذت المبادرة وناديتهم أن يأتوا نزعت عنهم السلاح للحظة. وضعت الشرطة في وضع قصير الأجل، بصفتها حارس وحامي المواطن وتلك الأشياء التي يدَّعونها. باغتُّهم وهم غير مستعدين. كانوا يعطون انتباهًا للسيارة أكثر مني.

كانت اِلمرأتان لا تزالا قلقتين.

قالت أمه:

- حسنًا، نعم، ولكن لا يزال الأمر فيه مخاطرة كبيرة. يجب عليك أن تشتري سيارة أخرى.

فقال "مارسيلو":

- يجب عليَّ، ولكن كيف؟

فردت عليه:

- لا أعرف. ولكن على الأقل يجب أن تأخذ هذه السيارة إلى ميكانيكي من أجل إصلاح شامل. يمكننا أن نأتيك بالمال اللازم لذلك، سنعيرك إياه.

فقال لها:

- سنرى. سأطلب المال إذا احتجت.

بحث "مارسيلو" عن "لينا" بعد أسابيع قليلة، وطلب منها أن تعيره سيارتها. قرر أخيرًا أن يأخذ سيارته إلى محل التصليح؛ فقد كان من المستحيل الاستمرار هكذا، فقد يؤدي هذا إلى مشكلة أكبر. وسألها وهو يستعد للرحيل:
- هل لديك مفتاح ثان لهذه السيارة؟

فردت عليه:

- نعم.

فقال لها:

- إذن دعينا نفعل الآتي: أعتقد أن أفضل طريقة لإعادة السيارة هي عن طريق تركها مركونة في مكان متفق عليه مسبقًا. فعلى سبيل المثال، الميدان الواقع أمام مكاتب الجريدة. إذا لم أستطع أن أذهب، سأوكل شخصًا ليتركها هناك. ستتفقدين المكان كل يوم. وعندما تظهر السيارة، تستعملين مفتاحك وتقودينها بعيدًا.

ظنت أن هذا الأمر غريب، وقالت له:

- ستوكل أحدهم؟ إذا لم تستطع؟ لماذا كل هذا؟

فقال لها:

- عزيزتي "لينا"، لا أستطيع أن أشرح الأمر، ولا أريد أن أكذب عليكِ. كل ما سأقوله هو: لا تقلقي. أنا لست شخصًا غير مسئول، وأحبك جدًّا. لن أقوم بأي

شيء يضرك، ولكن لن أقول لكِ شيئًا أيضًا. ستلتزمين بالحقيقة إذا دعت الضرورة، وتقولين كل شيء تعرفينه. إنها أفضل طريقة.

عانقها عناقًا طويلًا وقويًّا، كما لو كان يتركها للأبد. شعرت بقلبها ينكمش، ويشك في شيء لا يمكن أن تتخيله، ورغبت في البكاء. قالت له: - ارحل الآن دون أن تنظر للخلف.

كانا موجودين في ركن مزدحم. علمت أن المقابلة ستكون قصيرة. رحلت ومعها فراغ يكبر بداخلها.

أتى “خورخي” ليتناول معها الغداء في منزلها بعد عدة أيام. كان غداءً مبكرًا في وسط الأسبوع؛ لأن “لينا” كان لديها يوم إجازة مقابل يوم طلبوها فيه في العمل في وقت متأخر. أرادت أن تتجاذب أطراف الحديث معه يوم الخميس دون تشتت، وأن تتبادل الأخبار مع صديقها العزيز الذي وصل لتوه من فرنسا بعد سنتين من الدراسات العليا هناك. كان في إجازة يقضي شهرين في البرازيل قبل أن يعود لينهي أطروحته. وعلى الرغم من أنها لم تملك الكثير من الوقت في هذا اليوم أرادت أن تتحدث معه، وتستمتع بوجوده في المدينة. يمكنهما أن يتحدثا حديثًا مطولًا في يوم آخر.

كان غداءً خفيفًا والحديث مسليًّا. تحدث “خورخي” عن الدورة التي كان يدرسها، وعن الأطروحة التي كان يعمل عليها، والحياة الفرنسية للغاية التي كان يعيشها في جامعة محلية، حيث لم يكن لديه أي اتصال ببرازيليين آخرين، وتحدثه الفرنسية طوال الوقت. تحدثها كثيرًا لدرجة أنه يتحدث البرتغالية الآن بلهجة ثقيلة: يقلب حروف الراء، ويبتلع نهايات الكلمات. كان صوته تقريبًا مثل “لويس سيزاريو”. كان لـ”لويس سيزاريو” أسبابه في امتلاكه لهجة كتلك؛ فقد عاش الرجل في فرنسا عشرين عامًا. ولكن “خورخي” لم يعش هناك سوى عامين، وهي مدة غير كافية لتؤثر فيه مثل هذا التأثير. ظنت “لينا” أن الأمر مسلٍّ جدًّا؛ فقد كانت متأكدة من أن لهجته كانت مجهودًا مقصودًا من جهة صديقها ليثير الإعجاب. حتى أنه نطق اسمه على الطريقة الفرنسية كما لو أنه يكتب “جورج”. أخبرها قصة طويلة عما حدث له في طابور في جهة حكومية عندما ذهب ليجدد جواز سفره، ظل يقول جواز سفر بالطريقة الفرنسية، وضحكت “لينا” لنفسها.

لاحظت قبل أن يتناولا الحلو بقليل، وقالت:

- أنت تبلي بلاءً حسنًا هناك، أليس كذلك يا “خورخي”؟ ويبدو أنك تتحول إلى “جورج” حقًّا. يسعدني أن أراك وقد اندمجت جيدًا. عندما أتذكر كيف رحلت عن هنا، وكيف كنت يائسًا.. يا فتي أنت في حالة أفضل كثيرًا.

ضحك “خورخي” بسعادة، ثم قال:

- أتعلمين، لم أتخطَّ الأمر تمامًا. أعلم أنها تزوجت، وأنجبت طفلًا، وأكملت حياتها دوني، ولكنني تخيلت أن حلمي السري، وحلم الحب، نعم أعلم أن وقع الكلمة مثل هذه الشوكولاتة اللذيذة كان أن أصادفها فجأة في الشارع وتضع ذراعيها حولي وتقول إنها أرادت أن تبقى معي.

فقالت “لينا”:

- لا أريد أن أكون مفسدة للمتع، ولكن لا توجد أدنى فرصة لحدوث هذا.

وافقها “خورخي”، وقال:

- أعلم ذلك، ولكن تراودني رغبة في السفر إلى “أورو براتو”، وأتجول هناك وأطارد شبحها حتى لو لأطرده.

أخذت “لينا” الأطباق إلى المطبخ، ووضعتها في الحوض، وفتحت الثلاجة لتأخذ الحلو. تذكرت قصة “خورخي” و”تيكا” سريعًا بينما كانت تمشي ذهابًا وإيابًا من غرفة الطعام إلى المطبخ. تقابلا قبل ذهابه إلى فرنسا بوقت قليل. كان شغفًا فجائيًّا وعارمًا اجتاح كل ما في طريقه. كانت مخطوبة لشخص آخر، إحدى تلك الخطوبات الطويلة التي تمتد ولا تنفك أبدًا. تركت خطيبها، وعملها، ودراستها، وتركت بيت أهلها وهربت مع “خورخي” إلى “أورو براتو”. قضى “خورخي” و”تيكا” أسابيع قليلة هناك، ونسى الاثنان نفسيهما في هذه الجنة المستعمرة بين الجبال، وعاشا علاقة حب لا تعترف بحدود الزمان ولا الظروف. أحبا بعضهما، وتشربا بعضهما، واستمتعا ببعضهما، وغمرا بعضهما. كان عليهما العودة بما أن موعد رحلته قد اقترب. قررت “تيكا” أن تفسخ الخطوبة وتذهب إلى فرنسا مع “خورخي”. ولكن بعد أن تحدثت مع خطيبها فعلت نقيض قرارها، حددت موعدًا للزفاف بعد أيام قليلة، وأخبرت “خورخي” أنها لن تراه مجددًا. لم يكتشف أصدقاؤهم الأسباب وراء هذا القرار غير المتوقع تمامًا. لم يفسر السبب الذي أعطته لـ”خورخي” أو السبب الذي أعطاه لأصدقائه أي شيء على الإطلاق. شمل رأيها شيئًا عن الحاجة للأمان، والخوف من المجهول، واليقين أنها ستستطيع أن تحافظ على مستوى معيشي جيد إذا تزوجت خطيبها. أقسمت أن “خورخي” هو حب حياتها، والشخص الوحيد الذي يهم، وأنها لم ترغب في إفساد العشق العظيم بملل ورتابة الحياة الزوجية. أخبرته كل هذا قبل الرحلة بيومين فقط، عندما كان “خورخي” واثقًا أنهما ذاهبان معًا. اختبأت “تيكا” في هذه اللحظة، واختفت ببساطة. تحطم هو، وجن جنونه، وبحث عن الفتاة في كل مكان، واحتسى الخمر طوال اليوم، وهاجم الأشخاص، وانتهى به الأمر و”تيريزا” و”أدريانو” يغصبانه تقريبًا بالقوة حتى يصعد على متن الطائرة. علمت “تيريزا” و”أرديانو”

أنه يجب على صديقهما أن يذهب إلى فرنسا بسبب بداية الدراسة، وأن تذكرته كانت مخفضة وسيخسرها إذا لم يستعملها لرحلة هذا اليوم. خيَّم جو من المعاناة وسط أصدقائه الذين كان عليهم أن يشاهدوا "خورخي" يتألم ولا يستطيعون أن يفعلوا أي شيء. حاولوا جميعًا أن يجدوا "تيكا" ولم ينجحوا، وتجادلوا ما إذا كان من الأفضل أن يدعوا "خورخي" يفوت رحلته ويخسر تذكرته ويذهب ليطاردها. لكن علم الجميع أنه لن يستطيع تحمل ثمن تذكرة أخرى، وأن المحاضرات كانت على وشك أن تبدأ، وأنه لا يستطيع أن يخسر منحته التي حارب بشدة من أجل الحصول عليها، والتي ستكون مهمة لمسيرته المهنية. مسكين "خورخي"!

كانت هذه أيام مرتبكة، كما تذكرتها "لينا"، بكل حب تجاه "خورخي". كان من الجيد رؤيته يبلى بلاءً حسنًا، وهادئًا، ومتماسكًا، ويدرس في جامعة فرنسية، وينشر مقالات في دوريات متخصصة ولها صيت عالمي. كاد أن ينتهي من أطروحته الأولى وسيبدأ في العمل على فكرة لأطروحة ثانية. أما بالنسبة لـ"تيكا"، فقد تزوجت فعلًا من خطيبها هذا، ولديها طفل عمره عام، ولكن لم تكن سعيدة للغاية. عرف "خورخي" ذلك. ولكنه على الأرجح لا يعرف أنها انفصلت عن زوجها مؤخرًا. لن تخبره "لينا" بهذا في هذا الوقت. لا تريد أن تراه يائسًا هكذا أبدًا.

غيرت الموضوع وهي تقدِّم الحلو، وسألت:

- هل رأيت "تيريزا" و"أدريانو"؟

- بالطبع، بمجرد أن وصلت هنا. استقبلاني في المطار، وكانت أختك هي من أعطتني رقمك وعنوانك الجديد. هل نسيتِ؟

نسيت "لينا". كان "خورخي" الصديق المفضل لـ"أدريانو"، زوج أختها في الحقيقة. درسا معًا في الجامعة. وبما أن عائلة "خورخي" من الريف، فكان يمكث في بيت أهل "أدريانو" حين يأتي ليبقى في ريو، ونزل هناك دائمًا. استمر "خورخي" في الكلام: - ولكنهما مليئان بالأسرار. أنتِ الوحيدة حتى الآن التي لا تتصرف بغموض.

فسألته:

- ماذا تعني بالغموض؟

فقال لها:

- هناك أوقات يعاملني الناس وكأن بي وباء. يتجنبني الجميع أو أنهم مليئون بالأسرار.

احتارت "لينا"، وقالت:

- يا لها من خاطرة مجنونة يا "خورخي". من أين أتيت بها؟ من غير المعقول أن تفكر هكذا.

- بلى، إن "أدريانو" وأختك رائعين، وهما أصدقائي الصالحين، وأعلم أنهما يحبانني كثيرًا وكل شيء، ولكن في بعض الأحيان أقول شيئًا وينظران لبعضهما عندما يعتقدان أنني لا أرى، ثم يصمتان أو يغيران الموضوع. كنت بمنزلهما ورن الهاتف، كنت أجلس بجانبه مباشرة فرفعت السماعة لأجيب، قفزت وأخذت السماعة بقوة من يدي. كل ما قالته للمتصل أن يتحدث لاحقًا، وأنهت المكالمة، واستأذنت، ولم تفسر أي شيء.

صمت لحظة، ثم أكمل:

- يسرني أن أستطيع أن أتحدث إليكِ بشأن هذا الأمر؛ لأنني أعتقد أنه غريب للغاية. حتى في بيت أهل "أدريانو" حيث أقيم، هناك بعض الألغاز التي لم أجدها من قبل. مثل البارحة، رن أحدهم جرس الباب وذهبت لأفتح، ولكن نظر إليَّ الطبيب "نيلسون" بمنتهى الجدية، وقال إنه من الأفضل أن أذهب إلى غرفتي وأن أبقى هناك حتى ينادوني. كان من الواضح أنه لا يريد لأيٍّ من كان يرن الباب أن يراني أو أن أرى أنا أي شخص. أعتقد أنهم كانوا ثلاثة أشخاص على الأقل من أصواتهم. بقوا هناك لمدة ساعة؛ يتحدثون في غرفة المعيشة. وأنا محبوس في غرفتي مثل الطفل غير مسموح له أن يظهر في وقت زيارة الضيوف. لقد جرحني الأمر.

فهمت "لينا" على الفور حقيقة الأمر. حاولت أن تشرح له:

- إن المسألة مسألة أمن يا "خورخي". ونظرًا للوضع الحالي، كلما قل عدد الأشخاص الذين يعرفون كلما كان أفضل.

أغضبه ما قالته كثيرًا، وقال:

- وهل يعتقدون أنهم لا يمكنهم وضع ثقتهم بي؟ أنا ناضج، ومسؤول، وأؤيدهم. هل كل الأشخاص هكذا الآن؟ كنت في بار في ذلك اليوم، وصادفت "ألفريدو" و"باولو" على طاولة مع أشخاص آخرين. في بادئ الأمر، تظاهرا بأنهما لم يرياني، أو لم يتعرفا عليَّ. لحظة، كنت بعيدًا لمدة عامين، ولا يمكنني أن أكون تغيرت إلى هذا الحد. لم أفكر في الأمر، كنت سعيدًا جدًّا لرؤيتهما. قالا شيئًا بصوت منخفض إلى الآخرين على الطاولة حين اقتربت، ثم نهض الجميع ورحلوا. لم يتبقَّ سوى نحن الثلاثة. تحدثنا كثيرًا، وكان الأمر رائعًا، لكنهما كانا قد أفسدا ليلتي.

أصرت "لينا" وقالت:

- إن الأوقات مختلفة يا "خورخي". من الأفضل ألا تستمع إلى محادثات، أو أن ترى أشخاصًا، أو أن تعلم من كان هنا لمصلحة وأمان الجميع. تقل المخاطرة للجميع بهذه الطريقة. كل شخص يحاول أن يقاوم بطريقة أو بأخرى، أو أن يساعد، أو يفعل شيئًا. ولكن القمع صعب ولا يعلم المرء ما عليه فعله أو من أين يبدأ. هناك أشخاص يعيشون في الخفاء تحت اسم مستعار، ولا يترددون أبدًا على الأماكن التي اعتادوا الذهاب إليها. من الأفضل ألا تجازف وتعرف عن أولئك الأشخاص السريين؛ لأن هذا يعرضهم للخطر دون فائدة. وهناك أشخاص مثلنا، يعيشون حياة جميلة، ولهم وظيفة ثابتة، وعنوان معروف، ولكن نبحر دائمًا حول جبال جليدية من السرية. يجب على المرء توخي الحذر لكيلا يصطدم بها حتى لا يغرق الجميع، خاصة نحن الذين اصطدمنا بها بالفعل. وذلك لأن الجبال الجليدية كبيرة للغاية في بعض الأوقات، فتهتز فقط وتصمد. ولكن هذا لا يشملنا؛ كل ما نحتاجه هو تصادم بسيط حتى نصل إلى الأسفل. لا ننتمي إلى أي منظمة يمكنها أن تساندنا. يجب أن نتوخي الحذر جيدًا.

ساعد "خورخي" نفسه ونهض ليحضر المزيد من القهوة. رأت "لينا" أنه لم يقتنع، وقد جرحه الأمر في الحقيقة. اشتكى مرة أخرى وقال: - ولكن لا تحتاجين لأن تعاملي صديقك بهذه الطريقة، أليس كذلك؟

فردت عليه:

- إنها أشياء صغيرة. يجب عليك ألا تأخذ الأمور بجدية للغاية.

فقال لها:

- أشياء صغيرة؟ أتسمين هذه الأشياء صغيرة؟ تقولين هذا لأنهم لا يفعلون تلك الأشياء بكِ. أشياء صغيرة! حسنًا.. كان هذا كل ما أحتاجه.

كان الغضب باديًّا عليه، وكذلك التردد، ولكنه قال:

- لم أكن حتى سأخبرك عما حدث لأنني أجد الأمر مهينًا أن يذلني الناس هكذا، ولم أرغب أن يعرف أحد. ولكن سأخبرك ولنرَ ما إذا كنتِ سترينها صغيرة.

أخبرها أنه ذهب إلى منزل "هنريك" للحديث في مساء الأحد، وأنه كان مهتمًا بأن يتكلم قبلها ويرتب موعدًا (أصر أن يقول الكلمة الفرنسية المقابلة لـ"ميعاد"، ووجدت هذا مسليًّا). ظن أن مضيفه مشتت الذهن طوال الوقت ومتوتر. وفجأة طرق أحدهم الباب. أخبره "هنريك" بأن يستعد ليقفز من النافذة ويركض إذا تطلب الأمر. نظر من العين السحرية للباب وطلب من "خورخي" أن يعود إلى الغرفة. لم يرد أن يذهب. دفعه "هنريك" إلى داخل الغرفة، وأغلق باب الطرقة وحبسه وذهب ليستقبل ضيوفه. قال "خورخي": -

هل تصدقين الأمر يا “لينا”؟ حبسني حتى لا أخرج إلى غرفة المعيشة. صديقي يفعل معي هذا.. حسنًا، نظرت من ثقب المفتاح، لم يكن يفعل الكثير، كل ما كان يفعله هو أنه يعطي بعض النظارات السوداء والأقنعة التي يوزعونها على متن الطائرات لتنامي، إلى صديقك الصحفي هذا “أونريو”. رحل الشاب وأخرجني من الغرفة. شعرت بالإهانة بالطبع وأردت أن أغادر مباشرة، ولكن لم يسمح “هنريك” بذلك. قال إنه علي أن أنتظر عشرة دقائق أو نحو ذلك، وأنه لا يمكنني أن أرحل بعد الشاب الآخر بوقت قصير مثل هذا. وأغلق الباب المؤدي إلى الشارع. حبسني مرتين متتاليين. أليس هذا جنونًا؟

فجأة غضبت “لينا” أيضًا، وقالت:

- أنا آسفة يا “خورخي”. إنه لأمر سيئ جدًّا إذا كنت لا تريد أن تفهم، أو غير قادر على الفهم. ولكن ليس لديك الحق في التجول وإخبار الناس مثل هذه الأشياء. لم أرغب في معرفة أن “أونريو” يعرف “هنريك”، أو أنه كان هناك في الليلة الماضية.

فسألها:

- هل هو سر؟

فردت عليه:

- لا بد وأنه سر إذا لم يرغب “هنريك” في أن تعرف. استقال “أونريو” من عمله في الجريدة منذ أشهر سابقة، واختفى، واختبأ، ولا أحد يعلم مكانه. كنت أفضل حقًّا لو لم أعرف ما قلته، ولا أن أعرف ماذا أخذا أو أستلما من بعضهما بعضًا، وألا أعرف أي شيء عن هذا الموقف.

فسألها “خورخي”:

- لماذا لا يخبرني أحد بهذه الأشياء؟ كان يمكن لـ”هنريك” أن يخبرني أن “أونريو” يتوارى عن الأنظار؛ فأنا أعلم كيف أحافظ على سر. أنتِ تعرفينني، وتعرفين أنني لن أتجول بين الناس وأخبرهم، فأنا لا أحب النميمة، أملك أيضًا وضعًا سياسيًّا، أنا ضد كل هذه الغوريلات، وأتحلى بالشجاعة. عندما احتل الطلاب ملعب “أوديون” في مايو من العام 1968، تركت كل شيء وذهبت إلى هناك. واجهنا الشرطة، والتقطنا حجر الرصيف من الشارع..

هدأ “خورخي”، أو يمكن القول إنه بدأ يتحكم في غضبه فقط. بدأ يتحدث عن الأشياء التي مر بها العام الماضي. قال دائمًا “مايو 1968”، و”أحداث مايو”، و”سياسة” باللغة الفرنسية. كان متحمسًا جدًّا، ومتشوقًا كأنه في فيلم ملحمي رائع رآه في الماضي، كان فيه مثل الرسوم المتحركة ويمثل أنه بطل الحي الساحر. من الجائز أن هذا قد يكون ما أراده: أن يخبر أحدًا عن

اللحظات المشوقة التي عاشها. كانت ستستمع بانتباه طالما امتلكت الوقت. يمكنها أن تقوم بهذا من أجل صديقها؛ أن تكون جمهورًا منتبهًا للرواية الرومانسية لثورة الطالب الباريسي من العام السابق. يمكنها أن تستمع بهدوء بما إن محاولاتها السابقة في قول شيء لم تكن ناجحة تمامًا. كان ذلك عندما قالت: - ولكن الوضع هنا مختلف تمامًا يا «خورخي». تحكمنا عصابة عسكرية. مرض الحاكم ولم يسمحوا لنواب الرئيس الذين اختاروهم أن يحلوا مكانه. كان الأمر بمثابة انقلاب داخل انقلاب، ولا نهاية له. ويتم تعذيب الشخص عندما يعتقل. ففي نهاية الأمر، سيحكي ما يعرف وما لا يعرف.

لم يستوعب «خورخي» الأمر حتى. أكمل فقط سرد قصته عن كل المغامرات التي عاشها على ضفاف نهر «السين». لم يُرِد أن يستمع. أراد لأحدهم أن يسمعه، وكانت «لينا» هناك بصفتها جمهورًا صامتًا.

فجأة رن جرس الباب. وقفت وذهبت لتفتح الباب وسط إحدى جمل «خورخي» المعلقة التي تحدث فيها عن «أحداث مايو». رأت «روبرتا» من العين السحرية للباب، أخت «جابرييل»، إحدى الملائكة الحارسين لـ»مارسيلو». نظرت إليها بعينين خائفتين، وسألتها هامسة: - هل أنتِ وحدك؟ هل يمكن أن أدخل بسرعة؟ إنه أمر طارئ.

فقالت لها:

- انتظري لحظة.

التفتت إلى "خورخي"، ولم تستطع ألا تجد الموقف طريفًا قليلًا. كان دورها الآن أن تكون غامضة، ماذا كان بإمكانها أن تفعل؟ فقالت له: - هناك حالة طوارئ يا "خورخي". هل يمكن أن تذهب إلى المطبخ قليلًا؟ أعدك بأنني لن أقفل الباب بالمفتاح، ولكن اخرج فقط عندما أناديك.

بدا "خورخي" كما لو أنه يختنق في نهاية أيام مايو 1968، ولكنه ذهب. دخلت "روبرتا"، وقالت سريعًا بصوت منخفض: - أحتاج إلى مساعدتك. يجب علينا أن نخبئ شخصًا، صحفيًّا، وأداة على وجه الاستعجال. لا أعلم أين، فكل الأماكن التي كنت أعرفها مأخوذة.

قالت "لينا":

- ألا يمكنك أن تستعملي قبو جدتك؟ حيث يقوم ابن عمك بتدريبات فرقته محدثًا الكثير من الضوضاء بسبب الطبول؟

فقالت لها:

- هذا مستحيل. كنت هناك في ذلك اليوم وأردت أن أتحدث مع ابن عمي لدقيقة. ذهبت إلى القبو، ووجدت أن كل هذه الضوضاء: الطبول، والساكسفون، والبوق ما كانت إلا شريطًا مسجلًا. وما يفعلوه هناك هو طبع النشرات الإخبارية السرية، والمنشورات، وأشياء من هذا القبيل. لديهم حتى مطبعة صغيرة. إن الوضع غير آمن.

فكرت "لينا" للحظة. يمكنها أن تحاول أن تخبئ الشخص في بيت زميل، "إيفان"، وهو أستاذ جامعي يعيش وحده ويمكن أن يكون متواجدًّا بالمنزل حاليًّا؛ لأنه يدرِّس فقط في الصباح وفي الليل. قالت "لينا": - أعتقد أنه لدي مكان لهذا الشخص. ولكنني لا أملك سيارة حاليًّا. ما هي الأداة؟

فردت عليها:

- أملك سيارة، فلا مشكلة في هذا. سنخبئ الصحفي على الفور. الشيء الآخر الذي عليَّ أن أتخلص منه هو الآلة الكاتبة.

فقالت "لينا":

- ألقيها في أي مكان. ألقيها في البحر من فوق الصخور.

كانت "روبرتا" متوترة جدًّا، وكادت أن تصرخ:

- لا يمكن هذا! يمكن أن يراني أحدهم!

- يمكنك أن ترميها ليلًا..

قاطعتها الفتاة قائلة:

- لا وقت لانتظار الظلام يا "لينا". يجب علينا أن نفعل هذا بمنتهى السرعة ثم نلتزم الصمت، وننتظر لنرى ما سيحدث. ألا ترين؟ أو لم تسمعي؟

لاحظت "لينا" الآن فقط أن نبرة الإلحاح في صوتها غير عادية، حتى بالنسبة للأيام المتوترة التي كانوا يعيشونها. ولذلك كررت سؤالها: - أرى ما حدث؟ لماذا؟

كان هذا دور "روبرتا" لتتفاجأ وتقول:

- ألا تعلمين؟ ألم تستمعي إلى الراديو؟ ألم يخبرك أحد؟

فردت عليها:

- لا، كنت أتناول الغداء هنا في هدوء مع صديقي. لم أترك الراديو مفتوحًا. ماذا حدث؟

نظرت "روبرتا" إلى عينيها بعمق وقالت جملة واحدة ملأت الصمت وأخذت كل الطاقة في هذه اللحظة، وظلت تسمع صداها في حياتها لسنوات قادمة: - اختُطِف السفير الأمريكي اليوم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

12

“انتباه

كل شيء خطير

كل شيء مقدس ورائع

انتباه للازمة الأغنية:

يجب على المرء أن يكون منتبهًا وعنيفًا

لا وقت للخوف من الموت

انتباه”

“كايتانو فيلوسو” و”جيلبرتو جيل”

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

للأفلام مشاهد متقطعة وحادة. يستطيع المخرج أو المُمَنتج أن يقطع مشهدًا فجأة إذا كان له تأثير قوي، وأن يوصله بمشهد آخر حدث في وقت مختلف وفي مكان مختلف، وها أنت ذا. يفهم المشاهدون ما يحدث في الوقت نفسه وهم يتابعون باقي القصة. أما عن المسرح فلديه آلاف الطرق، كل ما عليك فعله هو أن تطفئ ضوءًا واحدًا وتضيء الآخر فيتغير كل شيء. ليس في الحياة من هذا في شيء. لا يوجد إيقاف مشابه للرواية. فكرت “لينا” في هذا الأمر مرارًا عندما كانت ترغب في قطع مشهد أو أن تقاطعه، تريد أن تقطع مشاهد مثل الاستيقاظ من كابوس، أو أن تزيح بصرها عن الصفحة، أو تغيير المحطة، أو إطفاء التليفزيون. والاهتمام بها فيما بعد، في وقت آخر بعد راحة تتعافى فيها ليمكنها الاستمرار.

إن هذا الأمر ليس ممكنًا. يجب على المرء أن يعيش كل ساعة بجميع الدقائق والثواني الخاصة بها، وأن تتكدس الأعمال اليومية الصغيرة بها، ولا يُسمح له بأن يختار الحقائق التي يرغب بأن تظهر. على سبيل المثال، كانت تحمِّر شريحة لحم عندما جاؤوا ليعتقلوها. كان عليها أن تفكر أن اللحم سيحترق إذا لم تطفئ الموقد. وكان عليها أن تطفئ المسجل قبل أن يأخذوها، ومثلما فكرت سريعًا في إزاحة ملاحظة مكتوبة من “ألفريدو” لم ترغب لأحد برؤيتها تحت السجادة قبل أن تفتح لهم الباب.

لا طريقة للتحكم في الذاكرة. يمكنك أن تقص، وتقاطع، وتلتف حول الأحداث نظريًّا. ولكن في الحياة العملية، لا تستطيع أن تملي عليها الأفعال مثل المدير

على أية حال. إن الذاكرة هي المدير. وإن لم تفعل ذلك، فستختفي وتختبئ مهما حاولت بقوة أن تشدها.

ذهبت "لينا" في نزهة على شاطئ البحر، لممارسة الرياضة والتأمل في الأفق اللا نهائي. ذهبت هناك لتصفي أفكارها، وتطرد الأفكار الحزينة من اليوم السابق، وتتخلص من ألم المنفى، والمرض، والعقم. كانت تقضي القليل من اللحظات السعيدة، وشعرت أنها أسعد مما كانت عليه في الأيام القليلة الأخيرة. خدعتها ذاكرتها فجأة وقدمت لها استرجاعًا كاملًا للحظة على طبق من ذهب.

وعلى غير العادة، لم تكن ذكرى مؤلمة. داهمتها مجرد ذكرى خوف عظيم، وكأن الوقت توقف فجأة، وأصبحت كل حقيقة حولها مهمة جدًّا، ونُقشت كل تفصيلة على سطح صلب. تذكرت "لينا" بوضوح كل تفصيلة من هذه الأيام بعد العديد من الأعوام، والعديد من الأرواح والوفيات. واشتاقت لـ"لويس سيزاريو"، و"كارلوتا"، و"ألفريدو" الذي كان من المستحيل أن تتحدث معهم في هذا العالم. كانت الذكرى واضحة كما لو أنها كانت تحدث الآن أمامها تحت شمس صباح سبتمبر الساطعة.

كان سبتمبر مختلفًا، وشهد أسبوع الاستقلال. كانت العصابة التي استولت على السلطة من اللواء/ الرئيس، والتي لم يتم انتخابها أيضًا، تحضِّر احتفالات ضخمة لإحياء ذكرى يوم الاستقلال. استولوا على كل الرموز القومية كما لو أنهم امتلكوها وحدهم. كان لوقع جملة "بلادنا" على الأذن وقع سخيف، فقد وقعت بين الأيدي الخاطئة، وعُزِلت عن أصحابها الحقيقيين الذين لن يردوها إلا بعد سنوات عديدة. وهذا ما حدث مع الأناشيد، والعلم، والألوان الخضراء والصفراء. لم يعبِّر أيٌّ من هذا عن المواطنة في هذا الوقت. كان يتم الاحتفال بيوم الاستقلال في هذا المناخ في السابع من سبتمبر، بعد ثلاثة أيام من زيارة "روبرتا" إلى منزل "لينا" وإخبارها بما حدث. كان الأمر مفاجأة تمامًا. وبما أن البلد كانت معتمدة كليًّا على الولايات المتحدة، فسيضطر الجيش إلى تأجيل احتفالات الاستقلال لوقت آخر.

قالت "لينا":

- اختُطِف؟ مَن فعل ذلك؟

فردت "روبرتا":

- لم يقل الراديو شيئًا. لم يقل سوى أنه اختُطِف.

كانت ردة فعل "لينا" الأولى هو أنها شعرت بأنها مهددة، وقالت: - يالها من فكرة ذكية من حزب اليمين المتطرف، بحيث يتمكنون من اتهامنا ويتجولون

ليعتقلوا كل الأشخاص.

وافقتها "روبرتا" في نقطة واحدة فقط، بما أنها أتيحت لها الفرصة لتفكر في الأمر: - لا أعرف. ظننت هذا في بادئ الأمر. ولكن فكرت في الأمر مرة أخرى، ولا أعتقد ذلك. إن جناحنا الأيمن مرتبط للغاية بالولايات المتحدة، ولن يجازفوا بأن يغضبوا المدير، حتى ولو كانت خدعة.

قالت "لينا":

- أنتِ محقة، إن الأمر واضح..

قاطعتها "روبرتا":

- ولكن يا "لينا" أنتِ محقة أيضًا. أيًّا من كان فعل هذا، سيكون هناك كم جهنمي من أعمال القمع، ولا يمكننا أن نضيع الوقت.

فقالت "لينا":

- قلتيها لتوك. انزلي وانتظريني في السيارة. سأذهب وأغير حذائي، ثم أقابلك بالأسفل.

أغلقت الباب ونادت على "خورخي". أخبرته بما حدث بينما كانت تستعد. تحدثت إلى "أرنالدو"، الذي لم يسمع بالخبر أيضًا. ثم نصحت صديقها قائلة: - سننزل إلى الأسفل الآن يا "خورخي" ولكن ليس معًا. ستغادر من باب المطبخ بعد خمس دقائق تقريبًا من مغادرتي. أغلق الباب فقط، دون قفل.

فسألها "خورخي":

- ألا أستطيع أن أذهب معكِ إلى مكتب الجريدة؟ وبهذه الطريقة سأعرف الأخبار أولًا بأول. ولا يجب عليكِ أن تمشي وحدك.

فردَّت عليه:

- شكرًا، ولكن لا داعي. ولن أذهب مباشرة إلى الجريدة. إن من الأفضل أن تقوم بما أقوله. سلام.

عندما وصلت إلى الباب أضافت:

- إذا رن الهاتف لا حاجة لأن ترد. أنا آسفة يا "خورخي". سنتحدث غدًا أو بعد غد.

لم تكن لتتخيل أنها لن تتحدث إليه إلا بعد خمسة أشهر، في مقهى في باريس عندما وصلت لتوها لتبدأ منفاها وجاء هو من الأقاليم ليقابل صديقته. كان

لديها مهمات طارئة تقوم بها في هذه اللحظة. نزلت إلى الأسفل، ودخلت إلى سيارة "روبرتا". جلس شاب في المقعد الخلفي يغطي وجهه بيديه.

قالت "روبرتا":

- يبدو أنني قمت بشيء لم يكن عليَّ فعله. رآكِ وتعرف عليكِ عندما كنتِ قادمة من المبنى، وتملكه الخوف. لم أخبره بأي شيء، ولم يعرف أنكِ الصديقة التي كنت أبحث عنها.

فردت "لينا":

- آسفة، ولكن ما المشكلة؟

فقالت "روبرتا":

- إذن فهو لا يريدك أن تخبئيه أو تعلمي مكانه. ولا يريد أن تلتفتي إلى الوراء وتنظري إليه. لن يقول أي شيء حتى لا تتعرفي إلى صوته. قال إنكِ تدخلتي أكثر من اللازم في هذه القصة، وأنكِ في خطر أكبر منه.

أفزعها هذا. لم تستطع أن تسأل أي شيء، ولذلك كررت فقط ما سمعته؟

- أنا؟

أكدت "روبرتا":

- نعم.

قالت "لينا":

- إذن لا بد أن ما تقولينه بسبب وضع أخي.

فقالت "روبرتا":

- بالطبع. وأنا أيضًا في خطر في هذه الحالة؛ لأن أخي يعيش مع أخيكِ.

سمعت "لينا" و"روبرتا" صوتًا مكتومًا من المقعد الخلفي:

- هل ستتجاذبان أطراف الحديث الآن؟

قالت "روبرتا":

- إنه محق يا "لينا". لا يمكننا أن نؤجل. سأتركك حيث اقترحتي، وتخلصي أنتِ من الآلة الكاتبة. وكل ما سأفعله هو أن أبحث عن مكان يختبئ فيه.

قال الصوت من المقعد الخلفي:

- لا حاجة لذلك. سأعتني بنفسي. كل ما عليكِ فعله هو أن تفتحي الباب، وسأخرج وتغلق "لينا" عينيها حتى لا تراني، وسأرحل. يا إلهي، كيف وصلت بنفسي إلى هذه النقطة الصعبة؟ هل كان عليَّ أن أقع بين يدي "لينا" من بين كل الناس.. إذا كان ما أشك فيه صحيحًا، فأنا منتهٍ.

قاما بما أخبرهما به. شعرت "لينا" بعدم ارتياح متزايد. كان عليهم أن يتخلصوا من الآلة الكاتبة على الفور. لم تحب ذلك على الإطلاق. أرادت أن تساعد الأشخاص، بالطبع، ولكنها شعرت بعدم الأمان، وأنها مسحوبة تدريجيًّا ناحية أشياء لا تعلم أين ستنتهي. شعرت بالقلق مثل حيوان في الغابة شم رائحة دخان على بعد مسافة. رغبت في أن ترفع أذنيها، وأن تستنشق بفتحتي أنفها وتحاول أن تفسِّر علامات الخطر حتى تحمي نفسها. ولكنها لم تكن قادرة على فعل ذلك، ولم تكن مستعدة. ولا يوجد أحد تطلب منه المساعدة، ماعدا أشخاص غير مستعدين مثلها.

وصلوا إلى المبنى حيث يعيش الأستاذ الجامعي. أخذت "لينا" المصعد إلى الدور الثامن حاملة الآلة الكاتبة. ذهبت إلى آخر الممر، وفتحت الأنوار، ورنت الجرس. لم يقابلها سوى الصمت من الداخل. ولكنها ظنت أنها سمعت صوتًا مكتومًا. رنت الجرس مرة أخرى. كانت هناك حركة وراء العين السحرية للباب. أحدهم ينظر إليها. لا بد وأن "إيفان" بالمنزل، ولكنه لم يفتح الباب. رنت الجرس مرة أخرى، وهمست: - إنه أنا "لينا"، أرجوك افتح إن الأمر طارئ.

انفتح الباب، ولكنه لم يكن المالك. كان وجهًا غريبًا، وله ذقن وعيون غائرة. قال لها: - ادخلي بسرعة. هذه الشقة فارغة رسميًّا. لم أكن أنوي فتح الباب ولكنني تعرفت عليكِ. ألست أنتِ هذه الصحفية، أخت "مارسيلو"؟ رأيتكِ مرة في مظاهرة، وأخبرني أحدهم من تكونين.

ترددت. كان ذلك مريحًا أن ينفتح الباب، ولكن في هذه المرحلة لا يمكنها أن تدخل مع غريب وهي لا تعرف ما يحدث. سألت "لينا": - إذن أين "إيفان"؟

فقال لها:

- لم يعد من الجامعة بعد، ولكنه سيصل خلال دقيقة.

لاحظت في هذه اللحظة وجهه الغريب وراء الذقن والنظارة. كان قائدًا طلابيًّا مهمًّا؛ أحد أكثر الأشخاص المطلوبين، والذي لم يتم رؤيته في العلن لمدة أشهر. خطت خطوتين داخل الشقة، وأغلقت الباب حتى منتصفه فقط، وشرحت سريعًا أنها بحاجة لأن تخبئ الآلة الكاتبة، ورحلت. سألته وهي تخطو إلى الخارج: - هل لديك راديو؟

فقال:

- هناك تليفزيون، ولكن لا أحاول أن أفتحه. أخاف أن يسمعه أحد. يجب أن يبدو الأمر كأنه لا يوجد أحد بالمنزل.

فقالت له:

- افتحه في هذه الحالة. من الجائز أن تُذاع نشرة إخبارية خاصة. اختطفوا السفير الأمريكي.

أصدر الفتي صوت صفارة عالية مستخدمًا كل الهواء في رئتيه، وقال: - اللعنة! سيسوء الوضع كثيرًا.

أراد تفاصيل، ومعلومات، وأشياء لا تستطيع "لينا" أن تعطيها له. فتح التليفزيون، واصطحبها إلى الباب مرة أخرى واقترح: - أعتقد أنه سيكون من الحكمة أن تختبئي. آسف لأنني أتحدث دون إذن، فأنا لا أعلم أي شيء عن الأمر، ولكن عندما يغضب الرجال ولا يستطيعوا أن يضعوا أيديهم على من يريدون، يأخذون أي شخص يجدونه للانتقام فقط. يمكن للوضع أن يصير قبيحًا جدًّا.

قررت "لينا" أن تذهب إلى مكتب الجريدة على الرغم من أنه كان يوم إجازتها. علمت أنه سيكون هناك عمل للقيام به، وسيُرحب بكل يد إضافية تساعد. إن الصحافة في الحقيقة وظيفة بدوام كامل تتطلب تفانيًا تامًّا. كان مكانها في غرفة الأخبار. لم تملك سيارة؛ فاستقلت سيارة أجرة لتصل إلى هناك أسرع. فكرت في الوضع في طريقها إلى هناك وعما سمعته لتوها من الطالب. كانت نصيحة جيدة للغاية. ونظرًا لفزع الشاب الآخر، الشخص الذي فضَّل ألا يكون في صحبتهما، كان من الواضح أن الخطر كان حقيقيًّا. ولكن ماذا كان باستطاعتها أن تفعل؟ لم تملك أي نية للاختباء تحت الأرض، ولا أن تعيش حياة أخرى بهوية أخرى، وتاريخ آخر، ووظيفة أخرى، وأصدقاء جدد. لم تكن تقدر على الاستقالة من الجريدة وإيقاف عملها. كان لـ"أرنالدو" وظيفة أيضًا في المستشفى، وعمل لساعات قليلة في عيادة زميل خاصة، وكان يحاول أن يحصل على منحة لتدريب متخصص في أوروبا. لا يوجد أي منطق لخسارة كل هذا لحماية أنفسهما. أو هل كان هناك منطق؟ ما حجم الخطر الحقيقي؟ إلى أي درجة كان الناس الذين لم يفعلوا أي شيء سوى مساعدة صغيرة هنا وهناك في خطر؟

كان لديهم المزيد من المعلومات في الجريدة. اختُطِف السفير من سيارته في طريقه إلى العمل الذي يمر به كل يوم في الموعد نفسه. ولكن في هذا اليوم، كان هناك سوق مفتوح في الشارع الذي يمر به ولافتات في طريق

الزحمة المرورية. كان على السيارة أن تبطئ واستغل الخاطفون الفرصة. تمكنت “لينا” من تصور المشهد؛ فقد كانت تعرف السوق جيدًا فهو في شارع صغير أمام منزل العم “جوستافو” مباشرة. تمت العملية بسرعة وفعالية، ولم تُطلق رصاصة واحدة. تواصل الخاطفون بالفعل مع الصحافة، يبدو أن هناك بيانًا رسميًّا لتفحصه الشرطة، وقدموا بعض المطالب لتحرير الدبلوماسي.

كان على “لينا” أن تقوم بعملها على الرغم من أنها كانت مهتمة بالقضية. لم تكن تغطي هذه القصة. أخبروها بأن تكتب مقالة كبيرة عن موضوع آخر ليُنشر في نسخة الأحد. لم يكن لديها وقت لتضيعه، ولكنها لم تستطع التركيز. تنهض كل مدة عادة وتترك مكتبها، وتسترق النظر في الوضع السياسي، مثلها مثل أي شخص في الجريدة في هذا اليوم، أو تنظر إلى التقرير العام، وتحاول أن تكتشف ما إذا كان العاملون الآخرون لديهم أي أخبار جديدة. لم يرغب الخاطفون في فدية بالمعنى الصحيح. طالبوا بأن تُرفع الرقابة لينشروا بيانهم الرسمي للأمة. خضعت الحكومة. أعلنوا أنهم سيحرروا السفير مقابل تحرير خمسة عشر مسجونًا سياسيًّا، سيعطون أسماءهم بمجرد أن يوافق الجيش البرازيلي على شروطهم. يجب أن يوضعوا على متن طائرة ويتجهوا إلى المكسيك. سيُحرر السفير في صحة وأمان بمجرد أن يصلوا هناك، وتؤكد وكالات الأنباء العالمية وصولهم بالصور. كانت هذه هي الشروط التي قدموها.

لم يشك أحد في الجريدة في أن الحكومة ستقبل بهذه الشروط، فهي لا تملك خيارًا، أُخذت على حين غِرة ولم تكن على استعداد أن تجازف وتغضب الولايات المتحدة، التي وفرت لهم في نهاية الأمر كل الدعم الضروري الذي تحتاجه الحكومة لتعمل. كانت ردة فعل الغوريلات غير متوقعة بالمرة. لم يجرؤ أحد في العالم أن يمسك بالسفير الأمريكي لشجب ديكتاتورية مدعومة من الولايات المتحدة، وفي الوقت نفسه يستعمله مثل تبادل العملات ليحرر مساجين. لم يكن الفعل مدهشًا، ومبدعًا، وجريئًا فحسب، بل كانت لعبة بالأوراق أيضًا. كان مستحيلًا ألا تستسلم العصابة؛ فقد كان عليها أن تكون أقل اعتمادًا على الولايات المتحدة لتفعل ذلك. ولكن إذا استسلمت لن تفرض إرادتها على البلد. اتفقت كل تحاليل الصحفيين على طاولاتهم، وفي الممرات، وفي أركان غرفة الأخبار على هذه النقطة. لم يفكر أحد حتى في احتمالية أن ترفض الحكومة الشروط. ولكن علم الجميع أيضًا أنه بمجرد الاطمئنان على السفير وأنه آمن سيطلقون العنان لقمع لم تشهد البلاد في مثل عنفه من قبل. سيعتني كل رجل بنفسه فقط. انقسمت الآراء فيما يخص الآثار السياسية طويلة الأمد. ظن البعض أنها ستكون بداية مقاومة شعبية متزايدة. تجادل الآخرون بأن القمع سيكون كليًّا ولن يجرؤ أحد على إخراج رقبته ليرى ما يحدث حتى.

حاولت "لينا" أن تنجز بعض الأعمال، ولكن كان تركيزها على أية حال مع الأخبار. كانت الأخبار تأتي واحدة تلو الأخرى، ممزوجة مع الشائعات عن مناورات الجيش، والضغط الأمريكي، وعروض الوساطة من قِبَل قادة الدين. كانت هناك أخبار بأن الحكومة ستخضع إلى المطالب، وهناك أخبار بأنها لن توافق عليها أبدًا.

عندما عادت "لينا" إلى منزلها متأخرة في منتصف الليل، قرئ البيان الرسمي للخاطفين في التليفزيون الوطني وقنوات الراديو. كانت هذه المرة الأولى التي يعلم فيها مشاهدو ومستمعو وسائل الإعلام أن السلطات تضرب، وتعذب، وتقتل المساجين السياسيين. طبعت كل الجرائد في اليوم التالي البيان الرسمي، كانت هذه علامة على أنه تم تنفيذ الشرط الأول لتحرير السفير، والآن عليهم أن ينشروا قائمة المساجين التي سيتم مقايضته بهم.

عملت "لينا" على قصة ثقافية تحضرها لجزء "ب" في الجريدة طوال اليوم، وحاولت أن تنجز المهمات التي كانت في انتظارها وهي تستمع لأي أخبار. وفي الصباح، جاءت مكالمة من مجهول تخبرهم أين يجدوا ملاحظة مكتوبة من السفير نفسه، ورسالة أخرى من الغوريلات. جاءت قائمة أسماء المساجين أخيرًا عبر مكالمة أخرى في المساء. كانت "لينا" على مكتبها، وأمامها آلتها الكاتبة حين مر مراسل شاب، ما زال طالبًا، وهمس لها: - هل رأيتي القائمة؟ إنها تشمل الجميع..

فسألته:

- ماذا تعني بالجميع؟ أليسوا خمسة عشر فقط؟

فقال لها:

- القيادة يا "لينا". "فالدير" والآخرون.

قال بمنتهى السعادة أسماء الطلاب الأربع القادة الذين تم التحفظ عليهم في السجن على الرغم من أمر إطلاق السراح حين تحرر "مارسيلو". شعرت "لينا" بخوف يفوق خوفها. قفزت وقالت: - أين هذه القائمة؟

رد عليها:

- بحوزة "باروس"، ولكن هناك نسخة تتنقل بين أرجاء المكتب، انظري إلى هذه الطاولة التي يلتف الأشخاص حولها.

ذهبت "لينا" إلى الطاولة مثل من يمشي أثناء النوم. رأت قائمة لحوالي خمسة عشر اسمًا على الطاولة، وتمسكها العديد من الأيادي خلف العديد من الرؤوس. كان الاسم الثاني هو "فالدير"، وبعده ثلاثة أسماء. ولكن كان الاسم

الأول هو من عرَّفها بما يجري؛ كان بمثابة التوقيع. كان اسم "ويليام" العجوز. ترددت كلمات "مارسيلو" في ذاكرتها: "سأخرجهم من هنا؛ واحدًا تلو الآخر. وإذا كنتم تشكون بي، سأخرج "ويليام" العجوز على رأسهم".

يا إلهي، كان حقًّا يخرجهم. ثم؟ ماذا سيحدث فيما بعد؟

عليها أن تخبر والديها بما عرفت. عليهم أن يدرسوا الموقف، ويقيموا النتائج. أشار كل شيء في هذا الوقت إلى أن الشرطة لم تعرف بعد من هم الخاطفون. ولكن كان الأمر مسألة وقت. سيخيم قانون الغابة على الأجواء حين يتم تحرير الرجل.

لم تقدر "لينا" على تنظيم أفكارها، وأن تدرس ما يحدث حولها بوضوح. عادت إلى آلتها الكاتبة، وانتهت من تقريرها بشكل أو بآخر، وسلمته إلى المحرر وأعطته رواية مرتبكة عن كيف أنه عليها أن ترحل حتى تتأكد من بعض الحقائق لقصتها التالية. كادت أن تصطدم بـ"ألفريدو" وهو يدخل. قال لها: - ماذا تفعلين هنا؟

فقالت له:

- جئت من أجل الأخبار؛ فلم أكن أحتمل الأمر. هل صحيح أن "ويليام" ضمن القائمة؟

- نعم. يا له من أمر رائع! إن عملية الاختطاف هذه هي أفضل هدية قد تتمناها البلاد.

سألت، وكانت ما زالت مندهشة وغير واثقة:

- هل تظن هذا حقًّا؟

فرد عليها:

- بالطبع. ظهر أحدهم للمرة الأولى ليدافع عن الأشخاص في وسط كل هذا العنف؛ شخص لديه جرأة أن يواجه الغوريلات يا "لينا". لا أعلم، ولكن في كل مرة يترك طفل أعزل المنزل، يتم ضربه من قبل المتنمر في ركن. هذه هي المرة الأولى التي لا يحتاج فيها الطفل أن يترك المنزل وحده؛ فقد ذهب معه أخوه الكبير وضرب المتنمر في محاولة للتغيير.

فقالت له:

- نعم، بالطبع.

لاحظ "ألفريدو" أنها كانت في طريقها إلى الخارج، فسألها:

- هل سترحلين فعلًا؟

فقالت له:

- نعم. كنت سأرحل مبكرًا لأنه ليس لديَّ سيارة ولا أريد أن أصل منزلي متأخرة، فما زال عليَّ أن أمر على منزل أمي.

- انتظري دقيقة، سأوصلك. سأذهب سريعًا. كل ما أريد فعله هو أن أرى القائمة وأعرف آخر الأخبار. سأعود خلال خمسة دقائق. ثم سنتوقف في مكان ما لنحتفل، وسآخذك..

- نحتفل يا "ألفريدو"؟

- بالطبع، فالمدينة تحتفل كما لو أن "جارنيشيا" قد أحرز هدفًا وحقق نصرًا للبرازيل في كأس العالم لكرة القدم، وأشياء من مثل هذا القبيل. تقضين وقتك محبوسة هنا في المكتب ولا تملكين أدنى فكرة عما يحدث في الشوارع.

ترددت "لينا"، وقالت:

- لكنني في عجلة من أمري، ومن الأفضل أن أرحل.

لم يستسلم "ألفريدو"، وقال:

- لماذا؟ هل حدث مكروه؟ قلت لكِ إنني سأوصلك فيما بعد إلى أي مكان تحبين. إذا ركبتِ حافلة الآن، ستقضين وقتًا أطول فيها. انتظري، سأعود حالًا وبينما تنتظرينني يمكنك أن تتحدثي إلى «أرنالدو» ونتقابل جميعًا في مقهى «القدم المتسخة».

أمسك بالمصعد قبل أن يغلق بابه. قررت "لينا" أن تنتظر. أحبت فكرة قضاء الوقت مع صديق، وأيضًا مقابلة "أرنالدو" في هذا الوقت. اتصلت بزوجها ورتبت الأمر. كانت مذهولة للغاية من إداركها المفاجئ أن "مارسيلو" أحد الخاطفين، ولم تستطع أن تفكر بشكل سليم. كان من الجيد أن تعود إلى المنزل مع الاثنين، على الرغم من أنها لم تود الاحتفال بأي شيء.

وصل إليها الجو العام من الاحتفالات على أية حال في المقهى. كان مكانًا بسيطًا في الحي، ورخيصًا، وبرتغاليًّا. كان بالمقهى طاولة طويلة على جانب، وصفان من الطاولات الصغيرة ذات أسطح من الرخام في الأمام. قدَّم المقهى مشروبات الفاكهة مع الـ"كاشاسا"، وبالإضافة إلى الـ"كاشاسا" السادة من مقطر طيني مميز جدًّا من موردين خاصين. تقابلوا بين الحين والآخر مع "ألفريدو" هنا ليتجاذبوا أطراف الحديث في المساء المتأخر في وسط المدينة عندما تزيد الزحمة المرورية، وكان من الممكن التحدث بهدوء

في المقهى. كان الجو العام قلقًا ومتوترًا في هذا اليوم. كانت الحانة مزدحمة، وكل الطاولات مشغولة، وقف العديد من الأشخاص في الممر حاملين كؤوسهم وضاحكين وشربوا نخبًا لبعض.

ظل المالك البرتغالي يقول وهو خائف مع أنه بالطبع أحب العمل والأرباح: - لا للأنخاب! لا للأنخاب!

طلب "ألفريدو" بصوت أعلى من الضوضاء في الحانة:

- نخب واحد فقط لننتهي يا شعب!

ترجاه المالك:

- واحد فقط وهذا كل شيء، أرجوك. ومن فضلك، انتبه لما تقول..

رفع "ألفريدو" ذراعه ممسكًا كأسه وصرخ:

- نخبنا جميعًا الذين اكتشفنا لتونا أننا لدينا أخ كبير! في صحة الأخ الأكبر!

ردد البعض وراءه في جو عام من الفرحة الغامرة:

- في صحة الأخ الأكبر.

كان "أرنالدو" متحمسًا للغاية، وقال:

- يالها من راحة يا "لينا"! لم أفكر أنني سأرى الجيش البرازيلي يومًا ما يضطر إلى أن يبتلع غروره ويطلق سراح القليل من المساجين. وسيكتشف كل شخص أنهم ليسوا أخيارًا كما يدعون.

فقالت "لينا":

- بالطبع، سنتحدث عن هذا لاحقًا.

فقال لها:

- ولكن "ألفريدو" على حق. لدينا الآن من نلجأ إليه. لن ينفذ أحد خطة مثل هذه إلا إذا كان قويًّا وقادرًا على أن يفعل المزيد. على الأقل الآن، هناك تعادل في الحرب.

لم يستطع المرء أن يتحدث حقًّا في مثل هذا المحيط. ستخبر "أرنالدو" لاحقًا، أما الآن فلا يمكن أن تخبر أحدًا. كلما عرف الناس متأخرين، كلما كان أفضل. ولكن يجب عليها أن تحذر والديها بحذر، ولكن في أسرع وقت. نادت قائلة: - هل يمكننا أن نرحل الآن؟

سيكون من الصعب إقناع "ألفريدو" بالرحيل عن الحفلة، ولكن لاحظ "أرنالدو" بأنها لم تكن على ما يرام. قرر أن يرحلا. نادى "ألفريدو" مرة أخرى بينما كان يرحل: - في صحة الأخ الأكبر.

رددت "لينا" النخب مثل الصلاة. أصبح "مارسيلو" منذ هذا اليوم أخًا كبيرًا للأبد. أصبح الأخ الأكبر للجميع وحاميهم، كما لاحظت سابقًا أنه أصبح كذلك بالنسبة لها. كبر الصبي وأصبح رجلًا، وتحول الأخ الأصغر إلى "روبن هود"؛ اكتمل نضوجه في العشرين. شاركت اكتشافها مع "أرنالدو" في الطريق إلى المنزل. صدق الأمر بصعوبة، ولكنها كانت تعلم أنه كان يحاول أن يكسب وقتًا ليتعود على الفكرة. عليها أن تخبر والديها الآن. جاءت أمها إلى الباب عندما وصلت "لينا" إلى المنزل، ونظرت إليها بحذر وأدركت أن ابنتها تعرف. نجحت في أن تهمس لها في أذنها وهي تتحرك نحو الداخل: - لا تقولي أي شيء لأبيك بعد.

دخلت "لينا"، وتحدثت إلى "كلوديا" و"كريستينا" اللتين كانتا تشاهدان التليفزيون، وذهبت لتقبِّل أبيها. تساءلت وهي تقبله كيف عرفت "أماليا". لم تشك "لينا" إلا عندما رأت قائمة أسماء المساجين المنتظر تبادلهم وتذكرت ما قاله "مارسيلو" عندما سمع قانون "A-5" في الراديو. لم تكن "أماليا" معهم وقتها. لم ترَ ابنها سوى مرات قليلة منذ هذا الوقت. كانت المرة الأخيرة التي رأت فيها ابنها في عيد ميلاده ولم يتحدثا بشأن هذا الأمر. كيف لها أن تستنتج هذا؟ أو هل من الجائز أنها لا تعرف وتتحدث عن شخص آخر؟

دخلت إلى الغرفة وعانقته. نظر فوق كتفها ورأى أنها جاءت وحدها وقال: - أستطيع أن أفهم من وجهك أنك تعرفين، أليس كذلك؟

فسألته:

- أعرف ماذا؟

- لا تدَّعي البراءة. أعلم أيضًا أنه هو من فعل ذلك. ولكن دعينا لا نخبر أمك الآن. سنقول في الغد. فاليوم الجميع فرحون، فلماذا نفسد الحفلة؟

استمتعت "لينا" على الرغم من كل شيء:

- أبي، هي تعلم أيضًا. أعتقد أنه من الأفضل أن نواجه الأمر ونجلس ونتحدث. وبهذه الطريقة لن يتفاجأ أحد.

نادت قائلة:

- أمي، تعالي إلى هنا!

عندما دخلت "أماليا"، أغلقت الباب وقالت "لينا":

- عفوًا، هذه هي الطريقة التي تقام بها الحفلة: كل شيء ممزوج بالخطر والخوف.

كانت “أماليا” لا تزال تحاول أن تتجنب الأمر، وتؤخر حتمية مواجهته، والكلمات العالية التي تجسد ما في داخل القلب: - طفلتي، عما تتحدثين؟

قالت “لينا”:

- نحن الثلاثة نعرف، وأود حقًّا أن أعرف كيف عرفتما. وأتمنى ألا يكون أحد آخر قد عرف بالأمر.

سألت “أماليا”:

- عن “مارسيلو”؟

قال “ألبيرتو”:

- نعم، كيف عرفتِ؟

شرحت “أماليا”:

- شعرت بهلع فظيع؛ فلم أكن لأتخيل. سمعت الأخبار، وتحدثت عن الأمر ولم أملك أدنى فكرة. ولكن عندما سمعت البيان الرسمي، عرفت.

فقال لها:

- كيف؟

- من يعرف؟ بدا الأمر كأنه هو. أعرف ابني، والطريقة التي يتحدث بها، والطريقة التي يكتب بها. هناك أشياء به لا تبدو مثله أبدًا. ربما ساهم في كتابة البيان المزيد من الأشخاص. ولكن هناك بعض الجمل كأنها كُتبت بخط يده، وبصوته، ومع توقيعه بالأسفل. أعلم أنه هو من كتبها. يذكر حتى الإنجيل، هذا الجزء من العهد القديم الذي تحدث عنه ذاك اليوم في وجبة الغداء.

حاولت “لينا” أن تتذكر، وسألت:

- أي جزء؟

فردت “أماليا”:

- ألا تذكرين عندما شكرني على الإنجيل، وقد قال هذا بعد قراءته للعهد الجديد لوقت طويل، وها هو الآن يكتشف العهد القديم؟ وأشار حتى إلى آية واحدة. حسنًا، ذهبت إلى المنزل وبحثت عنها. إنها مثل تلك التي ظهرت في البيان الرسمي: العين بالعين، والسن بالسن.

ابتسمت "لينا". إذن كان الأمر هكذا. قالت:

- يمكنك يا أمي أن تُدرِّسي علم الأساليب في الجامعة. أتمنى فقط ألا تكون الشرطة بهذه الكفاءة. وأنت يا أبي كيف اكتشفت الأمر؟

قال "ألبرتو":

- يمكن أن أكون تخيلت الأمر أيضًا. سمعت الأخبار، وظننت أنه عمل شجاع وبطولي، وذو توقيت رائع. أعجبت به فقط، وحاولت أن أحلل تداعيات العمل ونتائجه، ولم أظن أنني سأعرف قريبًا أن ابني في المجموعة وأن أشعر بما أشعر به الآن. أنا فخور للغاية ولكنني قلق حتى الموت.

ضغطت عليه "أماليا" الآن، وسألته:

- ولكن كيف عرفت؟ هل كان بسبب البيان الرسمي أيضًا؟

فقال لها:

- لا، عرفت بسبب الساعة. ولكن أول ما لفت انتباهي هو اسم الشارع.

فسألته:

- اسم الشارع؟!

فقال:

- حسنًا، نعم. عندما بدؤوا في إذاعة الأخبار بتفاصيل أكثر ووصفوا ما حدث، ظلت إحدى المحطات تتحدث عن شارع "ماركس"، وانتبهت للاسم وأنا مندهش قليلًا، ودون علم بما إنه لم أكن أعرف أن هناك شارعًا اسمه "ماركس" في ريو.

ضحكت "لينا" وقالت:

- هذا كان التباسًا من ناحيتك. إنه لا يدعى "ماركس"، ولكن "ماركيس"، وهو اسم برتغالي جميل. ولكن ما علاقة "مارسيلو" بكل هذا؟

فقال:

- حسنًا، تذكرت كل شيء. بمجرد أن ترك منزلك منذ عدة أشهر وبعد قانون "A-5"..

سألت "أماليا":

- عندما أُطلِق سراحه من السجن؟

فرد عليها:

- نعم، هذا هو الوقت. قضى وقتًا طويلًا يختبئ في بيت "جوستافو" في تلك المدة.

سألت "لينا":

- العم "جوستافو"؟ أخوك؟ لم أكن لأتوقع.

قال "ألبرتو":

- حسنًا، نعم. كان من الأفضل ألا يعرف أحد. ذهبت إلى هناك في صباح ما لأتحدث معه كما جرت العادة. رأيت "مارسيلو" وبينما كنا نتحدث ظل ينظر في الساعة. فجأة نهض، وذهب إلى النافذة وراقب الشارع من وراء الستائر. ابتسم نصف ابتسامة، ثم نظر إلى الساعة وابتسم ابتسامة واسعة. نظرت وكل ما رأيته هو زحمة مرورية أمام منزل عمك، وسوق في الشارع في قمة عمله في هذا الشارع الصغير الذي يبدأ أمام مبناه.

سألت "أماليا" في عدم صبر:

- حسنًا، ثم ماذا حدث؟

فرد عليها:

- حسنًا، قال "مارسيلو" شيئًا ما عن الأشخاص الذين يقودون حياة منظمة لدرجة أنه يمكنك أن تضبط ساعتك بحسب ما يفعلونه في وقت معين. شيء من هذا القبيل، كانت هذه هي الفكرة العامة. نظرت مرة أخرى، ورأيت سيارة سوداء ضخمة ولافتة صغيرة عليها من الأمام؛ مثل اللافتات التي تستعملها السفارات. كانت السيارة تلف من جانب الركن وتدخل شارع السوق. هناك العديد من السفارات هنا، ويرى المرء هذه السيارات الدبلوماسية طوال الوقت. تذكرت أنني رأيت هذه السيارة ولكن لم أنتبه كثيرًا؛ فقد كان كل ما أردته هو الحديث مع "مارسيلو" ولم يكن هناك الكثير من الوقت.

سألت "أماليا":

- و"مارسيلو"؟

فرد "ألبرتو":

- كان يستمتع بفكرة ما؛ ووجد شيئًا ما مضحكًا لم أفهمه. ذكر حتى أن "ماركس" قال في مرة إن الأشخاص المنظمين للغاية الذين يصرون على تخطيط كل شيء لا يصلوا أبدًا إلى نهاية جيدة. ظننت أن الاقتباس غريب،

وأنه لا يشبه أقوال "ماركس". ضحك وقال: إن "كارل ماركس" لم يقل هذا في الحقيقة، وأن من قالها شخص آخر، برتغالي مجهول اسمه "ماركيس".

قالت "لينا":

- ولم تفهم المزحة غير الآن، أليس كذلك يا أبي؟ هذا ما يسمونه بديهة بطيئة.

- ولكن لم يكن من السهل فهمها أسرع. وأعترف اليوم عندما فهمتها أخيرًا، أنها لم تكن مضحكة. ولكنني تعرفت على أسلوب "مارسيلو"، كما تقول أمك. إنها اللمسة الجمالية فيما فعله، اللمسة الراقية العابرة ربما، وهذه السخرية في المثالية التي سيحصل عليها نصف دستة من الأشخاص فقط، ولكن التقدير الذي سيحصل عليه سيكون في صمت.

لخصت "أماليا" مخاوف الجميع، وسألت في قلق:

- حسنًا، ماذا نعرف حقًّا الآن؟ وماذا نفعل؟

كانت هناك مدة قصيرة من الصمت، ثم قرر "ألبرتو":

- الآن نتصرف كما لو أننا لم نعرف، ونقسم، ونرسم الصليب على قلوبنا، أننا لا نعرف شيئًا. ونستعد. فإذا عرف الرجال أنه مشارك في هذه القصة، سندعو أن يطاردونا نحن؛ لأنها علامة جيدة إذا حدث ذلك؛ لأن ذلك يعني أنهم لا يعرفون مكانه، وبما أننا لا نعرف أيضًا، فلن نستطيع أن نقول.

شعرت "لينا" بقشعريرة تسري في عمودها الفقري. أنهى "ألبرتو" الحديث قائلًا: - لا شيء في الحقيقة يمكننا فعله إلا أن ننتظر، ونحاول ألا نفكر في الأمر طوال الوقت.

وأضافت "أماليا":

- وأن نصلي.

وافقها "ألبرتو" قائلًا:

- نصلي كثيرًا.

أحضرت "أماليا" إنجيلًا بعد قليل، وقالت:

- أعلم أن كلًّا منا سيصلي له دائمًا وأبدًا طوال الوقت. سنصلي من أجله ومن أجل الجميع. ولكن أظن أنه من الجيد لنا الآن في هذه اللحظة أن نصلي له معًا، أو على الأقل نقرأ له ترتيلة أو اثنتين. وبدأت: - الرب نوري وخلاصي، ممن أخاف؟!

الرب حصن حياتي، ممن أرتعب؟!

عندما يقترب إليَّ الأشرار ليأكلوا لحمي،

عندما يهاجمني أعدائي ومضايقيَّ،

سيتعثرون ويسقطون،

إن نزل عليَّ جيش، لا يخاف قلبي؛

إن قامت عليَّ حرب،

ففي ذلك أنا مطمئن.

أعطت الكتاب إلى زوجها في صمت، الذي قرأ هذه الفقرة. ثم جاء دور "أرنالدو" وقرؤوا حتى جاء دور الآيات الخاصة بـ"لينا" من ترنيمة أخرى كانت تتذكرها جيدًا. قرأت هذه الترنيمة مرارًا طوال هذه السنوات حتى في فترة أزمتها الدينية، وخلال شعورها بأن الرب تخلى عنها في المنفى، وعندما شاهدت في التليفزيون وصول مجموعة أخرى إلى الجزائر بعد مقايضتهم بسفير آخر مخطوف، ورأت الحالة التي كانوا عليها من جراء تعذيبهم. تذكرت شابة صغيرة بالتحديد على كرسي متحرك، مُقعدة جرَّاء ما مرت به. ولم تقدر على نسيان كم كانت غاضبة وتشعر أن الرب خذلها في ردة فعل تدل على تفكيرها البسيط، بما أنها قطعت وعودًا بعبادات خاصة إذا هربوا جميعًا، وقد أخذت المناولة أسبوعيًّا وهي تفكر في المساجين والمتهمين في نظر العدالة. أذاع التليفزيون، باختصار، في ثوانٍ قليلة الحالة الجسمانية لأولئك الذين تحرروا. رأت "لينا" وهي جالسة في شقتها في باريس ما لم تره في البرازيل ورفضت أن تراه. رأت المرأة الشابة وهي محمولة من الطائرة من قِبل مرافق؛ لأنها لم تعد قادرة على المشي بعد الآن. رأت آثار الجروح على جسد "أونريو" في لقطة قريبة. رأت أرجل وذراعي "أونريو" وقد ضمرت وخسرت الوزن فجأة جراء التعليق على "العمود".

إن ما يسمى بـ"عمود الببغاء" هو تقنية تعذيب استعملتها الديكتاتورية البرازيلية. تتكون هذه التقنية من وضع أنبوبة، أو عصا، أو سارية على عضلة المتهم ذات الرأسين وخلف ركبتيه وربط الكواحل والمعاصم معًا في الوقت نفسه. تُعلق التركيبة هذه بين سطحين من المعدن مكونين شكل مثل "عمود الببغاء" الذي يستند إليه في قفصه.

رأت لثة "جابرييل" ملتهبة وتنزف، وبها جرح كبير بسبب الصدمات الكهربائية. ظلت دموعها تملأ عينيها وتمنعها من مشاهدة المزيد، ولكن كان عليها أن ترى كل شيء، فهذا أقل ما يمكن أن تفعله. يجب عليها أن ترى حتى تحكي لاحقًا. يجب أن ترى من أجل نفسها ومن أجل "روبرتا" التي كانت تعيش مختبئة في البرازيل في مكان ما، ولا بد أنها تحتفل الآن بتحرير أخيها. ومن

أجل "تيكا"، و"خولينيو" أخو "رودريجو" الذي كان شابًا ومسجونًا بالفعل. لم يزد عمر "خولينيو" عن الثلاثة عشر أو أربعة عشر عامًا، وقضى السجن في حبس انفرادي، وعاش جميع الأهوال التي تسببت في النتائج التي تراها الآن وعيناها مغرورقة بالدموع على شاشة التليفزيون الفرنسي. يجب عليها أن ترى أيضًا من أجل أمهاتهم، والآخرين، ومن أجل كل الأمهات والأخوات، والآباء والإخوة، والأطفال، والأصدقاء، والمعارف، والغرباء، ومن أجل كل أصحاب الحظ السيئ؛ لأنهم ولدوا في البرازيل في هذا الجيل المتخلَّى عنه تمامًا من قِبَل الرب، والمحطم على يد حفنة من الرجال في خدمة مصالح إستراتيجية لبلد آخر. ولكن حتى في هذه اللحظة عندما قررت أنها لن تؤمن بعد الآن بأي شيء، ولا أي رب يطلب هذا السعر السخيف والغبي مقابل الرغبة في الحرية، لم تستطع أن توقف نفسها عن ترديد ترنيمة لـ"مارسيلو" كما لو أن خلاصه بالكامل يعتمد خرافيًّا على أولئك الذين يحبونه ويغزلون له شبكة من التحصين بالكلمات، والأفكار، والعواطف تجاه المسافات والصعاب. قررت "لينا" في يأس بعد أن انتهت نشرة الأخبار أنها لن تذهب إلى مناولة أو حتى إلى قداس مرة أخرى. ولكنها ذهبت لتبحث عن مزمور 91 في الإنجيل، وأعادت قراءته وهي تنتحب وتتذكر المرة الأولى التي قرأته فيها مع والديها وزوجها في الشقة القديمة حيث كبرت: "أنت يا من تسكن في ستر العلي

يا من في ظل القدير تبيت

تقول للرب: ملجئي وحصني؛

إلهي يا من أتكل عليه.

لأنه ينجيك من فخ الصياد

ومن الوباء الخطر؛

بخوافيه يظللك،

وتحت أجنحته تحتمي. ترس ومجن حقه.

لا تخشى من خوف الليل

ولا من سهم يطير في النهار،

ولا من وباء يسلك في الدجى،

ولا من هلاك يفسد في الظهيرة،

قد يسقط عن جانبك ألف وعشرة آلاف عن يمينك،

ولكن إليك لا يقربوا

لن تنظر إلا بعينيك

وترى مجازاة الأشرار

لأنك قلت أنت يا رب ملجئي

جعلت العلى مسكنك،

لا يلاقيك شر ولا تدنو ضربة من خيمتك

لأنه يوصي ملائكته بك

لكي يحفظوك في كل طرقك

على الأيدي يحملونك لئلا تصدم بحجر في رجلك

على الأسد والصل تطأ،

والشبل والثعبان تدوسهما تحت قدمك".

طمأنها الآن ترديد هذه الكلمات في عقلها وفي منزلها أن الديكتاتورية قد انتهت، وأنه لم يتم اعتقال أخيها. أعجبت "لينا" بحكمة "أماليا" في أنها وجدت هذه البئر من القوة لتتماسك هي وعائلتها في هذه الأوقات المظلمة للغاية. لاحظت أيضًا الآن تحت الشمس، حيث يقول الإنجيل نفسه إنه لا يوجد شيء جديد، أن كلمات الترنيمة تحمل معنى جديدًا لها بالفعل، كما لو أنها تغرس الثقة التي تحتاجها بشدة لتعتني بما كان ينهار داخلها. وهذا كان أمرًا جيدًا.

ولكن لم يحن الوقت بعد. كان الصباح شاقًّا، وكانت هناك طاولة غداء تنتظرها وعليها زجاجات صغيرة من الكبسولات والأقراص بأحجام مختلفة؛ كلها مصفوفة بجانب طبقها. ستأخذها كلها في طاعة، مثل الفتاة الصغيرة حسنة التصرف التي تتبع كل توصية يقدمها أطباؤها وتتحسن للغاية. نجحت في أن تمشي بجانب البحر. ولو استمرت هكذا، ستتمكن في القريب العاجل من أن تنعش نفسها وتغطس في هذا المحيط اللطيف أمامها؛ دون خوف من ألا تقدر على النهوض والخروج منه عندما يحين الوقت. ستخلف وراءها السقوط للأبد كما هو الحال مع الطفل الذي طالما حلمت به، والكلمات التي اشتاقت لأن تصل لها وتأمرها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

13

"يجد البعض المشهد همجيًّا،

وفضلوا - لأن مشاعرهم كانت مرهفة - أن يموتوا

أتى وقت لا جدوى فيه من الموت

أتى وقت الحياة فيه أمر

مجرد حياة، دون حيرة".

"كارلوس درموند دي آندرادي"

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان نسيج السلة منتظمًا ومشدودًا، والخطوط منسوجة عموديًّا ومكونة لتصميم متعرج. انتقل التصميم من الثقافة الهندية عن طريق ضرب المثل إلى كل حرفيي البلاد الذين استمروا في صنع السلات للاستعمال اليومي عبر السنوات. يستطيع المرء أن يرى أن الشكل بدأ بمربع مستوٍ، وكبر الشكل للخارج، وفجأة وصل إلى الحجم المناسب. جُمعت الخيوط في ركن واحد، وبدأت في الارتفاع مشكلة حوائط مرنة من القش حتى وصلت إلى طول يد مفرودة. حصل السبت على لمسة "بامبو" نهائية مجمعة في خيوط في شكل قوس مغزول من أنسجة لحاء النباتات ذات الجودة العالية مثل حافة الغربال. كان غطاء السلة في الحقيقة غربالًا، ولو رغبت "أماليا"، يمكنها أن تستعمله بصفته هذه في المطبخ. أخبرتها "لينا" عن هذا الاستعمال من قبل حتى تستطيع أن تعلمها كيف تصنع مربى العنب البرازيلي التي تعلمتها من "كارلوتا". ستحتاج غربالًا وذاك المصنوع من نبات "البامبو" أفضل من المصنوع من المعدن أو البلاستيك. كان الغربال المصنوع من "البامبو" أكثر مرونة ليتصفى من خلاله اللب كثير العصارة ويتحمل الصخرة. ولكن لن تكسر "أماليا" سلتها المغزولة لتتسخ من الحلويات؛ فقد حبذت أن تشتري غربالًا جديدًا من السوق القديم على رصيف الميناء في المدينة المجاورة. كان عليها أن تتذكر أن تضعه على قائمة المشتريات لاحقًا. كان موسم العنب البرازيلي قد بدأ عندما ذهبت لتشتريه. كانت ذاهبة لتشتري المزيد منه وليس فقط من أجل المربى؛ بل من أجل "لينا"؛ لتأكله. كان أحد فواكه ابنتها المفضلة منذ أن كانت طفلة. تذكرتها وهي طفلة صغيرة تلتهم الفاكهة السوداء المدورة الصغيرة. كانت عيناها تلمعان، وتلعب لعبة تكرار جملة مضحكة أحبت أن تسميها "كلماتي السحرية": "يا عزيزي، هذا سيؤلم بطني". خافت "أماليا" في بعض الأوقات أن يحدث هذا بالفعل. انهمكت "لينا" في أكل الفاكهة، أكلت الكثير، وابتلعت العديد من البذور لدرجة أن أمها توقعت أن

يسبب هذا آلامًا مبرحة في البطن بعد أكلها لكل هذه الكمية. لكن لم يحدث هذا أبدًا لحسن الحظ، ولا حتى في عيد ميلاد الجد الأكبر المئة. قالت "أماليا":
- هل تذكرين يا "لينا"، عيد ميلاد الجد الأكبر المئة؟

فردت "لينا":

- لست أنا من يتذكر، ماذا حدث؟

فحكت "أماليا":

- كنتِ تقريبًا في الخامسة من عمرك، وكان جدي مات بالفعل، ولكن كان سيتم عامه المئة لو أنه عاش. ولهذا قرر أبي - جدك - أن يقيم حفلًا من أجله في "ساو ماركوس" حيث وُلد. أجر حافلتين وذهبت العائلة، والأطفال، وزوجات الأبناء، وأزواج البنات، والأحفاد.

فقالت "لينا":

- أتذكر بشكل مبهم. كان هناك جسر متحرك، أليس كذلك؟

ضحكت "أماليا" وقالت:

- كانت عبَّارة لعبور النهر. كان الأمر خطرًا، ولكن هذا ما كان متوفرًا. لم نهتم بالأمر. تخيلي أن الرحلة التي تأخذ أقل من ساعتين بالسيارة اليوم، كانت تأخذ منا يومًا ونصفًا على الطريق نفسه.

سألت "لينا":

- يوم ونصف يا أمي؟ من المدينة إلى "ساو ماركوس"؟

فردت "أماليا":

- لم يكن الشارع مرصوفًا، وكان الطريق عبارة عن ممر طويل من الطين. كان على الحافلات أن تضع السلاسل على العجلات حتى لا تنزلق. وعلينا أن ننام على الطريق، ولم يكن هناك أي جسور فوق الأنهار الكبيرة، ولكي نعبر يجب أن نستقل عبَّارة بعد انتظار طويل.

حاولت "لينا" أن تتذكر المزيد:

- أعتقد أنني نسيت كل شيء. أتذكر الجسر المضحك هذا، وفوقه الحافلات وجميعنا نمشي على أقدامنا بالخارج. تقولين الآن إنه كان عَبَّارة فأفهم. ولكن العَبَّارة الوحيدة التي أتذكرها عندما فهمت ما هي كانت تلك التي ركبناها إلى مزرعة الكاكاو وأنا أكبر عمرًا.

أصرت "أماليا":

- ألا تذكرين أي شيء على الإطلاق؟

فقالت لها:

- هناك شيء واحد أتذكره جيدًا؛ كنا على متن حافلة، ولكن لا أعلم ما إذا كانت الرحلة التي تتكلمين عنها. أتذكر العنب البرازيلي.

أكدت "أماليا" الأمر بابتسامة صغيرة تحن إلى الماضي قائلة:

- هذا ما كنت أتساءل عنه إذا ما كنتِ تذكرينه. كنت واثقة أنكِ لن تنسي أبدًا.

- ولم أفعل. أعتقد أنها كانت المرة الأولى التي رأيت فيها العنب البرازيلي. سمعت به فقط من قبل، ولكن لم أره أبدًا. كان لدي فضول أن أعرف شكله؛ فاسمه مضحك، وكل الأشخاص يقولون إن عينيَّ تشبه العنب البرازيلي. ثم توقفت الحافلة، وعلى متنها كل هؤلاء الناس، وقال الجد إن على الجميع أن يخرجوا ويأكلوا العنب البرازيلي.

كانت ذكرى مسلية. كادت "لينا" تشعر مجددًا بفضول الطفلة الصغيرة وحماسها. تذكرت قفزتها من العتبة العالية للحافلة وإلى الأرض المغطاة بالوحل، وتفقدها للمكان من حولها وعدم رؤيتها لأي فاكهة على الإطلاق؛ لا على حامل، ولا سلة، ولا طاولة. لم تستطع أن تكتشف أين سيأكلون العنب البرازيلي في الظل على جانب الطريق تحت مجموعة من صفوف الأشجار الطويلة على الجانبين، وسلالم متكئة عليها. ثم رأت الأخوال، وأولاد الأخوال الأكبر يركضون ناحية السلالم ويتسلقونها. ولاحظت أنهم جلسوا على الأغصان بالأعلى. استطاعت أن ترى حتى على الجذوع المئات والآلاف وأرقام لا نهائية من الفاكهة السوداء الصغيرة اللامعة معلقة من السيقان. كانت دائرية مثل كرات الرخام، وملصقة على الجذع الخشبي، وليس لها جذر تقريبًا. وقفت فقط هناك وفمها مفتوح، فجاء أبوها وعلمها بصبر كيف تقضم الفاكهة، وتمص العصير، وتبصق البذر والقشرة.

عادت من الذكرى الدافئة والعطرة لتقول بصوت عالٍ:

- لم أرَ في حياتي أبدًا هذا الكم من العنب البرازيلي. بدا الأمر وكأنه سحر، مثل كهف علاء الدين، ولكن للخضراوات، كنز رائع. قال أحدهم: "هذا عنب برازيلي لا نهاية له"، وقال آخر: "سيكون هذا هو سبب نهايتي"، كان الأمر كله مدهشًا، مثل رواية، قصة خيالية، بكلماتها التي تبحر فيها، وهذا الطعم الرائع، هذه الوفرة، وهذا المنظر من أعلى الشجرة، بجانب أبي. كنت خائفة من السقوط. كانت مفاجأة أن ترى الجميع جالسًا بين الأشجار، حتى الجد، والكثير من الضحك كأنها حفلة كبيرة. يا له من أمر مضحك إنني طوال هذه

المدة لم أعرف تفاصيل هذه الذكرى. تأتيني في بعض الأحيان، وأعتقد أنني حلمت بها أو تخيلتها. لم أكن واثقة أنها كانت شيئًا حدث بالفعل.

ضحكت "أماليا" هذه المرة بصوت عالٍ:

- لا، ليس مضحكًا على الإطلاق. أجَّر جدك الأشجار لثلاث ساعات. صادف المزارع المالك للبستان هناك في "ساو ماركوس". اقترح عليه أن يؤجر الأشجار وقَبِل الرجل، وترك كل شيء جاهزًا في انتظارنا. جمع أيضًا السلالم من الحي ووضعها لاستعمال العائلة كلها. كانت فكرة رائعة، واحتفالًا لا يُنسى.

صمتوا لفترة، ثم ذكرت "لينا":

- يا له من أمر غريب. إنها المرة الثانية التي أفكر في جدي اليوم، ودائمًا ما تكون الذكرى قوية. أعتقد أنه أعطاني الكثير، وعلمني الكثير الذي لن أنساه.

سعدت "أماليا" بذكرى والدها، ولكنها لم يكن في نيتها أن تفكر بعاطفية. قررت أن تغير الموضوع، وقالت: - هل تريدينني أن أعلمك شيئًا؟ انظري.

رفعت غطاء السلة الهندية المدورة المركونة على الطاولة، بجانب كرسي الخيزران. كان بداخلها مجموعة متنوعة كبيرة من شلات الغزل الصوفية، بكل الألوان والأحجام، ألوان باهرة وألوان باستيل، وقالت: - أغزل شالًا أفغانيًّا. هل تريدين أن تتعلمي؟

فسألت "لينا":

- هل هي غرزة سهلة؟

فردت عليها:

- أسهل غرزة يا "لينا"؛ إنها غرزة الكروشيه الأساسية. يمكنني أن أعلمك كيف تبدئيها حتى تستطيعي أن تغزلي المربعات الصغيرة.

لا مخرج. كانت "لينا" تكره الأمر عندما تقرر أمها أن تعلمها الأعمال اليدوية. كانت "أماليا" الإنسانة أقل صبرًا في مثل هذه الأمور، أو على الأقل معها، فقد كانت واثقة من ذلك. كانت "أماليا" تغضب دون سبب، وتشتكي أن "لينا" غير مفيدة لأي شيء، وينتهي بهما الأمر دائمًا منزعجتين من بعضهما. حاولت "لينا" متى استطاعت أن تتجنب هذا النوع من المواقف. ولكن الآن لا مفر، يجب عليها أن تحاول. كانت "أماليا" سعيدة بتذكرها أباها والرحلة، وسيكون من العار أن تعكر صفو مزاجها. ستحاول "لينا" أن تبذل جهدًا.

قالت "لينا":

- دعيني أرى.

وضحت "أماليا" كيف أن الخطاف في إبرة الكروشيه يقود الصوف، ويصنع حلقة، ويشكل تصميمًا، وينتج واحدًا مثله وهكذا. تنفست "لينا" الصعداء. كانت غرزة أساسية حقًّا، والتي عرفتها بالفعل. ليس من الضروري أن تتعلم شيئًا معقدًا جدًّا. كل ما تحتاج معرفته هو كيف تحافظ على التصميم حتى تقلب ركن الغرزة. لم تقم بأي أعمال كروشيه منذ فترة، ولكنها كانت تعلم أن هذه الأشياء مثل السباحة أو ركوب العجلة، تتعلمها مرة واحدة ولا تنساها إلى الأبد. تتحول العملية إلى حركة تلقائية، وكل ما تحتاجه هو دقيقة لتتعود عليها مجددًا.

أصرت "أماليا" قائلة:

- انظري، إنها سهلة. حاولي.

وأعطتها الصوف والإبرة. أمسكت "لينا" بها بشكل سيئ لدرجة أنها كادت أن تفك الغرزة الأخيرة. ظنت "أماليا" أن الأمر كان دومًا هكذا. كيف يمكن لابنتها أن تكون متوترة، وخرقاء هكذا؟ لن تقدر حتى لو حاولت أن تمسك بشيء بهذه الطريقة الخاطئة. لا عجب أنها دائمًا ما تتعثر في الأشياء، إذا كانت لا تستطيع أن تقوم بشيء بدائي مثل الإمساك بالإبرة بصورة سليمة دون أن تفلت الصوف. ظنت "أماليا" في أوقات أنه من المستحيل أن يكون المرء غريبًا هكذا، وأن "لينا" كانت تتصرف بهذه الطريقة عن قصد بسبب الكسل فقط. شعرت "أماليا" في أعماقها بالتعاسة بسبب رؤيتها لابنتها ضعيفة ومهملة للغاية في أي شيء منزلي ودون فائدة. وفوق كل هذا، لا تتحمل النقد؛ فيعبس وجهها على الفور، وينقلب مزاجها، وترد النقد أو تمتلئ عيناها بالدموع، وترتعش شفتاها وإذا قالت أقل شيء آخر، يمكن أن تنفجر في البكاء.

قالت "لينا" وهي فخورة للغاية بنفسها:

- أترين؟ قمتِ بها بطريقة صحيحة. ما زلت أتذكر الغرزة. يا له من أمر مضحك! كل ما أحتاجه هو أن أبدأ، وتقوم يداي بالعمل وحدها.

ظنت "أماليا" أن غرزتها معوجة قليلًا، ولكن لم تجرؤ على قول رأيها بصوت عالٍ. تحكمت في نفسها وقالت: - حاولي أن تمسكي الإبرة من زاوية أخرى. ووجهي الصوف بإصبع آخر. دعيني أريكِ. مثل هذا، انظري. أرأيتِ؟ تبدو مختلفة على الفور، ومكتملة جميعها، وليست تلك الغرزة غير المتماسكة التي قمتِ بها.

تنهدت "لينا". لاحظت "أماليا" ولم تكن واثقة ما إذا كانت التنهيدة في هذه اللحظة هي واحدة من ردود أفعالها المتعجرفة وقليلة التربية التي دائمًا ما

وجدتها ابنتها لترد على أي اقتراح. ولكنها قررت أن تصرُّفها كان لا إراديًّا. نظرت مرة أخرى إلى يدي "لينا" وهي تمسك بالصوف والإبرة بطريقة ملتوية مما جعلها غير مرتاحة لمشاهدة ما تفعله. قالت "أماليا": - لا، لا، ليس كذلك يا طفلتي! إن الغرزة التي تقومين بها الآن ضيقة للغاية، ستشدينها.. لا أفهم هذا! أنتِ ذكية، وتتحدثين العديد من اللغات، وذهبتِ إلى الكلية، وتعرفين العديد من الأشياء، ولا تستطيعين أن تتعلمي أن تخيطي كروشيه بسيطًا يمكن لأي امرأة جاهلة أن تقوم به دون حتى أن تنظر.

انفجرت "لينا" غاضبة:

- لا يا أمي، لا أستطيع حقًّا. لن أقدر أبدًا، سأموت دون أن أتعلمه! هناك العديد من الأشياء التي يقوم بها الأشخاص غير المتعلمين أفضل مني، ولا يوجد أي عار في ذلك على الإطلاق.. كل شخص يقوم ببعض الأشياء أفضل من الآخرين. والآن أعرف لماذا لا أستطيع؛ لأنني طوال حياتي كنت خرقاء وعديمة القيمة. والآن لديَّ شهادة لأثبت ذلك يا أمي. أملك شهادة طبية حتى لا أحضر حصص الأعمال اليدوية، إذا رغبت. لدي اضطرابات في عقدة البطين في مخي تؤثر في تنسيق حركتي، أتسمعين؟ أنا مريضة، أنا لست بخير.

تفاجأت "أماليا". لم ترغب في أن يحدث هذا. كانت "لينا" دائمًا غير متوقعة، والآن كانت تبكي مجددًا، وجالسة على قدميها ورمت الكروشيه. قالت "لينا": - دعيني أقوم بالأمور على طريقتي يا أمي. سأقوم بها من أجل الاستمتاع، أتفهمين؟ لا أريد أن أقوم بأي شيء مثل العقاب، أو الواجب، أو لأكون مثالية.

فقالت "أماليا":

- ولكن ليس هذا ما في الأمر، يا طفلتي، أنتِ لا تحتاجين أن..

قالت "لينا":

- وشيء آخر إضافي: لا أريد أن أشعر أبدًا بالذنب بسبب أنني لا أستطيع أن أقوم بكل شيء بطريقة معينة. لا أقدر، وهذا ما في الأمر، اتفقنا؟ لا يوجد أي شخص يستطيع ذلك. لماذا عليَّ أن أقوم بأشياء لا أعلم كيف أقوم بها بطريقة صحيحة ومثالية؟ لقد قلتيها بنفسك؛ درست وأعرف أشياء أخرى. أكسب مالي عن طريق هذه الأشياء. ويمكنني أن أشتري الكمية التي أحبها من الشالات الأفغانية، أتسمعين؟

رأت "أماليا" أنه من الأفضل أن تصمت وألا تتحدث عن اللذة التي يشعر بها المرء حين يقوم بالأشياء بيديه، وعن قيمة الشيء الفريدة. كانت "لينا" حقًّا عنيدة، وكان من الأفضل ألا تصمم معها على شيء. وعلى الرغم من أن "أماليا" توخت الحذر للغاية وهي تتعامل معها، فإن اللبن قد سُكب. عرجت

ناحية غرفتها وهي تنهي المحادثة: - كفى يا أمي، أرجوكِ، تعبت من كل هذا، أتمنى أن تفهمي أن الأمر لا علاقة له بك، ولكن لا أستطيع أن أتحمل الأمر بعد الآن، اتركيني وحدي لفترة، إذا سمحتِ.

أغلقت الباب وهي منزعجة والدموع تملأ عينيها. بدت "أماليا" محبطة من الخارج، لو كانت "لينا" طفلة لصفعتها أو أعطتها وقتًا مستقطعًا، لكن من الواضح أنها كبرت ولم تتعلم. غضبت للغاية عندما تصرفت "لينا" مثل هذه التصرفات، وشعرت بأنها تود أن تقفز وتهز كتفيها حتى يذهب الغضب بعيدًا. كان الأمر كما لو أنها لعنة وأنها تضطر إلى أن تتحمل هذا النوع من التصرف من طفل لها حتى في سنها الكبير، لن تتخلص من طبعها هذا أبدًا.

كانت أفكار "لينا" تتسارع في مسارات متوازية لأفكار أمها وهي في غرفتها تنتحب على مخدتها. ألن تتخلص أبدًا من هذا الضغط حتى تصبح ما تريد؟ هل عليها أن تخوض معركة دائمًا لتدافع عن نفسها ضد الاتهام أنها ليست ربة منزل مثالية وموهوبة مثل أخواتها وزوجات إخوتها؟ هل يجب عليها أن تخضع لاختبارات حتى تموت بخصوص الفضائل المنزلية والتصرف الحسن حتى تستحق حب "أماليا" ورضاها؟ هل كان صعبًا لهذه الدرجة أن تتقبلها كما هي؟

هدأ نحيبها في هذه اللحظة كما هو الحال دائمًا في حياتها، وأفسحت المجال لتأملات أكثر عقلانية. كان يجب أيضًا أن تقبل "أماليا" كما هي. لن تغير طريقتها أبدًا، ولكن في الحقيقة فقد تغيرت كثيرًا على مر السنوات. كان مطالبة "أماليا" بالصبر على هذه الأشياء الصغيرة أكثر قليلًا مما ينبغي عليها أن تتحمله. لقد أنهت كل صبرها على الأشياء الكبيرة، إذا أمكننا أن نصنف "الرواقية الإسبارطية" كنوع من الصبر. علمت "لينا" أنها هي الابنة التي سيكون عليها أن تستسلم. كانت هي من فكرت في التحاليل، والشخص الأكثر وعيًّا بهذه الطرق العاطفية المعقدة. كانت ستنهض وتترك غرفتها، وتعتذر.

تعتذر؟ إن التفكير حتى في هذه الكلمة يشعل من روح مقاومتها القديمة. لكنها لم تكن مذنبة بأي شيء، لطالما أشعرتها هذه التقنية المألوفة والقديمة بالذنب بالطريقة نفسها، متى عملت الماكينة على الرغم من أنها كانت تعلم أنها لم تكن مذنبة. ليست مذنبة. كانت أكثر الأجزاء المرحبة والحنونة في علاقتها مع "ألونسو" هو اليقين أنه ليس ضروريًّا أن تشعر بالذنب والوضوح العنيد الذي من خلاله يفهم أي علامة لهذا الغضب جراء تجريم الذات الذي حملته منذ الطفولة. ساعدها هذا في تخطي الأمر تدريجيًّا؛ والتخلص من شعور الإجرام هذا الذي تتصف به علاقتها مع أمها.

تقلبت في السرير، واستلقت على ظهرها وهي تعد الألواح في السقف كما كانت تفعل عادة وهي طفلة. عاد تنفسها إلى الطبيعي، وقررت أن تنهض. كل ما كانت تحتاجه هو أن تكون واضحة مع نفسها؛ لم تكن بحاجة إلى أن تثبت أي شيء لأي شخص ولا أن تقنع أمها بأي شيء، ولا أن تلعب لعبة شخص آخر. علمت أنها لم تكن مذنبة لعدم كونها ربة منزل تقليدية، ولن تشعر بالذنب؛ لأنها تدافع عن مساحتها مثل الحيوان المحاصر، أو أن تفكر في مرضها لدرجة أن تشعر بالذنب لشعورها بالذنب. لا يشمل الاعتذار بالضرورة أنها تقبل أي ذنب. كان الحوار بين الأم والابنة مجرد نوع من الطقوس، وتعبيرًا رسميًّا عن الرغبة في قلب الصفحة، ويشير إلى أن الأمر يستحق أن يعيشا معًا جيدًا، وأن تحقق السلام وتصبحا أصدقاءً كما فعلتا حين كانت طفلة.

تركت الغرفة واحتضنت "أماليا"، وقالت:

- أنا أسفة يا أمي، انفعلت بلا سبب.

تقبلت "أماليا" العناق في عند، ولكنها لم تدر ظهرها: علامة على موافقتها. لطالما وجدت "أماليا" الصعوبة الأكبر في التعبير عن أي حنان جسدي خاصة تجاه بناتها. عادت "لينا" جريًّا إلى البيت في يوم ما قبل أن تدخل مرحلة المراهقة. كانت طائشة، وسعيدة وقبلت أمها على كل وجهها واشتكت أمها بصوت عالٍ من هذه الطفلة التي تشد أذنيها وتلعق خديها. تألمت مشاعر الفتاة وتراجعت، ولم تقبِّل أمها أبدًا لفترة طويلة متمنية أن تشتاق إليها وتطلب منها ذلك. ولكن لم يحدث ذلك، وقررت "لينا" أن تتغاضى عن هذا الحادث بعد ستة أو سبعة أعوام. ظلت متوخية الحذر دائمًا بشأن القبلات العالية والمبللة، وكانت تعلم أن أمها لن تبادلها اللفتة الحنونة. ولكن أظهر عدم تجنب "أماليا" للحضن أنها أيضًا تميل إلى أن تضع نهاية للمشهد السابق.

وقد قامت أمها بأكثر من أن تشير إلى رغبتها في صمت:

- لم أقصد أن أجرح مشاعرك. كنت أفكر فقط في مصلحتك. إنه أمر جيد أن يصنع المرء شيئًا بيديه، فهو يشغل البال ولا يسمح للعقل بأن يفكر في السخافات.

وافقت "لينا"، وقالت:

- أنتِ محقة.

خيَّم على الجو بينهما صمت غريب قليلًا. قررت "لينا" أن تقترح نوعًا آخر من الأعمال اليدوية، وقالت: - أظن أنني سأقوم ببعض الرسومات.

تحمست "أماليا" تقريبًا، وقالت:

- هذا هو يا طفلتي. فكرة رائعة! لقد قمتِ ببعض الرسومات الهائلة هنا. يمكنك أن ترسمي بعض المراكب مرة أخرى، مثل تلك التي أعطيتها لـ"لويس سيزاريو"، أتذكرين؟

فقالت "لينا":

- أتذكر بالفعل. ولكنني أرغب في أن أرسم شيئًا آخر بشكل عشوائي بهذه البساطة. بعض الزجاجات، إبريق، شيئًا له أبعاد هندسية، دراسة للضوء والظل، شيئًا بسيط.

فسألتها "أماليا":

- آه، مثل تلك التي أعطاها لكِ إذن؟

فسألت "لينا":

- أي واحدة؟ رسمة من "لويس سيزاريو"؟ لا بد أن الأمر اختلط عليكِ. لم يرسم أبدًا يا أمي، ولكن قام فقط بدراسات عن اللوحات، لم يقم بسوى اللوحات.

أصرت "أماليا":

- ولكنه أعطاكِ واحدة يومًا ما: فرخ هائل من الورق، كيف استطعتِ أن تنسي؟

ثم فكرت لمدة أطول قليلًا:

- من الجائز أنك نسيتِ بالفعل؛ لأنك لم تأخذيها معكِ أبدًا. ظلت الرسمة هنا، معي في مكان ما. لا أعرف أين وضعتها حين انتقلت من شقة المدينة. لا بد أنني أحضرتها هنا، ولكن لا أعلم أين هي.

سألت "لينا":

- هل أنتِ واثقة؟ لا أملك أدنى فكرة عن هذا الأمر. لماذا لم آخذها إلى بيتي الخاص؟ متى كان هذا؟

فسرت إجابة الأمر برمته في جملة واحدة:

- كانت تلك الرسمة التي أعطاها لكِ في اليوم السابق لاعتقالك.

فقالت "لينا":

- بالطبع. أنتِ محقة، لقد نسيت فعلًا.

ولكنها تذكرت الآن. تساءلت "لينا" عن الصدفة التي جعلتها تفكر مرة أخرى في هذا اليوم نفسه وكل الأحداث من هذا الأسبوع، عندما كانت تبحث عن ورقة وقلم وتنقب عنهما في أدراج مكتب جدها. كان الأمر وكأنها ملزمة أن تعيش الأمر كله مرة أخرى ودفعة واحدة. أذيعت البيانات الرسمية للخاطفين، وأُطلق سراح المساجين الذين كانت أسماؤهم على القائمة ونُفوا إلى المكسيك، وتم إرسال صور وصولهم إلى البرازيل بعد ثلاثة أيام من خطف السفير الأمريكي. أُطلق سراح السفير في ميدان في المنطقة الشمالية، في مساء متأخر في الشتاء، حيث كانت السماء تظلم مبكرًا. أخذ السفير سيارة أجرة من الميدان ووصل سالمًا ومعافى إلى السفارة. وصلت الأخبار إلى الراديو والتليفزيون، وتم تفعيل الرقابة مرة أخرى بعد ذلك مباشرة.

رن هاتف "لينا" بعد فترة قليلة. كان صوت "لويس سيزاريو" العزيز الذي أعلن وأشار: - أتحدث إليكِ لأخبرك أن الرسمة التي وعدتك بها جاهزة. صارت رائعة، كما أردتيها بالضبط، إذا أمكن أن أقول هذا بنفسي.

لم تطلب أي رسمة؛ فلم يعدها بأي شيء، ولم تملك أدنى فكرة عن محتوى هذه الرسمة. ولكنها شكرته في حذر وانتظرت. أكمل صديقها الكلام: - يجب عليكِ أن تأتي لتأخذيها قريبًا؛ لأن اللوحة ضخمة ويمكنها أن تتجعد. نحن بالمنزل، لماذا لا تأتي الآن؟

فقالت له:

- بالطبع، أنا في طريقي.

أضاف الرجل العجوز:

- ولكن لا تقلقي بشأن الحجم؛ لم أضعها في برواز. يمكنك أن تلفيها وتحمليها بسهولة. أعلم أنكِ لا تملكين سيارة الآن، ولكن يمكنك أن تأخذيها على أية حال. لا أطيق الانتظار حتى أريكِ إياها، فلا تتأخري.

أغلقت "لينا" الخط، وأخبرت "أرنالدو":

- كان "لويس سيزاريو" على الهاتف، يريدني أن أذهب إلى هناك على الفور لآخذ رسمة وعدني بها. إنه أمر طارئ.

فسألها "أرنالدو":

- الآن؟ ألا يمكنك أن تقومي بهذا في يوم آخر؟

فردت عليه:

- كان غير صبور للغاية.

فقال لها:

- ولكن هذا غير منطقي يا "لينا". ستخرجين الآن، في يوم كهذا والشرطة تطارد الأشخاص مثل المجانين وتفتش كل الناس وكل شيء دون سيارة، وستذهبين إلى الجانب الآخر من المدينة لتأخذي رسمة، هذا فقط جنون.

صمتت "لينا"، ونظرت إليه وقالت:

- لم يعدني بأي رسمة يا "أرنالدو". ويعرف تمام المعرفة أنه ليس لدي سيارة.

فقال لها:

- إذن، ما تقولينه هو سبب جيد آخر حتى لا تذهبي.

أصرت قائلة:

- ولكن أعتقد حقًّا أنه عليَّ الذهاب، بالتحديد بسبب كل ما قلته. أعتقد أن الرسمة كانت حجة في حال كان الهاتف مراقبًا. إنه أمر آخر في الحقيقة وطارئ.

لفت ما قالته انتباه "أرنالدو"، وقال:

- مثل ماذا؟

فردت عليه:

- هل تذكر مفتاح بيته؟ أعطيته لـ"مارسيلو"، وقال إنه لن يستعمله إلا إذا أصبحت الأمور محبطة، وساء الوضع في كل شيء. ولا يزال يملك سيارتي.

قفز "أرنالدو" قائلًا:

- اللعنة، دعينا إذن نذهب على الفور، قبل أن يجدوا السيارة في مكان ما هناك.

فقالت له:

- لن نذهب نحن، بل سأذهب بمفردي.

فرد عليها:

- هذا محال! ماذا إذا حدث شيء ما؟

فقالت له:

- إذا حدث شيء ونحن معًا، سيحدث لنا نحن الاثنين. لن يعرف أحد بما يحدث لنا إلا بعد وقت طويل للغاية. من الأفضل أن أذهب وحدي وأن تنتظر أنت

حتى تنبه الجميع.

كان من الواضح أن “أرنالدو” لم يعجب بما قالته ولو قليلًا، فقال:

- لا أعرف. لماذا لا نقوم بالأمر بالعكس؟ أذهب أنا، وأنتِ تبقين وتدقي ناقوس الخطر إذا لم أعد.

فقالت له:

- يمكننا أن نقوم بالأمر بهذه الطريقة. ولكن ما زلت أعتقد أنه من الأفضل أن أذهب أنا، أنا أخته، والسيارة باسمي، وأنا من اتصل بي “لويس سيزاريو”. خلاصة القول، أعتقد أنه سيكون من الأسهل أن أصف دوري في هذا الموقف بالدور العادي.

قبل “أرنالدو” بالخطة رغمًا عن إرادته، ولكنه فرض الشروط:

- حسنًا. ولكننا سنقوم بالأمر بهذه الطريقة: سآخذك إلى هناك، وأنتظرك في مكان ما قريب نتفق عليه. سأعلم أن شيئًا ما حدث لكِ إذا لم تعودي في ميعادك.

رحلا بعد أن رتبا كل شيء. شاهد “أرنالدو” و”لينا” سيارتها مركونة في شارع جانبي بعد بيت أو بيتين من بيت “لويس سيزاريو” حين كان يراقبا المنطقة. وفيما عدا ذلك، بدا كل شيء هادئًا تمامًا. افترقا بحسب الخطة. وجدت أخاها في منزل صديقها كما ظنت. لم يملكا ثانية ليضيعوها؛ ولذلك كان كل شيء سريعًا. أخبرته على الفور أنها علمت هي ووالداها أنه كان متورطًا.

قال “مارسيلو”:

- حسنًا إذن، كان من الأفضل ألا تعرفي مكاني، ولكننا لدينا ثغرة في النظام لا يمكن أن نثق بها، ظننت أنه من الأفضل أن أستعملك كمخرج طوارئ، ويجب علينا أن نخرج هذه السيارة من هنا مباشرة، أو سيصبح الوضع خطرًا جدًّا.

سألت “لينا”:

- هل استعملت سيارتي؟

فرد عليها:

- خلال العملية نفسها؟ لا، لا تقلقي. ولكن قادها أحد الرفقاء خارج حلقة النشاط أمام المنزل الذي كنا نقيم فيه. كانت الشرطة تراقب الأمر. من الجائز أنهم كتبوا رقم رخصة السيارة، وهنا تكمن المشكلة.

نظر إليها بحب، وقال لها:

- أنا أطلب من ملاكك الحارس أن يرعاكِ، كما كان يقول والدنا. لا تفزعي إذا حدث أي شيء يا "لينا". قولي الحقيقة كلها حتى لو لدرجة إدانة أحدهم. كل ما أطلبه هو أن يتم إخطاري على الفور. أعطينا ثمانية وأربعين ساعة لوضع نظام آخر. ثم يمكنك أن تبوحي بكل شيء؛ لأنني في هذه اللحظة سأكون قد رحلت.

ابتلعت ريقها، وكان الأمر مثل الكابوس. سألته:

- وماذا عن مالكي هذا المنزل؟

فرد عليها:

- سأرتب مخرجًا في هذه الحالة لأجعلها تبدو كأنهم أُجبروا على إيوائي، يمكنك أن تثقي في هذا. لن يحدث شيء لهم أو لنا في هذا الشأن. لا يعرف أحد أنني هنا، ولا توجد أدنى فرصة أن يشك أحد في مكاني. وصلت إلى هنا قبل أكثر من ساعة بقليل، وسترحلين بسيارتك، ولن تكون أي علامة على أي شيء متبقٍّ. اهدئي فقط؛ هذا هو أهم ما في الأمر.

احتضنته، وشعرت كأنها على وشك البكاء، وقالت:

- فليحرسك الرب، واعلم أنني فخورة بك للغاية.

قال لها:

- هناك شيء آخر، ماذا كانت ردة فعل الناس في الشارع؟ هل كانوا سعداء للغاية كما علمتُ؟

فردت عليه:

- كانت حفلة سرية مما رأيت.

فقال لها:

- يسرني هذا، مع السلامة إذن، وسأتواصل معكِ عندما أستطيع. أخبري والدي أنني بخير، وأنه إذا لم يسمع أخبارًا سيئة عني فهذا يعني أنني بخير.

عانقت "لويس سيزاريو" و"كارلوتا" وهي تستعد للرحيل. قال الرجل العجوز: - أنا سعيد وفخور أنه باستطاعتي أن أساعد يا "لينا". أشكرك كثيرًا يا عزيزتي لأنكِ أعطيتنا فرصة لنفعل شيئًا من أجل حرية هذا البلد في هذه المرحلة في حياتنا وفي عمرنا.

فقالت له:

- انس هذا يا صديقي العزيز. أنا من لا أعرف كيف أشكرك.

قال “لويس سيزاريو”:

- يملك شخصية قوية بالإضافة إلى الشجاعة. قدم إلينا نفسه حين وصل وأخبرنا الحقيقة. لم يخبئ المخاطرة، ولم يكذب، وجعلنا نختار بحرية ما إذا كنا نرغب في أن يبقى معنا. يمكنه البقاء المدة التي يحتاجها، ولن يرحل إلا إذا أراد ذلك، ولن نسمح لأي شخص أن يأخذه بعيدًا ما دمنا أحياء. يمكنك الاطمئنان بخصوص ذلك.

كانت واثقة بالفعل، وهذه الثقة هي ما جعلها تقلق أكثر. لا يمكنها أن تبقى أكثر؛ كان عليها أن ترحل على الفور، وتأخذ السيارة بعيدًا عن هذا الجزء من المدينة، وتقابل “أرنالدو” في الموعد المحدد. قبلت “كارلوتا” ورحلت. ناداها “لويس سيزاريو” مرة أخرى: - الرسمة!

فسألته:

- أي رسمة؟

فقال لها:

- هذه اللوحة هناك. ألم تأتِ لتأخذي لوحة؟ لا يمكنك أن تعودي من دونها.

وضعت لفافة اللوحة على المقعد الخلفي في السيارة. كادت أن تنسى أن تأخذها معها عندما وصلت إلى بيت والديها في وقت لاحق لتعطيهم الأخبار بعد أن مرت بالعديد من حواجز الطرق بسيارتها. خافت في كل مرة ألا تنجو. نسيت كليًّا نيتها في استعادة رسومات “لويس سيزاريو” التي احتفظت بها أمها بعناية فوق خزانة الملابس. نسيت حتى وجودها من الأساس، ولكن لم يكن هذا مفاجئًا. شغل تفكيرها أشياء أخرى في الساعات والأيام التالية.

لم تنم جيدًا في هذه الليلة؛ كان نومها خفيفًا ومتقطعًا، وطاردها الخوف والكوابيس. وفي اليوم التالي، اعتُقِلت وهي تحمر شريحة اللحم.

كانت محظوظة لأنها لم تخضع لتعذيب، على الرغم من التهديدات المستمرة بقصد إرهابها. كررت ذهنيًّا نصوصًا حفظتها عن ظهر قلب، كما لو أنها كلمات سحرية لتساعد نفسها على التركيز، وألا تسمح لخيالها بأن يستدعي مشاهد مرعبة محتملة، أعطتها إحدى النصوص بالتحديد قوة غير متوقعة.

رأت رجلًا يمشي في آخر الشارع في اللحظة التي كانت شاحنة الشرطة تأخذها أمام منزلها. كان الرجل هو الشاعر الأكثر قربًا لقلبها الذي طالما أنقذتها كلماته وغذت روحها. رأت المشهد من الخارج؛ كما لو كانت مشاهدة؛ هي معتقلة وهو يمشي بجانب السيارة. تذكرت بعض أبياته: “سجين طبقتي الاجتماعية وملابسي،

أمشي مرتديًّا الأبيض في شوارع رمادية،

تراقبني بائعات الأحزان.

هل أستمر في غثياني؟ هل يمكن أن أثور دون أسلحة؟”.

أدركت أنها في الثواني القليلة التي استغرقها ليمر بجانبها، استطاعت أن تفكر خلالها في شيء آخر غير الخوف، وأفادها هذا. رأت الشاعر يمشي بعيدًا. رحل. تذكرت المزيد من السطور: “رحل الحب الأول

رحل الحب الثاني

رحل الحب الثالث.

ولكن يبقى القلب”.

ظلت تكرر: “ويبقى القلب، ويبقى القلب، ويبقى القلب”. تكمن الشجاعة في القلب. للقلب المشتقات نفسها في اللغة اللاتينية والتصريف. تأتي من كلمة “قلب” ألفاظ مثل “الود”، و”بود”. نحفظ الأمور عن ظهر قلب، وننسجم، ونسجل، ونتشجع بها. يرتبط القلب بالشجاعة. يبقى القلب، وتبقى الحياة. يبدو السجن وكأنه نهاية العالم، ولكنه ليس كذلك. يبقى القلب وبداخله “مارسيلو”، و”لويس سيزاريو”، و”كارلوتا” الذين طلبوا منها أن تحافظ على بصيرتها وشجاعتها. ستفكر في ذلك؛ في القصيدة، وتحاول أن تتذكر البقية، والقصائد الأخرى المكتوبة من قِبل شعراء آخرين. كان لديهم جميعًا ما يخبرونها به في هذا الوقت وكان عليها أن تستمع.

وهكذا اعتُقلت. رأوهم يرمون شابًّا صغيرًا عرفته بالشكل من الشاطئ وهي تنتظر دورها ليتم التحقيق معها. تم التعامل معه بقسوة ودُفع من قِبَل الرجلين عبر الباب. سقط على الأرض، وتم ركله، وقيَّدَه رجل ثالث إلى ساق المقعد، حيث كانت جالسة. انحنت إليه هي وشاب آخر كان ينتظر في الغرفة نفسها. نجح في أن يتمتم اسمه ومكان عمله، في مجلة أسبوعية. قال الشاب الآخر: - يعتقلون أي صحفي يستطيعون أن يضعوا أيديهم عليه. يقولون إن أحد الخاطفين صحفي، وأن البيان الرسمي مكتوب باستعمال طريقة الاختصارات التي يستعملها الصحفيون فقط. ويبدو أنهم يعلمون بالفعل أن البيان الرسمي كُتِب على آلة كاتبة محمولة يملكها شخص ما يعمل هناك في الجريدة، وكتب بالفعل العديد من المقالات عليها في منزله. يبحثون عن الرجل وعن الآلة الكاتبة أيضًا.

قاطع الحديث الحارس، وفتح الباب قائلًا:

- اخرس يا من تتحدث هناك! هل تظن أننا في غرفة معيشة؟ هل ترغب بالكلام؟ ستتحدث كثيرًا الآن على الفور.. أنتِ يا فتاة، إنه دورك.

ثم ذهبت، وتبادل خمسة رجال التحقيق معها. كان البعض أكثر قسوة من الآخرين، والبعض الآخر أقل قسوة وهكذا. ولكنهم لم يلمسوها. أرادوا أن يعرفوا المزيد بخصوص سيارتها. أكدت أنها أعارتها لأخيها، ولم تعرف لماذا أرادها. تخيلت أنه أرادها بسبب موعد عاطفي؛ فلم يقل أي شيء ولم تسأل. كانت هذه طريقة تربيتها؛ ألَّا تسأل أخيها عن أين يذهب أو ماذا يفعل. تفهَّم الرجال هذا الأمر تمامًا. ثم أرادوا أن يعرفوا ما إذا كانت تعرف مكان السيارة، وفاجأتهم عندما قالت إنها تعلم. توقفوا جميعًا عما كانوا يفعلونه وتجمعوا حولها ليسمعوا الإفصاح العظيم. كان ترقبهم ظاهرًا للغاية لدرجة أنها خافت قليلًا من الإحباط الذي ستحدثه إجابتها: - كانت مركونة أمام منزلي. ألم تروها عندما جئتم لتأخذوني؟

أدركت أن الأدوار تبدلت للحظة عندما شرح أحدهم أن مجموعة أخرى هي من أخذتها. كان يتم استجوابها، ولكنها قد سألت لتوها سؤالًا وجاوبها المحققون. خيَّم جو من التشويش على الأجواء. أعطوا أوامر أنه يجب على أحدهم أن يذهب ويتأكد أن ما تقوله صحيح. استعدت لأن تنتظر لبعض الساعات حتى يذهب شخص ما ويعود بالمعلومات. ظنت أنه أمر جيد، وأنها بهذا كانت تعطي "مارسيلو" الثمانية وأربعين ساعة التي يحتاجها. ولكنهم كانوا سريعين؛ جاءت الإجابة بعد بضع دقائق بأن السيارة كانت هناك، مباشرة أمام منزلها وعلى الجانب الأيمن من الشارع. فهمت "لينا" من سرعتهم أن منزلها كان تحت المراقبة. واستعدت الآن للأسوأ: أن تضطر إلى أن تفسر كيف وُضع جهاز التنصت في سيارة الـ"فولكس فاجن". ولكن لم يسألها أحد. قاطعوا التحقيق وأخذوها إلى غرفة أخرى. كانت الغرفة فارغة تمامًا الآن. انتظرت بضعة ساعات، ثم عادوا إليها مجددًا. قرؤوا لها نص اعترافاتها، وطلبوا منها أن توقعه. أمروها في وقت متأخر من الليل أن تعود إلى المنزل. عادت إلى منزلها وتحدثت إلى أمها، وتناولت قرصًا وخلدت إلى النوم مرهقة، ومتوقعة أنهم سيكتشفون في اليوم التالي ثغرات في التحقيق ويأخذونها مرة أخرى.

دخلت غرفة المعيشة في منتصف مناقشة بين "أرنالدو" والمحامي بمجرد أن استيقظت وقبل أن تشعر بالرغبة في الاستيقاظ في الحقيقة. كانوا يقيِّمون الوضع؛ فقد تم اقتحام بيت والديها أيضًا في اليوم السابق. تم تفتيش كل شيء واعتقال أبيها، ولكنهم لم يفعلوا أي شيء لـ"أماليا" أو الأطفال الأصغر. احتُجِز "فيرناندو" أيضًا، واستُجوِب في المدينة حيث يقيم، ولكن أُطلِق سراحه بالفعل. بحثوا عن "تيريزا" في منزلها، ولكنها لم تكن هناك؛ فقد تم تحذيرها، وذهبت لتنام في مكان آخر. أُفرِج عن "ألبرتو" في وقت متأخر من الليل،

ولكنهم اعتقلوه مرة أخرى في الصباح الباكر على يد مجموعة أخرى. كان المبنى الذي تعيش فيه "لينا" تحت مراقبة يقظة. أشار كل شيء إلى أنهم سيعتقلونها مرة أخرى، إلا إذا..

سألت "لينا":

- إلا إذا ماذا؟

فرد عليها:

- إلا إذا أطلقوا سراحك عن قصد، لتخدميهم مثل الطعم.

فسألت:

- كيف هذا؟

فسر المحامي الأمر قائلًا:

- يعلمون أن "مارسيلو" كان بحوزته السيارة طوال هذه الأيام يا "لينا". ثم فجأة، وجدوها معكِ. من المنطقي أنكِ تواصلتي معه بطريقة ما، أو أنك تعرفين كيف تتواصلين معه، ولهذا يبقون "ألبرتو" في الحبس حتى يقطعوا الاتصال بين "مارسيلو" وأبيه، ويطلقون سراحك ويضعونكِ تحت المراقبة المكثفة، حتى تقومي بحركة خاطئة واحدة، فتعطيهم دليلًا ويجدوا "مارسيلو".

سألت "لينا":

- ألا تعتقد أن هذه نظرية خيالية؟

فقال المحامي:

- لا أعتقد ذلك على الإطلاق. أنا مقتنع بأن هذا ما يحدث على الأرجح. إن عمليتهم بها العديد من الثغرات الأمنية، تعلم الشرطة في هذه المرحلة من شارك، وأين أخفوا السفير، وأية سيارات استُخدمت، وعلى أي آلة كاتبة كتبوا البيان الرسمي، وكل هذا. دخلوا المنزل ورفعوا العديد من البصمات. كل ما يحتاجونه هو أن يعثروا على المتهمين، وهذه مسألة وقت فقط. سيتمكنون من أن يتتبعوا البعض منهم، ويبدو أن هناك آخرين قد اختفوا، ولا بد أنهم واثقون أنكِ قادرة على أن تدليهم على "مارسيلو". والآن، إن الأمر مجرد مسألة صبر.

فسألته "لينا":

- هل أنت متأكد؟

فرد عليها:

- لا أحد يمكن أن يضمن شيئًا كهذا يا "لينا"، لو عادوا ليعتقلوكي مرة أخرى مباشرة؛ فسيكون هذا لأنهم اختاروا الحل الغبي، وأن يستعملوا القوة، ويضربوكي ليغصبوكي على الكلام. ولكن الآن، بعد تقريبًا أربع وعشرين ساعة منذ اعتقالك، كان هناك وقت كافٍ لتحذير "مارسيلو" وإمداده بالوقت الكافي ليرحل عن المكان الموجود به، إذا تطلب الأمر. من الأذكى أن يطلقوا سراحك من وجهة نظر القامعين، متخيلين أن الأمر كله انتهى. سيقومون بتشجيعك حتى تتخلي عن حذرك وتدليهم على مكان أخيكِ.

فسألت "لينا":

- وماذا عليَّ أن أفعل؟

فقال لها:

- تصرفي كما لو أنكِ لم تلحظي شيئًا، وعيشي حياة طبيعية؛ اذهبي إلى عملك في الوقت المعتاد، واذهبي إلى السوق في اليوم المعتاد، واذهبي إلى السينما مع زوجك، زوري عائلتك كما تفعلين دائمًا. ولكن توخي الحذر خاصة ممن يراقبك في أي من هذه الأماكن.

حاولت "لينا" أن تمزح بشأن الموقف، ولم تلحظ أبدًا كم كان الأمر قريبًا من حقيقة ما ستبدو عليه تحركاتها في الأسابيع القادمة: - أتقصد أنه عليَّ أن أحوِّل نفسي إلى مذعورة محترفة. هل عليَّ البدء في إيجاد الأشخاص الذين يتبعونني في كل مكان أذهب إليه؟

طمأنها "أرنالدو" قائلًا:

- سنساعدك يا "لينا". أنتِ لست وحدك.

قال المحامي:

- إن هذه النظرية بالنسبة لكِ أفضل بكثير من الحل الوحشي والغبي، تذكري هذا. على الرغم من أنه من الممكن أن يكون أكثر خطورة.

قالت "لينا":

- لا تبالغ؛ فالوضع ليس بهذا السوء.

كان المحامي صارمًا حين قال:

- أنا لا أبالغ؛ أنا أحذر. رأيت على مدار حياتي المهنية أناسًا أصحاب عزيمة رائعة؛ يمكنهم أن يتحملوا أسوأ أنواع التعذيب دون إفشاء أي سر. ولكن هناك القليل من الأشخاص القادرين على احتمال المراقبة الصارمة دون أن يخونوا أنفسهم، ودون أن يرتاحوا لهذه الدقيقة المميتة. يجب عليكِ أن تتوخي الحذر

طوال الأربع وعشرين ساعة، ولا نعلم إلى متى. راقبي الهاتف، أو عندما تحيي المعارف في الشارع بابتسامة أكثر دفئًا. وأنت أيضًا يا "أرنالدو" بالطبع. إن الأمر كما لو أنك حامل لفيروس مميت لا يؤذيك ولكن معدٍ للغاية، ويمكن أن ينتشر من قِبَل أي شخص تقابله.

ارتعشت "لينا"، قائلة:

- هذا بشع، أشعر وكأنني مصابة بالوباء.

قال "أرنالدو":

- قنبلة موقوتة.

فقال المحامي:

- هذا هو الأمر بالضبط، قنبلة موقوتة جاهزة لتنفجر في أي لحظة، ولكن لا أحد يعلم متى.

سألت "لينا" بعد تفكير:

- أحتاج إلى بعض الوقت لأعتاد الفكرة.

لمس المحامي يدها بحنان، وقال:

- حسنًا، طالما أنكِ لن تحتاجي وقتًا طويلًا. اذهبي وحدك لدقائق قليلة، وتحممي، واستعدي وتعالي. تغيبتي عن العمل البارحة، ويجب ألا تتأخري اليوم. يجب عليكِ أن تلحقي بما لم تنتهِ منه، وتوخي حذرك. تذكري أن كل شخص في الجريدة يعلم أنكِ أخت أحد الخاطفين، وسيرغب الجميع بالحديث عن الأمر. يجب عليكِ أن تختصري الحديث، من أجل مصلحة الجميع. ولكن هناك القليل ممن يعلمون أنكِ قد اعتُقلتِ البارحة، ومن الممكن أنه لا يعرف أحد.

وعلى الرغم من ذلك، جاء إحدى زملاء "لينا" إليها وقال بمجرد أن وصلت المكتب: - من الجيد أن أراكِ هنا. لم أعتقد أنهم سيطلقون سراحك بهذه السرعة.

تفاجأت وأجابت:

- عما تتحدث؟

خلق سببًا سريعًا، وقال:

- انظري، أحرر النشرة الإخبارية للشرطة في وقت فراغي. أنا على دراية جيدة بالأمور، وأعلم أنهم اعتقلوكي البارحة بسبب سيارة أخيكِ.

ردت بحزم:

- آسفة، ولكن لا أريد أن أتحدث عن الأمر. أحتاج إلى أن أبدأ العمل.

ذهبت إلى مكتبها، وفتحت الدرج وبدأت في تحريك بعض الأوراق. جاءها زميل آخر يبدو عليه الغموض. لم تعرفه سوى من تحياتهم السابقة، ولكنهما لم يتحدثا من قبل أبدًا، بدا على كلامه الاهتمام البالغ: - احذري هذا الشاب الذي كان يتحدث إليكِ. نظن أنه مخبر للشرطة. ماذا كان يريد؟

داهمها شعور مضحك فجأة. لاحظت المناخ الجديد الذي حُكم عليها بأن تعمل فيه. أجابت فقط بـ: - أرجوك، أريد أن أكمل عملي.

أصر الشاب قائلًا:

- ماذا عن تلك البطاقة التي كان يريكِ إياها؟ احذري منه يا “لينا”. يمكنك الاعتماد عليَّ إذا احتجتِ إلى أي شيء؛ فأنا هنا لمساعدتك.

فقالت “لينا”:

- أشكرك.

فقال لها:

- أعلم أنك تمرين بوقت عصيب، ولكن أريدك أن تعلمي أنني صديقك وأؤيدك. هل تحتاجين إلى أي شيء؟ هل تريدين مني أن أتصل بأي شخص؟ أعطي أي شخص أي رسائل؟

لفت انتباهها شيء ما في هذا الموقف. شعرت بالشكوك تتعالى في نفسها بشأن الآخرين في المكتب، وهو ما سيتأكد لها بعد أشهر لاحقة عندما تكون في المنفى بالفعل. كان هذان الاثنان يعملان في فريق واحد: أحدهما مخبر بشكل صريح، والآخر يدَّعي أنه صديق ومساعد. كل ما قالته هو: - شكرًا جزيلًا. إذا احتجت أي شيء، كن واثقًا أنني سألجأ إليك. إنه أمر مريح أنني يمكنني الاعتماد على الأشخاص في أوقات مثل هذه. ولكن عليَّ الآن أن أعود إلى العمل.

غاصت حقًّا في أعماق العمل، وفي الحياة المصابة التي بدأت تعيشها حتى اليوم الذي قررت فيه أنها لن تتحمل المزيد، وغادرت البلاد. كانت حياة اضطرت فيها إلى أن تترك كل شخص أحبته، خارج دائرة عائلتها لتحمي كل ما كانت تعرفه. في بادئ الأمر، كان عليها حماية “مارسيلو” وكل من ساعدوه في أن يختبئ، والمزيد أيضًا. كان عليها حماية صاحب الآلة الكاتبة التي استُخدمت في كتابة البيان الرسمي على سبيل المثال، أو من وفر عصابة العينين والنظارة السوداء المستخدمة لمنع السفير من أن يرى أين أخذوه

عندما اختطفوه. وكان عليها أيضًا حماية أشخاص آخرين: والديْ "أدريانو" الذين ساعدا "تيكا" في الخروج من البلاد، و"إيفان" الأستاذ الجامعي الذي حمى قائدًا طلابيًّا هاربًا في بيته. كان عليها حتى حماية هذا القائد الطلابي الهارب الذي فتح لها الباب في المساء حين كانت تخبئ الآلة الكاتبة، وجدة "روبرتا" التي سكنت في قبوها صحافة سرية، ولم تعلم حتى بشأنها، والعديد من الأشخاص الذين لم يعلموا حتى بوجودها أو يتخيلوا أنها تعرف هذا الكم من المعلومات. ولهذا كان من الضروري أن تراقب مرآتها الخلفية وتأخذ حذرها من السيارات التي تراقبها عندما تذهب إلى عملها في الصباح. كان عليها أيضًا أن تلاحظ العلامة التي يعطيها الرجل عند كشك الجرائد إلى حارس المبنى المجاور، وأن تحذر من اهتمام النادل في الحانة، ومن استعداد سائق سيارة الأجرة الذي رفض الأجرة في الركن حتى يأتي ويوصلها، والموظف في المحل، ولكن لا، هذا ليس ممكنًا، فهي تتخيل الأشياء. كان من المستحيل أنها تكون مراقبة بهذه الطريقة، جن جنونها وأصابها الهلع. عليها أن ترخي أعصابها. تذكرت المحامي في هذه اللحظة وهو يقول إن الجميع ينتهي به الأمر مسرخيًّا فيعطي المراقب دليلًا. ولهذا توترت مجددًا، ورفضت دعوات الأصدقاء، وأعطت الناس إجابات من جملة واحدة خوفًا من أن يخبروها بشيء وتعرف حينها أكثر. كانت خائفة من أن تتم مراقبتهم أيضًا ويتعثروا في المشكلات؛ فقد شعرت بالخوف، والخوف، والخوف. ولكن يستمر القلب، يستمر القلب، ويستمر. ظنت أنه سيجن جنونها حقًّا إذا لم يكن "أرنالدو" قد وجد سفينة شحن يود مستأجرها التعاون، ويقدم لهما مقصورة لتخرجها من البلاد دون مقابل. وبهذا رحلا تاركين وراءهما أشجار النخيل حيث يغني السمان. غادرا مثلما غادر "مارسيلو" بريًّا منذ ثلاثة أسابيع، ولكن لم يعرفوا حينها. كل ما عرفوه هو أنه ترك "لويس سيزاريو" مؤخرًا. لم تكن لتذهب هناك لتودعه من أجل أمنها وأمن أصدقائها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

14

“ورأيت تحت راية الشمس

مَوْضِعَ الْحَقِّ هُنَاكَ الظُّلْمُ،

وَمَوْضِعَ الْعَدْلِ هُنَاكَ الْجَوْرُ، وقلت لنفسي:

“الرب يحاسب العادل والأثيم،

فلكل أمر وقت،

ولكل عمل وقت”.

سفر الجامعة 3:16 /3:17

“ثُمَّ رَجَعْتُ وَرَأَيْتُ كُلَّ الْمَظَالِمِ

الَّتِي تُجْرَى تَحْتَ الشَّمْسِ:

فَهُوَ ذَا دُمُوع الْمَظْلُومِينَ وَلاَ مُعِزَّ لَهُمْ،

وَمِنْ يَدِ ظَالِمِيهِمْ قَهْرٌ، أَمَّا هُمْ فَلاَ مُعِزَّ لَهُمْ”.

سفر الجامعة 4:1

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لا بد أن هذا هو أجمل محل بيع صحف صغير في البلد كله. لم يكمن جماله في كونه ضخمًا، أو منظمًا، أو يحتوى على وفرة من المجلات المستوردة أو النشرات الدورية مجمعة في مجلد، أو كتب، أو طوابع صور، أو أعداد قديمة من السلاسل، أو جرائد من عواصم أخرى محمية من الطقس السيئ، أو تلك المحال المضاءة جيدًا، أو كنوز معدنية لا تنضب من المادة المطبوعة. ليس هذا على الإطلاق. كان المحل صغيرًا، ومتواضعًا وبه القليل من الجرائد والمجلات الأسبوعية النادرة وسط كتيبات إرشادية عن الزراعة، ومجموعات من الكلمات المتقاطعة، ومجلات القصص المصورة، عدد لا حصر له من الشنط البلاستيكية محكمة الإغلاق التي لم تُخْفِ تمامًا المجلات الإباحية. كما احتوى على كل شيء قديم صامد أمام الشمس ونسائم البحر. ولكن شكَّت “لينا” في وجود محل آخر في مكان رائع مثل هذا، تحت أشعة الشمس، ومباشرة على الرمال وسط مراكب الشاطئ.

لم يكن هناك أي من كل هذا على الإطلاق في طفولتها. إن محل بيع الصحف هذا ما هو إلى اختراع جديد، ولكنه كان أكثر من هذا حتى وهو متعرض للتقلبات الجوية، وباهت. كان كأنه يقول لها وهو يدعوها: - أترين؟ يمكنك الآن

أن تعيشي هنا ولن تكوني معزولة؛ تعالي، تعالي اكتبي مسرحيتك، وارسمي أبطال مسرحيتك على الورق. بعدها سأضمن لكِ جرعتين يوميتين من التواصل مع باقي العالم متى رغبتِ بهما؛ مثل الاتصال المحمول الذي يمكنك استعماله في أي وقت على الرمال أو تحت الأشجار. ستتحرري من عبودية الأوقات المحددة لساعات الأخبار على الراديو أو التليفزيون؛ يا لهم من متنمرين! يفرضون قراءتهم ويمنعونكِ من لذة اكتشاف ما بين السطور.

قررت "لينا" على سبيل المثال في هذا اليوم، أن تجلس على هذا الكرسي الصغير في مؤخرة إحدى السفن لتقرأ الجريدة. ازدادت كل يوم بطريقة ما المسافة التي تقطعها مشيًّا في الصباح. وصلت اليوم إلى المدينة، ومشت كل المسافة إلى المحل لتشتري جريدتها. كانت سعيدة؛ لأنها قطعت هذه المسافة على الرغم من أنها كان عليها أن تريح قدمها بفترة قبل أن تبدأ طريق العودة. ولكنها كانت تجتاز منطقة جديدة كل يوم. ستستطيع قريبًا أن تصل حتى إلى مرفأ السفن الصغير في نهاية الشاطئ. وإذا ذهبت في هذه الطريق يمكن لها في أي لحظة أن تتجرأ مع رفقائها وتسبح في المياه. كانت هذه مزايا أن تأخذ كل أدويتها؛ مثل الفتاة المطيعة. لم تعد تسقط كما في السابق. أما عن الأيام التي وجدت فيها نفسها فجأة على الأرض دون توازن أو فكرة عن الأفق ودون أدنى فكرة عن كيف وصلت هناك؛ فقد تركتها وراءها.

ألقت نظرة على الصفحة الأولى، وقرأت ملخص الأخبار الرئيسة لليوم. كانت الرياح قوية، مما صعَّب أمر فتح الجريدة تمامًا. طوتها واختارت عناوينها المفضلة، وقرأت ربع الصفحة ثم ربعًا آخر. استمر العالم، واستمرت البلاد، واستمرت الحياة. ويستمر القلب كما تعرف وتذكرت مؤخرًا. ولكن كان من الجيد أن تتابع التاريخ كل يوم وهو يتسرسب من صفحات الجريدة. قرأت "لينا" بشراهة وإخلاص. قرأت كل ما وقع تحت يديها ولم تستطع أن تستغنى عن جريدتها. كانت تقرأها من أول صفحة إلى آخر صفحة: السياسة، والاقتصاد، والأخبار المحلية والعالمية، والرياضة، والثقافة، والترفيه، والرسائل إلى المحرر، والموضة، ووصفات الأكل، وكل قسم على حدة. وقارنت بين الأخبار، واستنتجت روابط بين عناصر غير موصولة ببعضها، وطالبت بالوضوح، والتفسيرات، والصدق. كانت تغضب حين يتهم محضر الشرطة أحدهم دون فرصة في محاكمة، خاصة عندما يظهر مأمور شرطة آخر لنظرية أخرى ولا يفكر أحد في تبرئة اسم المتهم الأول. كانت تسعدها المقالة المكتوبة جيدًا، وتستمتع بكل جملة وتقرؤها بصوت عالٍ إلى أي شخص يمر بقربها، وتقتبس منها طوال اليوم في كلامها. كانت تشعر بالفخر حين تقرأ مقالة مدروسة جيدًا؛ وحين يركز المراسل على ما هو صائب أكثر مما يريده المصدر الذكي. تمنت في أوقات أن تكون قارئة جيدة، حتى تكتب

إلى المحرر وتمدح وتشتكي كما تحب. شعرت بحنان جارف تجاه من يعملون بمهنتها. ولهذا لم تشعر بالشفقة تجاه الأخطاء الخائنة لما تعتبره جوهر الصحافة: وهو نقل الأخبار بأمانة. علمت أن البيئة في المكتب في فترة الديكتاتورية، مثل أي شيء آخر، تعكس الظروف الراهنة. كان هناك بالجريدة أشخاص جديرون بالثقة وآخرين سفلة. وكما كان الوضع في أي مكان، فإن النظام شجَّع السفلة، والأقل سفالة: عناصر التمكين أن يكبروا. عاشت ورأت في هذا الوقت بعينيها أحداثًا تشعر بالخزي أن تتذكرها حتى: محرر أخبار يتسلم رشاوى من مديرين مقامرين، ومراسل يبلغ عن زملائه إلى الشرطة، ومحرر يمنع نشر أخبار نسى أن يمنعها المراقبون وكأنه يصدر أوامر. ولكنها شهدت أيضًا التضامن، والشجاعة، والمهنية التي حققت في انقلاب الجناح الأيمن، ونددت بالفضائح، وحققت في الرواية الرسمية. وشهدت أيضًا أفعالًا فردية جميلة من الإبداع المهني والشجاعة الصامتة في المقاومة. علمت أنه لو انتهت الديكتاتورية؛ فسيرجع الفضل في هذا إلى العمل المتفاني لزملائها. كان من دواعي السرور أن تلاحظ أن الصحفيين الأكثر كفاءة وقيمة حلوا محل المديرين القدماء عادة الذين تعاونوا بشكل مباشر أو غير مباشر مع الديكتاتورية. كانت هذه بعض الأعراض الأكثر وضوحًا؛ أنهم كانوا يعيشون أوقاتًا جديدة بالنسبة إلى "لينا". لم تتساوَ سوى أشياء قليلة بالنسبة لها في القيمة الرمزية في الصحافة مثل قدرتها على قراءة جريدتها كل يوم وإيجاد سعادة في عامود موقَّع من نفس المفكر الذي كان اسمه محظورًا في هذه الصفحات نفسها بأمر فيتو من "باروس".

كان "باروس" متفوقًا في هذه الأشياء. كادت في مرة أن تنظم اجتماعًا مع مساعدي رؤساء التحرير لتبلغهم أن هناك شخصًا مهمًّا وفاسدًا وغير كفء بشكل فاضح، ولكن صاحب سلطة اشترى عددًا كبيرًا من الأسهم في الجريدة. رأى "باروس" أن هذه معلومات سرية، ولا يمكن ذكرها تحت أي ظرف؛ لأن كل شيء يتم من خلال رجل في الواجهة، ولن يبدو الأمر جيدًا، كما نعلم كيف تجري هذه الأمور.. ولكن كان عليهم أن يعرفوا الحقيقة حتى لا ينتقدوا هذا الفرد موضع المسألة. استمر الوضع لمدة طويلة. لم تعرف "لينا" سوى بعد سنوات لاحقة أن كل ما قاله كان كذبًا، وأن "باروس" كان على علاقة في وقتها مع إحدى بنات الشخص المهم، وقد قرر أن يحمي حماه من العلاقة التي كانت خارج إطار الزواج.

وعلى الرغم من ذلك، فقد قام "باروس" ببعض اللفتات الطيبة. استغل مكانته ونفوذه في أن يحصل على أخبار عن بعض الصحفيين المحبوسين حتى يطمئن عائلاتهم. واستطاع في مرة واحدة على الأقل أن يجد زميلًا في موقف صعب خاصة لو كان مجروحًا، ومسجونًا، ومُعذبًا في المستشفى. كان تدخل "باروس" أساسيًّا لحمايته. فاجأ "باروس" الجميع لاحقًا عند مقايضة

“أونريو” بسفير آخر مختطف. نُفي من البلاد في وقت لم تعد فيه عمليات الخطف مفاجئة وبدأت في أن تصبح روتينية، وتشمل أشخاص دبلوماسيين أقل أهمية وأفعالًا أكثر عنفًا مقابل مساجين أقل. طالبت الحكومة بمساومات أكثر صعوبة في المفاوضات، وأصبحت تقضي أكثر من شهر تماطل قبل أن ترفض القائمة حتى يضطر الخاطفون أن يقبلوا بتحرير الأسماء على القائمة الثانية. فاجأ “باروس” الجميع في هذا الوقت الذي كان كل شيء فيه شاقًّا وصعبًا، وعندما فضَّل أغلب الصحفيين أن يتعاملوا كأنهم لم يسمعوا بـ”أونريو” من قبل. بدأ “باروس” في إرسال نسخة من الجريدة يًّايوميًّا إلى “أونريو” بمجرد أن نُفي ووطأت قدماه بلاد المنفى، حتى يظل متواصلًا مع موطنه. أرسل إليه الجريدة نفسها التي لم تكن تستغني عنها “لينا” الآن، وبذلت مجهودًا كبيرًا حتى تشتريها كل يوم من محل بيع الصحف الصغير على الشاطئ. ابتسمت للفكرة. يجب عليها أن تخبر “أونريو” بهذا يومًا ما من أجل الإنصاف؛ لأنه من الجائز ألا يعرف بالمجازفة التي كان على “باروس” أن يخوضها من أجله، أو نوع التضامن في تلك اللفتة.

كان للعملات الأخرى وجهين أيضًا، مثل عملة “باروس”. ظنت “لينا” أن تشبيهها مبتذل؛ فيمكنك أن تقول هذا عن أي شخص. ولكنها كانت تفكر في مصطلح آخر: وجهان. من الجائز أن تفكيرها قوي للغاية، ولكنها لم ترغب في أن تصدر أحكامًا كثيرة. ولكنها عاشت مع مجموعات مهنية أخرى في حياتها، وشاهدت بيئات أكثر حقدًا، وتدميرًا، ومكيدةً من بيئة الصحافة. ولكنها لم ترَ صفات مميزة ومتناقضة في الوقت نفسه مثل تلك التي وجدتها في مهنتها؛ صفات متناقضة وغير متسقة. ومن الممكن أن الوضع لا زال هكذا حتى الآن. فعلى سبيل المثال، هناك من يدافع دون كلل عن حرية الرأي وفي الوقت نفسه غير قادر على احتمال الحد الأدنى من النقد، ويجادل بمجرد أن يعترض أحدهم على تقرير ما ويتهمه بأنه يمنع حرية الرأي. ولكن الوضع بعد ذلك أصبح أكثر تعقيدًا. وسمحت الظروف لشخص مثل “باروس” بأن يصر على إلمام “غوريلا” سابقة ومنفية بالخارجة بالأمور التي تحدث بموطنه. سمحت الظروف نفسها لـ”تيكسيرا” و”ماريا آليس”، والمقاتلين اليساريين، الذين لديهم تاريخ عائلي من الأنشطة الشجاعة والجديرة بالثناء أن يوقفوا هذه المعلومات وألا يسمحوا لها بوصولها إلى وجهتها.

كان اكتشاف “لينا” للحقيقة بمثابة الصدمة بالنسبة لها، وكلفها الأمر واحدة من الصداقتين القويتين اللتين كونتهما في المنفى؛ سعر باهظ للغاية. كانت هي و”أرنالدو” مثل كل المنفيين متعطشين للأخبار من البرازيل. استلم “تيكسيرا” بصفته مراسلًا لجريدة “ريو” نسخة كل يوم. كان يعيرها لـ”لينا” و”أرنالدو” مرة كل فترة بعد أن يقرأها. أصبحت إعارة الجريدة منتظمة أكثر مع توطيد صداقتهم بناءً على الألفة والعاطفة الحقيقية. وفي نهاية الأمر،

استحدثوا طقسًا ما: يذهب أحدهم في عطلة نهاية الأسبوع ليعيد جرائد الأسبوع ويأخذ الأعداد الأخيرة. وفي إحدى هذه المرات أعطى "تيكسيرا" ملاحظة قائلًا: - انظري، يمكنك أن تحتفظي بالجريدة، وتعيريها للآخرين. لا حاجة لأن تعيديها.

فكرت "لينا" على الفور في الزاوية المهنية للأمر، وقالت:

- ولكن ألا تريد حتى القسم الأول لملفاتك؟ أو قصاصات؟ يمكنها أن تفيدك؛ إذا أعطيتها لي لن تتوفر لك المجموعة بطريقة غير ذلك لأغراض الاستشارة إذا احتجتها.

فسَّر "تيكسيرا" الأمر:

- لا، يمكنك أن تحتفظي بها. نملك نسختين.

فسألت "لينا":

- نسختان؟ كيف هذا؟ ترسل الجريدة نسخة واحدة فقط، ولا توجد مساحة في الحقيبة للمزيد.

فقال:

- حسنًا، نظريًّا أنتِ على حق. ولكن في الحقيقة، وجد "باروس" طريقة، لا أعرف كيف، ونحصل على نسختين كل يوم.

تحمس "أرنالدو"، وقال:

- ولكن هذا رائع. يرغب العديد من الأشخاص بها، ويمكننا أن نتداولها.

قال "تيكسيرا":

- لا. لا يجب أن يعرف أحد بالأمر، وهذه الجرائد ملك شخص آخر.

ثم كشف عنها لهم، خلف الستارة. كانت كومة من الجرائد المفتوحة على الأرض للحفاظ على توازنها، وتقريبًا في طول "لينا". كان من الواضح أنه لم يلمسها أحد، أو جُعِّدت جراء القراءة. ظنت أن الأمر غريب حقًّا، وسألت: - ما هذا؟

فرد عليها:

- حسنًا، يرسل "باروس" نسخة إضافية لنرسلها إلى "أونريو" في الجزائر.

فسألته:

- ألا تعرف عنوانه؟ أنا أعرف، يمكنك أن تكتبه.

خيَّم على الأجواء صمت محرج. فسروا الأمر تدريجيًّا بمساعدة بعض الكلمات من "تيسكيرا" وأكملتها "ماريا آليس". كانوا خائفين من أن تصيب الحكمة الحكومة البرازيلية بطريقة ما ويكتشفوا المراسلات التي تصل أولئك الذين نُفوا. وإذا رأوا الجرائد تصل يوميًّا من "باريس"، سيكونون أنفسهم موضع شك. ولكنهم لم يجرؤوا أن يخبروا "باروس" بهذا أو يتواصلوا مع "أونريو" لإيجاد بدائل. اقترحت "لينا" قائلة: - انظر، لديَّ فكرة. أستطيع أن أتحدث مع أحدهم في المكتبة حيث أعمل. تُدار المكتبة من قبل الكنيسة، وهم مشتاقون للمساعدة. أنا واثقة أنهم سيستطيعون أن ينظموا طردًا أسبوعيًّا، في بريد رسمي للمكتبة، وربما حتى يدفعوا الرسوم. أنا واثقة أنه لن توجد مشكلة.

بدا عدم الارتياح واضحًا حين قالت "ماريا آليس":

- لا حاجة لأن تزعجي نفسك يا "لينا". أنتِ مشغولة للغاية على أية حال.

قالت "لينا":

- لا إزعاج على الإطلاق، وسيكون أمرًا مهمًّا للغاية بالنسبة للشباب هناك في الجزائر. يمكنني أن آخذ هذه النسخ غدًا.

ظهر حائط الآن بينهم، ولا يمكنك حتى أن تمرر به سكين. قررت "لينا" أن تتصرف كما لو أنها لم تلحظ، حتى تصل الجرائد فقط إلى وجهتها.

أصرت "ماريا آليس" قائلة:

- لا جدوى على الإطلاق من إزعاج نفسك بكل هذا يا "لينا".

قال "تيكسيرا":

- إن الأمر لا يستحق.

تدخل "أرنالدو" قائلًا:

- هل تعتقد أن "أونريو" يعلم أن "باروس" يرسل له هذه الجرائد؟

قال "تيكسيرا":

- لا أعرف. ولكن "باروس" يقول إن "أونريو" هو من طلب منه ذلك.

قالت "لينا" بصرامة أكبر:

- أنا آسفة، ولكن لا أظن أنه لدينا الحق أن نترك هذه الكومة تكبر دون أن نفعل شيئًا. فإما أن تخبر "باروس" أنهم لن يرسلوها..

قال "تيكسيرا":

- ولكن كيف يا "لينا"؟ إنه المدير. لا يمكننا أن نرفض.

قالت "لينا":

- نعم، يمكنكم. لديكم الحق في أن تقولوا لا إذا كنتم خائفين. إنه لا يعطيكم أمرًا رسميًّا.

فرد عليها:

- إن الأمر ليس خوفًا، لكن حذرًا.

فقالت "لينا":

- أيًّا كان، فإما أن ترفضوا أو ترسلوا الجرائد. لا أستطيع أن أرى حلًّا وسطًا.

قال "تيكسيرا" على استحياء:

- لا يحتاج أحد أن يعرف بالأمر.

وصلت "لينا" إلى قرار، وقالت:

- أنت محق؛ يجب ألا يعرف أحد.

نظر إليها "تيكسيرا"، واستنتج ما كانت تعنيه:

- ماذا؟ هل ستقومين بإرسالها على أية حال؟

أكدت الأمر بجدية، وقالت:

- نعم. ولكن يجب عليك ألا تعرف. سأرسل نسخنا، تلك التي سمحت لي بالاحتفاظ بها، ولا نحتاج إلى أن نعيدها. وبهذه الطريقة تنتهي المشكلة، ولا توجد مخاطرة بالنسبة لك.

فقال لها:

- ليس لديكِ الحق في أن تفعلي هذا، سيظن الجميع أننا من قمنا بذلك.

فردت عليه:

- سأضع اسمي في خانة الراسل. ليست جريمة أن أرسل جريدة قديمة إلى منفى، حتى في البرازيل.

فقال لها:

- سيعرف الجميع أننا من نحضرها إلى هنا.

فقالت:

- حسنًا إذن.

قررت "لينا" أن تستسلم. لا تحتاج إلى أن تقول ماذا ستفعل. ستقوم بالأمر فقط، وهذا كل ما في الأمر.

ولكن لم يُخدع "تيكسيرا" مرة أخرى. لم يعرهما بعد ذلك أبدًا أو يعطيهما جريدة. إذا أرادا قراءة نسخة كان عليهما أن يقوما بهذا هناك في غرفته بجانب الكومة المتزايدة. ولم يسمح حتى بذلك فيما بعد. كانا على وشك المغادرة في كل مرة تذهب "لينا" و"أرنالدو" لزيارتهما. وإذا تحدثا إليهما مسبقًا، أخبراهما أن لديهما موعدًا ولن يكونا بالمنزل. ولم يتحدثا أبدًا. وفي إحدى الليالي الممطرة، عندما كان هناك إضراب في قطار الأنفاق وكانت "لينا" في الشارع بجانب شقتهما، وحاملًا، وليس لديها مال ولا طريقة للعودة إلى المنزل، ذهبت إليهما لتطلب أن تنام في غرفة معيشتهما أو أن تقترض عشرة فرنكات لتركب سيارة أجرة، لم يستطيعا مساعدتها. لم يعطياها المال الذي رأته على الرف من أجل بعض المدفوعات التي كان عليهما القيام بها في الصباح الباكر، ولم يسمحا لها بأن تنام على الكنبة التي كان سينام عليها صديق لهما قد يصل في أي دقيقة؛ لأن قطار الأنفاق به إضراب. كان هذا ما قالاه على الأقل، مثلما قال لـ"باروس" أنهما سيرسلان الجرائد إلى "أونريو" الذي لم يتسلمها أبدًا. حسنًا، ولكن الصداقة التي قد انتهت لتوها تركت ندبة مؤلمة.

عاد الجميع الآن. عاش كل منهم حياته أو حياتها، وتجاذبوا أطراف الحديث بود حين صادفا بعضهما في الشارع كما لو أنه لم يحدث شيء. لم يحدث شيء؛ لا دفء الصداقة، ولا خيبة أمل الفراق. يا لهم من أناس غرباء؛ الصحفيين. ولكنها كانت تترك كل شيء خلفها لدرجة أنها قررت أن تقلل العمل اليومي في غرفة الأخبار لتعمل على مسرحيتها. ثم جاء أمر مرضها الذي تسبب في إطالة إجازتها إلى مدة لم تتخيلها. لا تفكري في هذا. انظري أمامك. انظري إلى المحيط، والأفق، وتكوين الأمواج فجأة من لا شيء إلى تصادمها على الشاطئ حيث يرتفع المد، ويلتهم الرمال بشراهة وجوع ويبتلعها كلها. وذلك ليغطي، ويستحوذ، ويشبع كل مسام الرمال ويمسك بها، ويختلط بها، ويحتضنها. "ألونسو".

لا تفكري في هذا أيضًا؛ لا تفكري به. ارمي بعيدًا هذا الكوب الآخر الذي يصر على أن يُحمل على مهل وبحذر حتى لا ينسكب. كان الأمر كأنه طقوس تقدم لرأس إله مخفي، وصامت، وغير مبالٍ. كان إكسيرًا لم ترغب في شربه بإرادتها. دمًا. ارميه بعيدًا، لا تفكري.

قررت أن تنهض وتبدأ طريق عودتها إلى المنزل. وقفت على قدمها السليمة، واستندت إلى حافة المركب، ووقفت، وخرجت من الهيكل إلى الرمال. تذكرت أن أمها طلبت منها أن تشتري شيئًا من كشك بائع الخضار؛ بعض الخضراوات من أجل السلطة، وفاكهة، وأعشاب لم تتذكرها تمامًا. كان من الجيد أنها كتبت ما تحتاج إلى أن تشتريه في قائمة صغيرة مثل شخص لا يستطيع أن يثق في ذاكرته المصابة مثل ذاكرتها التي لم تنفع في شيء. لم تنفع ذاكرتها في الأحداث الأخيرة؛ لأن القديمة احتلت كل المكان بسبب عندها وهوسها. ولهذا من الجائز أن هذا هو سبب عدم وجود مكان لأي شيء يتطلب الانتباه في الحاضر.

وضعت يديها في جيوبها لتبحث عن القائمة. وجدت قطعة الورق بعد مدة أخيرًا مطوية وبداخلها المال. وقفت عند الكشك، وتأملت في قشرة البرتقال اللامعة، وكمية الطماطم المتوهجة، وضوء القمر. أُعجبت بالندى المزيف على أوراق الجرجير الصغيرة، المرشوش حديثًا بالماء. فتحت الورقة وألقت عليها نظرة لترى ما كتبته في القائمة التي أملتها عليها أمها.

لا طريقة لتعرف؛ فلم يكن هناك شيء لتقرأه.

نظرت مرة أخرى، وتشوشت عيناها. وجدت الشيء نفسه. لم تكن هذه كلمات شخص لا يعرف الكتابة؛ لأن الحروف كانت موجودة ومرسومة بوضوح. ولكنها لم تشكل كلمات، فقط مقطع واحد أو مقطع عشوائي بلا معنى في أفضل الأحوال. لم تعني سوى شيء واحد فقط: المرض.

أعطت ظهرها إلى كشك الخضراوات، وأخذت بعض الخطوات المتقطعة تجاه الشاطئ، وسمحت لنفسها بالوقوع على الرمال على أية حال. فتحت الورقة مرة أخرى ونظرت إليها. لم تشكل الحروف أية كلمات. نظرت إلى الجريدة المطوية في يديها. استطاعت أن تقرأ كل شيء. ها هي قد تطورت من جاهلة تمامًا إلى نصف جاهلة؛ فقد كانت تقرأ، ولكنها لم تتمكن من الكتابة حتى عندما حاولت أن تقرأ، وهي شاردة، مجرد سلسلة من المفردات، قائمة من الفواكه والخضراوات. كان شيء ما يحدث في الطريق بين مخها ويديها. هناك بعض الأوامر التي لا تُنفذ، وبعض الثغرات التي وُضعت. كانت تعتقد أنها تكتب، وواثقة هذه المرة أن كل شيء سيخرج واضحًا، وأدركت على الفور أن كل ما كتبته كان مجرد شخبطة لا تُقرأ. سقطت من تلقاء نفسها، وخدعها شعور تدفق الكلمات؛ فقد كان التفكير سلسلة منطقية، وأتت الأفكار حين استدعتها. لاحظت بالفعل أنها لم تقدر على صياغة الكلمات ببراعة؛ اختلطت الأصوات، وتعثرت فوق بعضها، وتبدلت دون أن يخبروها، وبحثت عن كلمات أخرى مثلها. لاحظت أن أمها تركز على تفسير ما تنطقه في محادثاتهم اليومية كما لو أنها أجنبية بلهجة ثقيلة، وجمل

مشوشة. لاحظت بنفسها في بعض الأوقات تلعثمها، وتبديل المقاطع الصوتية، والصعوبة في إيجاد كلمة كانت تعلم أنه يجب أن تكون هنا ولكنها لم توجد. كانت واثقة أنها مشكلة في المهارات الحركية؛ فقد كانت أفكارها حية وحادة. تخيلت أنها واعية ومتحكمة في أفكارها. ظنت أن الصعاب الجسمانية صغيرة ومؤقتة وستتحسن بالتأكيد، مثل إصبع قدمها الذي كان يتحسن ببطء. لا تحتاج سوى الوقت والراحة، ولكن لا. رأت لتوها أن الأمر على العكس تمامًا. كانت قد بدلت الكلمات بأخرى لها الصوت نفسه في كتابتها لتصريح "باولو" قبل أن تأتي إلى منزل أمها. ولكن ساء الأمر كثيرًا الآن: لم يشبه ما دونته أي شيء على القائمة، غير ترتيب الخربشة في صفوف من الحروف عديمة الفائدة. استمرت الكلمات في الهروب منها، ولكن سرعة الهروب وفعاليته زادت. إن الكلمات الآن قادرة على أن تهرب بعيدًا لدرجة أنه أصبح من المستحيل استعادتها.

ارتفع المد، وارتطمت الأمواج بقوة، واقتربت المياه من قدمي "لينا": الجيدة والمكسورة. لم تكترث المياه بأمر أي شيء مثل الطريق القادم لاسترجاعها، مادًا يديه على اتساعهما، ويقدم نفسه ليريحها. كان يدعوها إلى عالم دون كلمات، ودون ألم هنا في صمت. تلاطمت الأمواج المزعجة، والثائرة، والمشكلة للرغاوي على الجهة الأخرى، ويسحبها الجزر وتنفجر مسببة دوارًا وانطلاقة!

انفكت الجريدة، وانطلقت على الرمال وأخذتها الرياح في طريقها. رمت "لينا" قائمة الخضراوات بعدها، أو الشيء الذي كان من المفترض أن يكون قائمة. كانت خفيفة وحُملت بعيدًا. أخذتها الرياح بمجرد أن لمست الرمال، واختفت دون أثر في منتهى السرعة والبساطة كما يجب أن تكون.

استلقت على الرمال وأغلقت عينيها. شعرت بالتعب بكل ما تعنيه الكلمة، كما جاء في قصيدة "فرناندو بيسوا": "إرهاق هائل، هائل، هائل الإرهاق". ودت ألا تفتح عينيها مجددًا، وأن تترك نفسها لتحملها الأمواج بعيدًا مرة واحدة وللأبد. تود لو تريح ذراعيها اللتين استعملتهما طوال حياتها وهي تمشي عكس التيار يومًا بعد يومًا؛ ذلك التيار الذي كان أكثر قوة، وإصرارًا، وصبرًا منها. لم يستحق الأمر أن تقاومه. لماذا؟ لن تكتب هذه المسرحية، فقد عرفت هذا الآن ووثقت من قرارها. لن يكون لديها الطفل الذي أرادته بشدة، هذه الحياة الجديدة التي تشعر بها في رحمها، خلاياها هي و"ألونسو" تندمج معًا لتغير مجرى الزمن. لن تستطيع حتى أن تمارس حياتها الصغيرة كما كانت تفعل: تكتب للجريدة الكلمات التي اختارتها، وتمشي، وترقص، وتسافر، وتذهب إلى الشاطئ مثل أي كائن متوازن مفكر ذي قدمين. لن تستطيع أن تتحدث بسهولة، مثل أي شخص عادي يفتح فمه ليقول ما يأتيه من أفكار بالطريقة

الأكثر طبيعية في العالم دون مجهود، أو انتصار، أو قتال. كما لو كان الأمر حقًّا بالوراثة. كانت متعبة للغاية ومرهقة. ليس لديها أي إرادة تمكنها من القتال دون أمل، أو الركض وراء ما ينبغي أن يكون طبيعيًّا لها. لم تملك إرادة حتى لأن تنهض الآن، وتمشي باتجاه المحيط، وتسرع من الرد على نداء المد. لم ترغب حتى في أن تفتح عينيها وتلاحق الكلب الذي كان يحوم حولها ليشمها، وفمه البارد على بشرتها.

لم تتحمل الوضع في نهاية المطاف؛ فقد كان غير مريح للغاية. جلست، ومدت ذراعها، وأشارت به بعيدًا عنها كما لو أنها تخبر الحيوان بأن يرحل. لم يلتفت لها على الإطلاق، ولعق يدها، وتكور على الأرض بجانبها كما كانت تفعل "فيفينا" بجانب "لويس سيزاريو". ربتت "لينا" على رأس الكلب، ومررت يدها على ظهره وعلى امتداد رقبته بما أنها كانت مشتاقة لصديقها. ولكن القلب يستمر، ويستمر. استجمعت قواها حتى تنهض دون مساعدة. كان عليها أن تنحني مثل الحيوان الذي كانت تشبهه الآن. أدركت هذا واندهشت مثل شخصيتها التي لا يمكن أن تكون أي شيء إلا هي.

عادت إلى البيت على قدميها الاثنتين، ووقفت مستقيمة مثل أي شخص. مشت إلى بيتها رغم أنها كانت تعرج، وتمشي ببطء على الشارع الصغير المتسخ الذي أحاط الشاطئ، حيث إن المد كان عاليًا، وحزام الرمال ضيقًا وناعمًا ويقدم لها القليل من الدعم. نظرت إلى البحر في هدوء واستمعت إليه وشعرت بالرطوبة على بشرتها وتذوقت في فمها طعم جو البحر المالح. كانت تلهث مثل الحيوان الماثل أمامها. إن البحر ما هو إلا الرب مسحورًا في هيئة سائل، ويعطي من يراه طاقة كاملة.

حاولت ألا تفكر في المسافة المتبقية ببطء. كانت تعلم أن كل دقيقة تقربها من المنزل ببطء، أو تبعدها عما كانت تتركه خلفها. كان الأمر كأنها في رحلة بحرية، في طريقها إلى منفى غير معلوم لمدة غير أكيدة. سيكون أي شيء أفضل من الجحيم الذي كانت تتركه. برازيل الكبيرة، وبرازيل الصغيرة، كان لديها حجم الديكتاتورية أكبر من أي ديكتاتورية، وناجية من أي ديكتاتورية ما عدا تلك التي تعيش فيها.

كانت رحلة طويلة، وطريقًا صعبًا، مثل طريقها الذي لم يرغب "أونريو" في معرفة أي شيء عنه. كان الأمر مختلفًا عن رحلة الطيران وأصوات سحاب حقائب السفر، وتقضية الليل بطوله، والذهاب إلى النوم هنا، والاستيقاظ هناك، في منطقة زمنية مختلفة، ومناخ مختلف، ولغة مختلفة. مثلما حدث مع "خورخي" الذي صعد بالقوة بطريقة ما على متن طائرة وهو شبه مخدر حتى لا يشتكي. تم إقناعه أنه سيجد شبحًا ما ينتظره في باريس، وكل ما وجده هو

شبح حريته. ولم يفهم ما حدث إلا بعد عدة أشهر، عندما وصلت "لينا" وتقابلا لتجميع الزوايا المختلفة من الرواية.

ذهب إلى مكتبة بعد أن ترك منزل "لينا" في يوم عملية الخطف، حيث أراد أن يتأكد من بيانات ما يحتاج إليها من أجل أطروحته. أمضى اليوم كله هناك. لاحظ حين ترك المكتبة السعادة المكبوتة في المدينة، والاحتفال بشيء ما لم يعرف أحد ما هو تمامًا. كان هناك فرق منتشر وعابر. ذهب إلى حانة وانضم إلى الحفلة. سلم نفسه إلى نشوة الفرح بما أنه لم يملك أدنى فكرة عن كم كان قريبًا من قلب الإعصار؛ تلك النشوة التي دفأت القلوب التي تعيش في سرية. كان سعيدًا أنه عاد ليشاهد شعبه وهو يقاوم، وقريبًا بما يكفي ليرى الخطوات الأولى على طريق حريتهم. كان مجرد جنين، ولكن يستطيع المرء أن يرى أنه سيكبر ويجعل من "أحداث مايو" تتخذ أبعاد لعبة طفل. أمضى الأيام التالية يثمل بعقلانية، ويحلق بين السحب السماوية الرائعة للاحتفالات. ثم حدث ما حدث: تحقق حلمه الأكثر سرية.

كانت ليلة إطلاق سراح السفير. كان "خورخي" في طريق عودته إلى منزل والديْ "أدريانو" وهو مبتهج وخفيف عندما رأى أمامه من الخلف هيئة محبوبته "تيكا" تمشي سريعًا بجانب الرصيف. أسرع ولحق بها. وضع يده على كتفها، والتفتت بسرعة وأعطته دفعة كادت أن تسقطه. ثم صرخت قائلة: - "خورخي". يا له من أمر رائع!

عانقته قبل أن يستعيد وعيه جراء الصدمة، وخبأت وجهها بين صدره، وقالت:
- خذني بعيدًا عن هنا! بسرعة! أريد أن أكون معك الآن! في هذه اللحظة!

فقال لها:

- على الفور.

لم يكن عليها أن تطلب منه الأمر مرتين. كان ينتظر هذا لمدة عامين. وضع يده على كتفها، وضمها حتى صعب على المرء أن يفرق بين وجه "تيكا" المخبأ بشعرها الطويل وياقة سترة "خورخي" على الكتف الذي كانت تختبئ فيه. مشيا نصف حي آخر ووصلا حين كان يمكث. كان ملاك المنزل قد خرجوا. أخذ "خورخي" محبوبته، وهي تائهة للغاية بشكل مؤلم ووجدت روحها مؤخرًا في غرفته. استمتع بشغف دون أسئلة أو تفسيرات بالهدية التي وضعها القدر بين يديه. عادت "تيكا" فجأة مرتعشة بين ذراعيه مثل أرنب خائف، وكررت مرارًا:
- خذني معك. لا تدع أي شخص يأخذني.

فقال لها:

- بالطبع، يا حبيبتي. ارتاحي، لن يحدث شيء لكِ. لن أسمح بذلك.

لم يتركا الغرفة، ولا حتى لتناول العشاء، ولا حتى ليتحدثا مع أي شخص في المنزل. فقد وجدوا أنفسهما في يأس، وشغف، ولا واقعية. نهضت "تيكا" بعد أن نام "خورخي"، ووجدت والديْ "أدريانو" وطلبت مساعدتهما. كانت تواعد صحفيًّا، واشتركت بطريقة غير مباشرة في عملية الخطف. تمت مراقبتها مثل الآخرين عندما تركوا المنزل وذهبوا في اتجاهات مختلفة. لم تعرف ما إذا نجحت في فقدان أي ذيول للعملية. تركت السيارة على بعد مبانٍ قليلة من هنا، وهربت على قدميها، واختلطت مع الحشود، ولم تعرف أين تذهب. هذا عندما ظهر "خورخي"، ودفعها بداخل المصعد، وأنقذها. ووجدت نفسها في منزل أصدقاء والديها.

فعلوا ما استطاعوا أن يفعلوه على مدار الليل. تم إخطار أبيها، ووجدوا لها مكانًا آخر أكثر أمانًا ليخفوها فيه، وبعد فترة استطاعت أن ترحل عن البلاد في الخفاء. تركت خلفها ابنها الصغير، وأخذت معها الكثير من الألم. قرروا ألا يخبروا "خورخي" من أجل أمان الجميع. كان سيود أن يتبعها، ولكان أثار ضجة هائلة. ولهذا كان من الضروري أن يعتقد أنه لم يحدث شيء، وأن كل ما حدث هو مجرد هلاوس سكارى. ويجب أن يقاوم غضبه، والمشاهد، والعدائية، والثقة من أن أحدهم لن يسمح لنفسه بأن يتم خداعه وهو لا يزال يحمل علامات ليلة الحب بوضوح شديد على جسمه وفي ذاكرته، ولن يقبل بأي رواية أخرى. أنقذوه أصدقاؤه بعناية مرة أخرى، ووُضع على متن الطائرة بالقوة متجهة إلى فرنسا رغم إرادته، ومُنع حتى من ذكر اسمها في العلن، والفضل يرجع إلى أقل التفاصيل التي أخبروه بها. وهذا لضمان مستوى معين من الأمان. عرف معلومات أكثر قليلًا بعد أيام قليلة من وصوله هناك. ولكن لم يعرف التفاصيل التي تكمل قصته الرومانسية لحبه المضطرب إلا بعد أن وصلت "لينا" بعد أشهر عدة.

ظنت "لينا" أنه لانتهاء قصة حب، سيتطلب ذلك وقتًا طويلًا حقًّا. هل اقتربت قصتها مع "ألونسو" من النهاية؟ هل كانت المرأة الأخرى تستقر حقًّا في حياته، وتملأ مساحة تركتها "لينا" فارغة لأنها لم تلاحظ أو لأنها لم تستطع أن تملأها؟ هل كانت هذه المرأة تحفر لنفسها مكانًا؟ كانت مخاطرة حديثة للغاية، ومخاطرة دائمة عندما يفكر المرء في أنه يستطيع أن يمشي على حبل البهلوان هذا ويترك مساحة لشريكه بأن يستقل، ولا يوقفه. آه، "ألونسو"، "ألونسو".. كانت فكرة خسارته بمثابة الثقب الأسود، والفراغ الصامت، والألم الذي لا يمكن قياسه. لم تفكر في أنها تقدر على تحملها. هناك جبهات عديدة تحارب بها. ولكن ماذا عن الحب الذي شعرت به؟ في داخلها وفي داخله؟ ماذا كان سيفعلان بشأن هذا؟ كيف يمكن للمرء أن يتخيل نهاية شيء حيٍّ ونابض كهذا؟ تتغير المشاعر ببطء، ولا تموت فجأة بسبب حادث أو أزمة قلبية. هل يمكنها أن تموت على الإطلاق؟

عادت إلى المنزل في حالة يرثى لها؛ تجر نفسها تقريبًا. صعدت السلالم إلى الشرفة بصعوبة واستلقت في الأرجوحة الشبكية.

سألت “أماليا”:

- ماذا عن التسوق؟

فردت “لينا”:

- لقد نسيت.

نظرت إليها أمها وهي لا تصدق ما سمعته، وقالت:

- والجريدة؟ ألم تخرجي لتشتريها؟

فقالت “لينا”:

- هذا صحيح..

لم تشعر بالرغبة في التفسير، ولم تكن في حالة تسمح لها بذلك. لاحظت “أماليا” ولم تصر. قالت “أماليا”: - اتصل “ألونسو” مرتين حين كنتِ بالخارج. طلب أن تحادثيه بمجرد عودتك.

فقالت لها:

- شكرًا، سأفعل ذلك.

ولكنها لم تفعل. احتاجت المزيد من اللحظات القليلة من الاستلقاء؛ لتتعافى، ولتسمح بالمد والجزر بأن يمروا خلالها. ثم ستحاول أن تنهض وتذهب إلى موجة الفيضان التالية. إن الموجات المبهمة عائمة.

رن الهاتف مجددًا. كان “ألونسو” المتصل، وشرح:

- لم أرد على الهاتف منذ فترة؛ لأنني كنت أستحم. ولكنني علمت أنه أنتِ.

لماذا لم تخبره بأنها لم تكن المتصلة؟ كانت هي من تتصل بطريقة ما؛ فقد كانت تناديه طوال الوقت دون أسلاك، وعن بعد. سألها: - كيف حالك؟

فردت قائلة في محاولة أن تكون مرحة:

- إن قدمي تتحسن طوال الوقت. نجحت اليوم في أن أمشي إلى كشك بيع الصحف. إنها لا تؤلمني تقريبًا بعد الآن، ولا أشعر بالتعب كما في السابق.

فقال لها:

- لم أسأل عن القدم يا “لينا”. سألت عنكِ.

خيم جو من الصمت. بماذا تخبره؟ لن تدعي شيئًا. لم ترغب في أن يعرف الحقيقة. حاولت أن تفكر في شيء محايد، ولكن كل ما استطاعت قوله هي أصوات لم يفهمها حتى هي. ثم صاغت سؤالًا: - وأنت؟

كانت وقفته عن الكلام تقريبًا غير ملحوظة. ثم قال:

- أنا بخير. حسنًا، لدي الكثير من العمل.

وقفة أخرى، ثم قال:

- أفتقدكِ كثيرًا يا سمكتي الصغيرة.

فقالت له:

- وأنا أيضًا، كثيرًا.

فسألها:

- متى ستأتين؟

فردت:

- لا أعلم بعد. لماذا؟

رغبت بشدة في أن يخبرها بأن تأتي قريبًا، وأن تسمع "سمكتي الصغيرة" مجددًا، أو شيئًا من مثل هذا القبيل. ولكن لم يأتِ أيٌّ من هذا، فقال: - لا شيء. أريد فقط أن أعرف إذا كنتِ تبلين بلاء حسنًا هناك، وتتحسنين، وقريبة من أمك، وترتاحين، أعتقد أنه يجب عليكِ أن تستمتعي وتبقين هناك قدر المستطاع.

فقالت له:

- نعم، سأبقى..

فقال لها:

- هذا كل ما في الأمر. كلي جيدًا، وارتاحي حتى تتعافي سريعًا.

فقالت له:

- لا تقلق. أنا أرتاح جيدًا.

فقال لها:

- سأحادثك في وقت قريب، ابقي على تواصل معي. أخبريني عندما تقررين العودة.

قال “ألونسو”:

- أوه، كدت أن أنسى. اتصل صديقك هذا، “باولو”، البارحة وطلب رقم هاتفك هناك. يبدو أنه لديه وظيفة لك؛ لا أعلم ما إذا كنتِ مهتمة، وما إذا يمكنك أن تقومي بها الآن.. على أية حال، لقد أعطيته رقمك.

سألته:

- وظيفة من أجلي؟

يملك “باولو” بعض الأفكار الغريبة. عرف أكثر من أي شخص عن عقباتها، والحواجز بينها وبين الكلمات، والعار، والعجز، والألم. كان لا يزال “ألونسو” يتحدث: - هذا صحيح يا “سمكتي الصغيرة”. يبدو أن هناك معرضًا في مكان ما قريب يريد أن ينظم معرضًا لإحياء ذكرى صديقك “لويس سيزاريو”. ظن “باولو” أنه بإمكانك المساعدة. أنتِ تعرفين أعماله جيدًا للغاية، وتعلمين أين أشياءه الأكثر أهمية، وما هي، وكل هذه الأشياء..

فقالت:

- ربما. سأنتظر أن يتصل بي.

فقال لها:

- حسنًا. سأتصل بكِ مرة أخرى في الغد أو بعد غد، حسنًا؟ اعتني بنفسك يا سمكتي الصغيرة. قبلة كبيرة.

فقالت له:

- مع السلامة، قبلة لك أيضًا.

أرادت أن تسأل:

- لا تُنْهِ المكالمة، لا تنهها، ابق مدة أطول قليلًا. أريد أن أسمع صوتك الدافئ لمدة أطول قليلًا، اقترب، تعال هنا، خذني بعيدًا، يكفينا هذا اللهو.. لقد حان الوقت، حان وقت العودة إلى المنزل. وأن تشعر بالعناق المطمئن، ونهاية الكابوس، وأن تسمع فقط: انتهى كل شيء يا سمكتي الصغيرة. ماذا كان كل هذا؟ استيقظي، كان مجرد حلم سيئ. أنا هنا، معك، لم يحدث شيء، لن يحدث شيء لكِ، لن أسمح بذلك..

ولكن لم يوجد شيء لتسمعه سوى البحر، وصوت ما حولها: عصفورة، أو أصوات من الأشجار، وذكريات، وأرواح لا تصدر أصواتًا. “لويس سيزاريو”، و”كارلوتا”، و”ألفيردو”؛ أصحاب القلوب التي لم تتحمل الوضع وتحطمت. قالت “كارلوتا” وهي غارقة في عطور الياسمين الحقيقي وياسمين مدغشقر

في الشرفة المغطاة بالستائر الدانتيل: - إن القوة التي تدفعنا لمواجهة الصعاب هي الشيء الجميل في الحياة.

أمر "لويس سيزاريو" فجأة في الليل بينما كان يتحدث في الشرفة: - صه. سكوت للحظة. هل لاحظتما؟ إن رياح البر تبدأ في هذه الدقيقة في أن تهب. أعتقد أنه رائع أن يعرف المرء أن كل ليلة توجد لحظة حين تتغير الرياح ويتحول نسيم البحر إلى نسيم البر.

قال "ألفريدو" الذي دائمًا ما يعرف ما إذا كان أي شخص يعاني من أي نوع من الصعوبات: - يجب أن نفعل شيئًا ما بخصوصه.

شعرت "لينا" بحضور أصدقائها يحتويها حتى في لحظات الصمت. كان الثلاثة قد جاءوا لإنقاذها. كان الأمر بشأن المكالمة من "باولو" الذي قابلته عن طريق "ألفريدو" لتنظيم المعرض الذي أرادته "كارلوتا" بشدة، وقد شرحت الأمر مرارًا لـ"لينا" كيف تريده أن يكون. يجب عليهم أن يعرضوا لوحات "لويس سيزاريو" التي كانت علامات لا جدال عليها من الفن البرازيلي. كانت لوحاته لا زالت بعيدة عن الدائرة التجارية، وغير معروفة للعامة نظرًا للعزلة التي كان يعيش فيها دائمًا، وعمله في المنزل، وبيعه للوحاته فقط إلى من يعرفونه بالفعل ويذهبون ليجدوه أينما كان، ويختبئ من كل الضجة والشهرة.

تذكرت "لينا" المرات العديدة التي تكلموا فيها عن الأمر، عندما حاولت "كارلوتا" وهي أن يقنعاه بأن ينظم معرضًا. فقال لهم "لويس سيزاريو": - لماذا؟ لا أحتاجه على الإطلاق.

فقالت "لينا":

- ولكن البلد يحتاجه.

وقالت "كارلوتا":

- يجب على الناس أن يعرفوا أعمالك يا "لويس"؛ لقد تكلمنا مرارًا بشأن هذا الأمر.

فقال:

- لا يوجد داعٍ للاستعجال؛ سيحين الوقت يومًا ما.

أصرت "لينا":

- متى؟ ماذا تنتظر؟

فرد عليها:

- عندما أملك الوقت.

فسألته "لينا":

- ماذا تعني يا "لويس سيزاريو"؟ إن جميع اللوحات جاهزة. إن أعمالك تعادل نصف قرن من الرسم دون أن تنظم معرضًا أبدًا. يجب عليك أن تظهر أعمالك للعالم.

فقال في ثبات:

- يمكنك أن تعرضيها عندما أموت. لا أملك المزيد من الوقت الآن. يجب عليَّ أن أرسم. لا أستطيع أن أقلق بشأن الكتالوجات، واختيار اللوحات، وترتيب المقابلات، والصور، ويوم الافتتاح، والمحادثات مع التجار، وحفلات الكوكتيل، إن مجرد التفكير في كل هذا يوترني.

طمأنته "لينا" قائلة:

- ولكن سنساعدك يا "لينا". أعدك أنني لن أدعهم يضايقونك.

فسألها:

- هل تعدينني حقًّا؟

تحمست كثيرًا، وقالت:

- بالطبع، أعدك.

فقال لها:

- إذن دعيني أرسم. أما عن مسألة العرض، والإعلانات في الجرائد، والحفلات فهي أمور للشباب الذين يملكون الكثير من الوقت أمامهم. أما أنا فلا أحتاجها. أحتاج إلى كل دقيقة متبقية لي. أحتاج إلى وقت لأرسم وأشاهد قبل الرسم، ولأفكر في اللوحة، وأفهم الجمال وأعيش. كيف لي أن أرسم لولا ذلك؟

ختم كلامه بكلمة تشبهه بالضبط:

- إن العرض لا يعطي الرسام لوحة. يمكنك أن تنظميه عندما يحين الوقت.

كان يغير الموضوع، ويتحدث عن أشياء أخرى. يتحدث عن الأشجار، والطيور، وعن الكلبة "فيفينا"، وعن شبكة العنكبوت التي رآها في الصباح في طريقه لإحضار المياه من عين في الغابة. وذلك لأنه طوال حياته أحب أن يشرب في المنزل مياهًا صافية ونقية على الرغم من أنه كانت لديه مياه تصل إلى المنزل عبر المواسير. أو كان يتحدث عن الوضع السياسي، ويناقش الأدب

والموسيقى، ويشارك رؤيته فيما يعتبره إنسانيًّا. كانت جذوره دائمًا ثابتة في الحياة اليومية، وله آراء قوية وواضحة. قال "لويس": - إنه أمر سخيف، كيف خُدعت الجرائد بما قالته تلك الغوريلات وتصر على تسمية المقاومة بالإرهاب. لم يكن النازيون، ولا حتى الفاشيون، ولا حتى قوات الاحتلال بهذه السخافة. أنا من أنصار السلمية؛ ولكن أتفهم أنه في بعض الأوقات يجوز للمرء أن يرغب في التنديد بالأفعال المسلحة. لا يوجد أحد عقلاني قد يرغب في هذا، ولكن في بعض الأوقات لا يوجد خيار آخر. حتى القانون يعترف بحق الدفاع عن النفس رغم كل شيء.

زادت "كارلوتا" الطين بلة، وقالت:

- بحقك، القانون، "لويس سيزاريو".. لقد مضى وقت طويل وهم يعبثون بالقانون، ولا يكترثون أبدًا بحقوق الأشخاص.

فرد عليها:

- هذا ما في الأمر. ثم يقولون على المقاومة إنها تمرد. كانوا هم من تمردوا على كل شيء، وأطاحوا بالنظام الدستوري، وتخلصوا من رئيس منتخب بحرية، وانتهكوا الدستور، ووضعوا مكانه لحافًا ما، ثم يقولون إنهم لن يتسامحوا مع التمرد.

فقالت "لينا":

- ولكن هناك أيضًا الضغط الخارجي، يا "لويس سيزاريو". إن هذا الوضع في صالح الأمريكان؛ فهم يصدرون هذا النوع من الأيديولوجية في كل مكان في أمريكا اللاتينية، ونحن في محيط تأثيرهم. إن كله جزء من التعليم العسكري هناك في دائرتهم الأكاديمية، حيث يذهب مسئولونا ليتعلموا، ويعودون وهم يعرفون هذه الأشياء. يلقبونها بنظرية الأمن القومي.

استمر "لويس سيزاريو" في الحديث متحمسًا أكثر وأكثر:

- هذا هراء يا طفلتي. نحن من نهدد الأمن القومي، وإذا فكروا في الأمر قليلًا سيرون الأمر أيضًا. وأمر الأمن والتنمية هذا لم يأتِ فقط من الأمريكان. لطالما امتلك العسكر هذه الرغبة الشديدة في محاكاة الأجانب منذ وقت طويل، من فترة ما قبل أن تكبر الولايات المتحدة حتى عندما كانوا لا يزالون يرتادون الحفاضات. كانوا يقلدون فرنسا في السابق، ويتبعون مذهب الموضعية، تماشيًّا مع ما يحدث حولهم. إن الأمن والتنمية هما الأسماء العصرية الحالية للنظام والتطور اللذين كتبوهما على العلم عندما أسسوا الجمهورية. ألم يكن من الأفضل أن يختاروا "السلام" و"العدالة" للشعار القومي؟ عندما تريد الأمة أن تعيش حالة لا مبالاة؛ ما ترغب به في هذه

الحالة هو السلام، وليس النظام. هل من المعقول أن يوجد تطور أو تنمية دون عدالة؟ فقط في عقول من يحبون الديكتاتورية.

فقالت له:

- صحيح، ولكن هذه الأيديولوجية تبيعها الولايات المتحدة الآن حتى في باقي أمريكا اللاتينية التي لم تعانِ من تأثير مذهب الموضعية كما عانينا نحن..

قاطعها "لويس سيزاريو" قائلًا:

- إن باقي أمريكا اللاتينية هو باقي أمريكا اللاتينية وليس البرازيل فقط. يمكننا أن نتشارك في العديد من الأشياء. نحن إخوة وعانينا من الكثير معًا. تم تصفية دمائنا بالطريقة نفسها من قبل المستعمرين، ولكننا نملك تاريخًا مختلفًا. بنى هنودهم مدنًا صخرية، وصنعوا التقويم. كانوا صائغين وغازلين للصوف، ويعرفون الكتابة والرياضيات. أما أجدادنا فقد كانوا رحالة؛ صنعوا السلات وفن الريش، ولم يعرفوا المعادن. كانوا مختلفين. امتلك الإسبان جامعة في القرن السادس عشر، وطبعوا الكتب، وكتب هنودهم على الفور الملاحم، ونشرت على هذا الجانب من المحيط الأطلسي. كانوا مختلفين، مختلفين..

وافقته "لينا"، قائلة:

- أنت محق مرة أخرى. كان علينا أن ننتظر إلى القرن التاسع عشر حتى نبني الجامعة الأولى.

أضافت "كارلوتا":

- والصحافة البرازيلية في "لوباتو".

أكمل "لويس سيزايو" حديثه قائلًا:

- بنت هذه الحضارات الأصلية الطرق، وكان لديها تواصل جيد مع المدن الأخرى. منع البرتغاليون هنا فتح الطرق؛ ليمنعوا الناس من سحب الذهب من تحت سيطرتهم.

كرر:

مختلفون، مختلفون، مختلفون للغاية.

ستجادل "لينا" قائلة:

- ولكن يمكن للمرء أن يلاحظ الآن، بينما تتجه البلاد المختلفة ببطء إلى إعادة الديمقراطية أن هناك أوجه تشابه، أليس كذلك يا «لويس سيزاريو»؟ ها هي

«تشيلي» لا تزال تعاني القمع العنيف هذا، وهكذا هو الحال أيضًا في «باراجواي» والعديد من البلاد الأخرى. ولكن بالنسبة إلى «الأرجنتين» و»أوروجواي»، و»بيرو»، ونحن أيضًا.. ألا تظن أن هذا يتفق مع لحظة مختلفة في الموقف الأمريكي تجاه القارة؟ ألا تظن أن سقوط "سوموزا" في "نيكاراجوا" و"جان كلود دوفالييه" المعروف بـ"بيبي دوك" في "هايتي" حدث لأن أمريكا سمحت به؟ ألا تظن أن الاستراتيجية الإجمالية الخاصة بها قد تغيرت، ولكن لا زالوا يعاملوننا مثل كتلة واحدة كأننا جميعًا متشابهون.

فرد عليها "لويس سيزاريو":

- ربما ما تقولينه صحيح يا طفلتي، ولكن هذا لا ينفي الملاحظة أننا مختلفون للغاية. إذا قلنا إننا لا نملك أي أوجه تشابه؛ نكون مشاركين في لعبة العدو بالطبع. وإذا قلنا إننا متشابهون تمامًا، نكون أيضًا مشاركون في اللعبة نفسها. فعلى سبيل المثال، دعينا نعود إلى بداية المناقشة وموضوع إرهاب المقاومة. جاءت هذه الفكرة من اليمين لتشويش الناس. هنا أطلقنا عليها مقاومة. لم تكن مقاومة في الأرجنتين وأوروجواي. بدأت أشكال المقاومة المسلحة، وأفعال مجموعة "المونتونيروس"، ومجموعة الـ"ERP" (جيش المقاومة الشعبي)، ومجموعة "التوباماروس"، ومجموعات أخرى قبل الديكتاتوريات، وساعدت في النهاية الديكتاتوريين أن يستقروا في مناصب السلطة. كانت هناك كل أشكال التظاهر في هذا الوقت. كانت هناك انتخابات، ومجلس شعب في حالة انعقاد، كما هو حال في المحاكم. كان الدستور ساريًا، ولا توجد مراقبة للمراسلات، ويمكن للنقابات أن تنشأ، ويمكن للأحزاب أيضًا، وتتناقش، ففي المجمل لم تنهك الأشكال السلمية من تقديم المطالب ومحاولة تغيير المجتمع. إن الأمر ليس كذلك هنا يا "لينا". عندما اختطف أخوكِ وأصدقاؤه السفير، لم يوجد أيٌّ من كل هذا. حوكم الجميع وأحبطوا. لم يكن هناك حل آخر سوى المشي إلى المقصلة حانيين الرأس.

أكملت "كارلوتا" الصورة بتحليلها الأنثوي النابع من القلب: - وهناك شيء آخر أجده مهمًّا يا "لينا": هو أن نتذكر أن هؤلاء الشباب لم يكونوا بحاجة لأن يفعلوا ذلك لو كانوا يفكرون في أنفسهم فقط. كان اندفاعهم كريمًا وناكرًا للذات، من النوعية التي لا يقدر عليها سوى الأرواح الشابة. ماذا كانوا يخسرون جراء الديكتاتورية سوى حريتهم لتصيبهم نوبة غضب؟ جاءوا عامة من الطبقة المتوسطة، وكانوا طلبة جامعيين على وشك بدء مسيرتهم المهنية. كان يمكنهم أن يفعلوا ما قام الكثير به: يفكرون في أنفسهم فقط بأنانية، ويتخرجون، و يتبعون القطيع، وينادون بـ"البرازيل هي الأعظم"، ويذهبون ليجنوا العديد من الأموال في البورصة. ولكنهم فضلوا أن يظلوا مع أولئك الذين تُركوا عندما تم تقطيع الفطيرة، ولم يتبقَّ لهم حتى الفتات. أعتقد أنه

كان كرمًا كبيرًا منهم. أما هجر الراحة والمجازفة بحياتهم من أجل الآخرين؛ فلم يُخلق الجميع لهذا الفعل.

شعرت "لينا" بالسعادة أن هذه هي طريقة تفكيرهما. تحدثت إليهما في أفكارها بعد كل شيء، وخلال الفترة كلها التي قضتها في المنفى، بعد أن رحلت دون أن تودع أحدًا. ظنت دائمًا أن أصدقاءها الكبار سنًّا يمكن أن يموتوا قبل أن تقابلهم مرة أخرى. كانت قلقة نوعًا ما أنهما اقتربا من قلب النار حين احتاج "مارسيلو" أن يختبئ بمنزلهما. شعرت بتضامن الزوجين العجوزين بعد عودتها خلال محادثات عديدة ومكررة، وساعدها هذا في احتياجها الدائم لأن تستفيد، وتحلل، وتفهم، وتجد الحقيقة.

تسبب هذا الاحتياج نفسه في سؤالها لـ"مارسيلو" في المرة الأولى التي تقابلا فيها في المنفى بعد عامين من عملية الاختطاف: - اسمع.. اعذرني في السؤال، ولكنْ هناك شيء لطالما رغبت في معرفته. هل كنت ستقتل السفير فعلًا إذا لم تستسلم الحكومة وتوافق على تحرير الشباب؟

تحول "مارسيلو" إلى الجدية الشديدة، ثم نظر إليها مباشرة وأجاب بشكل مدروس: - أعتقد أن هذا هو السؤال الذي سألناه لأنفسنا عادة؛ بصوت عالٍ، وفي السكوت، ووحدنا بداخل كلٍّ منا. قبل، وخلال، وبعد الاختطاف.

أصرت قائلة:

- حسنًا، وما هي الإجابة؟

قال لها:

- لا توجد إجابة واحدة يا "لينا". هناك أكثر من واحدة. إن الإجابة الأولى نظرية؛ لم يكن الأمر مجرد لعبة، نلهو بها، كان الأمر عملية حقيقية، وكنا مصممين في هذه الحالة، فلم يكن لدينا خيار إذا لم تخضع الحكومة. ولكن هناك أيضًا الإجابة العملية الملموسة بداخلنا كلنا، أعتقد أننا كنا نؤمن أنه لا يوجد خطر.

ذُهلت "لينا"، وقالت:

- ماذا تعني بأنه لم يكن هناك خطر؟ خاطر ناس قليلون بما خاطرت به، وتقول لي إنه لا يوجد خطر؟ أنسيت؟

فرد عليها:

- لا، لا ينسى أحد شيئًا مثل هذا. ما أعنيه هو أننا كنا متأكدين أنه لم يوجد هناك أدنى خطر سيدُفع بنا إلى حائط مسدود ونضطر إلى تصفية الرجل. لم يكن هناك أبعد احتمال أن تقرر العصابة العسكرية ألا توافق، ولا تقوم بكل شيء طلبناه لنطلق سراحه. ولهذا كان لا يوجد خطر.

فقالت "لينا":

- كيف لك أن تكون واثقًا هكذا؟

فقال لها:

- إذا كنا مخطئين فسيكون تحليلنا الكلي للموقف في البلاد خاطئًا. وكنا نعلم أنه لم يكن كذلك. نعلم، دون شك، أن المصالح الأمريكية هي من تحكم، وأن اللواءات كانوا مدعومين من الأمريكان، وأن النظام اعتمد كليًّا على الولايات المتحدة الأمريكية، وأن الحكومة كانت ستقوم بكل ما في وسعها لترضي مديرها.

فسألت "لينا":

- ولكن ماذا لو كانت قررت الولايات المتحدة أنه من غير المناسب الاستسلام؟

فقال لها:

- حسنًا، هنا يأتي دور عامل المفاجأة. كانت المرة الأولى التي حدث شيئًا مثل هذا في العالم. لم يتخيلها أحد؛ ولم يستعد لها أحد. لم يعرفوا من نحن ولم يستطيعوا أن يجازفوا بالدفع للمعرفة. ولم يملكوا الوقت لتحليل كل العواقب المحتملة، كان عليهم أن يتصرفوا بسرعة؛ يتصرفوا أولًا ويفكروا لاحقًا.، وإذا لم أكن مخطئًا، فهذه هي الطريقة التي يفكرون بها. إنه «شكسبير» بنفسه هو من يقول في مسرحية «عطيل» إن القائد الذي قتل «ديدمونة» فعل ذلك لأنه رجل عسكري، فقد فعل ذلك دون أن يفكر بسبب غيرته. على أية حال، أنتِ من تعرفين أكثر عن المسرح..

عادت إلى الموضوع محل المناقشة:

- حسنًا، ولكنهم قادرون دائمًا على معرفة أن السعر عالٍ للغاية.

فرد عليها:

- السعر عالٍ؟ ماذا؟ خمسون صرصارًا قذرًا مقابل سفير أمريكي؟ إن براءتك مسلية. ففي هذه المرحلة، سيكون الخمسون ألفًا سعرًا رخيصًا. تنسين أنهم يعتبرون أنفسهم محور الكون، أو كانوا يفكروا كذلك في وقتها. نجد صعوبة في تقييم أشياء مثل هذه؛ لأنه لا أحد يحترمنا في أي مكان، نحن ملعونون في أي مكان في العالم، ولن تحرك حكومتنا أبدًا قشة للدفاع عن مواطن برازيلي. إن حياة الإنسان لا تساوى شيئًا في البرازيل: أكوام من الأطفال يموتون من الجوع، وينتهي الفقراء بسبب المرض، ويُدهس المارة، ويقتل الأزواج زوجاتهم دون سبب، وتتسبب أي مشاجرة في إخراج المسدسات، أو

السكاكين، أو الزجاجات المكسورة. ينتهي الأمر بأن يفكر المرء أن كونك مواطنًا لا يساوي شيئًا في أرض، حيث يملك أي مالك أرض تابع ليفرض على الناس دروسه، وحيث أصبحت الكمائن عادية، وحيث يؤجر الشخص دائمًا مسدسات متوفرة للقضاء على الأعداء. ولكن أن يكون مواطنًا أمريكيًّا؟ كل ما يحتاجه المواطن الأمريكي أن يُعتقل في مكان ما ويحضروا له القوات البحرية، فما بالك بالسفير؟ لا توجد أسئلة هنا، فبالطبع، سيستسلمون بسرعة. ماذا سيخسرون؟ إحباط بعض لواءات أمريكا الجنوبية؟! هناك العديد منهم. كل ما عليك فعله هو أن تعين آخر مكانه. ولهذا كنا متأكدين أنه لا يوجد احتمال تصفية الرجل، وهو من كان يتصرف بكل الكرامة المحتملة على أية حال. لا توجد مخاطرة في هذا الموقف، على الأقل هذه المرة كانت الأولى واكتملت المفاجأة. يمكن للوضع أن يتعقد بعد هذا، ولكن هذه قصة أخرى.

قصة أخرى، وقصص أخرى، ويتدفق التاريخ دون مقاطعة ويربط بين كل ما يحدث تحت أشعة الشمس. تذكرت "لينا" أنها قرأت هذا المعنى في الإنجيل على الرغم من أنها لم تستدعِ الكلمات بالتحديد. تشرق الشمس، وتغرب الشمس، ويأتي جيل، ويذهب جيل آخر، ويرحل الرجال، وتمتثل الأرض. ألف "همنجواي" كتابًا جميلًا في هذا الصدد، ولكنها نظرت حولها ورأت الأمور بشكل مختلف. يبدو أن هذا الجيل يريد التخلص من الأرض، وللمرة الأولى في التاريخ قد يقوم بهذا بالفعل. فعلى سبيل المثال، التهديد النووي، وانتشار التدمير البيئي. ويركز الانقلاب الاقتصادي الموارد أكثر وأكثر في يد القوة العسكرية لصالح الأسلحة وإضرار القوى الإنتاجية في الأمة، مما سيضر - بالضرورة - المصلحة العامة للمجتمع. كان ما يحدث هو العكس تمامًا مما تحتاجه الطبيعة، وتطلبه الغريزة، وتطالب به الأخلاق. كانت الأمور تحدث سريعًا. قتلوا سمكة السلمون المرقّط التي اعتاد "همنجواي" أن يصطادها خلال حقبة جيل واحد، وقتلوا حيوانات عاشت لآلاف السنين في الغابات، وأشجار، ونباتات، وحتى الغابات التي عاشت لقرون حيث مشت مع جدها عندما كانت فتاة. من الأفضل ربما ألا يكون المرء عنيدًا بخصوص النجاة من التدمير، وأن ينطوي بين الاختفاء العام للأرض طالما استمر الوضع، وأن يعيش مثل الحيوان؛ سحلية كسولة تأكل وتشرب وتستلقي تحت أشعة الشمس الدافئة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

15

"كتبت قصيدة جميلة،

أحملها في ذاكرتي،

لم يصبح العالم أبدًا

مثلما رأيته بعيني وأنا طفل".

"كاكاسو"

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أشرقت شمس صباح أخرى. استيقظت "لينا" مبكرًا، واستعادت إدراكها ببطء لأصوات الصباح الاعتيادية حولها. كانت تستيقظ عامة في حالة معنوية جيدة، ولكنها كانت لا تزال تعاني في هذا الصباح من اكتئاب البارحة، ومن التجارب الأخيرة أيضًا على الأرجح. لم تستيقظ؟ لماذا يستمر القلب؟ يمكن للمرء أن يعرف السبب في الأغلب، ولكن من أجل ماذا؟ لتأخذ الدواء، وتمد في وهم الحياة الطبيعية، ولتقدر على الوقوف؟ لتصر على المشي ربما طوال الطريق المؤدي إلى مرفأ السفن الذي أحبته كثيرًا؟ لتشم الرائحة الجيدة للأخشاب المقطعة حديثًا، وتمشي على نشارة الخشب، وتلعب في تجعيدات النشارة التي سقطت من الطائرات، وأن تنظر إلى الأجزاء الداخلية للمراكب تحت الإنشاء، تلك الأواني المليئة بالفرص اللانهائية، وتنظر إلى الكاتدرائيات المشيرة باتجاه البحر الحاملة لكل الطرق المحتملة. تستمع إلى صوت العمل، والمطارق والمسامير، والمناشير والآلات، وأصوات البشر الممزوجة معها. تشمشم مثل الحيوان، وتحاول أن تحدد الرائحة اللاذعة للزفت، والرائحة الحادة لنبات القلفونية، والروائح المتغلغلة للطلاء والمذيبات، وعطر البحر الخاص بصمغ السفينة الذي يعدهم جميعًا ويعد الأفق بأن يحافظ لهم على شكل صلب يحتمل رائحة المحيط المالحة، ويحمل معه طحالب البحر والأصداف مع كل نفس.

لماذا تزور مرفأ السفن الحامل لكل السفريات عندما كان الحمل ورحلات الطيران مستحيلين للغاية؟ سيكون من الأفضل أن تستسلم، وتنسى نزهة المشي الصباحية والمسرحية التي حلمت بها، والكلمة التي لن تتجسد على المسرح لتعيد الصراعات القديمة. ما الفائدة من قراءة التخطيطات والرسائل، والتصريحات والملاحظات إذا كانت متأكدة أنها لن تكتب أبدًا مرة أخرى؟ سيكون من الأفضل أن تهجر المشروع مرة واحدة للأبد، وتتخلص من كل هذه الملفات، والدفاتر، والأظرف، وتقطع كل هذا الورق وترميه في المحيط، وتمتلك الشجاعة لتقبل أخيرًا المستحيل وتتوقف عن خداع نفسها.

إلا إذا امتلكت الشجاعة لتخاطر بمرض الدوار "فيرتيجو" الذي تعاني منه، وأن تترك التوازن مقابل الكلمة وتقايض الطريق المستقر بجهنم.

اختارت نصًا آخر كتبته وأعادت قراءته. هل الأمر يستحق أن تسقط مجددًا لتنقذه؟ وتغوص بعمق أكثر في بحر الآلام؟ وتلقي الضوء على أولئك المحرومين في المنفى، ولا يتذكرهم أحد، ولم يرغب أحد في معرفتهم؟

ألقت نظرة سريعة على الصفحات المكتوبة وهي جالسة على منحدر، فقط لترى محتواها. أظهرت بعض المشاهد تطور عزلة الزوجين "فيرا" و"ريكاردو"، بينما كانا يحاولان الحفاظ على استقلالهما، وتجنب الانضمام إلى حزب. نصب منفيين آخرين الكمائن لهما، واستغلوا أنهما كانا يقومان بتحضير تسجيلات تندد بالتعذيب. حاولوا أن يكشفوا اسمهما، ويقضوا على حياتهما بطريقة ما، حتى يضطرا إلى أن يتخلا عن حلمهما في العودة إلى البرازيل. كان الأمر كأنهم يحتاجون أكبر عدد ممكن من المنفيين ليتحملوا المنفى بصورة أفضل. لم يتحملوا فكرة أن هناك بعض الأعضاء من المجموعة غير متهمين، وأن هناك شروخًا في الأبواب تسمح لهم بالعودة. وكأنما هم الغارقون، ويحتاجون إلى أحدهم ليسحبوه معهم من رقبته حتى يغرق أيضًا.

تناول مشهد آخر الزوجين «سيرجيو» و»ديانا» بعد سنوات قليلة. كان «فيرا» و»ريكاردو» قد عادا بالفعل إلى البرازيل؛ وكانت هي تمر بباريس بصفتها سائحة وتقيم عند بعض الأصدقاء. كان لديهما شقة أفضل وبها أثاث، ووظيفة ثابتة، ووضع جيد، وطفل صغير آخر، وحياة عادية ومستقرة. كانت «ديانا» هادئة، و»فيرا» سعيدة. كانت على وشك أن تقابل «روبرتا» و»باولا» (سيكون عليها أن تغير الأسماء عندما تحولهما إلى شخصيات) اللتين أكملتا لتوهما رحلة حول العالم، رحلة طويلة بدأت في «تشيلي»، كانا يعيشان الآن في فرنسا، ولكن ما زالا خارج باريس. كانت تخبر «سيرجيو» و»ديانا» أنها ستقابل أصدقاءها قريبًا، وأنهما سيتصلان بها من المحطة عندما يصلان. كانت ردة فعلها عنيفة، وقالت شيئًا مثل: - هل أعطيتِ أحدهم رقم هاتفنا؟ عنواننا؟ لم تملكي الحق لتفعلي ذلك. من سمح لكِ؟ ماذا عن أمننا؟

كانت الخطبة حزينة وجارحة من شخص شعر بالخيانة ولم يعد يثق بأحد بعد الآن. رأى "سيرجيو" أن "فيرا" لم تخطئ إذا تحدثوا بموضوعية؛ ولكن من حق "ديانا" أن تشعر أن عشها لا يجوز انتهاكه، ومنطقة محرمة لا ينبغي على أحد أن يعرفها إذا لم ترغب في ذلك. كان الاثنان آسفين للغاية، ولكن اضطرا إلى أن يطلبا من "فيرا" أن تحزم حقائبها وترحل. فقد كانت لا تستحق ثقتهما وصداقتهما. لم تنفع المجادلة. لم يردا على أي من رسائلها، وانتقلا دون أن يخبراها إلى أين، وفُقدا للأبد، بالرغم من كل الحب والصداقة.

هل كان يستحق الأمر العزف على أوتاره مرة أخرى؟ هل كان يستحق أن تتناوله مجددًا، وتخبر عنه، وتحضره حتى يعيشه شخص آخر في المسرح؟

غرد طائر النمنمة وهو يقفز على غصن من شجرة المظلة. خرجت "لينا"، وتمشت قليلًا، وشاهدت المنظر وهي تميل على كرسي تحت ظل الشجرة. كانت مستلقاة تقريبًا، وتتأمل في ارتفاع أوراق الشجرة العالي، وتلاعب الضوء، وضربات فرشاة اللون الأخضر مع السماء الزرقاء. بدا المنظر وكأنه لوحة يُسمع لها حفيف كلما لامسها النسيم. كان عليهم أن ينظموا معرضًا لأعمال "لويس سيزاريو". كأنه يناديها، وكان عليها المساعدة. لقد وعدته بذلك. لن تساعد فقط بإعطاء المعلومات عن مكان اللوحات، ولكن ستشرف على إنتاج الكتالوجات حتى تخرج في صورة ممتازة، وستضع الفنان وأعماله في السياق المناسب. يجب عليها أن تكتب من أجل صديقها، ولكنها لم تستطع.

أصدر طائر النمنمة صوتًا آخر، لا لم يكن هو، بل كان واحدًا آخر يجيب نداء الطائر الأول بنبرة صوته المضطربة، وصدره ذي اللون الوردي البني، وقفزه دون توقف. كان رفيقه على الأرض، يفتش عن شيء في الرمال، ويقاطع نفسه ليغني مرة أخرى بعينيه الدائرية الصغيرة السوداء المقلوبة رأسًا على عقب.

اعتاد جدها أن يلقبها بـ"النمنمة الصغيرة" عندما كانت طفلة؛ لأنها كانت قليلة الحجم، ولها عينان مفعمتان بالحيوية، وبنية اللون، ولا تجلس هادئة أبدًا. كانت دائمًا تركض من جهة إلى جهة أخرى. لن يعرفها الآن؛ فقد كانت تجلس الآن وهي امرأة كبيرة تحت الشجرة نفسها التي تحدثوا تحتها مرارًا. كانت الآن امرأة انطفأت، وتحاول أن تمسح نفسها. كانت بعيدة كل البعد عن تلك الحفيدة التي كانت متشوقة لتحيا، وتصر على أن تشارك في كل شيء، حتى تلك الأشياء التي أراد الكبار الاحتفاظ بحق الفيتو بها مهما كان الثمن، مثل تلك التمشية في الغابة.

فقدت "لينا" الأمل بالفعل حين أخرج جدها ساعته بسلسلتها الذهبية من جيب حزامه الذي سماه "جرابًا". كان متجهمًا، كأنه لم يسمع المجادلة، بينما كانت تصر الفتاة على رأيها، كادت أن تبكي أمام أولاد أخوالها وخالها. تفقَّد الوقت، ووضع ظهر الساعة في كف يده اليسرى وعدلها بيده اليمنى، وأدار إبرة صغيرة إلى الخلف وإلى الأمام أعلى الدائرة الذهبية. لم يقل كلمة واحدة، ولم ينظر إلى ابنه أو أحفاده. لم ينظر سوى إلى القرص الأبيض بأرقامه الرومانية، حتى رقم أربعة الذي كتب "IIII" وليس "IV" مثلما تعلم المرء في المدرسة. شعرت "لينا" بأن هناك شيئًا على وشك الحدوث بالرغم من الصمت، كما يشعر المرء أن عاصفة صيفية على وشك الانطلاق، وباللحظات

قبل القطرات الأولى المحررة لرائحة الأرض. وانتظرت. كانت المدة على وشك أن تضاف إلى العقاب. لن يستمر أحد في المجادلة بعد أن يتكلم الجد، وسيكون عليها أن تتمنى ليلة سعيدة للجميع وتحتفظ بدموعها للمخدة والظلام. لن تعطي كل هؤلاء الرجال لذة السخرية منها وتدعهم يقولون إنها مثل الأطفال الباكية. إذا فعلت هذا، لن يدعوها تذهب معهم إلى الغابات بالطبع.

قال الرجل العجوز وهو يضع ساعته في مكانها:

- حان وقت النوم. يجب علينا الرحيل غدًا مبكرًا للغاية. وأنتِ أيضًا يا "لينا" إذا أردتِ بشدة أن تأتي معنا، يجب أن تكوني في السرير بالفعل. لن أطلب من أحد شيئًا مرتين.

كل ما استطاعت قوله وقلبها ينبض بالمشاعر هو:

- ليلة سعيدة يا خالي. فليباركك الرب يا جدي.

فقال جدها:

- فليباركك الرب يا "لينا".

تكلم جدها بجو من الرسمية كما لو أنه يعطيها حقًّا رسالة من الرب أكثر من أي قديس يعطي خطاب عظة في قداس. لم تحتج "لينا" حتى بعد ما قاله جدها إلى أن تصلي قبل النوم. خلدت إلى سريرها وهي مرتدية ملابسها حتى لا تتأخر في اليوم التالي. كل ما كانت تحتاجه هو أن ترتدي الأحذية الطويلة لتحمي قدميها من الأشواك، القراص، وأي ثعبان قد يكون ممددًا على الطريق. لم يكن طريقًا حقًّا؛ فالغابة ليس بها طرق، ولكن بها دروب، وفي بعض الأحيان لا تملك هذه أيضًا. علمها جدها بالفعل هذا الكم من المعلومات. كم كان رائعًا أن يدعها تذهب معهم! لا بد أن الخال وأولاده جلسوا هناك ووجوههم ممتعضة بعد هذه المشادة الكبيرة بشأن عدم رغبتهم في ذهابها.

قال أحدهم:

- لا أعلم ماذا ستفعلين هناك. لا يوجد شيء قد يثير اهتمامك في هذه الغابة. ستعرقلين الطريق فقط.

كانت ردة فعل خالها منذ البداية واضحة للغاية. لا يمكنها الذهاب، وهذا رأي نهائي. لم يملك أي فكرة لماذا ظلت تصر على الذهاب.

قالت "لينا":

- أريد أن أرى الغابة.

سخر منها "لويس كارلوس"، وقال:

- سنحضر لك غصنًا لتريه. أتريدين غصنًا بالأشواك أو غصنًا بعش الدبور؟

قال أحدهم:

- لا يوجد شيء يُرى. هناك غابة كثيفة، وناموس، وجو حار، وأشواك، وثعابين. لا يوجد شيء يهم فتاة.

كان خالها دائمًا عابسًا ومتناقضًا. كان من الجيد أنه كان خالها فقط وليس أباها. كان على "لينا" أن تجادل معه، بالأحرى عندما لم يتواجد أبوها. لم يؤمن خالها بأن الأطفال من حقهم أن يجادلوا، أو - كما قالها - يردوا على الكبار.

قالت "لينا":

- أريد أن أرى نفس الأشياء التي سترونها. إذا استطعتم المشى في الغابة، فلماذا لا أستطيع أنا؟ أعدكم أنني لن أعرقل الطريق.

فرد عليها:

- مشي؟ أتظنين أن الأمر مثل المشي؟ هل تظنين أن هذا فيلم مسائي عن أفريقيا؟ وأنكِ ستصادفين "طرزان" والفهد الصياد "التشيتا" وسيلعبان معك؟

ضحك الجميع، بينما قفز "زي روبيرتو" حول الغرفة، وقام بحك نفسه مقلدًا لقرد خلف "لويس ماركوس" الذي كان يصدر صرخات عالية هيسترية متقمصًا دور امرأة في محنة. ثم بدأ "كارلوس إدورادو" في الغناء، وبه الاثنان الآخران وابتسم العم "فيسنتي": "هيا نمشي في الغابة،

طالما لم يأتِ السيد ذئب،

هيا نمشي في الغابة،

طالما لم يأتِ السيد ذئب،

هل أنت بالمنزل يا سيد ذئب؟ ماذا تفعل؟

نائم؟ لدينا وقت، الكثير منه،

هيا نمشي في الغابة،

طالما لم يأتِ السيد ذئب".

ودت "لينا" لو تقفز فوق أولاد خالها وتلكمهم، وتركلهم، وتشد شعرهم حتى ولو كانوا ثلاثة. ولكنها لم تجرؤ أن تفعل هذا في هذه اللحظة أمام خالها وجدها. وعلمت أنها لو قامت بهذا، لن تذهب إلى الغابة نهائيًّا معهم في اليوم

التالي. ولهذا كان عليها أن تتحمل المبررات الحاسمة ونبرة صوت خالها "فيسنتي" القاطعة، والتي كرهتها أكثر من مضايقة أولاد خالها، وهذا لأنها لا تقدر حتى على أن تتمنى أنه في يوم ما ستستطيع أن تنتقم منه، وتهاجمه، وتلكمه، وتركله.

قال لها:

- إنه من غير الجيد يا "هيلينا ماريا" أن تذهبي معنا. هذه ليست نزهة. يجب عليَّ أنا وأبي أن نذهب لنتفقد الكاكاو في قلب الغابة. سنذهب عن طريق النهر والغابة؛ لأنه طريق مختصر، ويمكننا أن نسلكه في ساعات الصباح الأولى. ثم نعود عن طريق البر بشاحنة "سالوستيو". لدينا الكثير من العمل، والغابة خطرة؛ هذه ليست نزهة ولا لعبة أطفال.

فردت "لينا":

- إذن، كيف سيذهبون؟ إن "لويس كارلوس" في نفس عمري، ويكبرني "زي روبيرتو" بعام واحد فقط.

فقال لها:

- إنهم رجال: الأمر مختلف. يجب عليهم أن يتعلموا مبكرًا.

فردت عليه:

- على النساء أن يتعلمن أيضًا. سأتعلم. يقول جدي دائمًا إنني أتعلم كل شيء بسرعة.

علمت "لينا" أنها كانت تتحدى القواعد. ذكرت الجد لترى ما إذا كان سيتأثر ويرفع عينيه عن الأوراق حيث كان يكتب. كان يجلس على مكتبه المصنوع من خشب الماهوجني الذي عشقه، وبه كل هذه الأدراج وصناديق المراسلات التي كانت مليئة بالمفاجآت، والتي تظهر فجأة حين يرفع أحدهم الغطاء الملفوف المقوس والمنحدر من الأعلى. لم يتأثر على الإطلاق؛ وكأن الرجل العجوز ليس موجودًا بالغرفة حتى. يبدو أنه لم يستمتع بالخروج معها حين ذهب ليعاين أرضًا ما؛ يمسك بسلسلة في يد، ومزواة، ومظلة من الحرير الخفيف، وحوامل مخططة من الأحمر والأبيض، ومجموعة كبيرة من الأدوات الأخرى. علمت "لينا" أنها لم تشكل عائقًا؛ فهي تجلس في صمت في أي مكان يخبرها به، أو تبحث عن صخور جديدة لمجموعتها، أو تجمع أوراق شجر مختلفة حتى تتعلم من جدها فيما بعد. قال جدها: - هذه مسننة؛ انظري كيف تشبه أطراف المنشار. ولاحظي كيف تكبر بشكل مختلف على الساق. عندما تكون ورقة شجر واحدة بهذا الشكل، أمام الأخرى؛ فهما متقابلتان. والآن هذه أوراق متبادلة. إنتبهي يا "هيلينا ماريا" حتى لا تنسي.

انتبهت بكل ما أوتيت من قوة ملاحظة، ولم تنس. أحبت حين يسأل جدها:

- هل تعرفين عائلة هذا النبات؟ انظري بعناية.

فحصت الزهرة، وقارنتها في ذهنها بالآخرين، وتذكرت شجرة الجوافة في الفناء، وقالت: - إنه من عائلة الآسية.

ضحك، وأثنى عليها:

- جيد جدًّا يا طفلتي. إنها فرد حقيقي في عائلة الآسية. يمكنك أن تأكلي الفاكهة الآن مكافأة لكِ. إنها تسمى بـ"الأراسا"؛ جوافة حامضة وصغيرة. شعرت "لينا" بالفخر للغاية. كانت حموضة "الأراسا" تشبه العسل؛ لأنها جاءت من يدي جدها. ولم تنس اليوم الذي حصلت فيه على أسمى آيات الثناء. تعرفت لتوها على أن الخيار ينتمي إلى نفس عائلة البطيخ القرعية في حديقة الخضراوات.

انفجر الرجل العجوز ضاحكًا، وتلعثم قليلًا:

- قر-عي-ة، عظيم! نعم يا سيدتي! تتعلم حفيدتي هذه كل شيء بسرعة، وتتعلم أكثر حتى مما أعلمها. قر-عي-ة، هذه واحدة جيدة.

قام الجد في هذا اليوم بشيء لا يُنسى، وهو الذي كان يأخذها في كل مكان ويلمسها؛ وضعها على ركبتيه بعد العشاء، وقضى معها وقتًا طويلًا يلعب ويسألها عن عائلة النباتات: - ماذا عن الفاصولياء؟

فردت عليه:

- بقوليات.

فسألها:

- والأناناس؟

فأجابته:

- البروميلية.

ويعود ليسألها كل فترة كما لو أنه نسى:

- وإلى أي عائلة ينتمي البطيخ مرة أخرى؟

أجابت "لينا":

- القرعية.

ضحك، ثم ضحك، وهي نادرًا ما تراه يضحك؛ فقد كان يصرخ ضاحكًا. ثم حضنها، وربت على شعرها المموج وكان أمرًا جيدًا. كرر بسعادة إحدى الكلمات القليلة التي لم يقدر أبدًا على أن ينطقها دون تلعثم: "قر-عي-ة، هذه الآنسة الصغيرة حفيدتي تتعلم كل شيء. يا لها من سعادة أن أشهد هذا!". بينما كانت تبتسم بكل الفجوات التي تركتها أسنانها اللبنية في طور التبديل.

إذا كيف تجرَّأ الخال "فيسنتي" أن يقول إن أولاد الخال الذكور فقط يمكن أن يذهبوا إلى الغابة؛ لأنه يجب على الرجال التعلم؟ ولهذا أرسلت لجدها صرخة متخفية للمساعدة. لم يقل الرجل العجوز أي شيء في وقتها. أكمل جلوسه على المكتب، وانحنى على الأوراق، ويُعلم شيئًا بخطه المعتاد المائل لليمين. بدا أنه لم يسمع أحفاده وهم يضايقون "لينا" ويقولون: - فقط استسلمي. لن تذهبي، لمي أوراقك فقد خسرتي اللعبة.

وقال أحدهم:

- هذا ما في الأمر. إن الفتيات ضعفاء، وجبناء، وبطيئات، ولا ينفكنَّ عن التوقف، ستؤخريننا فقط.

وسأل "كارلوس إدورادو" ليستفزها:

- ستشتكين من الناموس، وتبكين بسبب خوفك من الضفادع، أو هل توقفتي عن الخوف من الضفادع؟

علمت "لينا" أنه كان من الأفضل ألا تجاوب؛ فقد كان أي شيء ستقوله سيعد مجازفة. يمكنهم أن يضعوا في فراشها ضفدعة مرة أخرى كما فعلوا الصيف الماضي.

انفجر "لويس كارلوس" قائلًا:

- بل أسوأ، سيصيبها التعب، وتتأفف، وتطلب أن نحملها. ستمشي ببطء وتؤخر الجميع.

ثم بدأ الثلاثة الغناء في كورال:

- أريدك أن تحملني! أريدك أن تحملني!

وفي هذه اللحظة، كانت "لينا" على وشك أن تستسلم وتبدأ في البكاء. ولكن قرر الجد أن ينظر في ساعته، ويرسل الجميع إلى فراشهم.

أغلقت "لينا" عينيها لفترة قصيرة وهي مستلقية ومرتدية كل ملابسها، ولم تقل حتى صلواتها. شكرت بالكاد الرب على السعادة أنها تملك مثل هذا الجد.

استيقظت على الفور مرة أخرى حين سمعت أحدهم يدق على الباب: - حان الوقت!

سمعت الصوت يتكرر على كل الأبواب وصوت جدها الجاف ينادي مرة أخرى. كانت هي أول من حضر إلى طاولة الإفطار، واستعدت تمامًا لتشرب القهوة التي أعدتها جدتها لتوها وكانت تقدمها في إبريق القهوة الأخضر اللامع مع الأزهار، والتي تماشت مع وعاء السكر والأقداح. وصل جدها بينما كانت تغمر فطيرتها المدهونة بالزبد في قهوتها. سألت الجدة استكمالًا للمحادثة التي بدأت مبكرًا: - هل أنت واثق أنه يمكنها الذهاب؟

فأجابها وهو ينظر إلى الباب كأنها إشارة:

- دعينا لا نتحدث في هذا الموضوع بعد الآن.

كان الخال "فيسنتي" وأولاد الخال قادمون. رأت الجدة إشارة الجد، وفهمتها وسكتت.

بدؤوا رحلتهم في صمت. وكانت الأجواء لا زالت مظلمة عندما غادروا وذهبوا إلى ضفة "ريو جراندي"، النهر الكبير، حيث كان ينتظرهم اثنان من السكان المحليين بقارب مجهز. اختارت "لينا" مكانًا يريحها، وجلست في أسفل القارب بالقرب من أرجل جدها، حيث جلس على المقعد وكان صامتًا للغاية. وعلى الرغم من أنها عاشت في المدينة، لم ترَ أي ألغاز هائلة في رحلات القارب تلك. جاءت كل إجازة إلى الضيعة بجانب النهر، والتي كانت في هذا الوقت صغيرة جدًّا، ولم يكن بها جسر حتى. يقيمون في المنزل بجانب الشاطئ، ولكن هناك دائمًا رحلة تستغرق أيامًا قليلة للمزرعة بداخل البلد، حيث يتفقد الكبار الكاكاو. كان من الضروري قضاء ليلة في الضيعة للوصول إلى المزرعة بعد رحلة العبَّارة، أو بالقارب في حالة ما إذا كان صف الشاحنات طويلًا للغاية، وطلب خالها من السائق أن ينتظرهم، وطلب قاربًا لنقل الأشخاص. حُفرت أشكال أخوالها على مؤخرة السفينة، مثلما يُرسم القطيع في الحظيرة، وتطرز المناشف في الحمام. كان القارب عميقًا وضيقًا، ومصنوعًا من جذع شجرة واحدة. عبر "الريو جراندي" بسرعة فائقة بسبب محركه الخارجي، وكان محملًا بالأشخاص، وفي الخلفية يتسلل شعاع الشمس خلف الغابة. يستمر القارب في حركته طوال اليوم حتى عندما تشتد الشمس؛ يتنقل بين ضفة إلى أخرى، من رصيف ميناء في الريف إلى المنحدر الأحمر الطيني أعلى وأسفل النهر، وينقل الناس من هنا إلى هناك. يحمل النساء بمظلاتهن الخفيفة اللاتي يحمين أطفالهن الجالسين في أحضانهن من الشمس. ويحمل القديس الألماني الذي يحرك مروحته، وله وجه أحمر، ورفع رداءه مما أظهر رجليه النحيلة التي ترتفع من حذائه الأسود الطويل. ويحمل

أيضًا مجموعات من العاملين؛ يمسك كلّا منهم صرة مهندمة من منشفة أطباق نظيفة للغاية، ومطرزة بغرزة السلسلة، وحروفها مصنوعة من الكروشيه. تلف تلك الصرة طبقين من الحساء حافتهما تقابل بعضهما وجهًا لوجه لتحمي الغداء الذي حضرته الزوجات في الصباح الباكر. نقل القارب أيضًا الخبير الزراعي وموظفي قسم الزراعة الذين يعملون في الضفة الأخرى في قسم الترويج للزراعة. كانوا مشغولين بالكاكاو ولا يبالون بإشعال النيران وقطع الأشجار الذي يدمي الغابة بشكل يومي ويجعلها تنزف كتلًا ضخمة من الأخشاب الصلبة. كان ما يفعلونه ضد القانون، وبمثابة النزيف المتنقل في العلن على القوارب والعربات، حمل القارب أيضًا معلمة المدرسة الابتدائية. كانت قليلة الحجم، ورفيعة، ولا تشوبها شائبة أبدًا وترتدي فستانًا منقوشًا وتضع العطر. كان القارب يحملها حتى تصل إلى مكان صنع معجزتها في تعليم الأبجدية، والقراءة، والعلوم لمجموعة من الأولاد الصغار الذين يشبهون القنافذ من كل الأعمار، متكدسين كلهم في غرفة واحدة لا يوجد بها حتى مكاتب، حيث ساعدت "لينا" فيها مرة واحدة. لعبت "لينا" دور المعلمة في يوم أصيبت فيه المعلمة الحقيقية بالتهاب الحنجرة ولم تقدر على الكلام. اكتشفت "لينا" برازيل لم تكن مذكورة في الكتب التي درستها في مدرستها الابتدائية الخاصة بها؛ فقد كانت البرازيل الماثلة أمامها لا توجد بمدارسها كتب، ولا سبورات، ولا فسحة، ولا وجبة غداء مدرسية، ولقبها الأولاد الكبار فيها بـ"السيدة هيلينا" وهي في الثامنة فقط في مقتبل عمرها، ولا تفهم شيئًا حولها.

عبروا كلهم المياه الموحلة من نهر "ريو جراندي" - الذي لا يوجد عليه جسر - في قواربهم، وحاولوا أن يوازنوا الحمل ويتوخوا الحذر حتى لا يهتز. رحب الجميع بالقارب المنقوش باحترام، واستقبل جدها وخالها التحيات بتلويحة يد واسعة، أو خلعا قبعاتهما وارتداها مرة أخرى في صمت. لم تسمع سوى صوت المحرك الخارجي، وتدفق المياه، وأصوات البحارة في بعض الأوقات يقولون أشياء من النادر أن يسمعها المرء.

تحرك القارب إلى أعلى النهر، كما لو أنه يوجد طريق سريع به، وحارات الطريق الواحد التي تمتد في اتجاهات مختلفة، ولا يصطدم أي قارب بآخر.

سيبدأ أحلى جزء من الرحلة خلال لحظة، على حد علم "لينا" على الأقل. النهر الصغير، "الريو بيكينو". لم تدخل الغابة أبدًا على قدميها، ولم تعرف ماذا ستكون عليه. ولكن كان "الريو بيكينو" إحدى الأشياء التي تشعر بالشغف تجاهها. ذهبت أعلى النهر عادة عندما يكون الوقت كافيًا، أو عندما لا توجد سيارات متوفرة بعد سفرهم الطريق كله، لأكثر من ساعتين، حتى يصلوا إلى المزارع على ضفة البحيرة الجديدة مصدر مياه النهر. أحبته "لينا" أكثر كل

مرة، وأرادت أن تدوم الرحلة حتى يظل هذا الجمال أبديًّا. لا بد أن السعادة الأبدية شيء مثل الإبحار الدائم في النهر الصغير في هذا القارب، وكانت هذه الرحلة على وشك البداية.

تقدم المركب إزاء ضفة "الريو جراندي"، ودخلت فجأة النهر الصغير. تغير كل شيء مرة واحدة. أغلقوا المحرك، وبهذا انتهى صوت "التوت-توت-توت" المستمر المصاحب لهم منذ أن دخلوا إلى المركب. اختفت القوة والسرعة مرة واحدة، لدرجة أنهم ظنوا للوهلة الأولى أنهم توقفوا. وقد فعلوا هذا بالفعل بطريقة ما، ولكن للحظة واحدة فقط حتى اعتادوا الإيقاع الجديد وبدؤوا في التجديف إزاء المياه الجديدة التي تدفقت ببطء أكثر في سريرهم الكسول، والسطحي، والضيق، والمليء بالمنحنيات المحتالة التي تطلب الانتباه الكامل من المجدفين. كان من الممكن أيضًا تشغيل المحرك على سرعة بطيئة وحذرة في مناطق أكثر عمقًا. ولكن هناك أماكن أخرى تغصب على المجدفين أن يقفوا بسبب ضفات الرمال والمجرى المعوج، وأن يدفعوا بألواح التجديف نحو الأسفل. كان الأمر كأنه أرجل رفيعة لحيوان غريب يتنقل وظهره للقاع وبطنه باتجاه الشمس ويسند نفسه إزاء الأرض ليتمايل على سطح الماء، ومثل رجل يزحف على معدته ومرفقيه، ويسكت حتى يفاجئ أحدهم.

إن النهر الصغير مليء بالألغاز والمفاجآت. أظهرت المياه الصافية الرمال الفاتحة في القاع؛ حيث يمكن للمرء أن يرى التموجات التي شكلها التيار. لم تكمن ألغاز النهر وسحره في أسرار خبأتها المياه الموحلة كما يحدث في الأنهار الرطبة الكبيرة ذات اللون الأشهب الداكن. اتخذت أسراره من شفافيته وصمته الواضح مسكنًا، وكانت زاخرة بالحياة، وتقيم بين الأرض والماء. يكمن سحر النهر في تعدد زواياه وأماكن الاختباء، وفي تلاعب الضوء والظل، وفي جذور الأشجار الضخمة التي تسند منحدرًا قد ينهار لولاها بسبب التيار. سكن السحر في بتلات شجرة البخت الأرجوانية التي سقطت ببطء على التيار، وطفت على دوامات المياه في "الريو جراندي"، وفي الجذوع الثقيلة التي استقرت في القاع المشابهة للتماسيح وتوفر أماكن اختباء للأسماك. وسكن أيضًا في جذوع الأشجار الخفيفة التي انسحبت، وكان يجب الدفع بها جانبًا على اليد المجدفين بألواحها، في النباتات المائية التي تجمعت في مستعمرات مضغوطة للغاية؛ لدرجة أنهم أصبحوا مخيفين بالرغم من جمالها المزدهر. كان الأمر كما لو أنها جزر خادعة ستحبس القارب وتقوم بشل حركته. كان جمال النهر يكمن في الأماكن حيث يأتي حيوان "الباكا" وخنزير الماء ليشربا، وحيث رأى أحدهم مرة آثار فهد، وفي القرود الصغيرة وصرخاتها الحادة في أعلى الأشجار، وفي بعض الأحيان يرمون الفاكهة من أعلى على المسافرين عبر الماء. تجلت الألغاز في غزالة بقرون ثقيلة أو

أخرى تشرب وتهرب بعيدًا مندهشة، بينما يقترب القارب، وفي مجموعات طيور "الباراكيت" والببغاء التي ملأت السماء بأصوات ضجيجها. كما تجلت أيضًا في الطيور من كل الألوان والأنواع التي تحممت عن طريق ملامستها للماء أو التي غنَّت في الغابات، وفي الأعشاش المعلقة بصورة خطيرة فوق تيار المياه، وفي كل النبتات المتسلقة التي تدلت من الأشجار فوق المياه، مثل الثعابين بين الطحلب الإسباني. كما ظهر سحره أيضًا في نبتة الدبق الاستوائية التي غطت الجزء الأعلى من الأشجار والشجيرات، وفي البروميليا الحمراء، وزهرة الأوركيد الذهبية ذات قرن البقرة، وزهرة الأوركيد بكل الألوان، وزهرة الأثمان الأبيض، وزهرة السوسن المائلة للحمرة، وكل الأزهار الموسمية التي شكلت أنفاقًا فوق النهر، والشجيرات الصغيرة المقوسة فوق المياه، وجعلت كل شخص ينحني وهو في القارب حتى يتجنبها. وُجد الجمال في الزيزيات وصريرها، والناموس وطنينه، وذباب الخيل والخنافس وطيرانهما الثقيل، واليعسوب الخفيف الذي بالكاد يلمس الماء، وفي السمك المالك للنهر والراقص في مدارس السباحة السريعة، أو الأكبر وحده باحثًا عن المياه الأكثر برودة والحماية في الظل. كانت تلك الأسماك بإمكانها أن تظل ساكنة في تيار المياه، وثابتة ضد قوة المياه بفضل حركة زعانفها المتموجة، وأن تذهب بعيدًا فجأة في حركة سريعة. لا تنتهي مفاتن النهر؛ ولم تقدر "لينا" أبدًا على تذكرها كلها. كانت كلها معًا احتفالًا بالحواس، وفريدة، ولا تقارن. استمتعت "لينا" باللعب في المياه الباردة، وتدلت أصابعها فوق الحافة، ورشت وجهها بقطرات من النهر، ونظرت، وسمعت، وشمت، وأحست على بشرتها كل ما استطاعت أن تدركه. انفصلت الفتاة عن خالها وأولاد خالها، وعن عالم الأشخاص الذين تحكموا في أفعال الآخرين وأحبطوا رغباتهم. لم تعلم بعد أن آثار النهر الصغير التي ظلت في ذاكرتها ستساعد يومًا ما في تشكيل المرأة المتحررة التي ستخلقها لنفسها. كانت "هيلينا ماريا" الصغيرة مشغولة تمامًا في هذه اللحظة بفن أن تكون سعيدة للأبد.

توقف القارب بهزة واحدة. قفز أحد المجدفين على جذع في ضفة النهر وسحب المقعد الكبير حيث كانوا جميعًا جالسين وهم مسافرون. بدأ الجميع في الحديث في الوقت نفسه: - توخَّ الحذر! تمسك جيدًا هنا!

- ادفع بلوح التجديف نحو الأرض، هناك! لا تدع التيار يحمل المركب!

- اجلس أيها الشاب!

- يا إلهي! كان هذا قريبًا!

- أسمعتني؟ اجلس! على مهل.

- أعطني هذه الحقيبة التي هناك..

- مد لي يد المساعدة؛ هيا بنا!

تم تفريغ المركب والركاب ووصلوا إلى الأرض الجافة بعد وقت قصير. دفع المجدفون القارب إلى منتصف النهر بعد وداع مختصر، وبدؤوا رحلة عودتهم إلى أسفل النهر. وقف الأب والابن على أطراف الغابة ومعهما الأربعة أطفال ورجل واحد من السكان المحليين. سيأخذون الآن طريقًا مختصرًا عبر الغابة، ويدخلون إلى مزرعة الكاكاو من الخلف. كانت هذه بداية المغامرة بالنسبة إلى الفتاة.

كانت "لينا" قد دخلت الغابة عدة مرات سابقًا مع جدها أو أبيها أو خالها وأولاد خالها. كانت تتعلم شيئًا فشيئًا القواعد الأساسية لتحديد مكانها، وتتبع موقع الشمس، وملاحظة نقاط الاستدلال، وتفسير العلامات البسيطة التي تركها المسافرون الآخرون: قطع منجل على جذع، فرع مكسور يشير إلى الاتجاه الصحيح، اثنتان من سعف النخيل المستلقية المشكلة حرف "x" ليسدوا الطريق في مفترق طرق. علمت بعض الأشياء عن كيفية المشي في الغابة بالرغم من أنها لم تذهب بمفردها أبدًا، فإنها لم تدخل إلى الغابة أبدًا.

وجدت الأمر مختلفًا تمامًا على الفور. كانت الأشجار طويلة للغاية. كان هناك عدد ضخم من النباتات المتسلقة، والمعترشة، ونبات المدادة، والجذور الهوائية المتدلية من أعلى، والطحلب الإسباني، وتشكيلة من الطفيليات وأوراق الشجر ملتفة حول جذوع الأشجار. وجدت أيضًا وفرة من الأغصان، والجذوع، والجذور، والنباتات المتسلقة "الكروم" التي أغلقت المسارات. ولكنها شعرت بطريقة ما أنها في مساحة أقل تشجيرًا من الغابة التي اعتادتها؛ هذه الغابات القوية المليئة بالقراص وكتل الشجيرات الشائكة. سألت نفسها عندما كانت أصغر ولا تزال غبية: هل كانت الفتيات أشبه بالغابات الصغيرة والأولاد أشبه بالغابات الكبيرة؟ أُغلقت الطرق أيضًا، ولكن كان التأثير مختلفًا. لم يكن الأمر مثلما حدث في قصة الجميلة النائمة التي كانت ترويها لها جدتها حينما نما الكثير من الأشواك وقطعت الطريق. كان الأمر كما لو أنه هناك مقبرة متجددة من الأشجار الأكثر قدمًا تحت هذه الأشجار الهائلة الآن، وبها أغصان سقطت، وجذوع هبطت، وأوراق شجر ماتت، وفاكهة فسدت، وفروع وقعت. كانت المقبرة تلك في الوقت نفسه حضانة، ومفقسًا، ومخزن بذور. ذابت النباتات الطرية في الأرض وتحولت إلى دبال، وتفتحت أوعية البذور وتناثرت حبوبها، وتركت الثمرة التي أكلت الدودة بذورها وتلقحت كلها، وظهرت براعمها، وامتدت إلى الأعلى لتبحث عن الضوء الذي لم يأتِ إليها بالأسفل، واحتاج إلى مجهود وإرادة عظيمين حتى تصل إليه.

تقدمت “لينا” إلى الأمام، وهي تنظر إلى الأرض وتتوخى الحذر ألا تخطو على ثعبان، أو تتعثر في جذر، أو تحتك في جذع، أو تدوس على تلة نمل. بالكاد تجرأت أن تنظر إلى الأعلى، ولم تملك سوى فكرة عامة عما كان حولها. كانت عيناها ملصقة بالأرض، وعانت في الحفاظ على سرعتها حتى لا يتركوها خلفهم، وعلى ألا تقوم بشيء خاطئ حتى لا يسخر منها أولاد الخال. وبالكاد لاحظت كل أنواع عش الغراب المختلفة، وفطر الشجرة، أو مجموعة شبكات العنكبوت بالحشرات الممسوكة بها. ثم بدأت في التعود على البيئة والشعور بالارتياح أكثر. لم يكن عليها أن تقلق بشأن المشي سريعًا؛ فقد كان الجميع يمشي ببطء؛ لأنهم كانوا يتخبطون في جزء من طريق لم يسافر عليه الكثير، وكان قد بدأ في أن يغلق مجددًا. كان من الضروري من وقت إلى آخر أن يقطعوا خلاله بمنجل، وانتظر الجميع، شاهدوا الضربات الدقيقة والفعالة للعامل في المزرعة الذي تقدم الصف. ثم جاء الجد الذي كان يمسك أحد الأغصان أو اثنين حتى لا تُجرح الفتاة التي كانت تمشي قريبًا منه وراءه. حذرها من وقت إلى الآخر، وقال: - احترسي من الحفرة!

أو:

- احذري، هناك جذع.

احترست وتجنبت العرقلة، ثم نظرت إلى الوراء حتى تمرر التحذير إلى “كارلوس إدورادو” الذي كان يمشي وراءها. ويمرر هو هذا التحذير بدوره إلى إخوته وإلى الخال “فيسنتي” الذي مشي في آخر الصف.

لم يتحدث أحد كثيرًا، وقد كان هذا ضروريًّا، فقد بدؤوا في التنفس بصعوبة. فرضت الغابة صمتها الخاص بها المصنوع من الأصوات التي لا تقف، وصرخات العصافير، وصرير الزيزيات، وهمهمة الحشرات، وطقطقة الفروع، وضوضاء الرياح الملامسة لأوراق الشجر، وصوت وقوع شيء من أعلى الشجرة. اشتد الحر أيضًا بالرغم من الظل العميق. التصق قميص المرء بجسمه، ونزل العرق من الجبهة وحرق العينين. كان الجو رطبًا، وحرارته شديدة، ومسكون بقرصات الناموس، وحشرات غير مرئية، وهاموش. لا بد أن الجميع كان حاضرًا؛ فلا يتخيل المرء أن يغيب أحد هذه الكائنات. قال الجد فجأة بسرعة في صوت منخفض بالكاد سمعته: - انظري إلى هناك، توجد زهرة “الملاعقية”.

نظرت “لينا” إلى حيث أشار، ورأت زهرة أوركيد بيضاء جميلة على فرع شجرة عالٍ للغاية. كادت أن تسأل ما إذا يمكن أن تأخذها إلى المنزل، ولكنها رأت كم كانت عالية، ورأت أنه لا يجب عليها أن تقاطع المشي. ولاحظت في اللحظة نفسها أن جدها تكلم كما لو أنه يخبرها سرًّا. خافت أن يقول خالها

وأولاد الخال إنها أرادت أن تؤخرهم من أجل قطف زهرة صغيرة سخيفة. كانت فخورة بنفسها، وتفهمت أنها كبرت في هذه اللحظة، وذلك لأنها لم تتبع اندفعاها، ولكنها استطاعت أن ترى زهرة الأوركيد البيضاء، وتعشق جمالها وتحتفظ به لنفسها، ولا تتكلم عما فكرت وشعرت به وسط الصمت العام.

مر المسار حول جذع شجرة ضخم بعد مدة. كانت الأضخم التي رأتها "لينا"، أو ستراها في حياتها. وقف جدها، ورفع ذراعه اليسرى، وقال: - توقفوا!

كان يخبرهم بأن يقفوا، ولكن ظنت الفتاة أنه من المفترض أن تنظر إلى الأعلى. أحنت رقبتها إلى الوراء ونظرت، وكادت أن تصاب بالدوار. ارتفع الجذع الضخم حتى اختفى عن الأنظار تقريبًا وسط الأشجار المتعددة. بدت كل الأشجار الكبيرة في الغابة، بضخامتها نصف ناضجة مثل المدن العادية، ومزروعة على الرصيف. لم يستطع المرء أن يراها كلها حتى؛ لأنها مغطاة بأغصان الأشجار الصغرى. توقف الجميع عاجزين عن التعبير، ونظروا إلى الأعلى. ثم قدَّم الجد المشهد، وقال: - هذه هي شجر الـ"كارينيانا"، وكأنها ملك الغابة.

ظنت "لينا" أنها كانت أكثر من مجرد ملك، بل إلهًا. لو حاول أحدهم أن يتسلقها سيصل إلى السماء. وسيستطيع أن يرى كل شيء من أعلى: الغابة كلها، والنهر الصغير، و"الريو جراندي"، والبحر، والمسافات البعيدة، وكل المدن، والطائرات الصغيرة المحلقة هناك، ومنحنى الأرض.

قال الخال "فيسنتي":

- تبدو مهيبة، مثل الكاتدرائية.

كانت تشبه القصر، والقلعة، والكاتدرائية، والكنيسة، وكل هذا وأكثر. وكانت أشعة الشمس التي نجحت في اختراق مساحة الأشجار والوصول إلى الأرض قليلة للغاية، ومحددة جدًّا، وتشكل خطوطًا مستقيمة من الضوء الباهر الذي يشبه تمامًا الرسومات في كتاب قداس صلاة المناولة الأولى التي تظهر الرب بجانب القربان المقدس.

قال الجد:

- لا يستطيع ثلاثة رجال حمل جذعها.

أخذ ثلاث خطوات إلى الأمام، واستند إلى الشجرة وذراعاه مفتوحة. فعل الخال "فيسنتي" والموظف مثله ومسكا يديه على كل جانب؛ كأنهم سيبدؤون في لعب "دائرة حول روزي" مع ملك الغابة، ولم يستطيعوا احتواء الشجرة. قال الخال مشيرًا إلى "لينا": - تعالي أنتِ أيضًا.

جاء الأطفال وتسلقوا على الجذور بصعوبة. أمسك الخال "فيسنتي" بيد "لينا" بقوة، وظنت أنه أمر جيد. كان كأنه لم يشتكِ منها أبدًا، واتخذ دور صديق يمكن أن يعتني بها. أمسك "لويس كارلوس" على الجهة الأخرى برسغ ابن خاله، وفعلت هي مثله. شعرت أنها لا تريد أن تفك هذه الدائرة أبدًا، وأن يظلوا دائمًا معًا تحت ظل "الخيكيبيتا". لم ينجحوا في تكوين دائرة حول الشجرة إلا عندما أكمل "روبيرتو" و"زي روبيرتو" الدائرة. ظل الجميع ساكنًا للحظة، وأمسكوا بأيدي بعضهم وسط حرارة الغابة يستندون على الجذع، ويقفون على الجذور، وتغرس أرجلهم في أوراق الشجر الميتة. كانوا صامتين كأنهم يصلون.

صرخ الخال "فيسنتي"، وفك السحر:

- هناك حيوان ما!

تركت كل الأيادي بعضها، وذهبوا ليكملوا مسيرتهم مثل المواطنين الأصليين ويستمروا في رحلتهم. ألقى الجد نظرة أخيرة باتجاه الشجرة قبل أن يبدؤوا في الترحال مرة أخرى، وقال شيئًا غامضًا لم تفهمه "لينا": - يجب أن تُسمى هذه الشجرة باسم "ماشادو دي أسيس".

كان هذا هو اسم مدرستها، ولم تفهم لماذا يجب أن يكون هذا اسم شجرة. لم يكن من المنطق أن تسمى شجرة مثل هذه "الفأس". لم تفهم الأمر، ولم تسأل أبدًا عن السبب. ولكنها من ناحية أخرى، لم تنس أبدًا. وعندما تذكرت فجأة التعليق وأدركت معناه، كان عليها أن تبتسم لحيل الذاكرة التي أحضرت لها رأيًا من آراء جدها دون توقع منها، والذي كان متوفى الآن. ولكن عندما سمعت ما قاله في منتصف الغابة كان بالنسبة لها لغزًا آخر في صباح مليء بالعواطف.

أكملوا رحلتهم دون كلام. بدأت "لينا" في الشعور بالتعب، وامتزجت الأحاسيس مع الاكتشافات المغمورة وسط سحر الوجود في الغابة. رأت طائرًا كبيرًا، وله صدر أصفر، وألوانه بارعة، وله خصلة طويلة من الريش على رأسه، ويقف رأسيًّا على جذع الشجرة. عرضته على جدها وقالت: - انظر يا جدي، إنه نقار الخشب.

فقال جدها:

- لا، هذا طائر الخضري، وينادونه بـ"خابو"، أو "خابيرا"، و"خابين" أيضًا. إنه ما زال صغيرًا.

انتظرت "لينا" جدها أن يقول المزيد، ويكمل المحاضرة كما جرت العادة. فعلى سبيل المثال، يقول إن الطائر غني بصوت حلو (ويقلد أحيانًا الأغنية أو

صوت التصفير)، وإذا كان يأكل الفاكهة، وإذا كان يصنع نوعًا من العش المميز. ولكن لم يقل شيئًا. بدا أن الرجل العجوز في هذا اليوم لم يرغب في الحديث كثيرًا. من الممكن أن يكون صمته بسبب أنه ليس على المرء أن يشتت انتباهه في الغابة، وربما بسبب الخال أو أولاده حتى لا يظنون أنه كان يضيع وقته يتحدث عن الأزهار الصغيرة والطيور الصغيرة مع فتاة. وجدت "لينا" الأمر غريبًا.

رفع الجد ذراعه اليسرى مرة أخرى فجأة، وصرخ:

- توقفوا!

لم تفكر "لينا" في هذه المرة في النظر إلى الأعلى؛ فقد كانت مشغولة للغاية بالنظر لما هو أمامها. كان أمامها نهر صغير، أصغر حتى من "النهر الصغير"، ويتدفق بين الصخور والأغصان أسفل الوادي، وله مياه بلورية. وقف العامل على نهاية الجسر يدوي الصنع بحذر في البداية، ثم ضغط عليه لأسفل ليختبر قوته. نجح الجسر في الاختبار، فقال: - يمكنك أن تمر يا طبيب؛ فالجذع متين.

أنذهب؟ خافت «لينا». بدا الجذع ضيقًا للغاية، ودائريًّا وأملس جدًّا. لن يستطيع سوى قرد أن يمشي عليه ولا يسقط. تدفق الغدير من تحتها، وبدا أعلى من شجرة الجوافة التي اعتادت أن تتسلقها في بستان جدها. ربما توجد هنا تماسيح، وكل هذه الصخور، والمياه المثلجة في منتصف الغابة.. شعرت برغبة في الاستسلام، وفي أن تبكي مثلًا، أو تمشي، أو أن تفعل أي شيء يخرجها من مأزق عبور هذه الهاوية على هذا الجذع.

قال الخال:

- أعتقد أنه من الأفضل أن نمشي لأعلى حتى الممر. سيكون هذا أكثر أمنًا للأطفال، خاصة مع هذه هنا. إنه من الأفضل أن نخسر بعض الوقت ونعبر من طريق آخر. أخبرتكم ألا تحضروا معنا الفتاة، ولكن بما أنها هنا فهذه هي الطريقة الوحيدة.

ارتاحت "لينا" لسماع خالها لمرة في حياتها. كان سلبيًّا مثل أي وقت مضى، وقد كرهت هذه الخصلة، ولكن أعطاها أمل ألا تضطر أن تعبر هذا الطريق.

لم يظهر على الجد - بالرغم من كل شيء - أنه سمع، كان صامتًا مثلما كان طوال الصباح، وجلس على الجذع حيث استقر على الضفة مباشرة على طرف المنحدر كما لو أنه كان على وشك أن يأخذ قسطًا من الراحة. ثم بدأ في فك رباط حذائه الطويل. هل كان من الممكن أن يكون حذاؤه أزعجه، وأنه فقط يريح قدميه؟ نظرت "لينا" إلى الأمام، ولم تملك أدنى فكرة عما سيحدث فيما بعد. انقسمت بين الخوف والفضول.

قال الجد:

- اخلعوا أحذيتكم وجواربكم.

كان الأمر شديدًا وبنبرة لم تسمح بأي أسئلة. جلست "لينا" بجانبه، وكانت حافية القدمين في دقيقة. أعطى أمرًا آخر بنفس نبرة الصوت إلى العامل: - خذ هذه إلى الجانب الآخر من أجلنا.

ثم غير جدها من نبرة صوته، واستخدم تلك النبرة التي استعملها وهو يخبرها سر حين أظهر لها زهرة الأوركيد في وقتها. التفت إلى حفيدته وقال: - لفي قدمك قليلًا، مثل عقارب الساعة عندما تشير إلى الثانية إلا دقيقتين. لا تقلقي بشأن النهر بالأسفل، ولا تنظري تحتك. تخيلي أن الجذع كله مستقر على الأرض. إن الأمر سهل للغاية، كل ما عليك فعله هو ألا تفكري في الخطر، انظري إلى حيث تخطين، وانظري أمامك حيث تريدين أن تصلي.

فتحت عينيها عن آخرها، وشعرت بدقات قلبها "كا-توك، كا-توك، كا-توك"، كما لو أنه على وشك أن يقفز من فمها أو أذنيها. ولكن امتلكت بالكاد الوقت لتفكر في أي شيء. بدأ الرجل العجوز بالفعل في عبور الجذع، باتجاه العامل الذي كان ينتظره على الجهة الأخرى ويحمل حذاءه في يديه. كانت تجازف بأن تُتْرك خلفهم بعيدة عن جدها في وسط هؤلاء الذين يضايقونها. شاهدت تحركات الرجل العجوز بعناية، ووقفت على الجذع، وفعلت نفس الشيء. وهكذا انطلقت؛ أرجلها مفتوحة قليلًا، وذراعاها على جانبيها، وتأخذ خطوة تلو الأخرى كل أربعة دقات من الطبل في قلبها "كا-توك، كا-توك، كا-توك". انطلقت بعيدًا، وبعيدًا عن أولاد خالها، واقتربت من الجد الذي ابتسم ابتسامة أوسع تحت شنبه الرفيع والرمادي كلما خطت خطوة جديدة. نظرت الفتاة إليه، وإلى وجهتها، وإلى عيني جدها الحنونة الزرقاء وراء نظارته، وسيفتح ذراعيه ليستقبل حفيدته حين تنجح في العبور. دق قلبها مرة أخرى "كا-توك، كا-توك، كا-توك"، وخطت خطوة أخرى باتجاه الرجل العجوز. كان متوترًا وضاحكًا على الجهة الأخرى من الضفة. يمكن للمرء أن يسمعه تقريبًا وهو يتنحنح بالرغم من صراخ الخال "فيسنتي" على الضفة خلفها.

قال خالها:

- لقد بالغت هذه المرة يا أبي! أنا آسف؛ ولكن هذا تصرف غير مسؤول! لن تستطيع أن تنجح. عودي على الفور يا "هيلينا ماريا". لا، لا، لا تعودي. قفي مكانك حتى يأتي أحد ويساعدك. انحني! اجلسي على الجذع، هيا رِجْل على كل جهة، هذا أسهل. هيا، يا "هيلينا ماريا"، لا تكوني عنيدة!

لقد تخطت المنتصف، ودق قلبها "كا-توك، كا-توك، كا-توك"، ومرة أخرى "كا-توك، كا-توك، كا-توك"، وكانت تعلم أين تريد أن تصل.

قال جدها:

- أحسنتِ صنعًا، يا "هيلينا ماريا"، أبليتِ بلاء حسنًا، كدتِ أن تصلي.

وفي النهاية، دق قلبها مرة أخرى "كا-توك، كا-توك، كا-توك"، وتبقى بها خطوة واحدة، وقفزة صغيرة، وشبه ركضة لتصل إلى حضن جدها الذي عانقها، وقال لتوه: - أحببت أن أرى ما فعلتيه. والآن، ارتدي حذاءك ذا الرقبة الطويلة.

قال العامل:

- هذه الفتاة مختلفة، أليس كذلك يا طبيب؟

لم يتلق ردًّا على تعليقه. كان الرجل العجوز قد انحنى بالفعل، ويرتدي حذاءه ذا الرقبة الطويلة بجانب حفيدته. لم يرفع رأسه حتى ليرى سبب البكاء والصراخ المرتبك الكثير على الضفة الأخرى. حاولت "لينا" ألا تنظر أيضًا، ولكن لم تتمكن من ذلك. حاولت ألا تفضح نفسها، تفقدت الأمر ورأت أن "كارلوس إدورادو" أصر على العبور مباشرة، ولم يرغب إخوته في ذلك. كان الخال يعطي أوامر متناقضة، ثم صرخ أخيرًا قائلًا: - كفى. لقد قررت. سنعبر من هنا. سأذهب أولًا وستشاهدونني، وترون كيفية العبور.

ولكن مع هذا استغرق عبورهم وقتًا. كانت "لينا" وجَدُّها جاهزين، وواقفين بجانب العامل، ومنتظرين، بينما استمرت المجادلات والتردد في الضفة الأخرى.

أشار جدها، وقال:

- انظري يا "هيلينا ماريا"، ها هي زهرة أوركيد أخرى. هذه تدعى "ليليا"، هل تريدين أن تأخذيها معكِ؟ يمكننا أن نقطفها.

لم يكن عليها أن تجاوب حقًّا؛ فقد تحدثت اللمعة في عينيها بالنيابة عنها. مد يده فوقه، وفصل بعناية النبات الذي كان ينمو على فرع الشجرة فوق رأسه بقليل. أكمل، وكان متحمسًا، وأظهر في يديه كومة الجذور، والأوراق السمينة، والثلاث زهرات ذات اللون الأرجواني الفاتح وبها قليل من اللون الوردي والأرجواني الداكن في المنتصف. قال لها: - انظري بعناية، إن هذه الزهرة هوائية؛ وهذا يعني أنها تنمو على غصن شجرة. ولكنها ليست طفيلية؛ فهي لا تتغذى على لحاء نبات آخر. إن الجذور هوائية تأخذ الغذاء التي تحتاجه من الهواء.

قالت الفتاة وقد سحرها جمال الزهرة:

- إن البتلات رائعة.

فسر الرجل العجوز الأمر قائلًا:

- ليست كلها بتلات. لا تملك زهرة الأوركيد إلا ثلاث بتلات، هاتان الاثنتان وهذه الواحدة في المنتصف التي تم تعديلها، وتلتف حول الأعضاء التناسلية، وتسمى "الشفة". أما الثلاث الأخريات التي تشبه البتلات فهي في الحقيقة "كأس الزهرة"؛ لأن في زهرات الأوركيد تتفتح الكأس، وتأخذ لون البتلات نفسه.

قالت "لينا" وهي تستمتع بالكلمة:

- شفة.

كانت الكلمة جميلة، ومن السهل تذكرها.

أكمل جدها:

- انظري هنا، انظري بعناية. هناك هذا العامود بداخل الشفة، وهو العضو المسؤول عن التناسل. انظري كم هو طويل وضيق. إن طائر الطنان هو المسؤول الأمثل للتلقيح بسبب شكل العامود. ولهذا فإن زهرة الأوركيد وطائر الطنان يتعايشان مع بعضهما جيدًا في هذه الغابة.

كان العبور يبدأ على الضفة الأخرى. عبروا جميعًا في صف واحد مثل القطار. ها قد أتوا الأربعة، يصعدون القطعة الخشبية، ويمسكون بالجذع كأن حياتهم تعتمد عليه، ويدفعون بأنفسهم بأيديهم، ساعدوا أنفسهم بأيديهم وتقدمت مؤخراتهم ببطء. وصل "كارلوس إدورادو" أولًا، ثم إخوته، ثم الخال "فيسنتي" في آخر الصف. ولكن بالكاد تأملت "لينا" المشهد. أعطي الجد ظهره بالفعل للغدير، وقال: - هيا بنا.

مشوا لمسافة قليلة في المسار، واحدًا تلو الآخر. كان هذه المرة الرجل العجوز، والفتاة، والعامل. تم ترك الآخرين وراءهم. أفسحت الغابة بعد قليل مكانًا لمزرعة الكاكاو المظللة بالأشجار العظيمة التي تبقت من الغابة. لم يُتِح المشهد في مستوى العين التنوع المعقد نفسه بعد الآن: الفاكهة الذهبية الملتصقة بالجذع، وأوراق الشجر الوردية الجديدة، والظل المحمود، والرائحة الطيبة، والسجادة الأنعم في العالم المصنوعة من طبقات أوراق الشجر الجافة وطبقات أكثر رطوبة ومتحللة. أبطأ الجد من خطوته في الوقت الذي توسع المسار، وترك الفتاة تلحق به. أعطاها زهرة الأوركيد، وقال: - خذيها. اطلبي مساعدة أمك عندما نعود إلى المنزل، وسنربط "الليليا" لشجرة ما في الحديقة. يجب حتى ألا تكون شجرة كبيرة، ربما شجرة "سيدة الليل" بجانب البوابة الأمامية. وبهذا ستحتفظين بذكرى من يومنا هذا.

احتضنت "لينا" زهرة الأوركيد بذراعها اليمنى، كما لو أنها تحتضن جروًا أو عروسة بحزم وعناية. شعرت بيدها اليسرى داخل يد جدها المتشابكة، وذات العروق الزرقاء، والجلد الرفيع. كان الاثنان يمشيان معًا يدًا بيد، وبينهما ستون عامًا، ويخطوان على أوراق الكاكاو الناعمة. مررت الفتاة زهرة "الليليا" الملونة على خدها؛ تذكار من هذا اليوم كما لو أنها تحتاجه، وكما لو أن هناك خطرًا أن تنساه. وكما لو أن هذه الذكرى لن تعيش بعد جدها، والأوركيد، وشجرة "سيدة الليل"، والحديقة حيث زرعوها. ستعيش أكثر من مزرعة الكاكاو، والغابة، والجسر الخشبي. وستعيش حتى أطول من "الخيكيبيتا" بكل رونقها وقدسيتها التي لم تكن قادرة على فرض الاحترام على الحروق التي دمرت الحياة وصنعت حقول المواشي، حيث اختفت زهور الأوركيد وطيور الطنان. لم يأتِ حيوان "الباكا" وخنزير الماء بعد الآن للشرب، ولم يستحم الغزال بعد الآن، وغيرت الأنهار الصغيرة من مجاريها التي عرفها بها الناس في ذكرياتهم، واستوطنت قلوبهم. روت أصوات القلوب "كا-توك، كا-توك، كا-توك" كلماتهم في الوقت الذي كانت ما تزال موجودة فيه. كانت الكلمات رقيقة، وتتوازن على القطعة الخشبية، وبسيطة للغاية، وسهلة. كل ما عليك فعله أن تنظر أين تضع قدمك "كا-توك، كا-توك، كا-توك" وتعرف وجهة وصولك.

كان طائر النمنمة "كامباكسيرا" ما يزال يغرد أعلى الشجرة. انتابت "لينا" قشعريرة. أصبح الجو باردًا في الظل، وتفاعلت بشرتها مع الرياح الأقوى التي هزت أغصان شجرة المظلة. شعرت برغبة في اختبار اللامعقول مثل شاعر رومانسي يمر بشجاعة في ليلة عاصفة. رغبت في استشارة العرافات، وأن تفك شفرات التكهنات في رحلات طيران العصافير، أو في الرياح الموجودة في شجرة المظلة الخاصة بها. قدمت نفسها أضحية. طلبت علامة؛ ورقة شجرة ميتة تطير حولها، أو حفيف غصن، أو فرعًا يقع عليها. ولكن كان النسيم ما زال ضعيفًا بالرغم من أنه كان أكثر انتعاشًا. أوقعت الشجرة القليل من البتلات الصغيرة والبيضاء على حجرها. هل كانت هذه الإجابة؟ علامة؟ لا يوجد طريقة للتأكد. قاطعتها "أماليا"، ونادت عليها قائلة: - تعالي يا طفلتي، تعالي اشربي قهوتك. إن الجو بدأ في أن يصبح باردًا.

جلس صف من زجاجات أدويتها الصغيرة على الطاولة وانتظرها أيضًا. وقررت فجأة؛ أوقفت جرعاتها جميعًا في صمت، ودون أن تقول أي شيء لأمها. قررت أن تجازف بكل شيء حتى النهاية، وأن تعود إلى المنزل؛ منزلها. قررت أن تقع في ركنها الخاص في المرة القادمة التي تقع فيها وقريبة من الطبيب الذي وعدها باحتواء حالتها، وقريبة من "ألونسو" إذا رغب في ذلك، أو من دونه، مهما كانت الحالة. كل ما قالته هو: - متى الطائرة القادمة لعودتي؟

فأجابت "أماليا" وهي متفاجئة نوعًا ما:

- في العاشرة.

فسألتها "لينا":

- هل يمكنك الاتصال وترين ما إذا كان هناك مقعد متاح بينما أحزم حقائبي؟

وقد فعلا هذا. وضعت كل الأوراق في أسفل حقيبتها، وملابسها القليلة في الأعلى. كانت مستعدة خلال لحظة. نظرت "أماليا" إليها عن قرب بينما كانت توصد باب المنزل، وقالت: - ولكن هل ستذهبين في حالتك هذه؟ يبدو هذا غريبًا جدًّا.

فسألت "لينا":

- لماذا؟

فردت "أماليا":

- شعرك به بعض التراب، وذرات شيء ما. دعيني أضع نظارتي..

ثم قالت لها:

- اذهبي لتمشطي شعرك يا "لينا". إن رأسك مغطى بالأزهار من شجرة المظلة.

فأجابت "لينا" بنصف ابتسامة:

- اتركيه، فأنا أشعر في الداخل بحالة الأزهار نفسها.

أدارت ظهرها للمنزل الذي وقف هنا صامدًا تزينه أشعة الشمس. رفعت حقيبتها لكتفها، ومشت إلى السيارة التي ستأخذها إلى المطار وهي تعرج قليلًا. ويستمر القلب بمنتهى البساطة، والسلاسة "كا-توك، كا-توك، كا-توك". كل ما عليك فعله هو أن تنظر إلى مكان خطوتك. "كا-توك، كا-توك، كا-توك". وتعرف أين وجهة وصولك.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(تمت بحمد الله وتوفيقه)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـــــاة

الفهرس..

1
2
3
4
5
6
7
8
9
10
11
12
13
14
15

Notes

[←1]

(1) بداية النشيد الذي يخلد ذكرى تأسيس الجمهورية ونهاية الإمبراطورية البرازيلية في عام ١٨٨٩.

[←2]

(2) "كوروميم" كلمة هندية تعني "الطفل". تستخدم الكلمة في البرازيل دومًا كمصطلح يدل على العاطفة تجاه الطفل.